الجزء الثالث — المجلد الحادي والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العربي

١ تموز سنة ١٩٥٦ — ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٧٥

مع حافظ ابراهيم

يوم الخميس في ١٨ آذار سنة ١٩٢٦ و ٤ رمضان سنة ١٣٤٤

كنت ضيفاً عند صديقي حسين بك الحسيني في حلوان ، فقال لي : يسكن بالقرب منا حافظ ابراهيم ، وقد أخبرته بأنك ضيف عندنا ، وسيأتي الليلة للسلام عليك . وجلسنا بعد الإفطار (والوقت رمضان) نتحدث بشعر حافظ ، وكان في المجلس معنا شيخ بعمامة بيضاء اسمه الشيخ محمد رأفت . ولم يمض زمن طويل حتى سمعنا من الفسحة المؤدية الى غرفة الاستقبال كلاماً بصوتٍ عالٍ ، فقال صاحب الدار : هذا حافظ بك ، ولم يكد يتم كلامه حتى دخل حافظ ابراهيم وسلّم ، ووقع نظره على الشيخ الذي لم يكن بعيداً من الباب ، فقال له وهو واقف : أأنت هنا يا شيخ ؟ وتهذر ؟ أما كنت الشامي بالسجع والجناس وأريته براعة المصريين ؟ ثم دنا مني وصافحني وجلس بجانبي . وهو طويل مستقيم القامة ضخم الأعضاء أسمر اللون خفيف شعر الرأس والشاربين ،

يغلب عليه الشيب وتبدو على وجهه ملامح الإجهاد والتعب ، يضع على عينيه نظارة منوطة بأذنيه ، تبدو من خلفها عينان صغيرتان ظاهر على انسانيهما وجفونهما أثر الكلال ، ولبسه حسن من غير تنوق ، ولا يكاد السيكار يقع من بين إصبعيه .

جلس وبيده عصا غليظة يقرع بها الأرض أثناء كلامه وقال لصاحب الدار : أكرم ضيفك يا حسين ، أين الشاي ، أسرعوا بالقهوة ، هاتوا الخلطة (نوع من الأفاويه السائلة تضاف الى الشاي والقهوة كالعنبر أو الزعفران) ، أين السكاير ؟ لماذا لم تأت بضيفك وتأكلوا عندي ؛ ثم التفت إليّ وقال : لا بد من أن تأكل عندي ، قل لي ماذا تريد أن أصنعه لك من الطعام ، قلت : الفول المدمس ، فقال : الله الله أأنت أتيت الى مصر لتأكل المدمس ، قلت أشكرك على كل حال فأنا مسافر غداً ، قال : ما يصح .

ودخل على اثر حافظ فتى بدين حسن الوجه أبيض اللون مشرب بحمرة ، سمعتهم يدعونه بالسيد علي ، فجلس غير بعيد من الباب .

كان مجلس حافظ بجانبي ويليه صاحب الدار وكان بيده ديوان حافظ ، فقال له : كنا نقرأ شعرك قبل أن تأتي . فقال حافظ : ليس في الجزء الأول من الديوان شيء ، وفي الجزء الثاني والثالث أشياء حسنة منها : (غادة اليابان) :

لا تلم كفي إذا السيف نبا صح مني العزم والدهر أبى

ورثاء الشيخ محمد عبده :

سلامٌ على الإسلام بعد محمدٍ سلامٌ على أيامه النضراتِ

و (الأمتان تتصافحان) :

لمصر أم لربوع الشام تنتسبُ هنا العلى وهناك المجد والحسب

و (زلزال مسينا) :

نبئاني إن كنتما تعلمان ما دهى الكون أيها الفرقدان

و (رأس السنة الهجرية) :

لي فيك حين بدا سناك وأشرقا أمل سألت الله أن يتحققا

وأشباه هذه ، ولقد نظمت قصيدة جديدة أعددتها ليوم افتتاح الجامعة . فقال له الحسيني : أسمعنا إياها . فأجاب : ادفع الفلوس حتى تسمع ، كل شيء له ثمن .

قلت : وإذا سألتك أنا أن تنشدنا . . . .

قال : هيهات ، لا أنشد إلا بالفلوس .

قلت : ماذا عسى يعطيك رجل مهاجر منكوب .

قال : وأنا منكوب في بلدي .

قلت : فاجعل الثمن نسيئة .

قال : من لي بالوفاء ؟ ولكن أراني أضرب في حديد بارد ، كل شيء تغير في هذه الحياة ، كان الأمير في الماضي يقول : من في الباب من الشعراء ؟ أفيقول الشاعر اليوم : من في الباب من البكوات ؟ وعلى كل حال فان أبيتم إلا منعاً فأنا أعطي .

ثم أنشد مختارات من شعره ، منها قصيدة زلزال مسينا وكان شديد الإعجاب بهذا البيت منها :

خسفت ثم أغرقت ثم بادت قضي الأمر كله في ثوان

أنشده فخوراً وقال : بيت واحد أحاط بما منيت به مسينا ، وهو على شدة إيجازه قد صور الفاجعة تصويراً كاملاً .

ثم أنشد أبياتاً من قصيدة في مظاهرة للسيدات كانت سنة ١٩١٩ أولها :

خرج الغواني يحتججـــن ورحت أرقب جمعهنه

ومنهـا :

وإذا بجيش مقبـل والخيل مطلقة الأعنه

وإذا الجنود سيوفها قد صُوبت لنحورهنه
وإذا المدافع والبنا دق والصوارم والأسنه
والخيل والفرسان قد ضربت نطاقاً حولهنه
والورد والريحان في ذاك النهار سلاحهنه
فتطاحن الجيشان ما عاتٍ تشيب لها الأجنه
فتضعضع النسوان والنسوان ليس لهن مُنّه
فليهنأ الجيش الفخو ر بنصره وبكسرهنه

وقال : لم أدفع هذه القصيدة الى صحيفة من الصحف ، ولم أقل إنها لي ، ولكن رواها الناس وتناشدوها وعرفوا أنها لي لأنه — كما قال لي أحد الإخوان — لا يقول مثل هذه القصيدة في مثل هذا المقام ويختار لها هذا الوزن وهذه القافية إلا من كان واسع الرواية للشعر مطلعاً على تفنن الشعراء في اختيار الأوزان الملائمة لمعانيها . ألم تطلع على هذه القصيدة ؟

قلت : (مْبَلَى) [1] وكأنه لم يسمع الميم الساكنة في أولها .

فقال بصوت أجش : اسمع العربي الفصيح يا حسين ، قال (بلى) ولم يقل (نعم) في جواب هذا الاستفهام المسبوق بالنفي ، ولو قال (نعم) لانعكس المعنى . فقلت في نفسي : رمية من غير رام .

ثم قال : وقصيدتي بتهنئة الملك فؤاد بعيد جلوسه فيها أبيات حسنة منها :

واضرب بسوط البأس أعطاف الزمان إذا استبدا

والملك فؤاد لو قال له قائل في أيام الخديوي عباس إنك ستكون مكانه لظن أنه يسخر منه ، ولكن هكذا الدنيا تخفض وترفع .

قلت : من الرفش الى العرش .

---

(١) هي (بلى) ولكن الدماشقة يزيدون في أولها ميماً ساكنة في كلامهم ولا يلتزمون الدقة في استعمالها .

فاستعاده وأعاده وقال : أهذا مثل ؟ يعجبني هذا المثل ، وجعله وسيلة للتندر على الملك فؤاد فقال : استدعى الملك في إحدى زياراته للاسكندرية قائد خفر السواحل وبدأ يوصيه وينبهه ، فكان مما قاله له : «خذ بالك ... إياك ... مهربين ... كوكائين ... سيف الدين[1] ...»

ولم يطل في إنشاد شعره بل عاد الى الحديث وكان يسرع في كلامه ، ويكاد يتكلم بيديه ورأسه وعينيه ، حلو الألفاظ ، يميل الى الدعابة والمزاح وإيراد النكات ، ولا يتأثم من التصريح بذكر ما يكنى عنه .

واسع الرواية للشعر والنثر ، يعتد بنفسه ، فخور بجيد شعره ، يدعي أنه أول من نظم الشعر الاجتماعي ، ولا ينكر أن له أشياء كثيرة من سخيف الشعر وسفسافه يدعوها (الشعر التجاري) ويدعي أنه كان يحفظ مائة الف بيت من جيد الشعر ، ولكن لم يبق منها في حفظه الآن إلا نصفها . يقدس المولدين من فحول الشعراء كبشار بن برد ومن أتى بعده ممن هو في طبقته ، مفتون ببلاغة العرب ، يجاهر بعجز المعاصرين عن إدراك شأوهم في التأدية والأساليب ويقول نحن عيال عليهم ، ولكنه لا يستسيغ الشعر الجاهلي . ويتندر على العويص منه كما يتندر على اللين والركيك من الشعر المنثور .

تكلم حافظ كثيراً ولا سبيل لتدوين كل ما قال ، وإنما أثبت خلاصة حديثه . ذكر من الشعراء بشار بن برد وأبا نواس ومسلم بن الوليد وأبا تمام الطائي والبحتري والمتنبي والشريف الرضي وأبا العلاء المعري ومهيار الديلمي . فقرظ بشاراً كثيراً وروى من شعره . وأطنب في مدح أبي نواس وقال انه أطبع الناس على الشعر وهو أشعر الناس صاحياً ولكن قلما يصحو (ابن الكلب) وروى من شعره ، وكان شديد الإعجاب بقوله :

---

(١) سيف الدين : ابن عم الملك فؤاد كان اختلف وإياه قبل أن يتصب ملكاً فأطلق سيف الدين عليه الرصاص فأصابته رصاصة في عنقه فلم تقتله ولكن بقي يسعل من أثرها ، وفر سيف الدين من مصر .

أخذتُ بحبلٍ من حبال محمدٍ   أمنتُ به من طارق الحدثانِ

تغطيتُ من دهري بظل جناحه   فعيني ترى دهري وليس يراني

وأثنى على صريع الغواني مسلم بن الوليد ورفع كثيراً من قدر أبي تمام الطائي وأشاد بذكره وقال : « إنه شاعر العظائم وقصيدته في فتح عمورية :

السيف أصدق أنباءً من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعبِ

كلها غرر وكلها عيون وما فيها بيت ساقط وليس للعرب مثلها » . ووقف وأنشد طائفة منها . ثم قال اذا سما أبو تمام فلا يدانيه أحد ، ولكن لم يخل شعره من السخيف . وروى له بيتاً هو :

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن   يرضى المؤمل منك إلا بالرضا

ودعاه بالشعر الأزهري وتلاه على طريقة المشايخ في الأزهر ، فقد كان يكرر الشطر وهو يقبل بصدره الى الأمام وينأى بظهره الى الوراء ويقول : ظاهر ؟

فلما أتى على ذكر البحتري قال لي : من تفضل من الشعراء الثلاثة ، أبا تمام أم البحتري أم المتنبي ؟ قلت البحتري ، قال أنت شاعر والشعراء يفضلون البحتري ، البحتري سيد المطبوعين وأقدر الشعراء على حسن التأدية ، وشعره من السهل الممتنع . إذا تلوتُ شعره ظننتني أقعد في حضنه أداعبه ويداعبني وأفهم عنه ويفهم عني ، بل أحيط بما في نفسه كما يحيط بما في نفسي ، وهو يعطيك من المعنى بالرفق واللطف ، ما يعطيكه سواه بالعنجهية والعجرفة ولهجة الآمر أو الأستاذ شأن المتنبي ، والبحتري لا يأبه للتشبيهات والاستعارات ، بل يحدث عن ذات نفسه بلا كلفة ولا عناء ، وهذا هو الشعر ، والعجيب أنني لم أفقه ذلك إلا بعد أن بلغت من العمر خمساً وأربعين سنة ، أنا اليوم ابن أربع وخمسين سنة ، وقد قضيت عمري في الشعر ، روايةً وقولاً ولم أحط بهذه الحقيقة إلا منذ عشر سنين ، عجيب غريب ... اسمع قول البحتري :

نظرتُ إلى طدان فقلت ليلى هناك ، وأين ليلى من طدانِ
ودونَ لقائها إيجاف شهرٍ وسبعٍ للمطايا أو ثمانِ
تصوبت البـلاد بنا إليكم وغنّى بالإياب الحاديانِ

هذا هو الشعر . واسمع هذين البيتين المنسوبين لابن سينا في ولده :

ولي واحدٌ مثـل فرخ القطا فيحنو عليّ وأحنو عليـه
لقد تعب الشوق ما بيننـا فمنه إليّ ومني اليـه

أنا أموت في مثل هذه الرقة ، هذا والله هو الشعر .

وأنشد لفتاة أعرابية قولها تشكو لأمها ريبة لحتها في نظر محبوبها :

ورابني منه أني لا أزال أرى في طرفه قصراً عني إذا نظرا

فكان يقوم ويقعد ويتواجد ويقول « يابت كب[1] ، رحتِ في داهيـة ، جالك البلى ، كنتِ تحبين فتى كالسي علي » .

وكان يترنح طرباً ويهتز جميعه .

أما قول امرئ القيس :

اذا ما الثريا في السماء تعرضتْ تعرض أثناء الوشاح المفصل

فأنا لا أفهمه كما اني لا أفهم قول مي :

« نامت الشمس وأرخى الشفق سدوله ولفقت حواشي السحب بخيوط الذهب والفضة وماجت في الأفق بحيرات الياقوت وبرك الزمرد .... »

ثم تناول المتنبي فقال : « أنا أحترم المتنبي كثيراً وأجله ، وإذا سمعته يقول :

الرأي قبل شجاعة الشجعانِ هو أولٌ وهي المحل الثاني

وقفتُ بين يديه وزررت معطفي ووضعت يدي على جبيني وقلت نعم صدقت . ألست ترى ان هذا البيت هو خطة حربية يلقيهـا القائد الاكبر على قواده

(١) يريد (يا بنت الكلب) كما يلفظها المصريون .

ورجاله ، نعم أنا أنحني أمام عظمة المتنبي ولكني أقول إنه لم يوفّق الى ما وفق اليه البحتري من السلاسة والطلاوة والسهولة وحسن الديباجة . انظر كم يستعمل المتنبي ذا وذي في شعره ، فهو أكثر الشعراء استعمالاً لها ، ولقد كان محمود سامي البارودي رحمه الله يقول لي : كأن المتنبي انكليزي لكثرة ما يتوكأ على ذا وذي .

أما الشريف الرضي فتستخفني رقته وانسجامه كما تبهرني قوته وإحكامه . أية فريدة تلك المرثية التي يقول في مطلعها :

مناعِ الشيخ لا حامٍ ولا راعِ مضى الردى بطويل الرمح والباعِ

وقد حاولت أن أجاريه في رثائي للشيخ محمد عبده . فنظمت المطلع من هذا البحر وعلى هذا الروي ثم انقطعت ولم أقو على الاستمرار ، ولكن الله أعانني ونظمت التائية :

سلامٌ على الإسلام بعد محمدٍ سلامٌ على أيامه النضراتِ

وهي من الغرر .

على أنني لا أرتاح لقصيدة الشريف الرضي التي يرثي بها أبا اسحق الصابي ويقول :

أعلمتَ من حملوا على الأعوادِ أرأيت كيف خبا ضياء النادي

الشريف الرضي كان يطمح الى الخلافة ، دخل عليه مرة فتى حسن الوجه مثل السيد علي (أفاهم أنت يا مي علي) وقبل يد الشريف فقال أبياتاً دعني أمثل لك الشريف في عظمته وزهوه وتيهه وأنشدها ، وهنا رفع حافظ رأسه وصعر خده ونظر شزراً وقبض أصابعه وأنشد برفق وتأن وصوت خافت :

ومقبِّلٍ كفي وددتُ بأنه أوما الى شفتيَّ بالتقبيل
جاذبته فضل العتاب وبيننا كبر الملول ورقة المملول
جذلان ينفض من فروج قميصه أعطاف غصن البانة المطلول

وتلميذ الشريف الرضي مهيار الديلمي تعجبني رقته ، دعني أنشدك شيئاً من شعره بلهجته الفارسية . واندفع ينشد وكأنه فارسي ينشد شعراً عربياً :

آه على الرقة في خدودها لو أنها تسري إلى فؤادها
بالبان لي دين على ماطلة يميس غصن البان في أبرادها
سلطت الوجد على جوانحي تسلط الخلف على ميعادها

وأنشد أيضاً من شعر مهيار :

أيا صاحبي أين وجه الصبا ح وأين غدٌ صف لعيني غدا
أسدوا مسارح ليل العرا ق أم صبغوا فجره أسودا

وأعاد البيت الثاني غير مرة ماداً كلتا يديه ومحركاً أصابعه ثم قال : ولكنني لا أقدر أن أجد في شعر مهيار من الرقيق البارع أكثر من مائتي بيت .

ثم قال : وأبو العلاء المعري ، حفظت في حداثتي من شعره ديوان سقط الزند . أما فلسفته فمبثوثة في اللزوميات ، ولقد كان يمجد الخالق ويشك في النبوات وينتقد الشرائع ويعرض بموسى ومحمد دون عيسى عليهم السلام ، لأنه يرى أن موسى ومحمداً طال عمرهما فأتيح لهما أن يعملا ما شاءا أن يعملا ، أما عيسى فهو صغير السن ولم يعمل شيئاً ، وانما انتقد أبو العلاء من جاء بعد المسيح من الأحبار الذين ألَّهوه .

* * *

وانتقل حافظ من الشعراء الى المنشئين ، فذكر ابن المقفع وبراعة إنشائه فأطنب في مدحه وقال: أعدت قراءة كتاب كليلة ودمنة مرات كثيرة ، أكثر من مائة مرة .

ثم ذكر الجاحظ فقرظه كثيراً وتلا فقراً من كلامه وروى عنه نوادر مستملحة ، وكذلك قرظ أبا الفرج الاصبهاني صاحب الأغاني وقال : انه قرأ

الأغاني مرات واستظهر الكثير مما فيه من الشعر وقال : إن إنشاء أبي الفرج غاية في الحسن والجودة ومحال أن يستبدل الانسان من إنشائه كلمة بكلمة . وحدث عن الصاحب بن عباد وما كان من كرمه وجوده ، وقص شيئاً من ملحه وطرفه .

وروى فقرة لاسحق الموصلي لم يبق في ذهني منها إلا قوله (أجد نغزاً في قلبي) قال: كنت مستلقياً على سريري وبيدي كتاب أقرأ فيه ، فلما مررت بهذه الجملة حفزني حافز ألقاني عن سريري فما وجدت نفسي إلا قائماً أرقص لحسن هذه الجملة الخلابة .

ثم نال من القاضي الفاضل وعاب أسلوبه في الانشاء وتعمله فيه ، وأنحى باللوم كثيراً على سجع العماد الاصفهاني الكاتب وتكلفه . قلت لعلك تعني سجعه في كتابه « الفتح القسي في الفتح القدسي » قال : حفظت مائة ألف بيت وأنا عاجز عن حفظ مثل هذا الاسم .

وانتقل الى التحدث عن شوقي فأطال الكلام وانتقده انتقاداً لاذعاً وغمزه ولمزه وخلط الهزل بالجد وتندر عليه وشهد له في النهاية بالشاعرية المنقطعة النظير .

عاب كثيراً من شعره ونعى عليه أسلوبه وذم ألفاظه وسخر من تنطعه ، قال : ما رأيت أحداً يكثر من الدعوة الى مكارم الأخلاق كشوقي وهو الذي يقضي ليله طائفاً حوالي مواطن الريبة ومتنقلاً في عربات الترام .

بماذا يفسر قوله للخديوي عباس من قصيدة يمدحه بهـا :

أنا من ملكت فؤاده فافعل به ما أنت فاعلْ

أما قصيدته في بيروت فقد كشف الله بها عن حقيقة أمره في سوء مذهبه واضطراب قوافيه ، فبينما هو يقول في بيت : (عرفته)[1] يقول في بيت آخر

(١) إشارة الى البيت :

فازورَّ غضباناً وأعرض نافراً حالٍ من الغيد الملاح عرفته

(ملكوته)[1] ولا تسل عن مكارم الأخلاق حين يحدث عن أحور[2] بكفية وكيف زحمه .

وقصيدته في دمشق ، ما أشد تنطعه حين يقول :

لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت ببني العباس بغدانُ

فمن أي معجم استدعى كلمة بغدان وفي أي ديوان وقع عليها وفي أي قاموس غاص حتى استخرجها هل رأيت شاعراً استعملها في شعره ؟ ليست البلاغة في استعمال المهجور من الألفاظ ، فأنا أحفظ من متن اللغة مالم يقرأه شوقي ، ولا أستعمل في شعري إلا كل مأنوس قريب من الفهم ، فما قيمة الشعر إذا احتاج سامعه أن يرجع الى دواوين اللغة .

وما أعجب لشيء كعجبي لأهل الشام في غلوهم بالاحتفاء به ومبالغتهم في تكريمه ؛ وفي قصائدهم التي قالوها فيه ما هو أحسن من قصيدته . قلت ما أظن ذلك . قال : كذا كما أقول لك ؛ ولكن قل لي كيف أنشد شوقي قصيدته ؟ قلت أنشدها غيره وقعد هو بجانب المنشد . قال أف له من جبان ألكن ، لو كنت في دمشق بتلك الحفلة لأريتكم كيف يكون إنشاد الشعر ؛ ليس في مصر من يدانيني في الالقاء ، فاذا أنشدت الشعر في حفل أقمت وأقعدت وفعلت بالألباب ما شئت ، وكم شهد لي بذلك سعد زغلول .

قلت كان الشاميون يتوقعون زيارتك لهم ، ولو فعلت لاحتفلوا بك كثيراً . قال وهل يعرفونني ؟ قلت كيف لا يعرفونك ، وأكثر أدبائهم ومتأدبيهم

---

(١) إشارة الى البيت :

لبنان والخلد اختراع الله لم يوسم بأزين منهما ملكوته

(٢) إشارة الى قوله :

وأغن احور من مها بكفية علقت محاجره دمي وعلقته
دخل الكنيسة فارتقبت فلم يطل فأتيت دون طريقه فزحمته

يروون شعرك ، قال ويحبونني ؟ قلت نعم . فتهلل وجهه وقال : كنت ناوياً زيارة الشام في الصيف الماضي ، ولكن لما ذهب شوقي عدلت ، لم يكتف شوقي بالذهاب الى الشام وحده حتى استصحب معه محمد عبد الوهاب ، وكان هناك أحمد زكي باشا المسهب المكثار ، والدكتور محجوب ثابت وأمره معروف مشهور ، فكيف أدخل الشام ما دام هؤلاء فيها ، وما أدري ما قال أهل الشام عنهم ، ولكن لا بد لي من زيارة الشام في الصيف المقبل مع حسين بك .

ثم عاد الى نقد شعر شوقي فقال : يقول شوقي :

ألخون اسماعيل في أبنائه ولقد وُلدتُ بباب اسماعيلا

كيف رضي لنفسه أن تلده أمه بالباب ، ولو كان هذا الأمر حقيقة لوجب كتمانه ، فكيف والحال هنا كناية عن أنه ربيب نعمة اسماعيل .

ويقول شوقي :

سلامٌ من صبا بردى أرقُّ ودمعٌ لا يكفكف يا دمشقُ

والصبا الريح الشرقية وهي في دمشق ليست من الرياح الطيبة .

ويقول :

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا وفاز بالحق من لم يأله طلبا

وهل الراحة الكبرى غير الموت .

ويقول :

أنا من بدل بالكتب الصحابا لم أجد لي وافياً إلا الكتابا

وهو يريد أنه أخذ الكتب وترك الصحاب فاستعمل العكس لأنه لا يعرف أن الباء تدخل على المتروك .

ولقد أغري هذا الرجل بكلمة (قم) واختارها مطلعاً لكثير من قصائده كأنها (حتم) ، منها قوله :

قم سليمان بساط الريح قاما ملك القوم من الجو الزماما

قم تاج أهرام الجلال وناد هل من بنائك مجلس أو ناد

قم حي هـذي النيرات حي الحسان الخيرات

قم حي أنقرة وقل يهنيك ملك بنيت على سيوف بنيك

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم أحداث وأزمان

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

قم في فم الدنيا وحي الأزهرا وانثر على سمع الزمان الجوهرا

فأي شاعر ارتكب مثل هذا ؟ قال لي محمد المويلحي : أخبرني كيف يقوم الانسان في فم الدنيا ويحيي الأزهر أهكذا ؟ ووضع حافظ سبابته معترضة في فمه بعد أن فغره .

لقد طبع شوقي الجزء الأول من ديوانه وقد ورد فيه من (قم) الشيء الكثير . أما جبريل فقد ردد ذكره سبع عشرة مرة منها قوله :

جبريل هلل في السماء وكبر واكتب ثواب المحسنين وسطر

جبريل أنت هدى السما . وأنت برهان العنايه

ولا تسل عن عيسى ، فما تكاد تخلو قصيدة في شعر شوقي من ذكره ، نعم أنا أومن بنبوة عيسى وموسى وسائر الأنبياء كما أومن بمحمد ولكنني أكتفي بمحمد وبما جاء به من الهدي .

يظن شوقي انه أمن عادية النقد في ديوانه وإظهار مساويه والتشهير بسفسافه بعد أن رشا أرباب الصحف ، فقد نظم قصيدة في رثاء ابن حسين هيكل رئيس تحرير السياسة أولها :

الضلوع تتقدُ والدموع تطردُ

وأخرى في تقريظ كتاب فتح مصر الحديث لحافظ عوض صاحب كوكب الشرق وهي التي غلط في مطلعها فقال :

أنا من بدل بالكتب الصحابا لم أجد لي وافياً إلا الكتابا

أما صاحب الكشكول فهو من حزبه . ولكن ما يصنع بالعقاد الذي أخذ أهبته وأعد عدته لنقد الديوان نقداً قاسياً لا مراعاة فيه ، وقد أزمع على أن يقدم بين يدي النقد فصلاً في حياة شوقي وهو إذا فعل فقد أصبح شوقي وديوانه هباءً منثورا .

وهنا عطف حافظ على العقاد والمازني والدكتور طه حسين فقال : العقاد كاتب مليح ألم تقرأ له شيئاً ؟ قلت : قرأت له الفصول ومطالعات ، قال هما كتابان جيدان . وأما المزني (المازني) فذاك سبّاب وأنا لا آبه له في كل ما انتقدني به وأخذه عليّ ، يكثر من الانتقاد ويعتبر الصواب خطأً ، وسبب ذلك قلة بضاعته من المعرفة ، فكل ما لم يحط به علمه يعتبره خطأً ، وما أقل ما يعلمه وأكثر ما يجهله ، وهكذا يكون هذا النوع من الناس ، يسرعون الى التخطئة لأن معرفتهم قليلة هزيلة ؛ فاذا أضيف الى ذلك سوء النية مثل صاحبه أقبح تمثيل . وكل نقد يوجه اليّ على تلك الطريقة أضعه تحت قدمي فأعلو به . وأما طه حسين فأسلوب عجيب ، اسمع اذا شئت : « تنكرون أن القضية هي قضية ، ولكم رأيكم في أنها ليست قضية ، ولنا رأينا في أنها قضية ، وانما نريد أن نتكلم من حيث أنها قضية ... » والحق إنه جاحظ هذا العصر في مقدرته وقوة طبعه ومطاوعة القول له وطول نفسه ، والحرب التي تدور رحاها الآن بينه وبين الرافعي من أجل الشعر الجاهلي شغلُ الصحف والنوادي الأدبية ، والذي يطيل عمر هذه الحرب أن طه حسين معها.

هدر وهدد وتوعد وحشر ونادى لم يسمعه الرافعي ، وأن الرافعي معها أرغى وأزبد وبرق وأرعد وصال وجال ولوّح بسيفه وهز برمحه لم ينظر طه حسين إليه ، والذي يعجبني من الرافعي أسلوبه العربي الخالص .

ثم عاد الى شوقي فقال : « ما قلته في شوقي وشعره قليل من كثير ، ولكنه بالرغم من كل ذلك شاعر عظيم ، ولقد شاء القدر أن يقرن اسمي باسمه ، فما يذكر شوقي إلا ذكر حافظ ، وما يذكر حافظ إلا ذكر شوقي ، كالنعل وشراكها والقبقاب وسيره ، ولئن أخطأ في بعض شعره فلم يخل شاعر من الخطأ ، أذكر من أغلاطي في اللغة قولي في مطلع قصيدة لي بذكرى شكسبير .

يحييك من أرض الكنانة شاعرٌ شغوفٌ بقول العبقريين مغرمُ

فليس في العربية شغوف (وكنت أظنها صحيحة) بل مشغوف . ولم يظهر لي ذلك إلا بعد أن تليت القصيدة في الاحتفال الذي أقيم في بلاد الانكليز لمرور ثلاثمائة سنة على وفاة شكسبير وبعد أن نشرت في الصحف بزمن طويل .

على أن لشوقي من الإحسان ما يمحو له كل سيئة ، من ذلك أن له بيتين وددت لو كانا لي بنصف ديواني ، قلت ما هما ؟ قال قوله في قصيدته (ذكرى كارنافون) :

أفضى إلى ختم الزمان ففضه وحبا إلى التاريخ في محرابه
وطوى القرون القهقرى حتى أتى فرعون بين طعامه وشرابه

ثم ذكر الشيخ محمد عبده فأثنى عليه وامتدح سيرته وحسن أخلاقه وعلمه وبلاغته وصحة ذوقه في الأدب قال : كنت والشيخ محمد عبده نجري في ليلة على قارب في النيل وكان أحد النوتية يغني (حار الفراش بهم للآن ما ناموا) فقال لي الشيخ : يا حافظ خذ هذا المعنى وانظمه فانه حسن . فنظمته في بيت من قصيدة :

حار الفراش بنا مما نكابده وضاق صدر الليالي عن تشكينا

ثم نظمته أيضاً في قصيدة ثانية وزدت عليه فقلت :

حار الفراش وحرت فيه فأتيا تحت الظلام معذب ومؤرّق

قال وكان الشيخ رحمه الله إذا استحسن شيئاً من شعري قال (مش بطال) لم يزدني على درجة (مش بطال) شيئاً .

وقال : سمرت ليلة مع الشيخ وبت عنده ، فلما كان الفجر قام الشيخ وتوضأ وصلى وطلعت الشمس وانتظر طويلاً حتى استيقظت ، فلما دخلت عليه قال لي : يا حافظ لم أتمكن على طول صحبتك لي من إصلاحك ، ولم تقدر على إفسادي .

ثم أتى على ذكر خليل مطران فلم ينله بسوء وقال : انه شاعر أديب وروى له فقرة بليغة من النثر ، ولما رآني استحسنت معناها قال : انه أخذ هذا المعنى من فيكتور هوغو ، ثم روى له مقطوعة من الشعر أولها :

أنا لا أخاف ولا أرجّي فرسي مهيئة وسرجي

وقرظها وقال : قلت لخليل مطران ضع (خرجي) مكان (سرجي) لأنك متى قلت «فرسي مهيئة» علم بالضرورة أن السرج فوقها ، وإلا فما معنى تهيئة الفرس ، وخرج كلمة صحيحة فصيحة .

وعلى ذكر خليل مطران ، اختلفنا مرة في أينا أجمل وبعبارة أصح في أينا أقبح من الآخر ، فكنت أدعي أنني أجمل منه وهو أقبح مني ، وكان يزعم عكس ذلك ، وطال الخلاف بيننا حتى اتفقنا على أن نحتكم الى اسمعيل صبري باشا ونقبل بما يحكم به . فذهبنا اليه وشرحنا له دعوانا ، وبعد أن استقصى في سؤال كل منا عما يدعيه لنفسه وعلى خصمه ، وبعد أن أطال النظر في وجه كل منا ، أعلن ختام المحاكمة وأصدر حكمه بقوله : «حافظ ابراهيم أجمل قرد ، وخليل مطران أقبح إنسان» فانصرفنا وعند كل واحد منا أنه حكم له على

صاحبه ، فانا أقول ان الحكم لي وهو يزعم أن الحكم له وما زلنا مختلفين في تفسير الحكم الى الآن . فما تقول أنت ، هل حكم لي أم عليّ ؟

قلت : بل حكم لك .

فقال : أصبت ، لأنه لما قال : « أجمل قرد » وصفني بالجمال على كل حال ، في حين وصف المطران بالقبح .

ثم سألني عن شعراء الشام وهل فيهم من يعادل شعراء مصر ، قلت : انهم يقدمونكم على أنفسهم ويعتبرونكم أئمة . ولكن عندنا من المنشئين من ليسوا دون منشئيكم . قال : مثل من ؟ قلت : مثل شكيب أرسلان ومحمد كرد علي قال : صحيح .

ثم قال لي : من هو الشاعر الشامي الذي ألقى قصيدة في الحفلة التي عقدت لخليل مطران بالقاهرة وقال في مطلعها :

لمشت الى الأهرام أرض الشام لو تستطيع جوى الى الأهرام

قلت شبلي الملاط ، قال هو شاعر ، ولكن ما أبشع ذاك المطلع .

ثم قال والشاعر الذي كان عندنا منذ سنة ؟ قلت لعلك تعني الزهاوي ، قال نعم . قلت ذاك عراقي وليس بشامي ، قال كله واحد . قلت لقد رأيت الزهاوي بدمشق بعد عودته من مصر واجداً في نفسه عاتباً عليك لأنك لم تزره . قال نعم ، الشعر الذي نشره عندنا ليس بذاك ، فضلاً عما فيه من الزندقة والإلحاد ، وهل في شرع الذوق والأدب أن يجيء الضيف مدينة إسلامية كالقاهرة بمحاربة الإيمان ومظاهرة الإلحاد ؟ لك أن تقول : في مصر أيضاً من يجاهر بالالحاد ويدعو اليه ، وجريدة السياسة ميدان يتبارى فيه دعاة الإلحاد ، وصاحبها حسين هيكل ينفخ في بوق الإلحاد ، تهاجم هذه الجريدة الإسلام في أصوله وأركانه ، والمسلمين في سننهم وعاداتهم ، وتدعو الى نبذ

كل ما هو شرقي والأخذ بكل ما هو غربي ، حملت منذ مدة هذه الجريدة على الطربوش ودعت الى لبس البرنيطة ، ولبسها أحد محرري الجريدة . نعم ذاك أمر تافه ولا يضر الإسلام في جوهره شيئاً ، ولكن الفلاح المصري لا يفهم من لبس البرنيطة إلا ترك الإسلام ، وليس من مصلحتنا أن نجعل هذه الملايين من الفلاحين تعتقد أننا تركنا الإسلام . ونعود الى الزهاوي ، لم أزره لأنني كنت أيضاً غير مالك صحتي ، قلت : هذه إضافة زائدة . قال ماذا أصنع ، قلما تعتدل صحتي ، ولقد خلصت بمثل هذه المعذرة من رثاء سليم سركيس الذي أقيمت له حفلة تأبين منذ بضعة أيام .

وانتقل الى عبد المحسن الكاظمي فقال : شاعر قوي البديهة ولكنه منذ نزل مصر وقف حيث هو ولم يماش الزمن .

وروى بيتين للسيد توفيق البكري وقرظها كثيراً ولكنه قال ان معناهما مأخوذ وذكر المأخذ .

وبعد أن طال السمر وانقضى أكثر الليل ودخل وقت السحور ، نهض حافظ وقال: لا بأس وإن طال السهر فان تحت التراب نوماً طويلاً .

ثم قال لي : ألا تزال مصراً على السفر ؟ قلت سأسافر الى الاسكندرية يوم غد إن شاء الله . قال سنراك هناك قريباً باذن الله ولعل ذلك يكون في العيد .

خليل مردم بك

الشعر الأندلسي

من أكبر مميزات الشعر الأندلسي التي تطالعنا عند بحثه أولاً ، أنه شعر حضري لا جاهلية له . وليس يشبهه في ذلك شعر قطر من الأقطار العربية . حتى العراق الذي بذ الأندلس في الحضارة نجد في شعره أثارة من هذه الجاهلية لا تخفى على الناقد البصير . أما في الألفاظ فانها تكاد تلمس ، وأما في المعاني فان رواسب من أفكار شعراء الجاهلية لا تفتأ تطفو حيناً بعد حين على صفحة هذا الشعر الرقراق الذي قيل - ويقال حتى الآن - عند ضفاف الرافدين .

ولعل مرجع ذلك في البلاد العربية الى جساوة في الطباع ، وقساوة في البقاع ، فان الاقليم في الشرق ، ولو في العراق ، غيره في الغرب ولا سيما الأندلس . والمزاج يتكيف بتكيف الاقليم رقة وغلاظة ، وليناً وشدة ، ما في ذلك شك . وقد كان شعراء العراق كغيرهم ، يخرجون الى البادية ، فيتنقلون في القبائل لأخذ اللغة عن أربابها ، وتعلم الفصاحة من أصحابها ، كما نرى في ترجمة المتنبي والبحتري وأضرابهما ، فلزمتهم هذه البداوة وظهر أثرها في شعرهم . وأين هي هذه البادية من شعراء الأندلس الذين ولدوا في بحبوحة الحضارة ونشأوا في غضارة الترف ، فولد الشعر معهم ونشأ حضرياً مترفاً .

ومن بدا منهم كابن عبدون فانما قصاراه من البداوة المظهر الذي غرّ الوزير أبا بكر بن زهر[1] ، وأما المخبر ، فانه الذي انجلى عن قصيدة :

« الدهر يفجع بعد العين بالأثر »

---

(١) انظر حكايته معه في المعجب للمراكشي .

وأما هؤلاء الشعراء الذين طرأوا مع الفتح من مثل أبي الخطار الكلابي والصميل بن حاتم فانهم وان كانوا يذهبون في شعرهم مذهب أهل الجاهلية ، فاننا لا نعدهم بحال من شعراء الأندلس ؛ لأنهم لم ينشأوا فيها ولم يشتهروا بشعر كثير فيؤثروا فيمن أتى بعدهم ، فبقي الشعر الاندلسي مصوناً من عنجهية البدو ، لا جاهلية له مطلقاً .

ولقد استمر الحال بعد الفتح على ما يقتضيه طور التمهيد والتنظيم من الانصراف عن شؤون الأدب والشعر الى أن قدم عبد الرحمن الداخل ، أي نحواً من ٤٦ سنة . وحينئذ انفسح المجال أمام شعراء الأندلس للتحليق في جو « الصقر »[1] الذي التى الى النخلة بهذه النفثة السحرية :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة   تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
نقلت شبيهي في التغرب والنوى   وطول اكتآبي عن بنيّ وعن أهلي

ومن ذلك اليوم تحدد موقع الشعر في الجزيرة ، فمن الوجهة الاجتماعية كان الأمير المنشئ للدولة المؤثل لمجد الاسلام شاعراً يعبر عن عواطفه بشعر بليغ ونظم رقيق ، فلم يستنكف من أتى بعده من الشعراء أن ينسجوا على منواله في تعاطي الشعر وحب الأدب حتى كان كل أمراء بني أمية وخلفائهم تقريباً شعراء . وكذا ملوك الطوائف الذين خلفوهم من بعد ، والناس على دين ملوكهم كما يقال ، فقامت للشعر دولة ببلاد الاندلس لم يكن له مثلها بالبلاد الأخرى . وبينما كان « الشعر بالعلماء يزرى » في المشرق كما أتى في بيت للشافعي رحمه الله[2] ، كان العلماء في الأندلس يتسابقون لنظم الشعر ويتباهون بمعرفته ، ولا يعدون العالم كاملاً إلا إذا شارك في علوم الأدب بأوفر نصيب[3] .

---

(١) يلقب عبد الرحمن الداخل بصقر قريش .

(٢) وهو قوله :

ولولا الشعر بالعلماء يزري   لكنت اليوم أشعر من لبيد

(٣) انظر الرافعي ، ص ٢٨٥ تاريخ آداب العرب ج ٣

ولهذه المكانة التي كانت له في النفوس كثرت رغبة الناس فيه ، وصار طلبة الخاصة والعامة ، حتى قيل في مدينة شلب ان قليلاً من أهلها من لا يقول الشعر ، ولو مررت بالفلاح في فدانه وسألته عن الشعر قرض في الحال ما اقترحته عليه[1] .

ومن الوجهة الأدبية ، فان الشعر في الأندلس لم يكن رجعاً لصدى الشعراء القدماء ولا طبعاً على الروامم (الكليشيات) المعهودة ، فان عبد الرحمن لما كان فريداً غريباً في بلاد غير بلاده ورأى النخلة في موطن غير موطنها أشبه شيء به ، هاجت شاعريته ونطق بذلك الشعر الذي عبر عن ذات نفسه ، ولم يكن صنعة ولا زوراً من القول ، فلفت نظر الشعراء بعده الى هذه الطبيعة البديعة ، أو قل ان هذه الطبيعة التي أنطقته ، لفتت نظارهم الى جمالها الفتان وسحرها العجيب فقالوا فيها ما شاءوا وتفننوا ما أرادوا .

ومن ثم كان أكثر شعرهم في الوصف والتصوير ولا سيما لمظاهر الطبيعة من الرياض والأزهار ، والجبال والأنهار ، والسحاب والأمطار ، حتى عدّ ابن خفاجة أكثر وصّاف الطبيعة وأحسنهم قولاً فيها ، وألف أبو الوليد الحميري من أدبائهم كتاباً كاملاً من شعرهم في نعت الرياحين والزهور سماه « البديع في وصف الربيع » وهو ممن عاش في أول القرن الرابع ، فما بالك بما قيل بعده في هذا الصدد ؟

ولعل أول شاعر أندلسي يمثل بروحه الخفيفة وأدبه المرح ، هـذا المحيط الحضري الرائق الذي نشأ فيه الشعر الأندلسي ، هو يحيى الغزال المتوفى حوالي سنة ٢٥٠ ، وشعره مرآة صادقة لنفسه الطروب ؛ وقد كان ذهب سفيراً الى بلاد الروم فأعجب به الملك والملكة أيما اعجاب لفرط أدبه وجماله ، وجرت له مع الملكة محاورات جميلة ، وقال في ذلك أشعاراً لطيفة .

(١) ياقوت في معجم البلدان .

ثم يأتي بعده أديب الأندلس أحمد بن عبد ربه مؤلف كتاب «العقد» المعروف، وكان الجو الأدبي بالأندلس يزداد صفاءً كل يوم فلذلك جاء شعره ينفح بعطر الحضارة ويكاد يشرب من رقته وعذوبته ، وهو ان ألّف لقومه أدب المشارقة ، فقد أعطى لهؤلاء نماذج من أدب الأندلس في مقطوعاته البديعة التي ضمنها كتابه الفريد . ولئن قال الصاحب ابن عباد في العقد لما وقف عليه، « هذه بضاعتنا ردت الينا » فلقد قال المتنبي في صاحب العقد ، « ايه يابن عبد ربه، لقد تأتيك العراق حبوا » وذلك عندما سمع أبياته العديمة النظير :

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقا ورشا بتقطيع القلوب رفيقا
ما ان رأيت ولا سمعت بمثله دراً يعود من الحياة عقيقا
واذا نظرت الى محاسن وجهه ألفيت وجهاً في سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقا[1]

وقد كان هذان الأديبان هما طرفا الأدب في القرن الثالث[2] وذكرهما يغني عن ذكر غيرهما .

فلما دخل القرن الرابع دخلت الأندلس معه في عصرها الذهبي ، حيث بلغ التمدن بها أوجه تحت حكم الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم والمنصور ابن أبي عامر فانتشرت العلوم والفنون ، وارتقى المستوى الفكري غاية لم يصلها من قبل .

وفي هذا العصر كان التعليم قد عم سائر الطبقات ، فقلما تجد انساناً لا يعرف القراءة والكتابة ، والرجال والنساء في ذلك سواء[3] واذا عمّ التعليم بهذه الصفة تنبهت المشاعر وتهذبت الأذواق ونشطت الحركة الأدبية من عقالها وتقدمت

(١) المقري في نفح الطيب ج ٤ ص ٢١٨
(٢) الرافعي في تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ٢٧٥
(٣) دوزي في كتابه الاسلام الاسباني .

أشواطاً بعيدة في ميدان الابتكار والتجديد ، لأن الأمة التي نضجت أفكارها لا تقبل من الانتاج إلا ما كان حرياً بالقبول . وكان من أثر هذا النضج الأدبي اختراع الموشحات التي صارت زينة الشعر العربي ، وهي هدية المغرب الى المشرق التي تقبلها بكامل السرور وسنتكلم عنها فيما بعد .

وقد أظل هذا العصر كبار شعراء الأندلس من مثل أبي القاسم بن هانئ وابن درّاج القسطلي والرمادي ، وناهيك بهؤلاء الثلاثة .

فأما ابن هانئ فهو الذي يقال له متنبئ المغرب ، عاش عيشة الاستهتار حتى تألب عليه أهل بلدة اشبيلية وخرج منها ولحق بالعدوة فلقي الخليفة المعز الفاطمي ومدحه فحظي عنده وكان يريد استصحابه الى مصر ، فمات مختضراً في عنفوان الشباب نتيجة اسرافه في السكر والمجون .

ولما بلغت وفاته المعز أسف عليه وقال : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك . وكان يذهب في شعره مذاهب شتى من التفلسف والاستخفاف بالدين ونقد المجتمع . وله أسلوب متين وعبارة جزلة ، واشتهر بحسن التشبيه وإجادة الوصف . ومن جيد شعره قوله :

أليلتنا إذ أرسلت وارداً وحفا ... وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شنفا
وبات لنا ساق يقوم على الدّجا ... بشمعة صبح لا تقط ولا تطفا
أغن غضيض خفف اللين قده ... وثقلت الصهباء أجفانه الوطفا
ولم يبق ارعاش المدام له يداً ... ولم يبق اعنات التثني له عطفا

الى آخرها وهي قصيدة شهيرة .

وأما ابن دراج فقال فيه الشقندي : انه شاعر الأندلس . وقال الثعالبي : هو بالصقع الأندلسي كالمتنبي بصقع الشام ، وكان شاعر الدولة العامرية غير مدافع ، وتأخر به الزمان الى أوائل القرن الخامس ، وأدرك ملوك الطوائف . وله القصيدة الرائية الرائعة التي عارض بها أبا نواس فأربى عليه ، وفيها يقول :

ألم تعلمي أن الثواء هو التوى ... وأن بيوت العاجزين قبور
وان خطيرات المهالك ضمن ... لراكبها ان الجزاء خطير

وأما الرمادي فهو يوسف بن هرون الكندي . كان معاصراً للمتنبي ، وكان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون : فتح الشعر بكندة ، وختم بكندة ، يعنون امرأ القيس في الافتتاح لأنه من كندة على ما هو معروف ، والمتنبي والرمادي في الاختتام لانتسابهما معاً في كندة [1] . وكان شاعر الحكم المستنصر واختص بالحاجب المصحفي فأصابه شرر النكبة التي أنزلها المنصور ابن أبي عامر بالحاجب المذكور ، وله من قصيدة هذه الأبيات البليغة .

في أي جارحة أصون معذبي ... سلمت من التعذيب والتنكيل
ان قلت في عيني فثم مدامعي ... أو قلت في قلبي فثم غليلي
لكن جعلت له المسامع موضعاً ... وحجبتها عن عذل كل عذول

واذا تخطينا عتبة القرن الرابع الى الخامس ، عصر ملوك الطوائف ، وجدنا أن هيبة الخلافة الأموية وعزة سلطانها وان زالا معها فان مجدها الأدبي بقي متمثلاً في عدة عواصم بعد أن كان محصوراً في قرطبة ... فهذه اشبيلية وفيها بنو عباد أصبحت تنافس قرطبة وتجاذبها رداء الفخار في هذا المضمار ، وهذه طليطلة ـ وفيها بنو ذي النون ـ وسرقسطة ـ وفيها بنو هود ـ وبطليوس ـ وفيها بنو الأفطس ـ وغرناطة ـ وفيها بنو زيري ـ والمرية ـ وفيها بنو صادح ـ ومالقة ـ وفيها بنو حمود ـ في كل منها بلاط حافل بأهل العلم والأدب وملوك يتسابقون الى الحصول على المشاهير من الكتاب والشعراء (فما كان أعظم مباهاتهم إلا قول : العالم الفلاني عند الملك الفلاني ، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني) [2] .

(١) ابن خلكان

(٢) الشقندي في رسالة المفاضلة بين الأندلس والمغرب .

واذا كانت قرطبة قد احتجنت في عهد الخلافة الأموية سائر أهل الكفاءات الأدبية ، فقد أديلت منها هذه العواصم الأخرى ، وكان ذلك في صالح العلم والأدب حيث ان ازدحام البلاط القرطبي بأهل الفضل والنبل كان لا يدع مجالاً للناشئين والوافدين من غير أهل الشهرة . وحسبك بما وقع لصاعد في أيام المنصور بن أبي عامر وما قاساه من مكائد المنافسين له . وأما الآن فان الأديب أصبح بالخيار على زمنه ، وحكمه نافذ على أميره ، لأنه اذا آنس اهمالاً أو تضييعاً سرعان ما يتحول الى حيث العز والكرامة في بلاط آخر . وعلى كل حال فان هذا التنافس قد أبرز من الملكات ما كان خفياً ، ومن الشخصيات ما لولاه لكان نسياً منسيا ، وبذلك كانت الحياة الأدبية في هذا العصر أزهى وأزهر منها في كل عصر آخر من عصور العرب في الأندلس ، فان عدد الشعراء الذين نبغوا في هذا العصر لا يكاد يأتي عليه الاحصاء .

وكانت الظاهرة الأدبية الغالبة على أدبائه ومثقفيه بل وفقهائه وعلمائه هي الشعر . . فلا تجد عالماً ولا فقيهاً فضلاً عن أديب لا يتعاطى الشعر ولا ينظم منه شيئاً ولو قليلاً . وقد طغى ذلك على ما عند بعض العلماء فكانت صفته الشعرية أبرز جوانب حياته أو على الأقل تجد جانب الشعر من حياته يتكافأ مع جانب العلم ، كما نرى في أبي بكر بن باجة الذي عرف للعالم بكونه أديباً موهوباً وشاعراً بليغاً كما عرف بكونه فيلسوفاً وطبيباً وموسيقياً ونباتياً بارعاً في الجميع . وكم له من نظير بين العلماء وبين الفقهاء . وقد ترجم الفتح في «القلائد» و « المطمح » لكثير من العلماء وما اعتبر فيهم إلا الناحية الأدبية والشعرية كأنها هي المقصودة بالذات وما زاد عليها فانما هو فضل وتافلة من القول والعمل .

واذا ذهبنا نعرض أسماء الشعراء البارزين في هذا العصر نجد في طليعتهم أبا الوليد بن زيدون الذي يطلق عليه بحتري المغرب [1] لرقة ديباجته وتفننه

(١) ابن بسام الذخيرة ج ل س ٣٢٦

في ضروب الشعر . وحقيقة فانه اذا كان ابن هانيء كالمتنبي يعتمد في إثارة الشعور على إظهار القوة باصطناع الألفاظ الجزلة وتجسيم الأحداث الخطيرة مع تحكيم العقل فيما يعرض من وقائع الحياة ، فان ابن زيدون كالبحتري انما يعتمد على الناحية الوجدانية فلا ضوضاء ولا جلبة وانما هي معان جميلة وصور محرية لهواجس النفس وأحاسيس الضمير في ألفاظ رقراقة كالثمرة الناضجة تتدفق مائية وحلاوة . فقارئه اذا كان متفتق الذهن مرهف الحس يشعر كأنه ينطق بلسانه ويعبر عن ذات نفسه ، لأنه يمتزج به امتزاجاً ويهيم معه في أودية الخيال الفسيحة فلا ينتبه لنفسه إلا إذا انتبه الشاعر ، فرجع من رحلته وأفاق من غيبوبته .

ويكفي أن يستعرض الباحث قصيدته الفريدة التي يقولها في التشوق الى حبيبته ولادة بنت المستكفي ليرى حسن الافتنان في الوصف وجمال التصوير للعواطف ورقة الشعور في الحب ، وهي القصيدة التي لم يقل - مع طولها - في التشبيب أرق منها [1] فبعد أن يفتتحها بوصف حاله في البعد وشكوى الزمان في التفريق بينه وبين حبيبته فيقول :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا، فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سوداً ، وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا غصون الأنس دانية ... قطوفها ، فجنينا منه ما شينا
ليسق عهدكم ، عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

(١) القلقشندي

يقول في وصفها ونشأتها الارستوقراطية وتوصله اليها بكفاءة المودة :

وبيت ملك كأن الله أنشأه　　مسكاً وقد أنشأ الله الورى طينا
أو صاغه ورقاً محضاً وتوجه　　من ناصع التبر ابداعاً وتحسينا
إذا تأود آدته رفاهيــة　　تدمي العقول وأدمته البرى لينا
كأنما نبتت في صحن وجنته　　زهر الكواكب تعويذاً وتزيينا
ما ضر ان لم نكن أكفاءه شرفاً　　وفي المودة كاف من تكافينا

ويطول بنا الحال اذا تتبعنا ما فيها من عيون الأبيات وفرائد المعاني . وقد ولد ابن زيدون في قرطبة في أعقاب الدولة الأموية ولكنه لم ينبغ ولم يشتهر إلا بعد انقراضها . وخدم ابن جهور في قرطبة والمعتضد بن عباد في اشبيلية ثم ولده المعتمد وزين له غزو قرطبة فملكها . وكان يلقب بذي الوزارتين ، وبلغ في علو القدر ورفعة الشان ما لم يبلغه أديب غيره . وتعشق ولادة بنت المستكفي وكانت أديبة شاعرة إلا ان الوزير ابن عبدون كان ينافسه في حبها واستأثر بها دونه وكاد له بسبب ذلك مكائد . وتوفي عام ٤٦٣ .

وكان ابن عبدون عند بني الأفطس في بطليوس كابن زيدون عند بني عباد باشبيلية ، وهو نظيره في الأدب والشعر . وسيّر في رثاء مواليه لما دالت دولتهم على يد المرابطين قصيدته الخالدة التي يقول فيها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر　　فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك منصحة　　عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وان أبدى مسالمة　　والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه　　يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا يغرنك من دنياك نومتها　　فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالي ـ أقال الله عثرتنا　　من الليالي ـ وخانتها يد الغير

في كل حين لما في كل جارحة … منا جراح وان زاغت عن النظر
تسرُّ بالتي ، لكن كي تغرَّ به … كالأيم ثار الى الجاني من الزهر

... وقد ذكر فيها مصارع الملوك وعظماء الرجال الى زمنه ، ثم بكى بني الأفطس بما لم يبك به شاعر دولة . ومن أبياتها الفذة هذا البيت الذي عبَّر فيه عن عَلَوية في براءة عُلوية :

وليتها إذ فدت عمراً بخارجة … فدت عليًّا بما شاءت من البشر

ويقول بعده مشككاً في اغتيال الحسن بن علي بما هو أبلغ من اليقين :

وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن … أتت بمعضلة الألباب والفكر
فبعضنا قائل ما اغتاله أحد … وبعضنا ساكت لم يوت من حصر

ومنها في ذكر المتوكل وولديه العباس والفضل من بني الأفطس :

ويح السماح وويح البأس لو سلما … وحسرة الدين والدنيا على عمر
سقت ثرى الفضل والعباس هامية … تعزى سماحاً اليهم لا الى المطر

الى أن يقول :

على الفضائل - إلا الصبر - بعدهم … سلام مرتقب للأجر منتظر

وبالجملة فانه مهما قيل في وصف هذه القصيدة وتقريظها فان القائلين لم يوفوها حقها ولم يكونوا مبالغين فيما قالوه عنها . وأحسن شيء فيها هو ما سلكه ابن عبدون من البكاء والاستبكاء على ضياع ملك سادته ، وإبادة الدهر لهم من غير أن يعرض بخصومهم المرابطين ولا أن يتناولهم بأدنى تجريح ، وتلك لعمري براعة تشهد له بحسن التصرف في القول والتفنن في الكلام . وكان المتوكل بالمكان الذي وصفه ابن عبدون وأعظم نبوغاً في العلوم والآداب مع رسوخ قدم في الجود والشجاعة . ولم يكن في ملوك الطوائف أفضل منه ولا

من المعتمد بن عباد ، فانهما كانا فرسي رهان في جميع الفضائل وخاصة العلم والأدب . وكان المعتمد أشعر والمتوكل أكتب [1] .

واذا ذكرنا المعتمد فلا بد أن نعطي صورة مصغرة عنه وعن أدبه ، فقد كان هذا الملك الشاعر فذاً في الملوك ، فذاً في الشعراء . حتى لقد بلغ من شأنه أنه لا يمكن أن يذكر ملوك الطوائف بل ملوك الأندلس على العموم ولا يذكر المعتمد ، وانه لا يمكن أن يذكر شعراء الأندلس أو الشعر العربي على العموم ولا يذكر المعتمد . وكان مما انطوى عليه من الفضائل واحتواه من المكارم بحيث لو لم يثبت وجوده تاريخياً لقلنا انه شخصية خيالية أضفى عليها الشعر والقصص حللاً وبروداً من الإجلال والتقديس . ففي حالة الشدة والبأس نجده مكافحاً عبقرياً لإثبات ملكه وتوسيع نفوذه ، ومجاهداً متفانياً في صد موجة الاكتساح الاسباني الذي أراد أن يستصفي الأندلس في أواسط القرن الخامس . وفي حالة الرخاء والنعيم نجده ذلك المترف المرفه الذي أسرف في المتاع وأسرف في الاستهتار حتى كان له يوم الطين الذي لم يكن لملك غيره [2] . وفي الشعر والأدب نجده ذلك العلم المفرد بين الملوك والرؤساء ، قد انقطع لمطارحة شعراء وقته من وزراء وكتاب بالقصائد البليغة والأبيات النادرة حتى يحسبه الانسان أنه لا شغل له إلا قول الشعر والاجتهاد في إجادته وإحسانه . وكيف لا وقد نشأ في بيت الشعر والأدب والرياسة والملك ، فقد كان أبوه المعتضد وجده أبو القاسم شاعرين . وكان لأبيه دار مخصوصة بالشعراء وديوان تقيد فيه أسماؤهم ، وقد جعل لهم يوماً يفرغ لهم فيه فلا يدخل على الملك فيه غيرهم [3] .

واجتمع بحضرة المعتمد منهم ما لم يجتمع بحضرة غيره ، فكان عنده ابن زيدون وابن عمار وابن اللبانة ، وكل واحد من هؤلاء فيه كفاية .

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٣
(٢) انظر النفح ج ٢ ص ٤٨٤
(٣) النفح ج ٢ ص ٤٦٨

على أن شخصية المعتمد زادت بروزاً بهذه النكبة التي حاقت به وتركت الأكباد تتقطع حسرة على ما أصابه من أسى وفضيحة بعد سابق العز والسلطان . وزاد شعرُ المعتمد في هذه المدة إثارة للبلابل في الصدور وتحريكاً لشجو النفوس ، فكان والحق يقال أشجى شعر قيل في نكبة حقت بعظيم . ومن شعره هذا :

لما تماسكت الدموع ... وتنبه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة ... فليبدُ منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو ... ع على فمي السم النقيع
إن تستلب عني الدنا ... ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه ... لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا ... ع ، أيسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم ... ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميـ ... ـص عن الحشا شيء دفوع
وبذلت نفسي كي تسيـ ... ـل اذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن ... بهواي ذلي والخشوع
ما سرت قط الى القتا ... ل وكان من أملي الرجوع
شيم الألى أنا منهم ... والأصل تتبعه الفروع

ومنه في يوم عيد وهو بالسجن :

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة ... يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
يطأن في الطين ، والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
أفطرتَ في العيد لا عادت إساءته ... فكان فطرك في الأعياد تفطيرا

قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً فردك الدهر منهيـاً ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به فانما بات بالأحـلام مغرورا

واذا ذكر المعتمد ذكر معه بالطبع ابن عمار وزيره ورفيقه ونظيره في الشعر . وهو ممن كان يذهب مذهب المتنبي ويأخذ أخذه في طلب المعالي والتهمم بالسلطان . وشعره مرآة لنفسه القوية وطبعه الجموح . على أنه كسائر شعراء الأندلس رقيق الغزل لطيف المحاولات لفنون الشعر المختلفة ، وكان قد لحق بخدمة المعتضد بن عباد واختص بولده المعتمد ولزمه ملازمة شديدة حتى صار لا يُرى إلا معه . ولما ولي المعتمد على مدينة شلب من قبل والده استوزره وسلم إليه جميع أموره فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة وساءت السمعة عنهما ففرق بينهما المعتضد وأبعد ابن عمار عن اياالته فلم يزل مبعداً حتى توفي المعتضد فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب . ثم وقع بينهما ما أوجب سجنه وقتله . وقد تشفع له ابن عمار واستعطفه ببليغ الأشعار فلم يؤثر ذلك فيه شيئاً ، والملك كما يقولون ، عقيم ، لا يرعى على ولي أو حميم . ومن شعره يستعطفه :

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح
وان كان بين الخطتين مزية فأنت إلى الأدنى من الله تجنح
وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا سوى أن ذنبي ثابت ومصحح
وإن رجائي أن عندك غير ما يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح
أقلني لما بيني وبينك من رضى له نحو روح الله باب مفتح
ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم فكل إناء بالذي فيه يرشح
وقالوا سيجزيه فلان بذنبه فقلت وقد يعفو فلان ويصفح
ألا إن بطشاً للمؤيد يرتمي ولكن حلماً للمؤيد يرجح

ومن شعره قصيدته التي صارت أشرد من مثل [1] في مدح المعتضد، وكانت سبب تقريبه له . وأولها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى ... والنجم قد صرف العنان عن السرى

والصبح قد أهدى لنا كافوره ... لما استرد الليل منا العنبرا

ومن أبياتها بيت قال فيه المراكشي صاحب «المعجب» انه لم يسمع لمتقدم ولا لمتأخر مثله [2] وهو قوله :

السيف أفصح من زياد خطبة ... في الحرب إن كانت يمينك منبرا

وله حين فرق المعتضد بينه وبين المعتمد ، وهو مما تظهر عليه نزعة المتنبي :

عليَّ ، والا ما بكاء الغمائم ... وفيَّ ، وإلا ما نياح الحمائم

وعني أثار الرعد صرخة طالب ... لثأر وهز البرق صفحة صارم

وما لبست زهر النجوم حدادها ... لغيري ولا قامت له في مآتم

واذا كان عصر ملوك الطوائف قد انتهى مع هؤلاء الشعراء ، فانه قد امتد مع غيرهم كابن اللبانة وابن خفاجة وسواهما الى عصر المرابطين .. فأما ابن اللبانة فهو أبو بكر محمد بن عيسى اللخمي من أهل مدينة دانية . وقد اشتهر بوفائه للمعتمد ورثائه له بعد موته ، وهو شاعر من أهل الإجادة والإحسان . وفد على المعتمد في أواخر أيامه ومدحه . ثم بعد زوال ملكه لحق بجزيرة ميورقة وبها مبشر العامري فحظي عنده ، وله فيه أمداح . ومنهـا قصيدة غريبة المنزع جعلها من أولها إلى آخرها ، صدر البيت غزل وعجزه مدح ، وهي :

وضحت وقد فضحت ضياء النير ... فكأنما التحفت ببشر مبشر

وتبسمت عن جوهر فحسبته ... ما قلدته محامدي من جوهر

وتكلمت فكأنّ طيب حديثها ... متعت منه بطيب مسك أذفر

(١) الشقندي

(٢) المعجب ص ١١٧

هزت بنغمة لفظها نفسي كما هزت بذكراه أعالي المنبر
أذنبت واستغفرتها فجرت على عاداته في المذنب المستغفر

وأما ابن خفاجة فهو شاعر الطبيعة المبدع في وصف آثارها ومظاهرها ، من الرياض والرياحين والماء والغمام والشمس والظل والجبال والأشجار وما إلى ذلك . لم يلتفت إلى منصب ولا إلى جاه . ملأ جمال الدنيا عينيه فمال بكليته إليه ، يغني ويشرب ، ويشعر ويطرب ، إلى أن توفي بمسقط رأسه من جزيرة شقر . ومن شعره يصف نهراً :

لله نهر سال في بطحاء أشهى وروداً من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكنفه ، مجر سماء
قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها هدب يحف بمقلة زرقاء
والماء أسرع جريه متحدراً متلوياً كالحية الرقطاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

وله في بلاد الأندلس :

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذي كنت أختار
لاتخشوا بعدها أن تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النار

وبعد ملوك الطوائف والمرابطين أظل الأندلس ملك الموحدين ، وقد بلغت الى أقصى غايات المجد العلمي والرقي الفكري . ففي عهدهم نبغ الفلاسفة العظام مثل أبناء زهر وابن طفيل وابن رشد ، وزادت النهضة الأدبية اتساعاً حتى أصبح الشعراء يعدون بالعشرات . ولقد جلس لهم المنصور الموحدي يوماً وجاءوا يهنئونه بانتصاره في موقعة حربية ، فكانوا من كثرتهم إنما يلقون البيت الأول من قصائدهم

ويضعون الورقة التي كتبت فيها القصيدة أمامه ، فما انتهى عددهم حتى كانت الأوراق تحول بينه وبين الناس من كثرتها (١) . ولا نستطيع أن نعد جميع الشعراء الذين نبغوا في هذا العصر ، وانما نقتصر على ذكر ثلاثة أفراد منهم نعتقد أنهم يمثلون عصرهم أحسن تمثيل . وهؤلاء هم الرصافي وابن مجبر وصفوان ابن ادريس .

فالرصافي هو محمد بن غالب البلنسي ، نسب الى رصافة بلنسية ، وكان شاعراً مجيداً نزيهاً عفيفاً ، وله في عبد المؤمن بن علي القصيدة المشهورة التي أولها :

لو جئت نار الهدي من جانب الطور ... قبست ما شئت من علم ومن نور

وفيها يصف جبل طارق ـ وكان عبد المؤمن يسميه جبل الفتح ـ وصفاً بليغاً ويذكر مجمع البحرين وأسطول الموحدين الحربي ويمدح المهدي ابن تومرت وعبد المؤمن مشبهاً لهما بموسى ويوشع عليهما السلام . وهاك قوله في وصف الجبل :

لله ما جبل الفتحين من جبل ... معظّم القدر في الأجبال مذكور
من شامخ الأنف في سحنائه طلس ... له من الغيم جيب غير مزرور
معبراً بذراه عن ذرى ملك ... مستمطَر الكف والأكناف ممطور
تمسي النجوم على إكليل مفرقه ... في الجو حائمة مثل الدنانير
وربما مسحته من ذوائبها ... بكل فضل على فَوْديه مجرور
وأدرد من ثناياه بما أخذت ... منه مفاحمُ أعواد الدهارير
محنّك حلب الأيام أشطُرَها ... وساقها سوق حادي العير للعير

وابن مجبر هو أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الفهري من أهل بليش ، قرية قرب مالقة ، كان من أشعر أهل زمانه وكان مختصاً بالمنصور الموحدي ملازماً له ، وكان المنصور يعظمه ويقدمه على غيره من شعراء وقته وله

(١) النفح ج ٢ ص ٤٣٠

فيه أمداح كثيرة ، وهو القائل في وصف المقصورة «الأوتوماتيكية» التي أنشأها المنصور بجامعه بمدينة مراكش بعد ما عجز الشعراء عن وصفها :

طوراً تكون بمن حوته محيطة ... فكأنها سور من الأسوار
وتكون حيناً عنهم مخبوءة ... فكأنها سر من الأسرار
وكأنها علمت مقادير الورى ... فتصرفت لهم على مقدار
فاذا أحست بالأمير يزورها ... في قومه قامت الى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده ... كتكون الهالات للأقمار

وأما صفوان بن ادريس فهو أبو بحر التجيبي من أهل مرسية ، كان شاعراً وكاتباً وله كتاب «زاد المسافر» الذي هو أحد المجموعات التي تؤلف خزانة الأدب الأندلسي ، ومن شعره الهمزية المشهورة بين أدباء المغرب وأولها :

جاد الربى من بانة الجرعاء ... نوآن من دمعي وغيم سماء
فالدمع يقضي عندها حق الهوى ... والغيم حق البانة الغناء
خلت الصدور من القلوب كما خلت ... تلك المقاصر من مها وظباء
ولقد أقول لصاحبيّ وإنما ... ذخر الصديق لآكد الأشياء
يا صاحبي ولا أقلّ ـ اذا أنا ... نادبت ـ من أن تصغيا لندائي
عوجا نجار الغيث في سقْي الحمى ... حتى يرى كيف انسكاب الماء
ونسن في سقْي المنازل سنة ... نمضي بها حكماً على الظرفاء

ويأتي بعد هذا العهد عهدُ غرناطة وملوك بني الأحمر ، وحسبنا أن نذكر غرناطة فنذكر الشعر والشعراء والحياة الأدبية الراقية التي قضتها هذه المدينة في عهد ملوكها الرافلين في حلل النعيم في قصور الحمراء الزاهية وبين ظلال جنات العريف الوارفة . ولا حاجة بنا الى ذكر شعراء هذا العهد ، فان واحداً منهم يكفي للتنويه بنهضة الشعر فيه وهو لسان الدين بن الخطيب الذي ملأ الدنيا شعراً وأدباً ، وعفى ذكره على السابقين واللاحقين من أدباء الأندلس ، فما من مجال

إلا وله فيه ذيل سحب ، وما من موضوع إلا وقد تناوله بذراع رحب ، وبقدر ما له في الشعر من الآيات البينات ، فان له في النثر الفني والكتابة العلمية والتاريخية الآثار الخالدات . وبالجملة فقد كان معجزة قطره ومفخرة عصره ، ولم يبالغ من قال فيه انه شاعر الدنيا وأديب الأندلس ؛ اذا كان يقصد دنيا العروبة في هذا العهد . ولا نستطيع أن نقدم نماذج من شعره تمثل نفسيته وطابعه الأدبي ، فان شعره كثير ومناحيه الفنية متعددة ، فلنقتصر على قطعة أو قطعتين منه «وعن البحر اجتزاء بالوشل» قال يتشوق :

سقى الله نجداً ما نضحت بذكرها على كبــدي إلا وجدت لها بردا
وآنس قلبي فهو للعهد حافظ وقلّ على الأيام من يحفظ العهــدا
صبور وان لم يبق لي إلا ذبالة اذا استقبلت مسرى الصبا اشعلت وقْدا
وقد كنت جلداً قبل أن يُذهب النوى ذمائي وأن يستأصل العظم والجلدا

وقال مخاطباً السلطان أبا عنان المريني وكان وفد عليه من قِبَل سلطانه الغني بالله في جملة من أعيان مملكة غرناطة مستنجداً به ، فحين مثل بين يديه أنشده وهو قائم :

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح في الدجا قمر
ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى لنا وفي المحل كفك المطر
والناس طراً بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
ومن بها مذ وصلت حبلهم ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وجملة الأمر أنه وطن في غير علياك ماله وطر
وقــد أهمتهم نفوسهم فوجهوني اليك وانتظروا .

فاهتز السلطان أبو عنان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس وقال له ما ترجع اليهم إلا بجميع طلباتهم . قال القاضي أبو القاسم الشريف شارح مقصورة حازم

وهو من مشائخ لسان الدين وكان معه في هذه الوفادة : «ما سمعنا بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا» . ولا شك أن ذلك من براعة لسان الدين الرائعة وبلاغته الفائقة .

* * *

وهذا الاستعراض على سرعته لا يتم إذا لم تتعرض لنوابغ النساء الأندلسيات في الشعر ، وما كان لمشاركتهن من بليغ الأثر في الحياة الشعرية بالأندلس . وقد بدأ نبوغهن مبكراً في أول عهد الدولة الأموية ؛ لما قلنا من أن الشعر الأندلسي نشأ حضرياً من أول يوم . ونبوغ النساء في العلوم والفنون هو وليد الحضارة والحياة العقلية المترفة .

وقد كانت لبنى كاتبة الخليفة الحكم المستنصر من الأديبات الشاعرات المتفوقات ، وكانت تعاصرها حسانة التميمية بنت أبي الحسين الشاعر ، والشاعرة الغسانية ، وحفصة بنت حمدون . واشتهرت بعد هؤلاء عائشة القرطبية التي لم يكن في زمنها من حرائر النساء من يعدلها علماً وفهماً وأدباً وشعراً وفصاحة ، تمدح الملوك وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة ، وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف وماتت عذراء سنة ٤٠٠ (١) . ثم اشتهرت في القرن الخامس مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري الشاعرة الأديبة التي كانت تعلم النساء الأدب ، وأم العلاء بنت يوسف الحجازية ومولاة أبي المطرف بن غلبون العروضية ، وولادة بنت المستكفي الشهيرة ، ومهجة القرطبية ، ونزهون الغرناطية ، وحمدونة بنت زياد المؤدب ، والعبادية والدة المعتمد ، واعتماد حظيته وبُثَينة بنته وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح وغاية المنى جاريته . ثم اشتهرت في أوائل القرن السادس الأديبة الشلبية ، وأسماء العامرية وحفصة الركونية وغيرهن ممن استوعب المقري ذكرهن وأتى على كثير من أشعارهن ولطائفهن .

(١) النفح ج ٢ ص ٤٩٢

ونحن نكتفي بذكر اثنتين من هذا العدد الكثير وهما ولادة وحمدونة :

فأما ولادة فهي بنت الخليفة المستكفي بالله ؛ كانت واحدة زمانها في الأدب والشعر ، حسنة المحاضرة لطيفة المعاشرة مع الصيانة والعفاف . وكان ابن زيدون يتعشقها وله فيها القصائد الطنانة والمقطعات البديعة ، وكانت أولاً تطارحه شعراً بشعر وتبادله حباً بحب ، ثم قلبت له ظهر المجن وصارت تهجوه ، وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها فيمر فيه من النادر وإنشاد الشعر كثير . ومن بديع شعرها ما كتبت به الى ابن زيدون :

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فاني رأيت الليل أكتم للسر
ولي منك مالو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

وأما حمدونة بنت زياد المؤدب فهي التي يقال لها خنساء المغرب لقوة شعرها وسمو إبداعها . ولها المقطوعتان العجيبتان المشهورتان بالمشرق والمغرب واللتان ما زال أهل البلاغة يجعلونها مثالاً أعلى للنسج على منواله والحذو حذوه وهما : هذه :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وما لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة وقل حماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك وأدمعي ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

وهذه :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

* * *

ولعلنا وقد انتهينا من هذا الاستعراض ، قد ظهرنا منه بالرغم من قصره على تلك الظاهرة التي أسلفنا الكلام عليها ، وهي أن هذا الشعر الأندلسي حضري مترف لا جاهلية له ولا بداوة ، وأنه منذ نشأ كان كذلك ، لم يحمل من معاني الشعر الجاهلي وألفاظه ما حمله غيره من الشعر العربي في الأقطار الأخرى غير الأندلس ، ولم يمثل غير نفوس أصحابه ومجتمعهم ومحيطهم .. على أنه لما ضاق به مجال التعبير ، واحتاج الى التحرر من القيود اللفظية لم يخرج عن مواضعات القوم إلا بمقدار ما تسمح به طبيعة اللغة العربية المحافظة على إرث الأجداد ، فاخترع هذا التوشيح الذي هو فن أندلسي محض ، أدخل على الشعر العربي تحسيناً في الصناعة كما جعله ألين مراساً وأسلس قياداً ، مما كان عليه قبل ، إذ كانت القافية تتحكم في الشاعر فتركبه المراكب الصعبة للبلوغ إلى مقصده ، ويضطر بذلك الى استعمال الألفاظ المألوفة وغيرها ، دع عنك سآمة النفس ونبو الطبع عن سماع نغمة واحدة لا تبديل فيها ولا تغيير منذ بدء القصيدة الى نهايتها . وربما تكون طويلة جداً ، ولا كذلك هذا النظام البديع الذي يقوم عليه التوشيح من الأسماط والأغصان ؛ فانه أوقع في النفس وأخف على السمع . وبه ظهرت براعة أهل الأندلس فانهم جددوا وحافظوا في آن واحد ؛ جددوا في أسلوب الشعر ونظمه ، وحافظوا على أوزان العروض والقافية فلم يقعوا فيما وقع فيه بعض أدباء العصر من الدعوة الى نبذ القافية جانباً والتحلل من الأوزان والبحور الشعرية المعروفة ، فلما تناقض عملهم مع طريقة الشعر المعروفة دعوا ذلك بالشعر المنثور ؟ ...

وأشار ابن خلدون الى قريب مما ذكرناه ؛ من أن اختراع التوشيح كان نتيجة لكثرة الشعر وحب التفنن فيه فقال : « أما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً سموه بالموشح ينظمونه أسماطا أسماطا وأغصاناً أغصانا ، يكثرون منها

ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد الى آخر القطعة »[1] .

وكان المخترع لهذا الفن هو مقدم بن معافى شاعر الأمير عبد الله بن محمد المرواني ، وأخذه عنه ابن عبد ربه صاحب كتاب « العقد » ، ولكن الذي أحكم صناعته ونهج طريقته هو عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية .. قال أبو بكر بن زهر : « كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بدر تم شمس ضحى غصن نقى مسك شم
ما أتم ما أوضحا ما أورقا ما أنم
لا جرم من لمحا قد عشقا قد حرم

وكان بعد عبادة ، ابن رافع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة ، ثم الأعمى التطيلي ويحيى بن بقي وأبو بكر بن باجة الفيلسوف الموسيقار المشهور ، ثم محمد بن أبي الفضل بن شرف وأبو بكر بن زهر الحكيم المشهور وسهل بن مالك وغيرهم كثير . واشتهر على الخصوص بين أدباء المغرب موشح ابن سهل الاسرائيلي شاعر اشبيلية وأوله :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس
فهو في حر وخفق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس

وقد نسج على منواله لسان الدين بن الخطيب فقال :

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما في الكرى أو خلسة المختلس

وكان ابن الخطيب من المبرزين في صنعة التوشيح شأنه في كل فن من فنون الأدب .

(١) المقدمة ص ٦٨٩

ولا يمتاز الشعر الأندلسي من ناحية الصناعة اللفظية فحسب ، بل إن له مميزات من الناحية الموضوعية لا تكاد تخفى على أحد ممن تعمق في دراسة الأدب العربي على العموم وقارن بين الشعر الأندلسي وغيره من شعر الأقطار العربية الأخرى .. وقد تقدمت الإشارة الى هذه البراعة في الوصف التي تميّز بها الأندلسيون خاصة في وصف مظاهر الطبيعة وآثارها البديعة من الرياض والأزهار والرياح والأمطار والمياه والأنهار وما الى ذلك حتى كان شاعرهم في هذا الباب وهو أبو اسحق بن خفاجة فذاً في شعراء العربية كلهم لم ينافسه أحد منهم في استحقاق لقب شاعر الطبيعة .. ومع ذلك فان موضوعاً آخر لم تر من نبه عليه ، ولم ينتبه اليه الشعراء العرب إلا في هذا العصر الحديث حين وجدت بواعثه وأسبابه ، فصار عندهم من الموضوعات الشعرية الرئيسية ، ألا وهو الشعر الوطني . فالأندلسيون بما كانوا فيه من عراك دائم مع القوات الاسبانية التي تنتقص بلادهم من أطرافها يوماً فيوماً وتحاول أن ترمي بهم خارج حدود الجزيرة الايبيرية في كل وقت وحين ، ولم يزالوا كلما خرجوا من بلدة أو قرية وفقدوا السلطة على مدينة أو ناحية ، يبكون سالف مجدهم وعزهم ويحنون الى معاهد أنسهم ولهوهم ويتفجعون لما نزل بها من الذل والهوان ويستثيرون الهمم لإنقاذها واسترجاعها من يد الكفر والطغيان .. وهكذا تكوّن موضوع جديد فى الشعر العربي وهو الشعر الوطني الذي يضرب على وتر الوطنية ويستغل الحماسة الدينية للجهاد والقتال من أجل تحرير البلاد .

وهذه الوطنية لم تكن عند الأندلسيين شعوراً عابراً ولا فكرة عارضة ، وانما هي عقيدة ثابتة وإحساس متأصل في نفوسهم . يدلك على ذلك كثير من أقوالهم حتى في غير الشعر الذي نحن بصدده .. فمثلاً نجد الفتح بن خاقان عند ترجمته لابن حزم العالم المشهور يفتخر بأنه لم يرحل الى المشرق وأن نبوغه فاق من رحل اليه [1] . ونجد إسمعيل بن حبيب في مقدمة كتابه « البديع في وصف الربيع »

(١) مطمح الأنفس ص ٦٣

يباهي بأنه لم يورد فيه شعراً إلا لأهل بلده الأندلس، ويزري بأشعار المشارقة التي ابتذلت فلم تعد النفوس تميل الى سماعها، ثم يشير الى سبق الأندلسيين للمشارقة في أحسن المعاني مجتلى، وأطيبها مجتنى، وهو الباب الذي تضمنه هذا الكتاب (يعني وصف الربيع) فلهم فيه من الاختراع الفائق والابتداع الرائق وحسن التمثيل والتشبيه، ما لا يقوم أولئك مقامهم فيه». ونرجع الى ما كنا بسبيله من الشعر الوطني الأندلسي فنورد منه بعض الأمثلة. يقول أبو المطرف بن عميرة في قطعة بليغة:

زدنا على النائين عن أوطانهم ... وان اشتركنا في الصبابة والجوى
انا وجدناهم قد استسقوا لها ... من بعد ما شطت بهم عنها النوى
ويصدنا عن ذاك في أوطاننا ... مع حبها الشرك الذي فيها ثوى
حسناء طاعتها استقامت بعدنا ... لعدونا، أفيستقيم لها الهوى ؟

ويقول أبو عبد الله الفازاري في قطعة أخرى:

الروم تضرب في البلاد وتغنم ... والجور يأخذ ما بقي والمغرم
والمال يورد كله قشتالة ... والجند يسقط والرعية تسلم
وذوو التعين ليس فيهم واحد ... إلا معين في الفساد مسلم
أسفي على تلك البلاد وأهلها ... الله يلطف بالجميع ويرحم

فهاتان القطعتان من أشجى الشعر الوطني وأبلغه، ولا تقصران عما ينظم منه الآن في البلاد العربية التي يتلاعب بها الاستعمار[1].

* * *

ودون هذا وذاك فان هناك فنوناً أخرى من النظم برع فيها الأندلسيون وتفوقوا على غيرهم وان كانت لا تعد من الشعر في حقيقة الأمر، وهذه مثل الأنظام العلمية التي تضم أشتات العلوم وقواعدها وتتضمن أبوابها وفوائدها،

(١) انظر فصلاً خاصاً بهذا الموضوع في كتابنا «التعاشيب».

ومن أول الموضوعات التي ضبطها بالنظم وقيدها بالوزن التاريخ ، فلابن عبد ربه أرجوزة ذكر فيها غزوات عبد الرحمن الناصر [١] . بل قيل ان ليحيى الغزال الذي عاش قبل ذلك بكثير تاريخاً للأندلس منظوماً . وكذا لابن الخطيب تاريخ منظوم وهو المعروف «برقم الحلل في تاريخ الدول» . وفي غير التاريخ نرى منظومة لابن عبد ربه أيضاً في علم العروض وهي في غاية السلاسة [٢] . كما نرى لابن مالك الجياني «ألفية» النحو المشهورة ولابن عاصم الغرناطي «تحفة الحكام في علم القضاء والأحكام» ، وغير هذه المنظومات كثير .

على ان البراعة الحقيقية التي امتاز بها الأندلسيون في هذا الصدد هي الأنظام العلمية الملغوزة . وتختلف طرق الألغاز فيها عندهم ، فبعضها لا تكاد تشعر بأنه نظم علمي ، وانما تقول انه قصيدة شعرية فريدة في حين انه يتضمن اشارات ورموزاً الى قواعد علمية معروفة . وبعضها يكون فيه الرمز واضحاً لا خفاء معه وانما فائدته أنه يتضمن المعاني الكثيرة في الالفاظ القليلة بحيث تشتمل القصيدة ذات الأبيات المعدودة على قواعد علم كامل بجميع مسائله وأغراضه . فالأول كما في قصيدة (غرامي صحيح) لابن فرج الاشبيلي التي ضمنها أصول علم الحديث ولم يصرح بشيء من غرضه فجاءت كأنها قصيدة غزلية بحيث لو عرضت على عربي خالص لما فهم منها إلا ما يفهم من قصائد الشوق والوجد وهذا أولها :

غرامي صحيح والرجا فيك معضل ودمعي ووجدي مرسل ومسلسل

والثاني كما في قصيدة الشاطبي في علم القراءات ، وهي مشهورة بين علماء هذا الفن ، وتعد من أمهات الكتب فيه . وقد بناها على إشارات الحروف الأبجدية ، وبذلك توصل الى اختصار هذا العلم الواسع وتضمينه في نظم مهما كثر فانه قليل بالنسبة الى سعة موضوعه [٣] .

(١) انظرها في ج ٢ من العقد .
(٢) انظرها في الجزء ٣ من العقد .
(٣) توسعنا في الكلام عن هذا الموضوع في فصل ضمناه كتاب «واحة الفكر» .

... وقد ظهر بهذا العرض السريع وهذه الإلمامة العجلى أن الشعر الأندلسي لم يتأثر بشيء خارجي عنه ، حتى الأدب المشرقي كان تأثره به في دائرة عامة ، وأما السمات الخاصة به فانما كانت من وحي البيئة والمحيط . وهذه العناصر الجديدة التي وجدت فيه مع الأيام سواء في اللفظ أو المعنى إنما كانت ذاتية وتلقائية ، فلا صحة لما يقال من أن الأدب الأندلسي تأثر بالأدب الاسباني وأخذ عنه ، كما أثر هو عن حق في هذا الأدب وكما أخذ هذا الأدب من غير شك عنه . فليت شعري أين هو هذا الأثر ؟ وما هذا الذي أخذه الأدباء الأندلسيون عن الأدباء الاسبان ؟ وأي فن جديد هذا الذي أضافه الأدب الأندلسي الى فنون الأدب العربي باستثناء الموضوع الذي لحنا اليه وهو الشعر الوطني الذي كان وليد الظروف السياسية الداخلية للبلاد ؟ وما باله لم يُطلّ على دنيا القصص والتمثيل ، إن كان حقاً تأثر بالأدب الاسباني ، وليس في هذا الأخير ما يؤخذ أفضل من هذين الفنين ، لو كانا موجودين فيه إذ ذاك ؟

أما القول بأن مرثية ابن عبدون لملوك بني الأفطس هي من قبيل الشعر القصصي ، وانها تدل على اقتباس هذا الفن من الاسبان ، فانما هو قول من يلقي الكلام على عواهنه ولا يعنى بتحقيق ما يقول . ولهذه المناسبة نشير قبل أن نختم هذه الكلمة ، الى أن هناك قصيدة أخرى شبيهة بمرثية ابن عبدون ، ولكن قل من ينتبه لها مع أنها في غرض الرثاء مثلها وتضمنت من عبر الدهر ما يجعلها مأساة تاريخية كقصيدة ابن عبدون . وهذه هي قصيدة الأعمى التطيلي في رثاء أحد فتيان اشبيلية الأجواد وكان يتعهده ويحسن اليه ، فأصبح قتيلاً ذات يوم . وأولها :

خذا حدثاني عن فل وفلان لعلي أرى باق على الحدثان [1]

عبد الله كنون

---

(١) انظر قلائد العقيان ص ٢٨٦ — ٢٨٩.

الاصطلاحات الفلسفية

-٣-

الاشارة

في اللاتينية	Signum
في الفرنسية	Signe
في الانكليزية	Sign

أشار اليه أومأ ، يكون ذلك باليد والرأس والعين والحاجب والمنكب الخ ..
وأشار به عرّفه ، وأشار عليه بالرأي إذا ما أمره ونصحه ودله على وجه الصواب ،
ومبلغ الاشارة كما يقول الجاحظ أبعد من مبلغ الصوت ، وحسن الاشارة باليد
والرأس من تمام حسن البيان باللسان (البيان والتبيين ، الجزء الأول ، ص : ٧٠
مصر ١٩٢٦) :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها   إشارة مذعور ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحباً   وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيم

والاشارة قسمان : اشارة حسية واشارة ذهنية ، أما الاشارة الحسية فتطلق على معنيين أحدهما أن يقبل الاشارة بأنه هنا أو هناك ، وثانيهما أن يكون منتهى الاشارة الحسية أعني الامتداد الموهوم الآخذ من المشير منتهياً الى المشار اليه . وأما الاشارة الذهنية فهي كاشارة ضمير الغائب وأمثالها مما يحتاج في إثباته الى استدلال العقل ، أو كاشارة المتكلم الى معان كثيرة لو عبر عنها لاحتاج الى ألفاظ كثيرة . مثال ذلك قوله تعالى : وغيض الماء ، فانه أشار بهاتين اللفظتين الى انقطاع مادة المطر وبلع الأرض وذهاب ما كان حاصلاً من الماء على وجهها .

والاستدلال باشارة النص إثبات الحكم بالنظم غير المسوق له ، كما ان الاستدلال بدلالة النص إثبات الحكم بالنظم المسوق له .

وابن سينا يسمي الفصل المشتمل على حكم يحتاج في إثباته الى دليل وبرهان ، بالاشارة ؛ كما يسمي الفصل المشتمل على حكم يكفي في إثباته تجريد الموضوع والمحمول من اللواحق أو النظر فيما سبقه من البراهين ، بالتنبيه . (راجع شرح الاشارات للطوسي ، الجزء الأول ص : ٤ ، من الطبعة الاولى بالمطبعة الخيرية ١٣٢٥ هـ) . فالاشارة في اصطلاحه هي الحكم الذي يحتاج إثباته الى دليل ، ويقابله التنبيه ، وهو الحكم الذي لا يحتاج إثباته الى دليل .

وللاشارة في اصطلاحنا ثلاثة معان :

١) الاشارة شيء مدرك بالحواس يجوّز التصديق بشيء آخر غير مدرك أو غير ممكن الادراك . كازدياد النبض ، فهو اشارة الى وجود الحمّى ، وكإضاءة المصباح الأحمر على الخط الحديدي ، فهي اشارة الى مرور القطار ، وكزمر سيارة الاطفائية فهو اشارة الى اندلاع الحريق ، وكذلك الدخان ، فهو اشارة الى النار ، كما أن البكاء اشارة الى الحزن .

٢) الاشارة فعل خارجي مدرك الغرض منه التعبير عن إرادة . والمثال من ذلك انك تشير بيدك الى الرجل فتستوقفه ، أو تطلب منه المجيء اليك ، أو تضع السبابة على فمك طالباً منه السكوت . فأنت تعبر بهذه الاشارات كلها عن ارادتك ، فتأمر وتنهى ، أو تبلغ باشاراتك ما تريد من الأفكار والعواطف .

٣) الاشارة شيء متحقق في الخارج من شكل أو صوت ينوب عن شيء غائب أو غير ممكن الادراك ، وهو يساعد على اخطار هذا الشيء الغائب الى الذهن ، كالاشارات الدالة على المعادن في علم الكيمياء ، أو ينضم الى غيره من الاشارات المجانسة له لاجراء عمليات متعلقة بالأشياء المشار اليها ، كاشارات اللغة واشارات الحساب والجبر وغيرها .

لا جرم ان هذه المعاني الثلاثة تشترك في معنى عام واحد ، وهو أن الاشارة شيء يخبر بشيء آخر أو يعرّف به ويحل محلّه . وهذا يفرض وجود سبب يمنع الوصول الى الشيء المشار اليه ، أو يجعل الوصول اليه صعباً . لذلك كانت الاشارة في غالب الأمر إدراكاً حسياً حاضراً ، أو شيئاً مادياً ، أو شيئاً بسيطاً ، وكانت الأشياء المشار اليها حقائق بعيدة ، أو حقائق غير مادية ، أو عمليات ذهنية ، أو مجموعات معقدة . ولكن هذا المعنى العام لا يخلو من الالتباس ، لأن الاشارة لا تحل دائماً محل الشيء المشار اليه . ان الدخان مثلاً لا يحل محل النار وهبوط (البارومتر) لا يحل محل العاصفة .

وتنقسم الاشارات بنوع آخر من القسمة الى اشارات طبيعية (Signes naturels) واشارات اصطلاحية (Signes artificiels) .

فالاشارات الطبيعية لا تدل على الشيء المشار اليه إلا لعلاقة طبيعية بينها وبينه ، كالدخان الذي يشير الى وجود النار ، أو كالسحب التي تشير الى قرب هطول المطر . ويطلق اصطلاح اشارات التعبير (Signes expressifs) على الاشارات التي تعبر عن حالات النفس وحركاتها ، كاصفرار الوجه المعبر عن الخوف ، واحمرار الوجه الدال على الخجل ، (راجع ظواهر الهيجان في مادة هيجان) . وهذه الاشارات الطبيعية إما بصرية وإما سمعية ، فالحركات الدالة على الهيجان اشارات بصرية ، والصراخ الدال على الألم اشارة سمعية .

والاشارات الاصطلاحية هي الاشارات التي تكون علاقتها بالشيء المشار اليه مبنية على حكم إرادي جماعي . وهي ثلاثة أنواع بصرية وسمعية ولمسية . فمن الاشارات البصرية اشارات الجبر ، واشارات الموسيقا ، والاشارات البحرية ، واشارات الصم والبكم ، واشارات السير ، وحروف الكتابة ، ومن السمعية ألفاظ اللغة ، ومن اللمسية حروف الكتابة المستعملة في تعليم العميان على طريقة (برايل — Braille) .

وبين الاشارات الطبيعية والاشارات الاصطلاحية درجات متوسطة . فأبسط اشارات اللغة الصراخ ، وأصوات التعجب والنداء ، وتقليد أصوات الطبيعة ، وأعلاها الألفاظ الواضحة التعبير ، والاصطلاحات العلمية المستعملة في الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء وغيرها .

والناس لا يتفاهمون بالاشارة الا اذا عرفوا تأويلها وأدركوا علاقتها بالشيء المشار اليه . ان الاشارات لا تدل على علاقات مادية فحسب ، بل تدل على علاقات مادية ممزوجة بتصوراتنا وعواطفنا ، وعلاقة الاشارة بالمشار اليه إنما هي علاقة متصوّرة لا علاقة وجودية .

ان البحث في علاقة الاشارات بالعقل موضوع فلسفي بالغ الخطورة ، لأن اللغة كما قلنا جملة من الاشارات (راجع لفظ اللغة) .

ومن الاشارات ما يستعمل للدلالة على بعض الاعتقادات والمذاهب كاشارة الصليب عند النصارى ، أو اشارات السرّ عند الماسونيين ، ومنها اشارات بروج السماء ، واشارات الجيوش ، واشارات البواخر الحربية .

واذا دلت الاشارة على جملة من التصورات المتشابهة واقتصر عملها على اخطار هذه التصورات في الذهن اصبحت رمزاً (راجع هذا اللفظ) . ويشترط في ذلك (١) أن تكون الاشارة دالة على معنى خاص (٢) وان تكون علاقتها بالتصورات المتشابهة واحدة .

الاشتراكية

في الفرنسية Socialisme

في الانكليزية Socialism

الاشتراكية مأخوذة من الاشتراك ، تقول اشترك القوم في كذا أي تشاركوا ، وهي اصطلاح جديد يطلق على المذهب القائل ان مجرد الاعتماد على حرية الأفراد في الحياة الاقتصادية لا يكفي لايجاد نظام اجتماعي صالح ، وانه من الممكن ،

لا بل من المرغوب فيه أن يستبدل الناس بالنظام الحاضر نظاماً موافقاً يحقق العدل الاجتماعي ويساعد على نمو الشخص الانساني نمواً تاماً . (لفظ سوسيالزم مشتق من سوسيال « Social » ومعناه الاجتماعي ، استعمله لأول مرة وفي وقت واحد تقريباً السن سيموניون في فرنسة ، وروبراون في انكلترا . ويظهر ان بيار لورو « Pierre Leroux » أول من أوضح معناه فدل به على مذهب اجتماعي مضاد للمذهب الفردي ، وهو المذهب الذي يعلق حياة الفرد بحياة المجتمع راجع : (Revuue Encyclopédique, Novembre 1833, tome LX, pp. 114 - 116) .

والمذاهب الاشتراكية كثيرة منها[1] :

١) اشتراكية الذين أنكروا المزاحمة الحرة ، وأنكروا في الوقت نفسه تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية ، ولكنهم زعموا مع ذلك ان المسألة الاجتماعية يمكن أن تحل بتأسيس جمعيات حرة يدخلها المتعاقدون ويخرجون منها بمحض إرادتهم . من هذه المذاهب اشتراكية (روبر أون – Robert Owen) واشتراكية التكافل (Mutuellisme) ، والاشتراكية التعاونية (Coopératisme) ، والاشتراكية الجماعية (Collectivisme) ، والشيوعية الفوضوية (Communisme anarchique) .

٢) اشتراكية الذين اعتمدوا على تدخل السلطات العامة ، ولا سيما الدولة ، في تحقيق النظام الاقتصادي الجديد وتثبيته كاشتراكية البلديات (Socialisme Municipal) التي تعد اشتراكية متوسطة بين اشتراكية الجمعيات (Socialisme d'association) واشتراكية الدولة (Socialisme d'Etat) لأنها تقرر إمكان الاشتراك على أساس التعاقد بين بلديات كثيرة .

(١) راجع: Vocabulaire technique et critique de la philosophie, art: Socialisme .

وكاشتراكية الدولة التي ذهب اليها (ماركس) و(انجلس) في بيانهما الشيوعي (Marx et Engels, le Manifeste Communiste 1848) .

تنقسم اشتراكية الدولة الى نوعين الأول ديموقراطي والثاني ارستقراطي . أما النوع الديموقراطي فيهدف الى غاية سياسية ، وهي إقامة الحكم على أساس ديموقراطي يجعل الدولة خادمة لجميع المصالح الشعبية ، لأن الدولة في مذهبهم هي الفيض المباشر لارادة الشعب ، ولأن خدمة الشعب من لوازم ماهيتها . المثال من ذلك اشتراكية (لوي بلان - Louis Blanc ١٩٤٨ ، واشتراكية الماركسيين في أيامنا هذه) . وأما النوع الارستقراطي فيثبت أن انفكاك الفرد عن الدولة وهم باطل ، لأن الفرد إنما وجد لتحقيق الغايات المثالية المجتمعة في الدولة ، ولأن انضمام الفرد الى الدولة هو الواسطة الوحيدة لتثبيت حقوقه . (المثال من ذلك مذهب هيجل ، وكارليل ، ورودبرتوس ، وآدولف فغنر) . ان هذه الاشتراكية مضادة للفردية الفرنسية والانكليزية التي انتشرت في القرن الثامن عشر .

٣) اشتراكية الذين زعموا أن تأسيس النظام الجديد لا يتم بالقهر والقسر ، بل يتم بالطرق الشرعية . وتسمى اشتراكيتهم هذه باشتراكية الاصلاح ، أو اشتراكية التطور (Socialisme réformiste ou évolutionniste) .

٤) الاشتراكية الثورية (Socialisme révolutionnaire) وهي القول ان النظام الجديد لا يتحقق إلا بثورة العمال أي بتبديل السلطات العامة والقوانين الحاضرة بطريق الانقلاب والقهر والقوة .

٥) الاشتراكية الخيالية أو الطوبوية (Socialisme utopiste) وهي التي تتخيل مجتمعاً فاضلاً يحقق لأفراده في المستقبل جميع أسباب السعادة كالمدينة الخيالية التي تصورها (توماس موروس - Thomas Morus) أو كالنظام الاجتماعي الذي تخيله كل من (سان سيمون Saint - Simon) و(فورييه - Fourier) .

٦) الاشتراكية التجريبية (Socialisme expérimental) ، وهي القول ان تعريف النظام الاقتصادي الذي ينشأ عن الغاء النظام الرأسمالي والتنبؤ به قبل بلوغه محال . المثال من ذلك النقابية (Syndicalime) التي ذهب اليهـا (جورج سوريل - Georges Sorel) ، والماركسية المعاصرة ، والاشتراكية الفوضوية (Socialisme anarchiste) وغيرها .

وجميع هذه المذاهب على اختلاف طبقاتها وأنواعها تشترك في الأصول الآتية :

آ - الإيمان بالحتمية الاجتماعية . فاشتراكية (سن سيمون) و (فوريه) و (برودون) مبنية على فلسفة التاريخ وحتمية وقائعه ، كما ان اشتراكية (كارل ماركس) العلمية مبنية على المادية التاريخية (matérialisme historique) .

ب - تنظيم قوى الانتـاج وربط الوظائف الاقتصادية بالدولة أو بمراكز موجهة . ويعبرون عن ذلك بقولهم ان الاشتراكية هي تصنيع الدولة أو تخليق الصناعة . حتى لقد قال دوركهايم : « نطلق الاشتراكية على كل مذهب يريد أن يربط جميع الوظائف الاقتصادية المشتتة أو بعضها بالمراكز الاجتماعية الواعية والموجهة (Rev. Meta, Juillet 921, p 494) . لا يدرك الأفراد حريتهم الحقيقية إلا إذا نظمت الحياة الاقتصادية تنظيماً عادلاً . فليست الاشتراكية مضادة للحرية ولا للفردية بل الفردية الكاملة والمنطقية تستلزم الأخذ بالنظام الاشتراكي .

ج - الاعتقاد ان العمل هو الأساس الشرعي لكل تملك ، ولولا هـذا الاعتقاد لما انتقد الاشتراكيون نظام التملك الفردي ، لأن هذا النظام في نظرهم يجلب لبعض الأفراد دخلاً من دون عمل ويحرم العمال نتائج سعيهم وتعبهم . فالاشتراكية لا تلغي إذن حق الملك الفردي ، بل تقيم هذا الحق على أساس شرعي ، وتريد أن تحسن حال الطبقة الفقيرة الكادحة . فلا ملك إلا لمن يكدح في العمل ، ولا حق في الحياة إلا لمن يستحق الحياة . (راجع : تعاونية ، وتكافل ، وجماعية ، وحرية ، وشيوعية ، ونقابية) .

الاشتقاق

في اللاتينية Derivatio

في الفرنسية Dérivation

في الانكليزية Derivation

الاشتقاق في اللغة هو أخذ شق الشيء، تقول اشتق الكلمة من الكلمة أي أخرجها منها، وهو عند أهل العربية أن تجد بين اللفظين تناسباً في أصل المعنى والتركيب فترد أحدهما الى الآخر، أو هو أن تأخذ من اللفظ ما يناسبه في التركيب فتجعله دالاً على معنى يناسب معناه. فالمأخوذ مشتق، والمأخوذ منه مشتق منه. والاشتقاق ثلاثة أقسام: (١) الاشتقاق الصغير وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في الحروف والتركيب نحو ضرب من الضرب. (٢) الاشتقاق الكبير، وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في اللفظ والمعنى دون الترتيب نحو جبذ من الجذب. (٣) الاشتقاق الأكبر، وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في المخرج نحو نعق من النهق. (راجع تعريفات الجرجاني، الاشتقاق).

والاشتقاق في العلم الرياضي هو البحث عن مشتق تابع (Dérivée d'une fonction). ويعرفون مشتق التابع بقولهم هو نهاية نسبة تزايد التابع الى تزايد المتحول عندما ينتهي تزايد المتحول الى الصفر. وينتج عن ذلك: أن التابع يكون متزايداً أو متناقصاً في مجال ما عندما يكون مشتقه موجباً أو سالباً في ذلك المجال، وانه يكفي لايجاد قيم المتحول، التي تجعل التابع أعلى أو أدنى، وأن نبحث عن القيم التي تجعل مشتق هذا التابع مساوياً للصفر. وان المثل الزاوي للماس في نقطة من منحني تابع ما يساوي قيمة المشتق العددية الموافقة لفاصلة هذه النقطة.

والاشتقاق في علم الري هو أن تشتق من النهر قناة موازية له، كما ان الاشتقاق في علم الطب هو أن تحول السبب المرضي الى ناحية أخرى من البدن .

والاشتقاق في علم النفس هو أن تستبدل بالفعل الموافق للظروف ، المحتاج الى توتر نفسي عال لا يستطيع المرء تحقيقه ، افعالاً أو ارتكاسات سهلة غير نافعة أو غير موافقة . فاذا خف التوتر أو الاشتداد النفسي حلت محل الأفعال العالية حوادث وطيئة كالفعل والادراك الخاليين من الغرض ، والتخيل الوهمي ، وارتجاج الدماغ والقلب والأحشاء ، واضطراب الحركات . ويسمى احلال هذه الحوادث الوطيئة محل الأفعال النفسية العالية بالاشتقاق النفسي . ولكن الاشتقاق لا يقتصر على استبدال الوطيء بالعالي ، لأن هناك اشتقاقاً يحول النزعات والغرائز والميول الضارة الى ميول نافعة . والدليل على ذلك ان وراء الحياة النفسية الظاهرة حياة مظلمة مؤلفة من النزعات الخفية والأحلام المكبوتة ، فاذا استبدل الانسان بالميول المكبوتة ميولاً مباينة لها في الظاهر ومطابقة لها في الباطن سمي فعله هذا باشتقاق الميول أو تحويلها ، فيتحول الطمع الى قناعة والطموح الى كرم ، واذا غير الانسان أهداف ميوله فرفعها من طور أدنى الى طور أعلى سمي فعله هذا بالتصعيد (Sublimation) ، فتنقلب الغريزة الجنسية الى نزعات أسمى منها كالعشق ومحبة الجمال والشعر والموسيقا . (راجع Pierre Janet, les névroses 2e prtie ch. IV. 4 ، راجع أيضاً اصطلاحات اللاشعور ، والتصعيد ، والكبت ، والتحليل النفسي) .

الاشتهاء

في اللاتينية	Appetitio
في الفرنسية	Appétition
في الانكليزية	Appetence

اشتهى الشيء وتشهاه أحبه ورغب فيه رغبة شديدة ، والاشتهاء أو التشهي اصطلاح يستعمله الفيلسوف (ليبنيتز) للدلالة على الفاعلية التي يتصف بها المناد

« Monade » (راجع هذا اللفظ) . قال : « الاشتهاء هو فعل المبدأ الداخلي الذي يحدث التغير أو الانتقال من إدراك الى آخر . نعم ان الشهوة لا تستطيع دائماً أن تصل الى كل الادراك الذي تنزع اليه ، ولكنها تدرك منه دائماً بعض الشيء وتنتهي إلى إدراكات جديدة » ، (راجع Leibnitz, La monadologie, 15) .

والمناد في نظر (ليبنيتز) جوهر روحي متوسط بين الصور العقلية والجواهر الفردة الجسمانية ، وهو جوهر بسيط لا يولد ولادة طبيعية ، ولا يموت موتاً طبيعياً ، وله طبيعة داخلية شبيهة بطبيعة النفس البشرية . وهو متصف بالإدراك الذي يهب له ذاتية شخصية تجمع بين الكثرة والوحدة . ومن صفاته أنه دائم التغير ، دائم الانتقال من حال الى آخر ، وانه ذو شعور وحياة وفاعلية عفوية ، وان حالاته المختلفة تؤلف وحدة لا مادية ، فهو إذن قوة ونزوع وفعل ، والاشتهاء هو تلك الفاعلية الروحية التي يتصف بها المناد ، وله وجهان أحدهما خارجي والآخر داخلي ، فاذا نظرت الى الاشتهاء من الناحية الخارجية كان قوة طبيعية ، واذا نظرت اليه من الناحية الداخلية كان نزوعاً ورغبة وشوقاً وإرادة . وجميع تغيرات المناد انما هي نتيجة لهذا الاشتهاء ، وهي تغيرات متصلة ، فكل حالة حاضرة ناشئة عن حالة سابقة ، وكل تغير فهو مثقل بالماضي وممتلئ من المستقبل .

الاشراق

في اللاتينية	Illuminatio
في الفرنسية	Illumination
في الانكليزية	Illumination

الاشراق في اللغة الاضاءة والانارة ، يقال أشرقت الشمس طلعت وأضاءت وأشرق وجهه أي أضاء وتلألأ حسناً ، وأشرق المكان أنار باشراق الشمس ، وأشرقت الشمس المكان أنارته .

وفي اصطلاح الحكماء هو « ظهور الأنوار العقلية ولمعانها وفيضانها على الأنفس الكاملة عند التجرد عن المواد الجسمية » (السهروردي ، حكمة الاشراق ، طبعة كُربين طهران ١٩٥٢ ، ص ٢٩٨) .

وحكمة الاشراق (Philosophie illuminative) هي الحكمة المؤسسة على الاشراق الذي هو الكشف (راجع هذا اللفظ) ، وهي عين حكمة المشارقة الذين هم أهل فارس ، وهذا المعنى يرجع في الحقيقة الى المعنى الأول لأن حكمة المشارقة أيضاً ذوقية وكشفية ، ولا فرق بهذا الاعتبار بين حكمة الاشراق والحكمة المشرقية (Philosophie orientale) التي تكلم عنها ابن سينا ، لأن الشرق هو المنبع الرمزي لإشراق النور . وتختلف حكمة الاشراق عن الفلسفة الارسطية بأنها مبنية على الذوق والكشف والحدس ، في حين ان الفلسفة الارسطية مبنية على الاستدلال والعقل . واكتساب النفس للمعرفة في فلسفة ابن سينا لا يتم بالاحساس ولا بالخيال ولا بالوهم بل يتم بالعقل ، وأعلى درجات العقل الإنساني العقل المستفاد الذي يتلقى الاشراق من العقل الفعال . قال ابن سينا : « فان الأفكار والتأملات حركات معدة للنفس في قبول الفيض كما ان الحدود الوسطى معدة بنحو أشد تأكيداً لقبول النتيجة وان كان الأول على سبيل ، والثاني على سبيل أخرى ، كما ستقف عليه ، فيكون النفس الناطقة إذا وقعت لها نسبة ما الى هذه الصور بتوسط اشراق العقل الفعال ، حدث فيها منه شيء من جنسها من وجه وليس من جنسها من وجه » (ابن سينا ، كتاب الشفاء ، الفصل الخامس ، من المقالة الخامسة ، من الفن السادس من الطبيعيات ص ٣٥٦ من طبعة طهران) .

وقد بين السهروردي صاحب حكمة الاشراق انه لا شيء أظهر من النور ولا شيء أغنى منه عن التعريف ، فالشيء في نظره ينقسم الى نور وضوء في حقيقة نفسه أي في ذاته ، والى ما ليس بنور وضوء في حقيقة نفسه وهو الظلمة ، فان الظلمة هي عدم النور .

أما النور في نفسه ولنفسه فيسمى بالنور المجرد والنور المحض . وهذا النور المجرد إما أن يكون محتاجاً وفقيراً كالعقول والنفوس ، وإما أن يكون غنياً مطلقاً لا افتقار فيه بوجه من الوجوه ، إذ ليس وراءه نور ، وهو الحق سبحانه ، ويسمى نور الأنوار ، والنور المحيط ، والنور القيوم ، والنور المقدس ، والنور الأعظم الأعلى ، ونور النهار ، والنور الاسفهبد ، لأن الاسفهبد في اللغة الفهلوية زعيم الجيش ورأسه .

وأما ما ليس بنور في حقيقة نفسه فيقسم الى مستغن عن المحل كالجوهر الغاسق فانه مظلم لا نور فيه ، والى ما هو هيئة لغيره كالنور العارض أو العرضي ، وهو لا يقوم بذاته ، بل يفتقر الى محل يقوم به سواء كان محله الأجسام النيرة كالشمس أو الأجسام المجردة .

وكل جسم فهو في وجوده مفتقر الى النور المجرد ، والنور هو الظهور ، ونسبة النور الى الظلمة كنسبة الظهور الى الخفاء . وخروج الموجودات من العدم الى الوجود انما هو خروج من الظلمة الى النور ، فيكون الوجود كله نوراً ، بهذا الاعتبار ، ويكون أقرب الموجودات الى نور الأنوار أكثرها كمالاً ، ويكون أبعدها عنه أقلها نوراً وبهاء ، والمثل الأعلى للحكيم أن يتوغل في التأله والبحث . واذا كانت السياسة بيد حكيم متأله كان الزمان نورياً . واذا خلا الزمان عن تدبير إلهي كانت الظلمات غالبة (راجع كتاب حكمة الاشراق لشهاب الدين السهروردي ، نشره المستشرق هنري كربين في مجموعة دوم مصنفات شيخ اشراق ، بطهران سنة ١٩٥٢ ، وكتاب « Avicenne et le rècit visionnaire » لهنري كربين Henry Corbin أيضاً طبع في طهران سنة ١٩٥٤) .

(يتبع) جميل صليبا



أفكار أبي حنيفة الدينوري

في العلوم الطبيعية

إنّ أبا حنيفة أحمد بن داود بن ونند الدينوري من كبار علمائنا في القرن الثالث للهجرة . ومن أشهر تآليفه كتاب النبات الذي كان في ستّ مجلدات كبار ، وكان شرحه محمد بن معمر ابن اخت غانم في ستين مجلدة كما ذكره المقري في نفح الطيب ، وكفى من فضله ما يقول عنه الفاضل الألماني زِلبربرْج[1] (وكان نباتياً ومستشرقاً معاً) : ان اليونانيين بلغوا الى ما بلغوا في علم النبات في مدّة ألف سنة (ومنتهى علمهم كتاب ديسقوريدس) ؛ ولكن ما بلغ إليه المسلمون في قرنين أو ثلاثة فاق اليونانيين بكثير . ومما يجدر بالذكر ههنا أنّ كتب النبات اليونانية لم تكن تترجم الى اللغة العربية قبل وفاة الدينوري . فعلمه علم المسلمين وعلم الشرق .

إنّ نسخة كتاب النبات كانت موجودة زمن الأتراك في إحدى مكاتب حلب ، كما تذكر فهرستها ، ولكن لا توجد هناك منذ عدة سنين . ويوجد المجلد الخامس منه في مكتبة جامعة استانبول (وقد نشر النصفَ الثاني من هذه المخطوطة المستشرقُ برنارد ليوين من أهل أُبسالا بأسوج . ويشتمل على قاموس أبجدي للنباتات من حرف الألف الى الزاي) . والمجلد الثالث منه أيضاً يوجد في مكتبة جامعة يَيل (Yale) في أميركا ، ولكن قواعد تلك المكتبة التي

---

(1) Bruno Silberberg, Die Pflanzenbuch des Abū Hanīfa ad-Dīnawarī, ein Beitrag zur Geschichte der Botanik bei den Arabern (Zeitschrift der Assyriologie, Strassburg, 1910. pp. 225 - 60; 1911, pp. 39 - 68.

كتب بها إليّ مدير تلك المكتبة تجمله صعب الاستفادة لي . وكنت قد ظفرت بقطعة من هذا الكتاب في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بك في المدينة المنورة لما كنت هناك في السنة ١٩٤٦ م ، فنقلتها بيدي .

انّ كثيرين من العلماء اعتنوا في السنين الحالية بالأفكار النباتية عند أبي حنيفة الدينوري ، خاصة زلبربرج الألماني ، وأحمد عيسى بك المصري ، والأمير مصطفى الشهابي السوري . ولكن لم يعتن أحد الى الآن ، فيما أرى ، بأفكاره وآرائه في العلوم الطبيعية .

لما تصفحنا قطعة المدينة المنورة ، والمجلد الخامس من كتابه (أي مخطوطة استانبول) وكذلك اقتباساته التي توجد في كتب اللغة ـ مثل المحكم لابن سيده ، والصيدنة للبيروني ، والمفردات للغافقي ، وغير ذلك من المخطوط والمطبوع الذي وصل الينا من حسن حظنا ؛ وقد جمعتُ تلك الاقتباسات في ١٥٠٠ صفحة تنتظر الطبع ، وفيها أيضاً القاموس الأبجدي للنباتات من حرف السين الى الياء ـ وجدنا أن أبا حنيفة الدينوري يذكر في أثناء توصيف النباتات المختلفة أشياء كثيرة تتعلق بالعلوم الطبيعية . لستُ من المتخصصين ولا من المشتغلين بالعلوم الطبيعية ، وليس غرضي من هذه الأسطر القليلة إلا لفت أنظار زملائي المتخصصين بالعلوم الطبيعية أن يعتنوا أيضاً بهذه الناحية ليكملوا تأريخ العلوم الطبيعية عند المسلمين وعند العرب .

أنا ألتقط بعض ما كتب الدينوري عن المسائل الطبيعية ، على سبيل المثال ، من قطعة كتابه التي توجد في المدينة المنورة ، وسيتمكّن القاريء منها أن يعرف آراء الدينوري خاصة في مسئلة النار :

(١) باب في وصف الزناد : وهذا باب جمعت فيه أحسن ما حضرني من وصف الزناد ، ومن أيّ الشجر يختار ، وكيف يقتدَح بها .

أفضل ما اتُّخذت منه الزناد شجرتا المَرْخ والعَفَار . فتكون الانثى ، وهي الزندة السفلى ، مرخا ، ويكون الذكر ، وهو الزند الأعلى ، عفارا .

واختُلف في العفار . فزعم بعض أهل الرواة وبعض الأعراب أيضاً أنه ضرب من المرخ . ولا أحسب كذلك ، وان كان الزندان جميعاً كثيراً ما يكونان من الشجرة الواحدة . وأخبرني بعض علماء الأعراب أن العفار شجر يشبه شجر الغُبيراء ، منظره من بعيد كمنظره . وأما المرخ ، فقد رأيته ؛ وليست صفته هذه الصفة . المرخ ينبت قضياناً سمحة طوالاً سلباً ، لا ورق لها ... ومن فضيلة المرخ في كثرة النار ومسرعة الوَرْي ما ذكر أبو زياد الكلابي فانه قال : ليس في الشجر كله أورى زناداً من المرخ . قال : وربما كان المرخ مجتمعاً ملتفاً ، فهبّ الريحُ ، فحكّ بعضه بعضاً ، فأورى ، فاحترق الوادي كلُّه . قال : ولم نر ذلك في شيء من الشجر . وهذا شيء من أمر المرخ معروف . وقد ذكر غير أبي زياد أيضاً . (ورقة ٢٤٨/ب — ٢٤٩/ ألف) .

(٢) [صفة الزناد والاقتداح بها] . وصفة الزندة : انها عود مربّع في طول شبر أو أكثر ، وفي عرض اصبع أو أشفّ . وفي صفحاتها ، وهي خدودها ، فُرَض ، وهي نقر . الواحدة منها فُرضة ؛ وتجمع أيضاً فِراضاً . والزند الأعلى نحوها غير أنه مستدير ، وطرفه أدقّ من سائره . فأما وصف الاقتداح بها ، فانّ المقتدح اذا أراد أن يقتدح الزناد ، وضع الزندةَ ذاتَ الفرض بالأرض ووضع رجليه على طرفيها ، ثم وضع الزندة الأعلى في فُرضة من فراض الزندة ـ وقد تقدّم ـ فيّاً في الفرضة مجرى للنار الى جهة الأرض بحزّ ، وقد حزّه بالسكين في جانب الفرضة . ثم فتل الزند بكفه كما يَفتُل المثقب . وقد ألقى في الفرضة شيئاً من التراب يسيرا ، يبتغي بذلك الخشونة ، ليكون الزند أعمل في الزندة . وقد جعل الى جانب الفرضة عند مفضى الحزّ ربّة تأخذ فيها النار . فاذا فتل الزند ، لم يلبث الدخانُ أن يظهر . ثم يتبعه النار ، فتنحدر في الحزّ ، وتأخذ في الربّة . وتلك النار هي السقط ... وقال أبو زياد : يقال ارتجل فلانٌ الزندةَ اذا وضعها تحتَ ابهامَي رجليه ، أو

جرّ في رجليه . ثم يجعل الزند في فرضة الزندة ، ثم يدير الزند في الفرضة ، وتحت الزندة خرقة ، ويمكّي الدخان . والتمكية تصعيد الدخان في السماء . فاذا خرجت النار ـ وانما تخرج في تلك الحكاكة التي خرجت بين الزندين ـ فصارت في الخرقة ، ضمّ الخرقة عليها وطرح الزندين ... فالريّة كل ما أوريتَ به النارَ من خرقة أو عطبة أو قشرة ... فان كان بعرة فتّها ليأخذ فيهـا النارَ ، فهي فتّـة ... وقال أبو زياد : خرفع العُشَر من أجود الحُرّاق ، يعني للزناد . وضروب الحرّاق كثير ، فمنها قشر شجر السيداق الذي يغسل برمادها الكتّان . (ورقة ٢٥٠ / ألف — ٢٥٥ / ألف) .

(٣) كشّ يكِش كشًّا : صوّت ؛ وسمعت كشّة الزند ، وذلك إذا همّ الدخان أن يتحوّل ناراً من قبل أن يقوى حرارتُه ، فيحدث من ذلك كما يحدث من الحطب إذا اندفع من جوفه دخان شديد الانزعاج كأنه النفخ ، وأرادت النار الملوق به فلم تقدر لقوّة اندفاع الدخان ، فحدث بينهما الصوت الذي يقال له « النّحيح » . (ورقة ٢٥٤ / ألف) .

(٤) وإذا كان الصوت من الحطب ، فذلك « نَقيض » و « كَصيص » . وإذا اشتدّ ، كان فَرقعة كفرقعة الملح . وأكثر ما يكون ذلك إذا ركبه ملح ، أو يبس من ذاته ، أو كان نِقدا فيه القَتَع ـ وهو الأكل ـ أو كان رطبًا ، أو مستكنًّا فيه ماء . (ورقة ٢٥٨ / ألف) .

(٥) باب في ألوان النيران والأرمدة والأدخنة ... فأما الجمر ، فلون جميع الحطب لون واحد أو قريب . ولكن في ألوان اللهب اختلاف ، وكذلك في ألوان الأدخنة والأرمدة . فاختلاف ألوان الأدخنة علّة اختلاف ألوان اللهب . واختلاف أجناس الحطب ، مع اختلاف أحواله في الرطوبة واليبس ، علّة اختلاف ألوان الأدخنة والأرمدة . على أنّ الأرمدة يلحقهـا اختلاف الألوان من جهة أخرى ، وهو النحو الذي ينطفىء عليه الجمر . وقد يعرض مثل

هذه العلة للدخان أيضاً . فأما العلة التي تعرض في اختلاف ألوان الدخان من قِبل اختلاف جنس الحطب فكالذي يعرض لدخان التَّنضُب فانه أبيض في مثل لون الغبار . ولذلك شبَّه الشعراء الغبارَ به . . . ودخان الرِمث أشدّ سواداً من دخان التنضُب ، ولم يبلغ أن يكون أسود ، ولكن أورق كلون الذِئب . ولذلك شبَّهت العربُ لونَ الذئب بلون دخان الرِمث ، والذئب أورق . (ورقة ٢٥٩/الف ـ ٢٥٩/ب) .

(٦) [ماهية النار والدخان] : قالوا : إنّ لهب النار على قدر ألوان الدخان . فكلما مال الدخان الى البياض مال لون اللهب الى الشقرة . وكلما كان الدخان أشدّ سواداً كان اللهب أشدّ حمرة . حتى اذا اشتدّ سواد الدخان اكمَدَ اللهب . وبين دخان الحطب الواحد في أوّل ما تشتعل فيه النار ، وبينه إذا توسّطت الحال ، واذا تناهى حَمْيُ الحطبِ وقهرتْه النارُ ، اختلاف كثير . فانّ النار في أول ما تأخذ من الحطب يكون لهبها أقرب الى السواد . ولا سيما ان كان الحطب رطباً . ثم ترى اللهب يصفو ويميل الى الشقرة على قدر احتدام الحطب ورقّة دخانه . حتى اذا كان أخيراً وذكت النار ورقّ الدخان ، اشقارّ اللهب . حتى اذ انقطع الدخان الغليظ البتة وعاد الحطب جمراً ذاكياً متوهّجاً ، رأيت له لهباً لطيفاً قليل الشقرة قريباً من البياض . وذلك هو الأُوار . وما بقي له من لون حينئذ فهو من قِبل جنس الجمر . ألا ترى أنّ أُوار الحُمم أخضر . وذلك لغلبة السواد على الفحم . وانما اللهب دخان حمي فآض ناراً . وكل شيء يحمرّ حتى يتناهى في الحرارة ويحوّل ناراً . وانما النار دخان انتهى في الحرارة ، أو جمرٌ . ألا ترى أن كل شيء لا دخان له ، فانك إذا أحميته آض جمراً من غير أن يكون له لهب ، كالحجارة والجمر والحديد وما أشبه ذلك . وان كان في الحمم بقية من الصنف الذي يصير من الحطب دخاناً ، صارت تلك البقية أوارا ، وهو أرقّ من الدخان وألطف . ولذلك يكون لون الأوار أيضاً أضعف

الألوان وأرقّ من لون اللهب . قال الأموي : الأوار مقلوب : أصله كان الوءار ، كما قالوا « يئس » ثم قالوا « أيس » . واذا عريت النارُ من دخان أو أوار أو جمر ، كانت بيضاء خالصة من البياض . كلون نار المهاة التي تقوم مقام القدّاحة ، وكلون نار المرآة المحرّقة . فانّ هاتين النارين بيضاوان من أنه لا دخان هناك ، ولا جمر . واذا ألهبنا الريّة المدخّنة ، كان اللهب الساطع من الربة أحمر من أجل الدخان . وانما ألهبتُها نار بيضاء كالبَردة . وليس هذا الكتاب موضع هذا الكلام لولا أن قوماً ممن ينظر في اللغة التبس عليهم أمر النار فيما وصفنا منه ، حتى ذهبوا مذاهب بعيدة ناكبة عن القصد . (ورقة ٢٦٠/ ألف ـ ٢٦٠/ب) .

(٧) ومن النبات ما يستوقد رطباً ، كما يستوقد اليابس . وأكثر ذلك من أجناس الحمض . وأفضل الحمض القَيسَب ، فانه ليس بين رطبه ويابسه فرق . (ورقة ٢٦١/الف) [وفي لسان العرب وتاج العروس في مادّة قسب ما يأتي : « والقيسب ضرب من الشجر . قال أبو حنيفة : هو أفضل الحمض . وقال مرّة : القيسبة ، بالهاء شجيرة تنبت خيولاً من أصل واحد ، وترتفع قدر الذراع . ونَورتها كنورة البنفسج . ويستوقد برطوبتها كما يستوقد اليبيس] .

(٨) ونيران الأدهان والصموغ والكباريت والزرانيخ شديدة اختلاف الألوان . منها الأسود ، ومنها الأخضر ، ومنها الأصفر ، ومنها الأحمر ، ومنها الأورق ، ومنها الأشهب ، في ألوان كثيرة غير محدودة .

وكذلك أرمدتها ، وأرمدة الأحطاب وحرّاقات الأشياء . فانّ منها الأسود والأصفر والأخضر والأحمر . وترى رماد النار العظيمة أصنافاً . وهو رماد ساعته ، فترى ظاهره بخلاف وسطه ؛ ووسطه بخلاف أسفله . وفيه الأبيض والأسود والخصيف . ولذلك قيل للرماد أخرج ؛ والخُرجة لونان يختلفان . وقيل له أيضاً أورق وخصيف . ورماد الحجارة ، وهو الكلس ، أشدّ بياضاً . وكل ذلك على قدر الشيء المحترق ، وعلى قدر حاله في النفَس والاختناق ،

وبلوغ الغاية وقصوره عنها ، وعالٍ بين ذلك يدلّ مذكورها على ما لم يُذكَر ...

والطائفة المشعلة من النار : « شهاب » ، والجمع : شُهُب . قال الشاعر ، ووصف الشعرى العَبورَ فشبّهها لعظم نورها بشهاب نار :

وقد غارت الشعرى العبور كأنها شهابُ غَضاً يرمى به الرجوانُ

واختار الغضا لذكاء ناره . وليس في الشجر أذكى ناراً ولا أبقى جمراً منه ، يقال انه ربما أُوقدت منه النارُ العظيمة ، ثم يرتحلون فتهمد أولاً أولاً ويبقى الجمر في عُقرها تحت الرماد الحينَ الطويل وقد هبّت عليه الأرواحُ وضربته الأمطار فدافع عنه ما فوقه من الرماد . أخبرني بذلك غير واحد . ولا أعلم ، بعد الغضا ، أكثر ناراً وأقل رماداً من حطب القَرظ . أخبرني غير إنسان أنهم كانوا يوقدون ، وهم بمصر ، بحطب السَّنْط (وهو قرظ ينبت بنواحي سُوان) ، قالوا : فكنّا ربما أُوقدنا به النهار كله والليل كله فلا نجد من الرماد إلا اليسير مع ذكاء وقوده ... والعَصَل فى ذلك مثل الغضا . والعصل يشبه الدِفلَى . وكذلك حطب الَمظ ، ويتخذ منه داذِين يستوقد استيقاد الشمع . ويتخذ من أطراف العصل رِقلي . والضُّبار أيضاً كذلك في جودة الحطب . وليس في الشجر اذا اشتعلت فيه النار وهو رطب أشد فرقعة منه ؛ انما هو بمنزلة الَمخاريق .

(ورقة ٢٦١ / ألف ـ ٢٦٢ / ألف) .

محمد حميد الله

ما سمعت وما رأيت

في بلاد السوفيت

- ١ -

وجّه مجمع العلوم السوفيتي دعوة الى المجمع العلمي العربي بدمشق لتكليف أربعة من أعضائه بالسفر الى بلاد الاتحاد السوفيتي ، وكانت الغاية كما جاء في نص الدعوة الاطلاع على النشاط العلمي واطلاع العلماء السوريين على نشاط المؤسسات العلمية والثقافية وحياة الشعب السوفيتي .

وقد كلّف رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق كلاً من الأعضاء : الأمير جعفر الحسني والشيخ محمد بهجة البيطار والدكتور سامي الدهان وكاتب هذه الكلمة ، وكان مني أني لم أتردد لحظة في قبول هذا التكليف الذي صادف هوى في نفسي وقد جبلت على حب السفر والسياحة في أرض الله الواسعة ، فسرعان ما تهيأت للأمر واتخذت له عدته ، ولم تمض أيام حتى أنهيت ترتيب شؤوني الخاصة في جانب المعاملات الرسمية التي انتهت في غاية من السرعة ، وغادرت دمشق صحبة الزملاء المذكورين مساء الأحد الواقع في ٣١ من تشرين الأول سنة ١٩٥٤ على متن احدى طائرات شركة S A S التي انطلقت بنا في الجو الرحب مع ركابها الذين يربون على الخمسين ، وكانت تطوي الفضاء تملو السحب تارة حاجبة عنا رؤية اليابسة والبحر ، وتخترقها تارة اخرى دون أي انزعاج ، ناهيك بمضيفاتها الحسناوات اللواتي تم بهن تلطيف وعثاء السفر وتخفيف وحشة الانطلاق في هذا الفضاء ، ونحن في ارتفاع عن الأرض يعدو في بعض الأحيان ألفي متر .

وما هي إلا زهاء خمس ساعات من الطيران حتى حطت في مطار روما فتوقفت

فيها ساعة واحدة وكذلك فعلت في كل من جنيف وفرانكفورت و كوبنهاغن ،
كنا نمضي هذه الفترات من الزمن على وجه البسيطة آكلين شاربين وفاحصين
عن أوجه جديدة نراها وعن معروضات صناعية متنوعة تنم على ما تنتجه تلك
العواصم من طرائف ، الى أن انتهى بنا الطيران الى استوكهولم عاصمة بلاد
السويد بعد ١٤ ساعة من الطيران قطعنا بها أو قطعت بنا مسافة ٤٦٥٠ كيلومتراً ،
وانتقلنا بعد إتمام الاجراءات النظامية المتعلقة بالأمن والمكوس ، الى فندق وسط
في صميم تلك العاصمة الجميلة ضيوفاً على شركة الطيران الاسكندنافية لنبيت ليلة
واحدة ثم نتابع الرحلة . وما أن أخذنا قسطاً قليلاً من الراحة حتى صرنا
طائفين في شوارع تلك العاصمة ، مستبضعين بعض الحوائج ، وكذلك كان
دأبنا في ضحى اليوم الثاني . وغادرناها على متن الطائرة ذاتها ظهر ذاك اليوم
ووجهتنا الشمال الشرقي من تلك الأصقاع الشمالية إلى أن حطت الطائرة في هلسنكي
عاصمة فنلاندا بعد ساعتين كان يملأ نظرنا خلالها مناظر الجزر العديدة التي تغص
بالأحراج . وفي هلسنكي ودعنا طائرتنا وودعنا ملاحوها ، وكان في لقائنا في
المطار بعض موظفي السفارة السوفيتية في تلك العاصمة . وانتقلنا بعد توقف ساعتين
من الزمن الى طائرة سوفيتية ذات محركين ، وهي دون طائرتنا السابقة ذات
المحركات الأربعة مظهراً وحسناً ، خلو من الزخرفة إلا أنها والحق يقال بالغة
حد الاتقان في حسن الطيران والمهارة البالغة في الانطلاق عن سطح الأرض
ومنتهى الهدوء في الهبوط ، والغريب في الطيران السوفيتي عامة أنه لا يطلب فيه
الى الركاب أن يوثقوا بوثاق المقعد كما هو الشأن في سائر الطيارات ، كما انه
ليس ثمة أي تحذير من التدخين إبان صعود الطائرة وهبوطها ، في جانب الراحة
التامة التي يشعر بها الراكب مع النقص الظاهر في كل ما يدعى كمالياً . وبعد
طيران ساعة ونصف الساعة كنا نمتع البصر في منظر الأحراج الكثيفة والجزر
الصغيرة المبعثرة في الخضم ، هبطت الطائرة في مطار لينغراد ، ومرعان ما صعد

اليها أحد موظفي الأمن السوفيتي محيياً وفاحصاً جوازات سفر الركاب الذين لم يكن عددهم ليزيد عن العشرين بينهم بعض الضباط برتب كبيرة . ولم تستغرق هذه المعاملات الشكلية سوى دقائق ، أذن لنا بعدها بالنزول من الطائرة ، ومررنا مع ركاب الطائرة تتقدمنا سيدة من موظفات المطار الى قصر قديم قيل إنه من بقايا عهد القياصرة ، فيه مطعم فسيح جلسنا والرفاق على إحدى موائده حيث تناولنا العشاء وعدنا بالترتيب نفسه الى الطائرة التي حلقت بنا في سماء لينغراد باتجاه موسكو ، فلاحت لنا أنوارها عن بُعد بعد ما يقرب من ساعة واحدة ، ولم تمض سوى ٤٥ دقيقة إلا وحطت الطائرة عصى الترحال في المطار .

وما ان نزلنا من الطائرة حتى لقينا في استقبالنا لفيفاً من أعضاء مجمع العلوم السوفيتي يرافقهم بعض التراجمة وفيهم من يتكلم العربية الفصحى ، وهو شاب أسمر اللون طويل القامة عرفنا أنه آشوري الأصل يقيم في تلك البلاد منذ سنين ، ورجحنا أن تكون اللغة الفرنسية لغة التفاهم مع التراجمة الذين خصصوا لمرافقتنا باعتبار أنّ زملاءنا يتقن أكثرهم هذه اللغة . وألقى أحد المستقبلين كلمة بالروسية مرحباً بنا باسم مجمع العلوم السوفيتية ، ترجمت الى العربية من قبل الترجمان الذي تقدم ذكره ، فرد عليه رئيس الوفد الأمير جعفر الحسني بكلمة مناسبة شكر للمستقبلين حسن الاستقبال ، نقلها الى الروسية الترجمان الآشوري ، ولكننا فضلنا بعد ذلك كما هم فضلوا أيضاً أن تكون لغة التفاهم معهم الفرنسية ، لا سيما وان ترجمانة روسية اسمها ناديا (وتلفظ في الروسية نادين) كانت الترجمانة المفضلة لحسن ترجمتها وسرعتها فيها بما يثير الاعجاب .

لم تفتح حقائبنا ولم يجر أي بحث عما معنا أعطينا سيارتين أقلتانا بعد مسير نصف الساعة من المطار الى المدينة في طريق عريضة وحسنة الإضاءة ، استدعى انتباهنا في طريقنا بناء جامعة موسكو الذي يقرب طراز بنائه من طراز ناطحات السحاب ، والشوارع التي اجتزناها كلها فسيحة ونظيفة ، الى أن توقفت سيارتانا أمام الفندق الذي خصص لمقامنا في موسكو ويعرف بفندق سافوي .

والذي علمناه فيما بعد أن هذا الفندق هو أحد الفنادق الكبيرة المعدة لاستقبال الأجانب تتبع مصلحة عامة من مصالح الدولة اسمها اينتوريست ومعناها السياح الأجانب وعددها في موسكو ثلاثة وسيضاف اليها فندق رابع جديد لعله من أعظم الفنادق في أوروبا . يقف على باب كل من هذه الفنادق شرطي يتناوب وأحد زملائه ليلاً ونهاراً لا يفارقه أبداً .

وقد خصص لكل منا غرفة فسيحة تكاد تكون جناحاً خاصاً تشتمل على بهو للاستقبال حسن التأثيث مع بيانو ، في جانب غرفة المنام والحمام وتوابعه . والمطعم في الطابق الأرضي وكانت غرفنا موزعة بين الطابقين الأول والثاني .

لقد كان وصولنا الى موسكو مساء الثاني من تشرين الثاني ١٩٥٤ ونظم برنامج زيارتنا في اليوم التالي بأن زارنا الموفد من قبل مجمع العلوم وقدمت الى كل منا الخطوط الرئيسية للبرنامج المعد تاركين الينا الخيار فيما تقدمه في جانب ذلك . واليكم برنامج تلك الزيارة مترجمة عن الفرنسية :

الثلاثاء	٢ / ١١	الساعة ٢١٫٢٠	قدوم الوفد الى موسكو
الأربعاء	٣ / ١١	الساعة ١١٫٠٠	النقاش مع الوفد في برنامج الاقامة في الاتحاد السوفيتي
		الساعة ١٥٫٠٠	زيارة العاصمة
		الساعة ١٩٫٣٠	اوبرا (غالكا)
الخميس	٤ / ١١	الساعة ١٠٫٣٠	المعرض الزراعي
		الساعة ١٥٫٢٠	متحف الثورة
		الساعة ٢٠٫٠٠	السيرك
الجمعة	٥ / ١١	الساعة ١٠٫٣٠	معهد العلوم الشرقية
		الساعة ١٠٫٣٠	المعهد الطبي
		الساعة ١٦٫٠٠	الاستقبال في مجلس مجمع العلوم للاتحاد السوفيتي

الجمعة	٥ / ١١	الساعة	٢١٫٣٠	باله «بحيرة البجع»
		الساعة	١٠٫١٥	معهد الآداب الدولي
السبت	٦ / ١١	الساعة	١١٫١٥	مكتبة لينين
		الساعة	١٦٫٠٠	السينما
		الساعة	٩٫١٥	الساحة الحمراء
الأحد	٧ / ١١	الساعة	١٩٫٣٠	اوبرا
الاثنين	٨ / ١١	الساعة	١٠٫٠٠	قاعة الصور لتريتاكوف
		الساعة	١٦٫٠٠	حفلة موسيقية
		الساعة	٢٠٫٠٠	حفلة موسيقية في الكونسرواتوار وقد ترك هذا اليوم في الأصل فارغاً ثم جرى ملؤه بعد موافقة أعضاء الوفد
الثلاثاء	٩ / ١١	الساعة	١١٫٠٠	معهد طبي
		الساعة	١٢٫٠٠	فرع العلوم التاريخية
		الساعة	١٥٫٣٠	معهد اللغات
الأربعاء	١٠ / ١١	الساعة	١٠٫٣٠	جامعة موسكو
		الساعة	١٢٫٠٠	معهد طبي
		الساعة	١٩٫٠٠ — ٢٠٫٠٠	الاستقبال في المفوضية السورية (وقد ترك في الأصل مكانه فارغاً)
الخميس	١١ / ١١			ستوديو
الجمعة	١٢ / ١١	الساعة	١٠٫٣٠	معمل السيارات
		الساعة	١٠٫٣٠	معهد طبي

ونظم برنامج مماثل في زيارة كل من لينغراد وستالينغراد وطاشكند، وهو يبدأ من التاسعة والنصف أو العاشرة صباحاً حتى الرابعة عشرة ، ومن الساعة الخامسة عشرة والنصف حتى التاسعة عشرة والنصف مساء ، ولم تخل ليلة من

الليالي من السهر في أحد الملاهي من نوادي موسيقية الى أوبرا ودور التمثيل أو السيرك ، ولم يترك لنا من الفراغ سوى ساعات الطعام والمنام ، وانفردت عن رفاقي الثلاثة ببرنامج خاص تتضارب أوقاته وأوقات الزيارات الأخرى في معظم الأحيان ، كان يشتمل على زيارة بعض المؤسسات الطبية والمشافي ، كما أنه قد جرى بعض التعديل الطفيف في البرنامج باضافة زيارة بعض الأماكن لم تلاحظ في البرنامج المرسوم .

غادرنا موسكو مساء السبت ١٣ من تشرين الثاني بالقطار الى لينغراد وحللنا في نزل استوريا وبعد قضاء خمسة أيام فيها عدنا في ١٨ من الشهر بالقطار أيضاً الى موسكو حيث زرنا أماكن أخرى لم تكن في البرنامج السابق وفي صباح ٢٢ من تشرين الثاني غادرناها بالطائرة الى ستالينغراد ومكثنا فيها ٣ أيام عدنا بعدها بالطائرة الى موسكو ، وتركناها بعد استراحة ليلة واحدة وبالطائرة الى طاشكند في ٢٥ تشرين الثاني قضينا يوماً واحداً في سمرقند وعدنا في ٢٩ منه الى موسكو وزرنا في هذه المرة إحدى التعاونيات الزراعية وأقيمت لنا حفلة وداع رسمية في مجمع العلوم السوفيتي مساء ٣٠ من تشرين الثاني وغادرنا موسكو نهائياً على متن إحدى الطائرات الروسية الى هلسنكي بعد أن ودعنا في مطار موسكو لفيف من أعضاء مجمع العلوم وبعض المستشرقين الذين تعرفنا عليهم إبان مقامنا في العاصمة المذكورة ، وبعد أن هبطت الطائرة في مطار لينغراد مكثنا فيه ساعة واحدة تناولنا خلالها طعام الغداء . وفي هلسنكي انتقلنا الى إحدى طائرات الشركة السكندينافية ذات المحركات الأربعة متجهين الى ستوكهولم التي لم نمكث فيها سوى ثلاث أيام زرنا خلالها بعض معالمها وانفردت بزيارة أحد المستشفيات فيها وفي ٤ من كانون الأول غادرنا ستوكهولم الى كوبنهاغن عاصمة الدانيمرك حيث قضينا فيها ٥ أيام وزرنا خلالها بعض المتاحف والمستشفيات وغادرناها على متن إحدى طائرات الشركة السكندينافية في ٨ من كانون الأول

عائدين الى دمشق بعد توقف ساعة واحدة في كل من فرانكفورت ومونيخ واستانبول وبيروت .

بلاد الاتحاد السوفيتي

سوفيت (Soviet) بالروسية معناها المجلس ، وأطلق في الأصل على مجلس مندوبي العمال والجنود الذي عقد في بتروغراد (لينغراد) خلال الثورة الروسية عام ١٩١٧ ، ثم على الدولة الروسية في النظام البولشفيكي . كما انه أطلق اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية U. R. S. S. على الاتحاد الفيدرالي الذي يجمع بلاد روسيا القيصرية وما انضم اليها من بلاد مجاورة ، بلغ عددها ١٦ دولة .

وهي تعد بحق (على حد قول لينين) عالماً قائماً بذاته لا من حيث اتساع مساحة البلاد فحسب ، بل بعدد السكان ناهيك بالموارد الطبيعية والامكانيات الصناعية ، فبالسعة تبلغ مساحة هذه البلاد ضعفي مساحة الصين وأضعاف الولايات المتحدة و ٣٠ ضعفاً من مساحة فرنسا . وتبلغ من الطول زهاء ١٠٠٠٠ كيلومتر (ما يقرب من ربع محيط الأرض) ومن العرض ٦٠٠٠ كيلومتر . وتوازي جنوباً الخط ٣٥ وشمالاً الخط ٨٠ مما يجعلها أوسع من امريكا الشمالية بكاملها .

وقدرت مساحة البلاد السطحية بـ ٢١٩٢٣٦٦٠٠٠ كيلومتر مربع بما يقارب من سدس اليابسة بأجمعها . ويجعل هذا الامتداد الهائل لبلاد الاتحاد السوفيتي ان فرق الساعة يبلغ بين أقصى طرفيها ١١ ساعة ، إذ عندما ينتصف النهار في موسكو تكون الساعة في الحدود الروسية البولونية ١١ بينما هي ٢٣ في مضيق بهرينغ ، وليس الفرق في الساعة بين باريز وتوكيو بأكثر من ٥ ساعات .

ومع هذا الامتداد الوحيد في نوعه في العالم كله ، فان لبلاد الاتحاد السوفيتي من المناخ ما يكاد يكون متجانساً ، وهي خلافاً لما هو باد في معظم بلاد القارة الاوروبية من سهولة الانتقال القريب من بلد يختلف عن سواه اختلافاً بيناً في درجة الحرارة وحالة الجو وما الى ذلك من الفوارق التي تبدو بجلاء في بعض

البلاد (كفرنسا مثلاً) فان بلاد الاتحاد السوفيتي الشاسعة ليوجد بين أطرافها المترامية تشابه في الاقليم والمناخ . والثلج يستر أرضها كلها في الشتاء بشكل بساط واسع يمتد من الشمال بالقرب من أصقاع القطب الشمالي حتى الجنوب في سواحل البحر الأسود ، ولا ينجو من برده القاسي سوى بعض السواحل من شبه جزيرة القرم المحمية بسلسلة من الجبال يجعلها تنعم ببعض الدفء في الشتاء [١] .

ويصعب تعليل السبب في هذا المناخ القاسي والمتشابه عندما يكتفي بالقاء نظرة عابرة على مواقع تلك البلاد بالنسبة الى ما يجاورها من بلاد القارة الأوروبية ، والخرائط التي بين أيدينا لا تتيح لنا معرفة موقع موسكو بالضبط ، فبينما تشير هذه الخرائط الى أن العاصمة المذكورة في مستوى باريز أو في الجنوب منها قليلاً ، نراها في الحقيقة تقع شمال باريز بـ ٨٠٠ كيلومتر ، ولينغراد شمال باريز بـ ١٤٠٠ كيلومتر ، ولا يوازي باريز في خط الطول سوى ستالينغراد وان يالطة الواقعة في أدنى جنوب البلاد توازي الخط المار من بوردو ، مما يجعل بلاد الاتحاد السوفيتي بمجموعها ذات مناخ شمالي بالنسبة الى سائر بلاد القارة الاوروبية .

وتمتاز بلاد الاتحاد السوفيتي في جانب هذا المناخ الموحّد والسعة المنقطعة النظير بكثرة عدد السكان أيضاً . ففي أطلس اوكسفورد (the Oxford atlas) طبعة ١٩٥٤ ان عدد سكان هذه البلاد هو ١٩٣،٠٠٠،٠٠٠ استناداً الى إحصاء سنة ١٩٤٦ ، ويغلب للظن (كما يؤكد ذلك المطلعون) ان هذا الرقم قد ارتفع الى ٢٢٠ مليوناً في الوقت الحاضر . ولم يبلغ هذا العدد سوى ١٧٠،٤٦٤،٠٠٠ في احصاء سنة ١٩٣٩ ، واذا كان مرد بعض هذا الترق الى اندماج بعض دول البالطيق وبولندا وفنلاندا واحدى مقاطعات رومانيا [٢] ، فانه مما لا شك فيه

(١) تبلغ درجة الحرارة الوسطى في يالطه + ٣،٥ في كانون الثاني و – ١٥،٤ شمالي سلسلة الجبال التي تحمي هذه البقعة (استراخان) .

(٢) يروي تقويم (Wheitaker) ان الاندماج الذي تم سنة ١٩٤٠ قد زاد في مساحة الأرض الى ٩،١٣٨،٠١٢ ميلاً مربعاً وعدد السكان الى ١٨٢،٥٦٥،٠٠٠ مما يجعل نصيب كل ميل مربع ٢٠ شخصاً .

ان عدد السكان في بلاد الاتحاد السوفيتي آخذ بالزيادة المطردة بعد أن تحسنت الحالة الصحية في البلاد تحسناً ملموساً وقضي نهائياً على الأوبئة المستوطنة في بعض المقاطعات وما تعني به الحكومة من تطبيق أساليب الوقاية من العلل والأمراض المختلفة بما تكاد تكون الوحيدة من نوعها في العالم أجمع (وسأشرح ذلك في بحث خاص) .

واذا قيس عدد السكان بمقتضى إحصاء سنة ١٩٣٩ مع عدد السكان في الأقطار لوجدنا ان الرقم المذكور يساوي نصف عدد سكان الصين وهو دون عدد سكان الهند (سنة ١٩٣٩) بكثير ، إلا انه يزيد على عدد سكان الولايات المتحدة الأمريكية بـ ٤٠ مليوناً ، ويبلغ أكثر من ضعفي عدد سكان اليابان ، وثلاثة أضعاف والنصف من عدد سكان بريطانيا العظمى وايرلندا الشمالية . مما يجعل بلاد الاتحاد السوفيتي في عداد أكبر البلاد الآهلة بالسكان في العالم ، نجد مواطناً سوفيتياً بين كل عشرة من سكان العالم . ومع ذلك فانه ما يصيب الميل المربع من السكان لم يكن سوى (٢١) سنة ١٩٣٩ وأصبح (٢٤) سنة ١٩٤٦ وهو أعظم بكثير مما هو عليه في كندا (٣ في كل ميل مربع) أو استراليا (٢) ولكن أين منه في عدد المملكة المتحدة (٥٠٩) ومن اليابان (٤٠٠) وايطاليا (٣٤٣) والمانيا (٣٤٧ سنة ١٩٣٩) والصين (٢٣١) وبولندا (٢٣٣) وفرنسا (١٩٧) والولايات المتحدة (٤٤) .

ولا يغرب عن البال من ان في بلاد الاتحاد السوفيتي مساحات كبيرة متجمدة لا يمكن الاستفادة منها في جانب الأحراج الكبيرة البكر ، تخلو هذه وتلك من السكان مما ينبغي معه إسقاطها من مجموع المساحة السالفة . وعلى ذلك فاذا نظر الى البقاع الصالحة للزراعة وحدها لبلغت كثافة السكان بنسبة ١١٢ لكل ميل مربع مقابل ٩١ في الولايات المتحدة . ومع ذلك لا تجد بلاد الاتحاد السوفيتي في عداد البلاد الكثيفة السكان بل على العكس قليلتها .

وليس توزع السكان واحداً في جميع الأنحاء ، فناحية موسكو التي تكثر فيها المراكز الصناعية يصيب الميل المربع من مساحة أرضها ٢٥٩ شخصاً ، وفي أوكرانيا ذات التربة السوداء (Chernozion) التي لا تماثلها في الخصب أي تربة أخرى يختلف نصيب الميل المربع فيها بين ١٥٠ و ١٨٠ شخصاً ، ويبلغ هذا العدد ١٣٠ في المقاطعات المتاخمة لنهر الفولغا . أما في سيبريا فاذا تركنا جانباً بعض النواحي الصناعية فان كثافة السكان فيها لا تتخطى ٢٥ أو ٤٠ حتى في الجنوب الغربي ، وهي أقل بكثير في البقاع المركزية وفي الجنوبية الشرقية . وتختلف نسبة كثافة السكان في تركستان وفي القوقاز بين ٩٥ و ١٥٠ شخصاً في الميل المربع ، كما ان من الأماكن النائية ما تكاد تخلو من السكان تماماً (صحارى الأورال) وعلى الجملة إن كثافة السكان تتدنى من الغرب الى الشرق ولو تشابهت البلاد في المناخ .

وتتشابه مرامي السياسة في البلاد وسياسة العهد القيصري ، في صهر الأقوام المختلفة باللغات والعادات والدين في بوتقة الاتحاد السوفيتي ، واللغة الروسية هي هي السائدة في جميع جمهوريات الاتحاد ولو تمتع بعض هذه بما يسمى بالاستقلال الداخلي أو الحكم الذاتي . وعدد هذه الجمهوريات الآن ١٦ موزعة نفوسها كما يلي :

اسم الجمهورية	عاصمتها	عدد النفوس
روسيا	موسكو	١٠٩٦٢٨٠٦٠٠٠
اوكرانيا	كيف	٤٠٦٠٠٠٦٠٠٠
روسيا البيضاء	مينسك	١٠٦٣٨٦٦٠٠٠
جورجيا	تفليس	٣٦٥٤٠٦٠٠٠
أرمينيا	اريوان	١٩٢٨٢٦٠٠٠
آذربايجان	باكو	٣٦٢١٠٦٠٠٠

اسم الجمهورية	عاصمتها	عدد النفوس
قازاقستان	آلما آتا	٦٬١٤٦٬٠٠٠
قيرخيزستان	فرونز	١٬٥٠٠٬٠٠٠
تركانستان	عشقاباد	١٬٢٥٤٬٠٠٠
اوزبكستان	طاشكند	٦٬٣٠٠٬٠٠٠
طاغستان	ستاليناباد	١٬٤٨٥٬٠٠٠
كاريلوفنلاند	فليبوري	٤٧٠٬٠٠٠
مولدافيا	كيشنف	٢٬٢٠٠٬٠٠٠
ليتوانيا	فيلنا	٢٬٨٨٠٬٠٠٠
لاتافيا	ريغا	١٬٩٧١٬٠٠٠
استونيا	تالين	١٬١٣١٬٠٠٠

(للبحث صلة)

الدكتور حسني سبح

ايوانية البحتري

للمرحوم الشيخ عبد القادر المغربي

– ٣ –

(فهو يُبدي تجلُّداً وعليه كَلْكَلٌ من كلاكل الدهر مُرْسي)

(الكلكل) الصدر ، والبعير إذا برك وألقى ثقله على الأرض فانما يكون مركز الثقل تحت كلكله ، فاتخذ البلغاء الكلكل مثلاً لشدة الوطأة وقوة الضغط

(مالي وللدهر يرميني بكلكله)

و (مُرسي) اسم فاعل من أرسى الشيء ورسا : ثبت ورسخ ومنه رست السفينة . والمعنى أن إيوان كسرى كالرجل العاقل يبدي الصبر والتجلد على شدائد الدهر أمام الناس ، حالة كونه رازحاً تحت كلكل عظيم من كلاكل الدهر أطبق عليه .

(لم يَعِبْهُ أنْ بُزَّ مِنْ بُسُطِ الديباج واستُلَّ من ستور الدِمَقْس)

(بزّه) سلبه ومنه المثل (من عزّ بزّ) وربما كان أصل معنى فعل (بزّه) سلبه بزّه أو بزّته أي ثيابه . ثم عم استعماله في كل سلب . ومن التوارد في ذلك كلمة (dérober) الفرنسية فانها بمعنى سلبه وبديهي ان أصل معناها سلبه ثوبه . وبُزّ واستُلّ في بيت البحتري مجهولان . والدِمَقْس الحرير أو الأبيض منه . يقول : إن الإيوان لم يعبه أن سُلِب وجُرِّد من بُسط الديباج ولا أن استُلّ وعُرّي من ستور الحرير . أي اذا كان في زمن سكانه الأكاسرة مفروشاً بالبسط ومجلّلاً بالستائر وأصبح بعدهم مُعرّى منها فليس ذلك بمُزرٍ به ، ولا حاطّاً من قدره . إذ أن له الآن من جلالته وروعته ما يكسوه مهابة في النفوس فوق مهابته مذ كان مغشّى بالحرير والديباج .

(مُشْمَخِرٌّ تعلُو له شُرُفاتٌ رُفِعت في رؤوس رَضوى وقُدْس)

المشمخرّ من الجبال : المرتفع العالي، ومنه قول البديع في قصيدة بشر بن عوانة :

فخــرّ مضرّجًا بدمٍ كأنّي هدمتُ به بنــاءً مشمخراً

و (رَضوى) بفتح الراء جبل بين مكة والمدينة على مسيرة يوم من ينبُع . و (قُدْس) بضم القاف جبل عظيم بأرض نجد : أي إن ذلك الإيوان عال مرتفع كأنما شُرُفاته مرفوعةٌ على رؤوس ذينك الجبلين . وهذا كقول عنترة في البطل الذي قتله :

(بَطَلٌ كأن ثيابه في سَرْحةٍ)

أي إنه طويل القامة كأن ثيابه مُلْقاةٌ على شجرة من شجر السَّرْح .

(لابساتٌ من البياض فما تُبْــــصَرُ منها إلا غلائل بُرْسِ)

قوله (لابسات) صفة للشُّرُفات . وشُرُفات القصر أعاليه المحيطة بإجّاره . والإجّار السطح وجمعه أجاجير . والمراد من (البياض) الثياب البيض ، يقال فلان (يلبس السّواد والبيَاض) . والغلائل جمع غلالة : الثوبُ . والبُرْس بكسر الباء وتضم : القطن يقال (طارَ له لُغام كالبِرس المندوف) واللُّغام الزَّبَد الذي يظهر على فم البعير . وهو كالرُّوال للفرس وكاللُّعاب للانسان . وفي بعض النسخ أيضًا (لفائف برس) جمع لفيفة ما التف واجتمع من الشيء . ورواية الغلائل أحسن الروايتين ، وقد جاءت قافية (البِرس) في معارضة شوقي مضافةً الى العصائب مذ قال :

(جَلّل الثلجُ دونها رأسَ (شيبرى) فبدا منه في عصائبِ برْس)

والعصائب جمع عِصابة : منديل يعصب به الرأس والعِمامة نفسها تسمى عِصابة أيضًا . أما (شيبرى) فهو اسم جبل ويظن ان اسمه أعني شيبرى محرف من كلة (منشار) العربية وكانوا يطلقونها أي كلة منشار على سلسلة الجبال . وجاءت (برس) أيضًا في لزوميات المعري قال .

لباسِيَ البرْسُ فلا أخضرٌ ولا خلوقيٌّ ولا أدْكَنُ

يقول : إنه يلبَسُ من الثياب البسيط : فلا يلبس ثياب الشهرة ولا ثياب أهل الترف ولا الصوفية .

ومعنى بيت البحتري أن شرفات الإيوان تجلببت من الكلس ثياباً بيضاً ، فلا يقع نظرك منها إلا على غلائل قطنٍ أبيض ، أو على (كُبْتَب) غزل من قطن أبيض أو على سبائب أي لفائف من قطن أبيض مندوف . أما شوقي في شعره فجعل الثلج على رأس جبل (شيرى) عمائمَ متخذةً من نسيج قطنٍ وهو ما يسمى الشاش أو اليشمق بالتركية .

(ليس يُدرَى أصُنعُ إنسٍ لجنٍّ سكنوهُ أمْ صُنعُ جنٍّ لإنسِ)

أي ان الناظر الى الايوان يحار فيمن بناه ولأي غرض بُني هل هو مما بَنَتْه الإنس للجن أو الجن للإنس . أما إنه من بناء الجن للإنس فظاهر لأن البشر اعتادوا أن ينسبوا كل بناء فخم عظيم الى صنع الجن ، من ذلك قول النابغة في تدمر :

إلاّ سليمان إذ قال الإلـه له قم في البريـة واحددها عن الفَنَد
وخَيِّس الجنَّ إني قد أذنت لهم يبنُون تَدْمُرَ بالصُّفَّاح والعَمَد

فلا عجب اذا توهم البحتري أن الإيوان من صنع الجن بنوه للأكاسرة . أما توهمه في كونه من بناء الإنس للجن فمغزاه أن البشر إنما يسكنون في قصورٍ وأبنية معهودة لنا . وضخامةُ الإيوان وارتفاع طاقهِ وعلوّ قصوره وجدرانه كل ذلك لم نعهد مثله لسكنى البشر ، فلم يبق إلا أن الإنس بنوه لمخلوقاتٍ غريبةٍ من غير جنسنا وهم الجن ، فهو يرتاب في أن الأكاسرة كانوا يسكنونه ويقول في نفسه ربما كان الجن هم الذين سكنوه وعمَرُوه .

(غير أني أراهُ يشهد أنْ لم يكُ بانيه في الملوك بِنِكْسِ)

(النِكس) الضعيف الدنيء الذي لا خيرَ فيه . وضمير أراه يرجع الى الايوان فالبحتري يقول إني مها ترددتُ في أمر صانع الإيوان وفي غرضه

من تشييد هذا البناء العظيم فلن أتردد في حقيقةٍ يشهد لي بها الإيوان نفسهُ وهي أن بانيَه لم يكن نِكْساً دنيئاً ضعيفاً في الملوك . فنحن إذا لم نعرف الباني عرفنا عَظَمتَه من أثره الذي تركه لنا وهو هذا البناء .

إنَّ البناء اذا تعاظم قدره — أضحى يدلُّ على مقام الباني

(فكأنّي أرى المراتبَ والقو — مَ اذا ما بلغتُ آخرَ حسّي)

قوله (فكأني الخ ...) شروع في وصف مشهدٍ آخر من مشاهد الايوان لم يره بعينيْ رأسه وانما رآه بعيني خياله وتوهُّمه ، ذلك أنه تخيل كسرى في مجلسٍ له عام اتخذه في فضاء الإيوان حيث لا تُظلّلهم سقوف ولا كنان . وقد شهدَتْ هذا الاجتماع طبقاتٌ مختلفةٌ من رعيّته : عظماء المملكة ووفودِ الأقاليم والندماء والحظايا والقيان وغيرهم ممن لفَّهم هذا الزحام الذي تمثّله الشاعر في نفسه ، كأنه مشاهد ملموس . ويحتمل أن يكون رأى صورة في جدران الإيوان تُمثّل هذا المجلس تمثيلاً رآه بعيني رأسه . لكنه بالطبع ليس حقيقياً ومن ثمَّ جاز له أن يقول فكأني وكأني أي كأني أرى كسرى وقومه بأنفسهم لا برسومهم وصورهم . فتكون أرى بصرية وقد حذف كلمة (حقيقةً) التي هي حال من المفعول . ويؤيد هذا المعنى البيت الآتي (وكأنَّ الذي يريد اتباعاً الخ ...) على ما سيأتي في شرح معناه . فهو يقول إني اذا أجهدتُ نفسي واستنفدتُ آخرَ قوةٍ من قُوى شعوري وحسّي كنتُ كأني أرى مراتبَ منسّقةً درجاتٍ درجاتٍ وقد تبوَّأها القومُ بحسب منازلهم وأقدارهم : من وزراء كسرى وموابذته وأساورته وعظماء مملكته . والمراتب في قول البحتري أراد بها جمع مرتبة وهي صدر المجلس وتكون المراتب بمعنى مناصب الدولة كما قال الرضي :

ومن عجبٍ صدودُ الحظِّ عنا — الى المنعمِّمين على الخزايا

ففاقوا في المراتب والمعالي — وفُقْنا في الضرائب والسجايا

ثم شرع (أي البحتري) في وصف ما رآه من اجتماع الناس في هذا المجلس خيالاً محضاً أو صوراً مُخيّلة فقال :

(وكأنَّ الوفود ضاحين حَسْرى : من وُقوفٍ خلْفَ الزِّحام وجِلْسِ)

(ضاحين) جمع ضاحٍ من ضَحَا يضحُو أو من ضَحِيَ يَضْحَى إذا برز للشمس ووقعت عليه أشعتها . و (حسرى) جمع حسير وهو الكليل المُعيي و (وُقوف) جمع واقف و (جِلس) بكسر الجيم المجالس . وهو يقع على الواحد والجمع والمؤنث والمذكر . يقول الشاعر إنه حين طاف في أفنية الإيوان وتخلَّل ساحاته مثَّل له الخيال أو أنه رأى رسماً يمثِّل جلوس كسرى الى عظماء مملكته في تلك الساحات وخُيِّلَ اليه أن وفوداً من أقاليم بلاده شهدوا حقيقةً ذلك الاجتماع فكان منهم الجالس للملك ومنهم من لم يجد محلاً لجلوسه فبقي واقفاً خلف الزحام . وكلُّهم بارزون للشمس تَعِبُون مُعْيَوْن . وتَعَبُهم الذي تخيَّله الشاعر إما بسبب مجيئهم من بلاد بعيدة فيكونون قد أتعبهم المسير والإسراع فيه لئلا يفوتهم شرَفُ شهود هذا الاحتفال . أو أن تعبهم ناشئ عن فرط الزحام مع التعرض لحرارة الشمس . وفي أكثر النسخ (خُنْس) بالخاء والنون مكان جِلْس بالجيم واللام . و (جلس) رواية معجم البلدان طبع أوربا . أما (خُنس) فهي في النسخ الأخرى . واشتقاقها من خَنَسَ إذا تأخر وتنحى . والخانس المتأخِّر : فيكون المعنى أن رجال الوفود لما لم يجدوا مكاناً يجلسون فيه ظلُّوا واقفين خلف الزِّحام . ومنهم رجال تأخروا وتنحَّوا عن أولئك الواقفين ، إذ لم يمكنهم أن يبلغوا محل الزحام أيضاً . ويحتمل أن يكون قوله (خُنس) من خنس من بين أصحابه اذا استخفى وتوارى ، ويكون المراد بهؤلاء طائفة النساء اللواتي كن مستخفين عن الأنظار وبينهن القيان كما يأتي :

(وكأنَّ القيانَ وسْطَ المقاصيـــــــر يُرجّعْنَ بين حُوٍّ ولُعْسِ)

لم يقف الخيال بالشاعر عند حد ما رآه في الساحة الكبرى وإنما تخطَّى به الى القيان أي المغنيات اللواتي كنَّ في المقاصير جمع مقصورة وهي الغرف

المقصورة على النساء لا يدخلها غيرهن . فالشاعر رأى بخياله أو بعينه صورة تخيلت له القيان في المقاصير وهن يرجّعن في الغناء أي يردّدن أصواتهن في حلوقهن تفننا وإبداعاً في الصنعة . ثم وصف الشاعر هؤلاء القيان بالحسن والجمال واقتصر من أوصاف حسنهن على وصف الحوّة واللّعس فقال : إنهن كنّ (حوّا) جمع حواء (لُعساً) جمع لعساء . والحُوّة واللّعَس وكذلك اللّمى ثلاثتها بمعنى واحد : وهو أن يضرب احمرار الشَّفَة الى السواد فإن ذلك من المستملح عند العرب ، ويظهر أن جدتنا الأولى (حواء) كان فيها هذا الضرب من الملاحة فكانت شفتاها ضاربتين الى السواد ولذا سميت (حواء) . وكذلك جدنا الأول آدم (صلوات الله عليه) كان أسمر اللون لأن اشتقاق اسمه من (الأُدْمَة) وهي السمرة . أما ان الحُوَّة واللّعَس واللّمى بمعنى واحد فدليله قول ذي الرُّمة :

لمياء في شفتيها حُوّةٌ لَعَسٌ وفي اللِثاث ، وفي أنيابها شَنَب

فهو قد قال عنها انها لمياء أي ذات لَمَى ثم فسّر لنا معنى اللمياء فقال ان في شفتيها وفي لِثاتها حوّة وكأنه نظر بعين الغيب الينا والى قصورنا في فهم معاني كلمات لغتنا فأبدل من الحوة كلمة (اللّعَس) تفسيراً لها . أما (الشَّنَب) فهو بردٌ ورقة وماء في الأسنان . وقد جمع أحمد شوقي في معارضته لهذه القصيدة بين الكلمتين أيضاً فقال :

لا تحسّ العيون فوق رُباها غيرَ حُورٍ حُوِّ المراشف لُعْس

ومن أنواع البديع نوعٌ يسمى (الأَحاجي) وهي من قبيل الألغاز : تعمد الى كلمتين مستقلتين وتسأل مخاطبك على كلمتين مرادفتين لها بحيث يتألف منها كلمةٌ واحدة مستقلة في معناها فتقول له مثلاً أحاجيك في (انهض انهض) فتقول (قمقم) وهو اسم للإناء المعروف . وتقول له أحاجيك في (سار في الليل مدةً) فتقول في الجواب (سراحين) جمع سرحان بمعنى الذئب . ويسألك عن (اسكت ارجع) فتقول صهباء ، ثم يسألك شعراً :

يا من له حسنُ لفظٍ تثني عليه المثاني
ما مثل قول المحاجي أحوى الشفاه جفاني

جوابه (ألعسقلاني) وهو اسم ابن حجر المحدث المشهور فقوله : (أحوى الشفاه) يراد فيه (ألعس) وقوله (جَفاني) يراد فيه (قلاني) فإذا جمعتَ بين (ألعس) و (قلاني) تألف منهما اسمٌ واحد مستقلٌ وهو (العسقلاني) . والغرض من هذا البيان إثبات أن الحوّة واللَّعس شيء واحد وأن قول البحتري بين (حوٍّ ولعس) هو من قبيل عطف التفسير . وبناءً على هذا يرد على البحتري اعتراض نحوي أو لغوي ، وهو أن كلمة (بين) لا تضاف إلا الى متعدد وقد وقعت (أي بين) في كلامه مضافةً الى شيء واحد لا متعدد فهو يقول إن تلك القيان هنّ ما بين نساءٍ حوٍّ لُعس أي سمر الشفاه ثم سكت وكان من المنتظر أن يقول كن بين نساء حو لعس ونساء أُخر حُمر الخدود مثلاً . وقد يقال في الجواب انه ذكر الموصوفات بالحوّة واللعس وسكت عن الباقيات ليذهب الذهن في تعيينهن كل مذهب ، كأنه قال بين حوٍّ لُعس وبين غيرهن من ذوات الأوصاف المختلفة . هذا وربما كان المعنى الصحيح للبيت غير ما ذكرنا ، وهو أن (بين) هنا ليست لتنويع القيان وتقسيمهن الى لُعس وغير لُعس وانما هي هنا ظرفيّة بمعنى وسط والمراد بالحوّ اللعس نساء القصر كلهن فالشاعر يقول إن المغنّيات كن يرددن أصواتهن في وسط نساء القصر اللواتي كان أظهرُ أوصافهن وأملحُها حوّةَ شفاههن ولَعَسها .

(وكأنّ اللقاءَ أولَ من أمْـــــسِ ووشكَ الفِراقِ أولَ أمسِ)

مغزى هذا البيت والذي بعده دقيق جداً : وهو منتزع من خيال غاية في السموّ ولطفِ المأخذ : ذلك أن الشاعر لما تمثل أو رأى كسرى وعظماء مملكته ووفودَ أقاليمه ونساء قصره كأنهم أمامه حقيقةً يرى مراتبهم وأوضاعهم بل كلَّهم وإعياءهم ويسمع قيانهم كما يرى الحو اللعس من نسائهم — تمثل

ذلك كله قريباً من زمنه الذي هو فيه حتى كأن لقاءهم واجتماع بعضهم لبعض كان أول من أمس أي قبل ثلاثة أيام ثم تفرقوا أول أمس أي قبل يومين .
أما استعمال أمس وأول من أمس فقد أوضحه صاحب لسان العرب بقوله (تقول ما رأيتُه مذ أمس. فإن لم تره يوماً قبل ذلك قلتَ ما رأيتُه مذ أول من أمس . فان لم تره يومين قبل ذلك قلت ما رأيتُه مذ أول من أول من أمس) . ولكن الظاهر من هذا الكلام أنه لا فرق بين (أول أمس) و (أول من أمس) أما في شعر البحتري فيُفهم أنه فرّق بينهما فهو جعَلَ اللقاء والفراق في يومين : (أول أمس) الفراق و (أول من أمس) اللقاء . فأول أمس قبل يوم . وأول من أمس قبل يومين . فهل له دليل من كلامهم ؟

(وكأنَّ الذي يُريد اتّباعاً طامعٌ في لحوقهم صُبحَ خَمْس)

هذا البيت كما قلنا آنفاً يدل على أن الشاعر يريد أنه رأى بعينه صورةً مرسومةً على الجدران تمثّل له كسرى وقومه : فهو يرى صُوَرهم بعينه لكن المصوِّر كان حاذقاً جداً حتى جعله يتخيّل أنه كان يراهم حقيقةً بأجسامهم وأشكالهم وأوضاعهم الطبيعية ، ولذلك كان يقول كأني وكأني . وفي هذا البيت أبدع الشاعر في خياله أيَّ إبداع ، فهو يقول إن الذي يراهم مصوّرين أمامه تحدّثه نفسه باتباعهم واللحوق بهم . لكن المصوِّر أتقن تصوير الأشخاص من حيث القرب والبعد والمسافة فمن ينظر اليهم يظنهم بعيدين عنه مع أنه لو أراد لمسهم بيده لَفَعَل . وقد حدّثني صديقنا الشيخ عبد القادر المبارك (رحمه الله) بمناسبة هذا البيت أن مراسح التمثيل تكون عادةً مصدَّرة بستار يُنقش عليه رسم شارع مستطيل وتكون على جانبيه الدور والقصور . ومن دقة الصنعة في التصوير يحسب الرائي أن هناك مسافةً حقيقيةً ممتدةً بين الأبنية الشاهقة القائمة على الجانبين مع أنك لو لمستَ الستار لوقعت يداك على أصباغ منقوشة على سطح مستوي . قال وقد اتفق لي يوماً أن كنت على مرسح من هذه المراسح

في بعض المدارس فتمشيتُ نحو الستار وكدتُ أصدمه بجبيني ظاناً أن أمامي منفسحاً للسير . ثم انتبهتُ فجأة للأمر فوقفتُ متعجباً . والحاصل أن مصوِّر مجلس كسرى أبدع في تصويره حتى يخيّل للرائي ان الرسم بعيد عنه وأنه اذا أراد اللحوق بالقوم الذين فيه لا يطمع أن يبلغهم إلا في صبيحة اليوم الخامس من سيره نحوهم .

* * *

(عُمِرَتْ للسرور دَهْراً فصارَتْ للتعزّي رباعهم والتأسّي)

رَجع الشاعر في هذا البيت الى صحوه من خياله ، واستأنف الكلام على الإيوان نفسه . وضمير (عُمرت) يرجع الى المقاصير المذكورة قبيل البيت أو الى (الحلَل) أي المنازل المذكورة قبل أبيات وعَمْرُ المنازل في كلام البلغاء أكثر ما يستعمل بمعنى سكناها ، وإقامة أهلها فيها . عَمَروا المكان بالتخفيف والتشديد جعلوه عامراً آهلاً بحلولهم فيه . وهذا هو المراد بقوله (عُمِرَتْ) مجهولاً بالتخفيف وبالتشديد : أي إن منازل كسرى وربوع إيوانه كانت مسكونة آهلة بهم زمناً طويلاً ؛ أما اليوم فقد تغيرت ودَرَسَت وتحول الغرض من بنائها : فبعد أن كانت تلك الربوع للسرور واللهو أصبحت للتعزّي والتأسّي أي للعظة والاعتبار . يراها المُصاب المحزون فيتسلّى ويتعزّى ويتخذ من كسرى وقومه الذين رماهم الدهر بكلكله أسوةً لنفسه فيصبر ويتجلّد . والرِباع كالربوع جمع رَبْع بمعنى الدار والمنزل يَنْزِل فيه القوم أيام الربيع . ثم استعمل في المنزل مُطلقاً نزلوه في الربيع أو في غير الربيع . واستعمال (عمر المكان) بمعنى أنهم جعلوه آهلاً بحلولهم هو الأغلب في كلام البلغاء أما في شعر البحتري هذا فيحتمل بل هو الأقرب تناولاً أن يكونَ المراد بقوله (عُمِرَت) العمارة التي هي البناء بالحجر والطين . أي أن تلك المنازل والربوع بُنِيَتْ وشُيِّدَتْ بقصد اللهو واغتنام فرص السرور ولكنها أصبحت الآن خراباً يَبَاباً للاتعاظ والاعتبار .

(فلها أن أعينها بدموعٍ موقفاتٍ على الصَّبابةِ حُبْسِ)

يقول الشاعر: أما وقد زرتُ منازل كسرى وتسلَّيت برؤيتها عن مصيبتي بمقتل (المتوكل) فقد أصبح من حقها عليّ أن أعينَها فأذرفَ دموعي عليها . وأجعلها (أي أجعل الدموع) وقفاً محبوسةً على الصبابة والأسى . وذكر الإعانة بالدمع كثيرٌ في أشعار المتأخرين . وكان العرب ونساؤهم يعبّرون عنه بالاسعاد وهو الإعانة والمساعدة على الندب والبكاء على الميت . ومما قاله أبوتمام في الاعانة والاسعاد :

ما في وقوفك ساعةً من باس تقضي ذمام الأربُع الأدراس

فلعل عينك أن تُعين بمائها والدمعُ منه خاذلٌ ومواسي

ومعنى الصبابة الشوق أو أرق الشوق . ويُريد بها هنا لوعة الأسى التي لذَعتْ قلبه برواية هذه الآثار . ووَقَفَ وحَبَسَ بمعنى واحد يقال وقفتُ الدابةَ وحبستُها ، ووقفتُ الدارَ في سبيل الله وحبستُها ونحن نسمي الأوقاف في بلادنا أوقافاً أما أهل المغرب فيسمونها أحباساً . وقول البحتري (مُوقفات) اسم مفعول من (أوقف) بالهمز وليس بفصيح بل الفصيح في الاستعمال (وَقَفَ) الثلاثي فكان الفصيح أن يقول هنا (مَوْقُوفات) . و (حُبُس) بضمتين جمع حَبيس بمعنى محبوس .

(يتبع)

التكية السليمانية في دمشق

- ٢ -

وجميع أراضي قرية داريا الكبرى من أعمال اقليم الداراني تابع الشام تشتمل على أراضي معتملات ومعطلات وأقاصي وأداني وأشجار ودمنة عامرة ووهاد وتلال ومفارة [1] وبساتين ومنافع وحقول المعلومة الحدود عند الأهالي والجيران والمبينة الحقوق لدى كل ذي وقوف وعرفان كل قاطن بتلك الأراضي والأماكن بجميع حدودها وحقوقها ومرافقها ومنافعها وتوابعها ولواحقها سهولهـا وعوامرها ومطمئنتها وغوامرها ومنابعها وسواقيها وسوافلها وعواليها وجبالها وقلالها ووهادها وتلالها ومخنشها [2] وغياضها ومروجها ورياضها ومصيفها ومقتصيها ومشتاها ومحتطبها وجميع حقه هو للأوقاف المذكورة المرصدة الموضحة المعمورة ذكرت أم لم تذكر، حررت أو لم تحرر وقفاً شرعياً وتأبيداً صحيحاً وارصاداً مرعياً وتخليداً صريحاً. ولقد تبين ذلك واتضح، ووضح شأنه وصح، حيث أقرّ واعترف جناب المقر الأشرف العالي المدرار درهم العوالي زين الفخر والفخار رهين القدر والوقار ملاذ الاقبال السي [3] السناء والاقبال الجلي التمكين الجليل المكين ليث غابة الصولة المدبر أمور جمهور الدولة ضيغم غيضة الوغاء يفترس ممن بغى صدر العزة الغراء ركن السلطنة الزهراء بزابيز (؟) الاسارة آصف صف الوزارة المشير الأكرم الوزير الأعظم رستم باشا [4] وفقه الله لما يشاء وأدام أيامه وأبقاه عوناً وغوثاً للملة الباهرة الوكيل باقرار المشروع بالوقف والرجوع الآتي ذكر المجموع المتحقق

---

(١) كذا ولعلها: ومنارة أو ومفازة. (٢) لعلها: مختشها. (٣) صوابها: اسنى.

(٤) تصدر الوزارة في زمن السلطان سليمان مرتين مشهود له بالدراية والاقتدار على زيادة أموال الدولة. توفي عام ٩٦٨ هـ ودفن في جامع شهزاده وله خيرات ومبرات.

وكالته بالعموم والخصوص على موجب الشرع المنصوص من جانب السلطان الواقف خادم خير المعاكف ظل الله الأعلى الأعلم على وفود وقود (؟) خليفة العالم وكل الله اليه نظام السداد وكل أمر كما يراد مدى الاحماد[1] وأمد الاسناد بأن السلطان الواقف الذارف العوارف مد ظله الوارف وقف جميع ما ذكر وعين ان يصرف ما يتحصل من أصول الأوقاف الموصوفة من القرى والمزارع المرصدة الموقوفة مع ما يتحصل منها من ساير حاصلها المتعارف في أفكار ذلك الطرف في مصالح الجامع الشريف المشنف بأشرف تشنيف والعمارة العامرة المتبع ذكرها السابغ نعمها وشكرها . وشرط أن يرتب متول متخل عن الخيانة متعال عن الجناية ، متحل بحلى العفاف والأمانة ، مطرز بطراز الأمانة ، يشتغل الأوقاف على كمال الديانة ، ويشتغل بتنظيم أحوالها باعتناء بأعباء استغلالها ويستقل في ...[2] غلالها واصلاح اختلالها لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصيها[3] ، ولا يدع حقيرة ولا خطيرة إلا أبداها يصون صلة ضميره عن عايد الحرام ، ويتحاشى عن آثام الأنام ، يحفظ الزوايد وفضلة العوايد لإصلاح الرقبات ومرمة الخربات ، لا يواني في خدمة ، وتفريغ ذمته ، عما في عهدته ، ويعطى له كل يوم خمسين درهماً . وان يرتب كاتب شهيد ، لا ينقص ما أتقن ولا يزيد ، يكتب كما علمه الله غير ساه ولا عاب[4] ولا لاه ، في أنواع حواصل الوقف كما وكيفاً ، ولا يرى على الورى في ذلك حيفاً ، ويضبط ما أصرف في مصارف الوقف ووظائفه ، ويوزع على كل خادم وظائفه وتنظيمه في سمط الجمع والحساب ، على نمط السداد والصواب ، ويعطى له كل يوم خمسة عشر درهما .

وان يرتب على الأوقاف الموقوفة بقضاء الشام ، حرس الله تعالى قُطانها عن الشآم والسآم .

(١) صوابها : الاعمار او الآماد .
(٢) بياض يتسع لكلمة واحدة ولعلها : تحصيل او جباية .
(٣) تكتبها اليوم : أحصاها (٤) لعلها : عابث .

وان يرتب جاب ليجبي مال الوقف وغلاله ويسبر ساعياً وهاده وتلاله ، متماشياً على جادة الاستقامة متحاشياً عما يؤديه الى الندامة ، ويعطى له كل يوم ستة دراهم .

وان يرتب على الأوقاف الكائنة في قضاء بعلبك وناحية كرك جاب آخر أمين ، وثيق لا يمين ، يسعى في استحصال الغلال أصيلاً ، ويجد في مصالحه بكرة وأصيلا ، يجمع حقوق الوقف ومناله ، لا خائناً له ولا عاله ، ويعطى له كل يوم ستة دراهم . وأشرط السلطان ذو السلطان الواقف العلي الشان الجلي البرهان لا زال ذكران ذكراه الباهر عن خطبة خطبة السلطنة الزهراء أن يرتب بالجامع الشريف ، خطيب متدين عريف ، ورع مصقع فصيح ، بارع جهوري نصيح ، عالم بمعالم خطاب الخطابة ، يتقي ويرعى كتابه ، يبين للناس ما نزل اليهم ، ويتحرى طباعهم لما فرض عليهم ، يخطب يوم الجمعة في الجُمَع والعيد في الأعياد ، على الدين المشروع المعتاد ، ويدفع اليه كل يوم عشرة دراهم .

وأن يرتب امامان من أهل الصلاح ، يتفرس منهما سيما الفلاح ، مجودان مجيدان يرتلان كلام المجيد بايمان ، ديِّنان ، تقيان ، عن مسالب المناهي نقيان نعمانيا المذهب ، سنيا الاعتقاد ، ثابتا القدم على سبيل سنن الرشاد ، عالمان بأركان الصلوة وواجباتها وسننها وآدابها ومستحباتها ، يؤمان الجماعة بالجامع المعمور ، ويقيمان خدمته على الوجه المبرور . يحضر كل واحد منهما بنوبة كل وقت من الصلوات الخمس المكتوبة ، والتراويح المسنونة المندوبة ، ويدفع الى كل واحد منهما كل يوم سبعة دراهم .

وان يرتب ثمانية مؤذنين ليقيموا الأذان والتحميد ويؤدوا إقامة الصلوات يستلذ الصماخ في صوتهم ، ديّنين متورعين ، متناوبين متوزعين ، ويعطى لكل واحد منهم كل يوم خمسة دراهم .

وان يرتب موقت ماهر في علم الميقات يوقت للمصلين مواقيت الصلوات ، ترصد برصد المرصاد ، ويكون ربعه أنس الأرصاد ، لا يرقى في درجة الا وفقها ، ولا ينال دقيقة الا حققها ، ويعطى له كل يوم خمسة دراهم .

وا[ن] يقام مرق يقيم الخطيب من قاعته ، ويدله على المنبر من ساعته ، آخذاً سيف السنة بيده ، ويرقي الخطيب الى معضده ، وينقل حديث الالفات بألذ الأصوات ، ويعطى له كل يوم درهم واحد .

وان يرتب بواب وفراش وكناس وشعال ، يتبكر بفتح الباب وتغليقه بالغدو والآصال ، ويفرش الفرش ، ويبسط البسط ، أشرف فرش ، وأحسن بسط ، ويكنس الجامع كلما دعى اليه داعي الاستدعاء ، ويشعل المشاعل حين يغشى ، ويوقد القناديل بالليل اذا يغشى ، يتحفظ على الفرش والبسط تحفظاً ، ويتيقظ في تنظيف المشاعل وحمايتها تيقظاً ، ويفتح في الصدد بعد ساعة الاداء وينفذ ، ويعطى لمن يتعهد ذلك كل يوم خمسة دراهم .

وان يرتب مبخر يبخر في الجمع والأوقات المشادة حسبما كانت عليه العادة يروح الروح . . . (١) ويعطر مشام الانس والجن ويعطى له كل يوم درهمان .

وان يرتب سبعة قراء حفاظ ، مجودين بأجود ترتيل واحتفاظ ، يكون أجودهم تجويداً وترتيلاً - شيخاً على الباقين ، ورئيساً جليلاً يفتح بعشر من كلام الله الفتاح ، عاصماً لهم عن السهو نافعاً بالافتتاح ، ويقرأ كل منهم عشراً من القرآن العظيم والفرقان المجيد الكريم ، ويعطى للشيخ الرئيس كل يوم خمسة دراهم ، ويعطى لكل من الباقين كل يوم درهمان .

وان يرتب معرف يعرف نعم المقتفى الانعام ، ويعلم معالم الشكر على الأنعام ، ويدعو لبقاء السلطان الجليل والخاقان النبيل ، ويهدي ثواب ما تيسر من القرآن ، الى أرواح أنبياء الهادي المستعان ، لا سيما نبينا محمد المصطفى عليه وعليهم سلام من اصطفى . ويعطى له كل يوم درهمان .

وان يرتب ثلاثون رجلاً من القراء يقرأ كل واحد منهم في الجامع الشريف والمسجد اللطيف بكرة النهار بكل يوم جزءاً كريماً من القرآن المجيد ، على الترتيل

(١) بياض يتسع لكلمتين .

والتجويد ، ويكون واحد منهم شيخاً لهم، ويعطى له كل يوم أربعة دراهم ، ولغيره كل واحد منهم درهمان .

وان يرتب رجل يفرق الأجزاء الكريمة عند التلاوة في الوقت المعهود ويعطى له كل يوم درهمان .

وان يرتب رجل يراقب من حضر ومن غاب من القراء المذكورين ويضع النقطة إذا لم يحضر واحد منهم ، ثم يعلم المتولي في رأس الشهر عند التفريق على الموظفين ، ويعطى له كل يوم درهمان .

وان يرتب رجلان يقرأ كل واحد منهما على الكرسي عشراً من القرآن العظيم أحدهما بعد صلوة الظهر والآخر بعد صلوة العصر ، ويعطى لكل واحد منهما كل يوم اربعة دراهم .

وان يرتب واعظ ليعلم الناس الدين ويحقق لهم اليقين في ثلاثة أيام من الأسبوع منها الجمعة ويعطى له كل يوم عشرة دراهم .

وان يرتب قارئ مجود من حسان الأصوات ، اذا قرأ القرآن مالت اليه المسامع للانصات ، يقرأ كل يوم بعد صلاة الصبح سورة[1] يس ، لتنتشر بركاتها بين الحاضرين المستمعين ، ويدعو بعدها بالدعوة الصالحة الجامعة لازدياد درجات واقفه العلي الشان ، قوي البرهان ، كان الله معه ، ويعطى له كل يوم ثلاثة دراهم .

وان يرتب قارئ مجود يحسن التجويد والترتيل يرتل كلام الله المجيد ممن يميل الى حسن صوته وتلاوته المستمعون ، يقرأ كل يوم بعد صلاة العصر سورة[1] عمّ يتساءلون ، ويدعو بعده للواقف الواقف على مواقف الخيرات ويستنزل له من حضرة القدس مزيد البركات . ويعطى له كل يوم ثلاثة دراهم .

وان يرتب رجل موصوف بالأمانة ، معروف بحسن الديانة لحفظ المصاحف الشريفة الموضوعة هنالك من المواضع الحنيفة ، ويعطى له كل يوم درهمان .

(١) في الأصل : صورة .

وان يرتب كناس وفراش للحرم يكنسه ويفرشه عند الحاجة على الوجه المحترم ويعطى له كل يوم ثلاثة دراهم .

وان يرتب بواب بالباب الشرقي يرصد ويكنس الاصطبل الشرقي على النهج السديد ، وبواب آخر بالباب الغربي قائم بخدمته ويكنس الاصطبل الغربي لدى حاجته ، وعليهما مؤنة حمل زبل الاصطبلين الى المزبلة . ويعطى لكل منهما كل يوم خمسة دراهم .

وشرط السلطان الجليل والخاقان النبيل الواقف المشار اليه لا زال بنياناً من البنان مشاراً اليه وما برحت عمارة العالم عامرة بوجوده ، منعمة برحب نواله وجوده ، أن يرتب فراش ينزل المسافرين والضيفان النازلين في منازلهم حسبما شرطه الواقف الخطير ، ويكرمهم كما رسمه رسول الله الكريم القدير ، ولا يهتك أستار أعراضهم لدى الاضافة ، ويهتم في إحضار النزيل وأكل الضيافة ، ولا يتوانى في خدمته ، ويهتم اهتماماً ، ويقوم برعايتهم بالأدب قياماً ، ويعطى له كل يوم خمسة دراهم .

وأن يرتب شيخ ينظر في طعام العمارة المعد للمستحقين ويذوقه ويتعرف استواءه وطعمه واعتدال أجزائه حسبما يروقه ويتفرغ على نظر تعرفه ومعرفته علماً وحكمة غرفه ويكيفيه تفرقه [1] على أهل الفقر وفرقته كل غدوة وعشا ما بداه رطب وخشن ، ويعطى له كل يوم ستة دراهم .

وان يرتب نقيبان عتيدان رقيبان دينان تقيان عن طمع قطم الحق ، أحدهما يوزع الخبز والآخر اللحم ، على المستحقين حسبما بان استحقاقهم المبين ، ويكون وظيفة كل منهما ستة دراهم .

وان يرتب أربعة أساتذة لرسم طبخ الطعام المعد لإطعام أولي الاستطعام ، مهرة في تسوية أجزائه وامتزاجه واخلائه وحسن انضاجه متناوبين مثنى على السنين الأسنى ، ويعطى لكل أستاذ منهم كل يوم سبعة دراهم .

(١) لعلها : وبكيفية تفرقته .

وان يرتب ستة تلاميذ لرسم خدمة الأساتذه باعداد العدذ ، وامدادهم في الطبخ بكل مدد ، بحسن التعاون على مراسم الطبخ من غير تهاون ، مقتدين لهم في التناوب ونوب التعاقب ، ويكنس المطبخ من يتعهد الطبخ ولا مساهي ، ويعطى لكل تلميذ منهم كل يوم أربعة دراهم .

وان يرتب خباز ماهر أستاذ ، قادر على تعديل العجين واخبازه ، واعطائه حسن تمييزه وامتيازه ، ويعطى له كل يوم سبعة دراهم .

وان يرتب أربعة تلاميذ لخدمة خبز الخبز وامداد الخباز ، لنخل الدقيق وعجين الخمير وتقطيعه عند الاعواز ، ويعطى لكل تلميذ منهم كل يوم خمسة دراهم .

وأن يرتب وكيل خرج للعمارة يشتري مهماتها في ابانها ، ويدخر حوائج الطعام في اوانها ، لا يتوانى ولا يتكاسل ، فان شوهد[1] الجهد أحلى من عسل الكسل ، يعطى له كل يوم ستة دراهم .

وان يرتب رجلان لرسم حمل الصحون المشحونة ، بألوان أطعمة عنونة ، منظمة كلاً كل مكنونة ، الى بيوت الضيافة وروادها في أماكنها واعادتها الى مخازنها ، ويعطى لكل منهما كل يوم درهمان .

وان يرتب ثلاثة رجال لحمل الطاسات المحشوة بالطعام الى فقراء الأنام الحاضرين بها غدواً وعشياً ، ويعطى لكل منهم كل يوم درهمان .

وان يرتب رجل لغسل أواني بيوت الضيافة ، وتنظيف مواعين دور الضيافة ، ويعطى له كل يوم درهمان .

وثلاثة رجال لغسل تلك الطاسات ونظيرها بنقيرها وتنقيرها ، ويعطى لكل منهم كل يوم درهمان .

ورجل لتمويه الأواني والمواعين وتبييضها إذا الجأت التحسين ، ويعطى له كل يوم أربعة دراهم .

---

(١) لعلها : شري أي حنظل .

ودقاق للحنطة يدقها كما يحتاج اليه ، ويتوقف حسن طبخها عليه ، ويعطى له كل يوم خمسة دراهم .

وخازن حفيظ أمين ، وثيق مكين ، يتعهد حفظ ما في مخزن العمارة متجانباً عوار الطمع وعاره ، ويعطى له كل يوم ستة دراهم .

وتلميذاً للخازن يعطى له كل يوم درهمان .

وحمال يحمل اللحم الى محله بالعمارة المعمورة ، ويؤدي خدمته على طريقة الامان المبرورة ، ويعطى له كل يوم أربعة دراهم .

واربعة نفر لتنقية الحنطة والأرز حسبما تستريح أسنان الطاعم عند صدمة دقاق الحجارة عند تناول المطاعم ، ويعطى لكل منهم كل يوم درهمان .

وبوابان يقومان بأبواب العمارة والما كل يكتنسانها غدواً وعشياً ، ويعطى لكل منهما أربعة دراهم .

وخازن حفيظ فظ غليظ أمين غير غدار ، يصرف المخزون من الحنطة بالأنبار ، والمتخذ من الحطب بالحاطب عند الحاجة من غير نصب ، ويعطى له كل يوم اربعة دراهم .

وعين الواقف الشامل الاحسان ان لكل قاص ودان أن يطبخ كل غدوة للأضياف المسافرين الأرز المفلفل والمرق الحامض أحسن تعيين ، وعين له سبعة عشر منّاً من الأرز النقي ، وعين أن يطبخ لهم كل عشي الأرز المفلفل والحلو المزعفر ، وأعد لهما عشرين منّاً من الأرز الصافي وللأطعمة المعدة المزبورة بكرة وأصيلاً عشرة منّاً من سمن البقرات السمان . وعين الواقف الواجب الاحترام محيي سنة أملح الأنام أمده الله برعايته ، ونظر اليه بعين عنايته ، للمزعفر المعد للضيفان من العسل المصفى ستة أمنان ، وثمنا لملح الأطعمة والخبز من الملح ، وثمن الحمص والتوابل ومحسنات المرق الحامض كل يوم عشرين درهماً فضياً ، ولخبز المسافرين كل يوم خمسين منّاً من الدقيق الطيب على التحقيق لطبخ الأطعمة المذكورة كل يوم قنطاراً من الحطب يجلب من كل حدب ، ولخيل المسافرين كل يوم أربعة وعشرين كيلاً شعيراً بالكيل الشامي ، ويوزع

كل من الأطعمة صباحاً ومساءً غدواً وعشياً على حساب أربعة وعشرين صحناً موزعاً على أربعة وعشرين سماطاً لكل من بيوت الضيفان من الأسمطة سفرتان وعلى كل سفرة من الجلاس خمسة أنفس ، ويضاف الى كل سفرة من الطعام المعد للفقراء الطعام الآتي تفصيله : صحن واحد تشتمل كل سفرة على صحن لحم وثلاثة ألوان من الطعام ويعطى لكل سفرة عشرة أخباز .

وعين السلطان الواقف النبيه المنوه شانه بأنوه نوبه ، لا زالت نعم انعامه دايمة على العباد الى ميعاد المعاد والتناد ، لطعام عامة الفقراء مخصوصاً ، معيناً منصوصاً ، من لحم الضأن المبين الشأن ، كل يوم مائة منّ وسبعة وثلاثين مناً ونصف منّ ، وشرط أن يطبخ نصفها بكرة ونصفها الباقي عشية . وشرط السلطان مد الله ظلال اجلاله على مستمد نوال أفضاله أن يطبخ في ليالي الجمع وليالي رمضان المبارك الشريف ويومي العيدين وليلة البراءة المنيفة الأرز المفلفل والحلو المزعفر ، وعين لكل مرة ثلاثة وتسعين مناً من الأرز النقي ، وللطعامين المرقومين لكل مرة ستة وعشرين مناً وثلاثة أداني (١) من السمن البقري ، وللمزعفر منها لكل نوبة ثمانية وعشرون مناً من العسل الحرى . وعين عين الدولة الباهرة ، زين السلطنة الزاهرة ، السلطان المندوب لله ، مبتغياً رضاه ، مرتجياً مزيد آلائه لا زال جامع وجوده الرشيد مستنيراً بأنوار التأييد لثمن استماع (٢) الكافور والزيت والحصر للجامع الشريف ، وبيوت الضيافة ، والمطبخ المنيف ، والمخزن العامر ، في كل سنة عشرة آلاف درهم .

ثم شرط الواقف الجلي البرهان أسبغ الله عليه سوابغ نعمه وهناه بما هيأ له من هناء كرمه لطعام الضيفان خاصة ، على العموم ناصة ، كل يوم من لحم الضأن الطري السمين الشان اثنين وسبعين مناً من الله المنان عليه منا ، يطبخ نصفه ستة وثلاثون مناً صباحاً يوزع على أربعة وعشرين صحناً ، ونصفه الباقي يطبخ رواحاً ، يوزع أيضاً على ما صرحنا .

(١) لعلها : اواني . (٢) لعلها : ابتياع .

وعين، تقبل الله له عمله، وأظفره ما أمله، لأنواع الأطعمة والخبز كل يوم من الملح النقي اثني عشرة منّاً ونصف منْ ومن الحمص ثمانية أمنان ونصف من، ولثمن التوابل واللبن والحصرم والفلفل وساير محسنات طعام الفقراء كل يوم ثلاثين درهماً فضة، وسبعة قناطير حطب.

وشرط السلطان أيده الله بر بالبر بره، وكثر بالخير خيره ودره، لخبز الفقراء ما يأتي: خمسة وسبعين منّاً دقيق خالص نقي في التدقيق. وشرط السلطان أيده الله ونصره وقواه وأظفره أن يطعم بالأكل كل غدوة ثمانمائة فقير عايل وعشياً كذلك بلا نهر عايل، ويقطع خمير الخبز المعد للفقراء بعد ما عجن واستعد الفا خبز ويقطع اللحم المطبوخ على أن يكون كل قطعة ثمانين درهماً وزنا ويقطع الخمير على أن يستقر بعد الاختيار كل كثرة على مائة درهم وزنه غير محترق ولا ني ويوزع المرق المعد سداً للرمق صباحاً ورواحاً على خمسمائة طاس، لكل ماية ثمانية أمنان من الأرز وكيل من القمح مع ما لزمه، ويعطى لكل اثنين من فقراء الناس طاس، ويعطى لكل فقير خبز من غير تقتير.

وشرط السلطان الباني للخير ابتغاء لفضل الله خير شكر لشكور سعيه في المبرات، ومر عالم السر بالمسرات أن يفرز من غلال وقفه المسطور ومحصول مرصده المبرور كل يوم مائة درهم فضي على الوجه المذكور المرضي، ويصرف للعلماء العاملين المتقطعين المنجذبين اطماعاً في اقتناء الكمالات الانسية، وحرصاً على اقتناص الملكات القدسية، تجرداً عن رياسة الرياسة الفانية، ورغبة في ذات اللذات الباقية الى طريقة التجريد للترقي الى مراقي التوحيد امداداتهم بنظم معايشهم وبحسن انتعاشهم في معاشهم ويوجه الى كل من الموصوفين المتخذين (١) المنغوبين كل يوم قدر يمدده على قضاء أوده من درهمين الى سبعة دراهم حسب استحقاقهم ومراتب طباقهم لا يزاد ولا ينقص مما نطق به الكتاب ونص، فمن

(١) لعلها: المنجذبين كما سبق اعلاه.

أخل بخدمته بطرف فتور وتوان أخذه الله بنكال الهون والهوان ، وما يأخذه من الأجر يكون سحتاً وحراما ، ويبوء مبوأ دار البوار مقاما .

وشرط جعل الله قيام خيام اقباله على عمدان الخلود ، وربط أطناب سرادقات اجلاله بأوتاد أبد الأبود ، أن يكون جملة أمور الأوقاف ومصالحها منوطة بصائب رأيه وصالحها بحيث يتصرف فيه كيف يتراءى لرأيه النبيه من نقص وظايفها ، وزيادة مصارفها ، وبدئها وإعادتها ونقصها واجارتها ، وعزل أصحابها ، ويستبد في تبديل الشرايط ويستأثر في تحويل الضوابط الى ما هو أحسن وأنفع وأعجب وأبدع مرة بعد أخرى على النهج الأخروي .

وشرط الواقف الجليل الشان الجلي البرهان لا زال منظوراً بنظر عين الله التي لا تنام وبلغه عزاً لا يحام حوله ولا يرام ، أن يكون كل من يتولى قضاء دمشق الشام من كرام العلماء الأعلام ناظراً على أوقافه المزبورة على الوتيرة المبرورة ، بحيث لا يحل جليل من مراسمها عن إحاطة علمه ، ولا يدق دقيق من معالمها عن احاطة فهمه ، ويحاسب متعاطي محصولها في فروعها وأصولها دخولاً وخروجاً من كل الأرجاء تعييناً مرضياً وشرطاً مرعياً . وأقربآته[1] :

اخرج الأوقاف المذكورة عن ملكه ، ونقض ربقة سلكه ، وعزل سلطان تصرفه عن حاطته ، ولم يتمكن سطوة تمكنه من احاطته ، وسلم جميع المزارع والقرى المرقومة بأسرها لأفخر المفاخر والأكارم ، مستجمع المفاخر والمكارم ، عمدة من عليه الاعتماد ، معدن شيم البر والسداد ، عين أعيان الخزانة الخاقانية ، أسعد السعاد في نماء الأموال السلطانية ، المشرف بالمجد الجلي ، المشنف بالقدر العلي ، مولا محمد چلبي الدفتري الشهير بابن شريفه أفاض الله عليه من فضله الشريف ، بعد ما نصبه نصبة للتولية تخليه لأمر الوقف وتخليه الى استثبات أمر

(١) صوابه : وأقر بأنه .

التسجيل والاستتباب لحكم التسجيل . وقد تسلمها من الواقف الرفيع القدر المنيع الصدر سلطان سلاطين الانسان انسان عين العدل والاحسان سلمه الله السلام ومد ظله على أمد المدد أشرف ظله تسليماً خاوياً عن جماح الموانع ازمة رمتها وتسلماً حاوياً لصحاح الشرايط بحجة جملتها اقراراً صريحاً ، واعترافاً صحيحاً ، مصادقاً للتصديق الحقيق بالاعتداد من قبل المتولي المشار اليه الممان في جميع ما نظم في سمط الرق المنشور ، من أمور الوقف المبرور المشكور ، فلما انتظم نظام تمامه واشق[1] نسق اختتامه بحسن اهتمامه ، وانتهى ما خطته أقلام المقال ، وآل حال الوقف الى هذا المآل ، أراد الوكيل الجليل المشار اليه ، لا زال ببنان الأعيان مشاراً اليه ، أجود ارادة رايد راد جادة الاجادة أن يرجع من جهة الواقف المزبور ومحرز البر المبرور مسترداً اياها عن المتولي المتحلي المستخلي مستبداً بنقض ما أبرمه الواقف وأبده وبفسخ ما أحكمه وشاده وشيده معتنياً به ، مجل ما عقده وسد باب ماسدده عانيا نظم الأوقاف : مزارعها وقراها ، بأسر رقبها وربقة عراها ، في سلك ملك الملك المالك ، على أسلم المالك ، فتخاصما وتنازعا ، وتحاكما وترافعا ، الى المولى الفضل المولى الكامل الخير المجد مجير المتشرع النحرير النجيب في كمال تورع محق حق الطريقة الطريفة ، رافع علم العلم والشريعة الشريفة ، الناطق بالصواب الصدر المصدر أعلى الكتاب بتوقيعه الشريف المستطاب أدامه الله مدى الأحقاب ، فشرع في استرداد ما بيد المتولي من الأوقاف الموقوفة على الوتيرة الموصوفة ، مستمداً بعد لزومها بخصوصها وعمومها على قول المجتهد الهام ، القرم القمقام ، الركن الراسخ ، العلم الشامخ ، ذي السناء الشارخ الحيز الجلي الأشم ، الحبر اللحي[2]

(١) صوابها : واتسق .

(٢) لعلها : البحر اللجي .

الخضم ، الجليل الضخم النبيه الأعلم ، رافع مورد الغموض عن حدود عرائس التنزيل على حدود الأخدود ، الجدود المعبود ، النبيل سراج الأمة ، تاج الأئمة ، عنوان ديوان السداد ، سلطان سراير الاجتهاد الهام الأكرم ، الامام الأعظم أبي جنيفة النعمان حفه الله تعالى بنعيم الرضوان .

نظم :

ان المذاهب جلها وأجلها ... يعزى الى البحر الخضم الكوفي
هذب به نفسا وخذه مذهبا ... اذ من قضاه كفاه آخر كوفي

فعارضها المتولي المزبور اعراضاً على الوجه المبرور بأن وقفية تلك المزارع والقرى حسبما قصه نص الكتاب وأقر وان لم تكن لازمة مقدمة عند أعظم أئمة الأمة تاب التواب عليه ، وأحسن بالمغفرة اليه ، لكنها عند المجتهد الأكرم الهام الطمطام الامام ابي يوسف تلزم ، بقول الواقف : وقفت ، وعند المجتهد الامام القرم القمقام الامام محمد رحمها الله الصمد يلزم بالتسليم الى المتولي على ما وضعت فطالب المتولي الحاكم بحكم نص الكتاب النظر في أمر الوقف والحكم بلزومه كما يستطاب على منطوق قولها السديد ، وموجب مذهبها الرشيد ، فنظر في ذلك نظراً أنيقا وتدبر في الأمر تدبراً وثيقا ، وشاهد في يد المتولي برهاناً جليا ، وغاية دليله سلطاناً عليا ، فرأى رأيه الصائب ، وبدا لنظره الثاقب ، أن تمهيد أركان الخير وتشييد مباني الوقف هو الأوفق لا غير وان حسنة مجلبة الحسنى ، وترجيح جانب التقرب وسيلة الفوز الأسنى ، فحكم بصحة الوقف ولزومه ، وصحة شرايطه ورسومه ، وقضى بذلك بخصوصه وعمومه ، حكماً محكماً ، وقضاء مبرماً ، مستوفياً ما يجب في الحكم رعايته حسبما عرجت اليه دراية الفرع وروايته ، فصارت جملة ما وقف على ما وقف عليه ، ووصف فيه وصفاً ، ووقفاً لازماً مسجلاً منيراً ، لا ينهدم قواعده ، ولا يتصلى مقاعده ، ولا تغير شرايطه ، ولا ينخرط في سلك التحريف خرايطه ، ولا يحل لأحد ممن يؤمن بالله واليوم الآخر من سلطان

أو وزير أو أمير أو قاضٍ أو وارث غايب أو حاضر تغيير هذا الوقف المرفوع السقف عن نسته ، المحرر المقدر بعدما تحرر وتقرر ، فالذي يتعرض لتحويله ويسعى في تبديله ويبتغي نقض عراه ويتبع في ذلك هواه ويجنح الى جناح تغييره ، ويطمع في إبطاله بتزويره ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وليتبوأ مقعده ومبواه [1] من سجن سجين وليتجرع ما لا يسيغه من غسلين .

فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ، إن الله سميع عليم . واجر الواقف على الحي الكريم ، ووقع الاشهاد والتحرير على النمط المنظوم في سمط التقرير في سابع الشهور شهر الله الفرد الأصم رجب المرجب لسنة أربع وستين وتسعمائة ، من هجرة من بعث الى كل فئة .

جعفر الحسني

(١) لعلها : ومثواه .

أبو الفتح بن جني

وأثره في اللغة العربية

عصره ، مكانته العلمية ، آثاره

— ٧ —

آراء ابن جني في العربية

نظرياته الخاصة ومذاهبه التي انفرد بها

أحب الامام أبو الفتح بن جني اللغة العربية وأغرم بها حبا وغراماً عجيبين ولا غرو فان ذلك الامام المصنف المرهف الحس الذي آتاه الله عقلاً كبيراً ، وعلماً واسعاً ، وملكة عجيبة قد اطلع على أسرار هذه اللغة العربية الشريفة فأحبها الى درجة التدله بها وبأسرارها ، وصنّف الكتب في تبيين غرائبها وكوامن دررها ، وتعداد فضائلها ، يقول في مقدمة كتابه النفيس (الخصائص) وهو يهدي الكتاب الى الأمير بهاء الدولة بن بويه : « هذا أطال الله بقاء مولانا الملك السيد المنصور بهاء الدولة ... كتاب لم أزل على فارط الحال وتقادم الوقت ملاحظاً له عاكفاً الفكر عليه ، منجذب الرأي والرواية اليه ، وادّاً أن أجد مهملاً أصله به ، وخللاً أرتقه بعمله ... هذا مع إعظامي له واعتصامي بالأسباب المتناطة به واعتقادي فيه انه من أشرف ما صنف فى علم العرب ، وأذهبه في طريق القياس والنظر ... وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة ، ونيطت به من علائق الاتقان والصنعة »[1] .

---

(١) الخصائص الطبعة الأولى ١/٢ ، ٣

ويقول أيضاً : « هذا أمر قدمناه امام القول على الفرق بين (الكلام) و (القول) ليرى منه غور هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ، ويعجب من وسيع مذاهبها ، وبديع ما أمدّ به واضعها ومبتدئها »[1] . ويقول أيضاً : « اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقة ما يملك عليّ جوانبَ الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر »[2] .

وابن جني من شدة إعجابه باللغة العربية ، والقرآن الكريم ، والشعر العربي والأحاديث النبوية يكاد يؤمن بأن هذه اللغة لغة تسحر من يتعمق في دراستها ، وتفهّم أسرارها ، وإعجاز مبانيها حتى يقول : « وكلام العرب لمن عرفه وتدرب بطريقتها فيه جار مجرى السحر لطفاً وإن جسا (أي جفا) عنه أكثر من ترى وجفا . . . »[3] .

فأنت ترى من هذا القول ومما سلف من أقواله قدر الدرجة السامية التي وصلت اليها اللغة العربية في قلبه . ولا ريب في أنه ما قال هذه الأقوال إلا بعد الفحص والتمحيص الدقيق ، وإلاّ بعد أن قرأ وسمع وحفظ ، ووسع عقله من علوم العرب والإسلام الشيء الكثير . فقد كان رحمه الله واسع المعرفة لا في علوم العربية من نحو وصرف وعروض وأدب وبيان وحسب بل في جميع مناحي العلم والمعرفة التي بلغها الناس في عصره ؛ فهو من كبار علماء الكلام ، وكثيراً ما كان يذكر أقوال علماء الكلام في كتبه ويناقشها ويرد عليها[4] ، وهو من علماء الفقه يذكر كثيراً من أقوال رجال هذا العلم ويناقشها ، ولعله كان حنفي المذهب فقد كان ذا صلة شديدة بكبير فقهاء الحنفية في عصره وهو الامام ابو بكر احمد ابن علي الرازي الجصاص (– ٣٧٠) ، وكان يناقشه ويذكر فضل شيخه أبي علي الفارسي

---

(١) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ١٥
(٢) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٤٥
(٣) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٢١٢
(٤) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٣٠

في حضرته [١] وهو ينقل بعض آراء أبي حنيفة النعمان في كتبه ويقيس عليها في العربية [١] .

وكان ابن جني من علماء بعض اللغات الأجنبية كالفارسية فقد ظهر ذلك مرات في كتبه ، ولا غرابة في ذلك فانه كان عالماً لغوياً يبحث في فقه اللغات وأحوالها ، وجدير بمثله أن يتقن بعض اللغات الأجنبية ليقيس عليها ويستشهد ببعض أحوالها وأوضاعها في القضايا اللغوية ، ثم ان كثرة مخالطته لشيخه الامام ابي علي الفارسي وهو من أرباب هذه اللغة وعلمائها ، تحمله يتعلمها ويتقنها ، وينقب عن الشواهد والمصطلحات التي تعينه في دراساته اللغوية فقد ذكر في (الخصائص) في فصل عنوانه (القول على أصل اللغة إلهام هي أم اصطلاح) : إن العلماء قد انقسموا في هذا الأمر الى قسمين ؛ قسم يرى انها إلهام من الله سبحانه ، وقسم يرى أن الناس اصطلحوا على ذلك ، وهو أميل الى القسم الثاني ، وأن اللغة تواضع واصطلاح لا وحي من الله ولا توقيف ، وقد أطنب في بيان ذلك والتدليل عليه ، ومما قال : « فكأنهم جاءوا الى واحد من بني آدم فأومأوا اليه وقالوا انسان انسان انسان فأي وقت سمع هذا اللفظ علم ان المراد به هذا الضرب من المخلوق . وإن ارادوا سمة (عينه) أو (يده) أشاروا الى ذلك وقالوا (يد ، عين ، رأس ، قدم) ونحو ذلك ، فتى سمعت اللفظة من غير هذا عرف معينها وهلم جراً . . . ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة الى غيرها فتقول الذي اسمه انسان فليجعل مكانه (مَرْدْ) والذي اسمه رأس فليجعل مكانه (سَرْ) وعلى هذا بقية الكلام . . . » [٢] . وكلتا (مرد) و (سر) فارسيتان معنى الأولى رجل ومعنى الثانية رأس .

وله أقوال أخرى كثيرة في (الخصائص) و (سر الصناعة) تدل على معرفته باللغة الفارسية والشعر الفارسي وأوزان العروض وأصول تلك اللغة .

***

(١) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٢١٤

(٢) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٤٢ – ٤٣

وكانت لأبي الفتح نظريات خاصة في اللغة والنحو والصرف انفرد بها ، واعتمد فيها على بحوثه الخاصة ومعارفه العامة وتوسّعه في مباحث فقه اللغات ، ولم يكن أبو الفتح ميالاً الى مذهب بعينه ، فانه لم يكن بصريًا ولا كوفيًا ولا بغداديًا وانما كان صاحب طريقة منفردة خاصة به ؛

فمن ذلك قوله بالاشتقاق الأكبر: وقد عقد له باباً مطولاً في الخصائص ذكر فيه ان هذا البحث الذي لم يبحثه أحد قبله من أئمة النحو البصريين أو الكوفيين ، وان كان أستاذه ابو علي الفارسي قد ألم به بعض الالمام واستعان به وخلد اليه ولكنه لم يسمّه وانما كان يبحث في بعض مسائله عند الضرورة ، ولكن صاحبنا ابن جنى نظم أموره وسماه حيث يقول في باب (الاشتقاق الأكبر) : « هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا غير أن ابا علي رحمه الله كان يستعين به ويخلد اليه مع أعواز الاشتقاق الأصغر لكنه مع هذا لم يسمه وانما كان يعتاده عند الضرورة ويستروح اليه ، ويتعلل به ، وانما هذا التلقيب لنا نحن ، وذلك ان الاشتقاق عندي على ضربين كبير وصغير فالصغير ما في أيدي الناس وكتبهم .. وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثة فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه وان تباعد شيء من ذلك رُدّ بلطف الصنعة والتأويل اليه كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد ... نحو :

(ك ل م) و (ك م ل) و (م ك ل) و (م ل ك) و (ل ك م) و (ل م ك) ، وكذلك (ق و ل) و (ق ل و) و (و ق ل) و (و ل ق) و (ل ق و) (ل و ق) »[1] . وقد ذكر في صدر الكتاب أن هناك فرقًا واضحًا بين أصلي هاتين المادتين (قول) و (كلم) وان مادة (ق و ل) أين وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض وتأخره انما هو للخفوف والحركة ،

---

(١) الخصائص الطبعة الأولى ١ , ٥٢٥ - ٥٢٦

وجهات تراكيبها الستة مستعملة كلها ، لم يهمل شيء منها . . . وأما مادة (ك ل م) فهذه أيضاً حالها وذلك انها حيث تقلبت فمعناهـا الدلالة على القوة والشدة والمستعمل منها أصول خمسة والمهمل منها أصل واحد وهو (ل م ك) فلم تأت منه في ثبت .

ومن ذلك قوله بنظرية ترافع الأحكام : فقدعقد لها باباً خاصاً في الخصائص فقال : « باب في ترافع الأحكام ، وهذا موضع من العربية لطيف لم أر لأحد من أصحابنا فيه رسماً ولا نقلوا الينا فيه ذكراً ، ومن ذلك مذهب العرب في تكسير ما كان من (فَعَل) على (أفعال) نحو : عَلَم وأعلام ، وقَدَم وأقدام . . . قال سيبويه فان كان على (فَعَلَة) كسَّروه على (أفْعُل) نحو : أكَمَة وآكُم ، ولأجل ذلك حمل (أمة) على انها (فَعَلَة) لقولهم في تكسيرها (آمٍ) الى هنا انتهى كلام سيبويه ، الا انه أرسله ولم يعلله ، والقول فيه عندي ان حركة العين قد عاقبت في بعض المواضع تاء التأنيث وذلك في الادواء نحو قولهم (رَمِثَ رَمَثاً) و (حَبِط حَبَطاً) و (حبج حبجاً) فاذا ألحقوا التاء أسكنوا العين فقالوا (حَقِل حَقْلَةً) و (مَغِلَ مَغْلةً) فقد ترى الى معاقبة حركة العين تاء التأنيث ، ومن ذلك قولهم (جَفْنَة وجَفَنَات) و (قَصْعَة وقَصَعَات) لمّا حذفوا التاء حرَّكوا العين فلما تعاقبت التاء وحركة العين جَرَيا لذلك مجرى الضدّين المتعاقبين فلما اجتمعا في (فَعلة) ترافعا أحكامها فأسقطت التاء حكم الحركة وأسقطت الحركة حكم التاء فآل الأمر الى أن صار كأنه (فَعْل) ، و (فَعْل) باب تكسيره (أفْعُل) وهذا حديث من هذه الصناعة غريب المأخذ لطيف المضطرب فتأمله فانه مُجدٍ عليك مقوٍ لنظرك [1] » .

فأنت ترى أن ابن جني في ملاحظته الدقيقة العجيبة هذه قد كشف عن سر من أسرار هذه اللغة لم يتنبه اليه احد من العلماء الكبار قبله ولا حوّم حوله

(١) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٢٠٢ .

أحد بعده وهذا يؤيد ما قلناه عنه من رهافة الحس ، ودقة النظر في البحث عن أسرار لغة القرآن وانتظام أحوالها اللغوية انتظاماً عجيباً يدهش كل من ينظر اليه .

ومن ذلك قوله بنظرية وضع أصول العربية : وحرصه على أن يكون لعلم النحو أصول مثل أصول الكلام وأصول الفقه ، فقد كان ابن جني عالماً استقرائياً متتبعاً ، ومنطقياً مدققاً ، اطلع على أسرار العربية وخصائص نحوها فرأى أن العلماء الأقدمين أهملوا ناحية مهمة في التأليف وهي ناحية ايجاد فن من فنون العربية أطلق عليه فن أصول العربية و « ذلك انا لم نر أحداً من علماء البلدين ـ الكوفة والبصرة ـ تعرّض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه »[1] وان كتابي ابي الحسن الأخفش الذي سماه (المقاييس في النحو) وأبي بكر بن السراج الذي سماه (كتاب الأصول) لم يكونا في هذا الصدد على الرغم من أن ابا الحسن الأخفش « قد كان صنّف في شيء من المقاييس كتيباً اذا أنت قرنته بكتابنا ـ أي الخصائص ـ علمت بذلك انا نبنا عنه فيه وكفيناه كلفة التعب به وكافأناه على لطيف ما أولانا من علومه المسوقة الينا ، المفيضة ماء البشر والبشاشة علينا ، حتى دعا ذلك أقواماً نزرت من معرفة هذا العلم حظوظهم ، وتأخرت عن إدراكه أقدامهم ، الى الطعن عليه ، والقدح في احتجاجاته وعلله »[1] فهو يقدّر عمل أبي الحسن حق قدره ، ويحمل على أولئك العلماء الذين غمطوه حقه ، ولم يعرفوا مبلغ الجهد الذي بذله ، فابن جني عالم منصف نبيل ، كريم الخلق ، يعطي كل أحد من العلماء الذين سلفوه حقه ، وابن جني حين يحاول ايجاد علم أصول العربية يريد أن يجعل ذلك العلم ذا قواعد ثابتة ، منطقية تعتمد على الاستقراء والبحث ، وان تكون علل تلك القواعد أشبه بعلل المتكلمين لا بعلل الفقهاء فان علل المتكلمين تحيل الى الحس ولا كذلك علل الفقهاء في زعمه حيث يقول « اعلم أن علل النحويين وأعني بذلك حذّاقهم المتقنين لا ألفافهم

(١) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٣

المستضعفين أقرب الى علل المتكلمين منها الى علل المتفقهين وذلك انهم يحيلون على الحس ويحتجون فيه بثقل الحال أو خفتها على النفس وليس كذلك علل الفقه وذلك أنها إنما هي اعلام وأمارات لوقوع الاحكام ووجوه الحكمة فيها خفية عنا »[1] . ونحن وان كنا لا نشاطره رأيه في أن علل الفقهاء هي ـ كما وصف ، فاننا نذهب مذهبه في وجاهة علل المتكلمين ، ولا نرى ان ثمة فروقاً بين علل حذاق المتفقهين وحذاق المتكلمين وليس ههنا موضع المناقشة في ذلك وانما نريد أن نبين رأيه في وجوب إيجاد علم أصول العربية ، وقد كان رحمه الله مغرماً بذلك وقد كرر هذا القول مراراً في (الخصائص) و (سر الصناعة) فقال في بعض تلك المواضع : « واعلم انا مع ما شرحناه وعنينا به فأوضحناه من ترجيح علل النحو على علل الفقه وإلحاقها بعلل الكلام لا ندعي انها تبلغ قدر علل المتكلمين ولا عليها براهين المهندسين غير انا نقول ان علل النحويين على ضربين أحدهما واجب لا بد منه لأن النفس لا تطيق في معناه غيره ، والآخر ما يمكن تحمله إلا أنه على تجشم واستكراه له »[2] .

والحق أن ابن جنى قد جاء في هذا الباب بأقوال ونظريات رائعة ولكنه لم يكن في ذلك إلاّ متقيلاً آثار شيخه الإمام أبي علي الفارسي ، فقد كان رحمه الله شديد الميل الى تقعيد قواعد العربية ، وتنظيم علم أصول لها ، وضبط أقيستها وعلى غراره نشأ تلميذه ، فنظم تلك القواعد ورتّبها وتعمق في البحث أكثر من أستاذه وقد ذكر في الخصائص بعد أن أورد بعض مسائل القياس في العربيّة وقال : « فإن معرفة هذه الحال فيه أمثل من معرفة عشرة أمثال لغته وذلك ان مسألة واحدة من القياس أنبل وأنبه من كتاب لغة عند عيون الناس ، قال لي أبو علي رحمه الله بحلب سنة ست وأربعين : أخطئ في خمسين مسألة

(١) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٤٦ والطبعة الثانية ١ / ٤٨

(٢) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٩٠

في اللغة ولا أخطئ في واحدة من القياس.»[١] فهذا يدلنا على شدة عناية أبي علي الفارسي بالقياس وضبط القواعد وتقنين قوانين اللغة العربية ، وهو يرى أن جهله بالمسائل اللغوية أو خطأه فيها أمر لا بأس عليه منه أما جهله بالقياس وتخليطه فيه فأمر لا يصح التساهل فيه والوقوع فيه .

ومن ذلك وضع كثير من قواعد علم فقه اللغة: فان علم فقه اللغة ، وهو الذي اصطلح المحدثون اطلاقه على علم الفيلولوجيا « Philologie » ، هو علم محدث في اللغة العربية لم يكتب فيه أحد من الأقدمين العرب ولا المحدثين إلا بعد أن اتصلوا بالثقافات الغربية الأوربية .

على ان علماء اوربة المحدثين يختلفون في مدلول هذه الكلمة فمنهم من يذهب الى ان هذا العلم هو مجرد علم قواعد الصرف والنحو ونقد نصوص الآثار الأدبية ومنهم من يذهب الى أنه ليس إلا درس اللفظ ومناقشة أحواله وأوضاعه ، ولكنه درس شامل للحياة العقلية اللغوية من جميع وجوهها ، واذا صح هذا فمن الممكن ان تدخل في دائرة علم الفيلولوجيا كافة فنون اللغة المختلفة من تاريخ اللغة ، ومقابلتها باللغات الشقيقة والبعيدة ، ودراسة النحو ، والصرف ، والعروض ، وعلوم البلاغة ، وعلم الأدب بمعناه الواسع ، فيدخل فيه إذن تاريخ الأدب الخاص ، وتاريخ العلوم من حيث تصنيف الكتب العلمية ، وتاريخ الفقه اللغوي من حيث تدوين اللغة في المجاميع والمعاجم ، كما يدخل فيه تاريخ الدين من حيث درس الكتاب المقدس ، والكتب الدينية الأولى ، وكتب علم الكلام ، ولا سبيل الى معرفة كنه هذه الحياة العقلية إلا بدرس أحوال المركز الذي نشأت فيه تلك الآثار الأدبية[٢] .

ولا شك عندنا في أننا اذا تتبعنا ما كتبه أبو الفتح بن جني في (سر الصناعة) و (الخصائص) و (شرح تصنيف أبي الحسن) وجدناه يحاول محاولات صادقة في وضع

(١) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٤٨٢
(٢) راجع النثر الفني لزكي مبارك ٢ / ٣٨

أسس علم الفيلولوجيا العربية أو علم فقه اللغة كما يسميه بعض العلماء المحدثين .

والحق أن ابا الفتح كان له نصيب وافر في ايجاد علم فقه اللغة العربية من ناحية دراسة اللغة العربية ، والبحث في أصول مفرداتها واشتقاقها ، ودرس قواعدها ونقد نصوصها الأدبية وآثارها اللغوية ، والدينية ، مع ملاحظة كثير من الأسباب العقلية التي عملت في تكوين هذه اللغة وتطور مفرداتها .

وقد حاول في عصر (ابن جني) وبعده بقليل جماعة من أئمة النحاة والصرفيين ان يسيروا في السبيل التي سار عليها إلا انهم لم يوفقوا ولم يستطيعوا ان يتمموا ما بدأ هو به ، فقد أراد الإمام اللغوي ابو الحسين احمد بن فارس الرازي النحوي (— ٣٩٥) أن يؤلف في هذا الموضوع كتاباً فألف كتابه المعروف (بالصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها) ، ولكن كتابه هذا خرج وكأنه ككتب الأقدمين ، أو كأنه أقرب الى كتب اللغة منه الى كتب فقهها وعلم أسرارها .

أما ابن جني فانه ألف كتبه في صلب هذا العلم الذي يبحث عن نشأة الألفاظ العربية والوقوف على أسرارها وطرق توليدها وتفريعها وتقلبها .

ومن ذلك رأيه في نشأة اللغات : فقد ذهب كثير من العلماء القدماء وبعض المحدثين الى ان اللغات توقيفية ، بمعنى ان الله سبحانه أوحى بها الى أنبيائه وأوقفهم على مفرداتها كلمة كلمة ثم انهم علموها لتابعيهم ، وقال آخرون : بل إن اللغات مشتقة من أصوات الحيوانات والطبيعة وان الانسان الأول قد حاكى هذه الحيوانات وتلك الطبيعة واشتق من ذلك ما أعانه على تفهيم مراده لسامعيه . وقال فريق ثالث : بل ان اللغات انما اخترعها الانسان بمحض تفكيره وخالص إرادته ، وانه تواضع عليها كأن يجتمع اثنان أو أكثر فيحتاجون الى تسمية بعض الأشياء فيتفقون فيما بينهم على التسمية وتنتشر بعدئذ .

وقد ذهب كثير من علماء المسلمين القدماء الى القول الأول مستدلين على

ذلك بالآية الكريمة التي قالها الله تعالى حكاية عن آدم عليه السلام وهي : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة » (١) وقالوا إن معنى هذه الآية هو أن الله تعالى علم آدم أبا البشر جميع الألفاظ في جميع اللغات وان آدم علمها أبناءه فتناقلوها من بعده وهكذا اختلفت لغات سكان الأرض . وهو قول عجيب غريب لا نرى في الرد عليه أبلغ مما سمعناه من أستاذنا المرحوم العلامة الشيخ احمد الاسكندري في بعض محاضراته التي ألقاها علينا في كلية الآداب بالجامعة المصرية في سنة ١٩٤٨ فقد قال : إن البداهة تقضي ببطلان هذا القول ، فان شهادة العقل والاستقراء وتتبع نطق الأطفال تشهد بأن اللغة تندرج وتنمو بحسب الحاجة اليها . فلا يصح أن يقال إنها كلها قد وجدت دفعة واحدة وما ذهب اليه شيخنا الاسكندري هو الصحيح الذي قال به ابن جني وتوصلت اليه اليوم مباحث علماء فقه اللغة وعلماء الاجتماع وهو ان اللغات هي كائنات حية تعيش كما يعيش كل حي ، وتموت كما يموت ، وان منشأها الأصوات الأولى ، ولم يقل العلماء قولهم هذا إلا بعد التجربة العلميه والدراسة العميقة وبعد أن ذهبوا بأنفسهم الى مواطن الشعوب البدائية في القارات والجزر النائية واتصلوا بأفراد هذه الشعوب وعاشوا معهم فترة من الزمان وتأملوا أقوالهم وعاداتهم وتكبدوا كثيراً من المتاعب والمشقات في سبيل جمع معلوماتهم ؛ وما كانوا يشعرون بقيمة لمعلوماتهم إلا اذا توفروا على جمعها بأنفسهم عن طريق الملاحظة المباشرة والتدقيق فيما جمعوه وتصنيفه ومقارنته باللغات الحية وتحديد أوجه الشبه وأوجه الخلاف والمفارقات بين اللغات مما أداهم الى هذه النتيجة (٢) .

(١) يشبه هذا ما نجده فى سفر التكوين ، الاصحاح الثاني رقم ١٩ — ٢٠ : « وجبل الرب الاله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها الى آدم ليرى ماذا يدعوها ، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية واما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره » .

(٢) للتوسع في هذا راجع ترجمة (المدخل الى علم الاجتماع) تأليف مونيه الفرنسي طبع مصر ص ٦٩ و ٨٦

أما ابن جني فقد ذهب الى هذا القول منذ أكثر من ألف سنة فقد قال في الفصل النفيس الذي عنونه بقوله (باب القول عن أصل اللغة أإلهام هي أم اصطلاح : هذا موضع محوج الى فضل تأمل غير أن أكثر أهل النظر على ان اللغة انما هي تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف إلا أن أبا علي رحمه الله قال لي يوماً : هي من عند الله واحتج بقوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » وهذا لا يتناول موضع الخلاف وذلك انه قد يجوز ان يكون تأويله ، اقدر آدم على ان واضع عليها ، وهذا المعنى من عند الله لا محالة .... والقديم سبحانه لا يجوز ان يوصف بأن يواضع أحداً من عباده على شيء إذ قد ثبت ان المواضعة لا بد معها من إيماء واشارة بالجارحة نحو المومأ اليه والمشار اليه والقديم سبحانه لا جارحة له فيصح الايماء والإشارة بها منه .. وذهب بعضهم الى ان أصل اللغات كلها انما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك ثم ولّدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل (١) .

مذهبه في علم اللغة :

كانت دراسات علم اللغة قبل مجيء أبي الفتح محصورةً بطريقة من الطرائق الأربع التالية وهي الإملاء ، والإفتاء ، والتعليم ، والرواية . وقد وصف لنا الجلال السيوطي ترجمة طريقة الأقدمين هذه فقال : « وظائف الحافظ في اللغة أربعة أحدها وهي العليا (الإملاء) كما ان الحفاظ من أهل الحديث أعظم وظائفهم الإملاء وقد أملى حفّاظ اللغة من المتقدمين الكثير فأملى ثعلب مجالس

(١) الخصائص الطبعة الثانية ١ / ٤٦ – ٤٧ . ولنلاحظ ان ابن جني بعد ان قال بهذا القول في أصل نشأة اللغات رجع عن رأيه هذا في اللغة العربية خاصة وله في ذلك حجج فارجع اليه اذا شئت في آخر الفصل القيم الذي عنوانه « باب القول على أصل اللغة » من الخصائص الطبعة الثانية ص ٤٠ وما بعدها .

عديدة في مجلد ضخم وأملى ابن دريد مجالس كثيرة ٠٠٠٠ وطريقتهم في الاملاء كطريقة المحدثين سواء يكتب المستملي أول القائمة : مجلس أملاء شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا ويذكر التاريخ ثم يورد المملي باسناده كلاماً عن العرب والفصحاء فيه غريب يحتاج الى التفسير ثم يفسره ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ومن الفوائد اللغوية باسناد وغير اسناد ما يختاره وقد كان هذا في الصدر الأول فاشياً كثيراً ثم ماتت الحفاظ وانقطع املاء اللغة من دهر مديد ٠٠ والوظيفة الثانية (الافتاء) وليقصد التحري والإبانة والإفادة والوقوف عند ما يعلم وليقل في ما لا يعلم ـ لا أعلم ـ واذا سئل عن غريب وكان مفسراً في القرآن فليقتصر عليه ٠٠٠٠٠ والوظيفة الثالثة والرابعة : (الرواية والتعليم) ومن آدابها الاخلاص وان يقصد بذلك نشر العلم وإحياؤه والصدق في الرواية والتحري والنصح في التعليم والاقتصار على القدر الذي تحمله طاقة المتعلم[(١)] » ٠

وكان العلماء المتقدمون قبل ابن جني يوردون معلوماتهم اللغوية إيراداً غير منظم لا رابط بها إلا قليلاً وكان اهتمامهم مصبوباً الى الجزئيات أكثر منه الى الكليات بل كان قليل منهم من يعنى بالاهتمام بالكليات والضوابط العامة وكانوا يتبعون الطرق التي أشار اليها السيوطي في مزهره فيملون معلوماتهم عن اللغة وعن مفرداتها مفردة مفردة كالذي نجده في كتب المبرد (ــ ٢٨٥) وكتب الأصمعي (ــ ٢١٦) بل وكتب أبي علي القالي (ــ ٣٦٥) وهي كتب تشتمل على كثير من أخبار العرب ، ومباحث الأدب وقصص التاريخ والمفردات اللغوية ، وقد ظل هذا الحال حتى أطل القرن الرابع للهجرة فأخذ علماؤه من شيوخ ابن جني وطبقته يعمدون الى تنظيم مباحث علم اللغة وشعروا بضرورة تنظيم المباحث اللغوية تنظيماً يعتمد على المنطق والترتيب وهكذا (فتح القرن الرابع للهجرة فتحاً جديداً في كل من الناحيتين الرئيسيتين لعلوم اللغة العربية وهما

(١) المزهر للسيوطي . طبع القاهرة سنة ١٢٨٢ ، ٢ / ١٦٢ – ١٦٩

(النحو) و (عمل المعاجم) وقد تخلص علم اللغـة كما تخلص علم الكلام من طريقة الفقهاء ومناهجهم حتى من الناحية الشكلية)[١] .

والحق أن القرن الرابع كان مبدأ تطور عام لا في علوم العربية بل في سائر علوم الاسلام ٠ أما ما يتعلق بعلوم العربية وبعلم اللغة خاصة فقد أخذ علماء هذا القرن يسيرون على الخطة التي كان الخليل بن احمد (— ١٧٠) قد بدأ بها ولكن أحداً من علماء عصره أو الذين جاءوا بعده لم يتمها الى ان كان القرن الرابع ، ولا شك في ان اطلاع هؤلاء الائمة على طرائق العلماء الأقدمين من يونان وسريان وروم قد كان له بعض تأثير في تطور هذا العلم في القرن الرابع ، حتى أصبحنا نجد هذه الأبحاث اللغوية تدور في مجالس بعض الأمراء كعضد الدولة البويهي (— ٣٧١) قال الأستاذان ميتز وريشر : إن أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري قد شعروا بالحاجة الماسة الى منهج يسيرون عليه والى تناول مادة بحثهم على طريقة منظمة ، وقد كان لمعرفة العلماء العرب المحدثين بعلوم اليونان اللسانية اثر كبير في ذلك ، وكان البحث يدور في مجلس عضد الدولة حول الفرق بين النحو العربي والنحو اليوناني وأصول استنباطها ٠ وقد ميز أبو سليمان السجستاني النزعة الجديدة في النحو بأن قال : (نحو العرب فطرة ونحونا فطنة) [راجع أخبار العلماء للقفطي ٠ طبع اوربا ص ٢٨٣] وإذا وجدنا ابن فارس (— ٣٩٥) يؤلف لأول مرة مقدمة في النحو فينبغي ألا نرى في هذا سوى وليد للمقدمات (الايساغوجي) التي كتبها علماء اللغة اليونانية ٠ وأكبر ماتم على أيدي علماء اللغة هو تحديد معاني الكلمات وعمل المعاجم ونجد ههنا حداً واضحاً يفصل بين عهدين وطريقتين وكان حمزة الاصفهاني (— ٣٥٠ أو ٣٦٠) خاتمة اللغويين القدماء الذين كانت كتبهم لا تشتمل إلا على عبارات للخطباء والبلغاء الذين ألفوا كتباً من المترادف وأخرى يستعين بها الخطباء في الخطبات ففي كتاب الموازنة مثلاً

(١) آدم ميتز في (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع) ترجمة الدكتور عبد الهادي ابو ريده ص ٣٨٧

ذكر أربعمائة كلمة في معنى (الشقي) وكذلك جمع في كتاب الأمثال أكثر ما يعرض في لغة الخطباء من عبارات المفاضلة نحو : أبيض من الثلج ، وأجشع من الفيل ... وقد كان جمعه وافياً بحيث لم يضف علماء القرون التالية شيئاً اليها ، وكان سلفه قد جمع من هذه العبارات ثلاثمائة وتسعين فجمع هذا ألفاً وثمانمائة ... وكذلك ظهرت في القرن الرابع دراسة جديدة للاشتقاق اللغوي وبقيت عصراً طويلاً وكان أستاذ هذه الدراسة ابن جني الموصلي (— ٣٩٢) .. وهو الذي ينسب اليه ابتداع مبحث جديد في علم اللغة وهو المسمى بالاشتقاق الأكبر وهو البحث الذي لا يزال يؤتي ثمره الى اليوم والذي يختص بمادة الكلمة دون هيئتها ولم يكن لعلماء اللغة من العرب انتاج أعظم من هذا وقد كان ابن جني معتزاً بنظريته هذه [١] .

والحق أن عمل ابن جني في الاشتقاق الأكبر ، والتراتيب اللغوية ، والمباحث الكلامية ، والدراسات الصرفية التي خلفها في كتبه العديدة التي سنعرض لها في آخر هذه المقالات ، هو العمل الجدي المثمر الذي طور مباحث اللغة وجعل لها أسلوباً جديداً انتظم أمره بابن جني ولكن أحداً من العلماء بعده لم يتم ما بدأ به .

مذهبه في النحو :

انقسمت مذاهب النحو الى اربع مدارس رئيسة هي : مدرسة أهل البصرة ومدرسة أهل الكوفة ، ومدرسة أهل بغداد ، ومدرسة أهل الأندلس . وأصل هذه المدارس وأولها مدرسة أهل البصرة ؛ ففي هذه المدينة نشأ علم النحو العربي ، ومؤرخو الآداب العربية يختلفون في أولية وضع النحو العربي بين أربعة من أهل العلم هم : الامام علي بن أبي طالب عليه السلام ، وأبو الأسود الدؤلي ، ونصر بن عاصم الليثي ، وعبد الرحمن بن هرمز .

(١) راجع المصدر السابق ص ٣٨٧ ، ٣٩١ وراجع بحث الأستاذ O. Rescher في كتابه عن الامام ابن جني ص ٢٠ Studien uber Ibn Ginni - Z. A. 1909

أما الامام علي : فأقدم من نسب اليه ذلك هو أبو العباس المبرد (— ٢٨٥) حيث يقول : « أول من وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود وسئل عمن أرشده الى الوضع في النحو فقال تلقيته عن علي » [١] . ويقول ابن النديم (— ٣٨٥) : « وزعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود وأن أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه » [٢] .

وأما أبو الأسود (— ٦٩) فقد أجمع كل من كتب في تاريخ النحو على نسبة وضع هذا العلم اليه ، وأول من ذكر ذلك هو محمد بن سلاّم الجمحي (— ٢٣٢) فقد ذكر في مقدمة كتابه طبقات الشعراء ما يلي : « وكان أول من أسس العربية وفتح بابها ونهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي .... ووضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب والجزم » [٣] . وجاء بعد ابن سلاّم الامام ابن قتيبة (— ٢٧٦) فقال : « ... لأنه أول من عمل في النحو كتاباً » . وجاء بعد ابن قتيبة أبو العباس المبرد (— ٢٨٥) فقال : « ... أول من وضع العربية ونقط المصاحف ابو الأسود الدؤلي » . وجاء بعد المبرد ابن النديم صاحب الفهرست وقد رأيت قوله فيما سبق ، ثم تتابع المؤرخون بعدهم ينقلون أقوالهم .

وأما نصر بن عاصم (— ٨٩) فقد كان فقيهاً وعالماً بالعربية وفصيحاً بارعاً ، تعلم من أبي الأسود الدؤلي وروى عنه القرآن الكريم قال ابن النديم في الفهرست : « وقال آخرون : رسم النحو نصر بن عاصم الدؤلي ويقال الليثي » [٤] . وقال ياقوت : « أول كتاب وضع في النحو على التحقيق هو كتاب نصر بن عاصم » [٥] .

(١) أورد هذه العبارة ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي (— ٣٥٠) في كتابه طبقات النحاة . وهو مخطوط في خزانتنا
(٢) الفهرست لابن النديم ص ٥٩
(٣) الشعر والشعراء طبعة البابي الحلبي ٢ / ٧٠٧
(٤) راجع تاريخ علوم اللغة للمرحوم الأستاذ الجليل طه الراوي ص ٧٦ وما بعدها .
(٥) ارشاد الأريب في ترجمة نصر بن عاصم

وكان نصر هذا من نبهاء أصحاب أبي الأسود وتلاميذه وهو الذي روى عنه صحيفته في العربية وهي المعروفة (بالتعليقة) حتى قال بعضهم : إن أول اسناد علمي عرف في الأدب هو اسناد نصر الى أبي الأسود في تعليقته هذه . وقد ألف نصر في العربية كتاباً لم يصل الينا[1] .

وأما عبد الرحمن بن هرمز (— ١١٧) فقد كان أحد القراء العلماء بالعربية والأنساب ، وقد قيل في ترجمته إنه أول من ألف في النحو . وكان من تلاميذ أبي الأسود وأصحابه أيضاً . قال الزبيدي : كان من أعلم الناس بالنحو وأنساب قريش .

والذي نراه في هذه القضية ان أبا الأسود هو الذي وضع أسس هذا العلم ولعله أطلع الإمام علياً على ما أراد أن يضعه أو أنه فعل ذلك الوضع برأي الإمام وتوجيهه . وأما عمل نصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز فهو قيامهما باتمام ما بدأ به أستاذهما أبو الأسود ، ويقال ان نصراً هو الذي قام بتمييز الحروف المتشابهة كالباء والتاء والثاء والنون والياء ، والصاد والضاد والطاء والظاء وما يشبه ذلك . كما يقال ان عبد الرحمن هو الذي رتب ما تلقاه من شيخه أبي الأسود وألفه في كتاب ، وخصوصاً إذا عرفنا أن نصراً وعبد الرحمن قد عاشا طويلاً بعد أستاذهما فكان طبيعياً ان يكملا ما بدأ به .

وصفوة القول ان أبا الأسود هو الذي وضع أساس بناء النحو في البصرة وذلك بأن ضبط قراءة القرآن الكريم[2] ثم وضع بعض القواعد العامة المتعلقة بالمرفوع والمنصوب والمجرور أو ما أشبه ذلك .

هذا ما نرتأيه في المقدار الذي ساهم به أبو الأسود وأصحابه في وضع العربية أما ما يقال من أنهم وضعوا أبواب النحو ، كما تذكر ذلك بعض المصادر العربية

(١) راجع تاريخ علوم اللغة للمرحوم الأستاذ الراوي ص ٧٦ وما بعدها
(٢) راجع نزهة الألباء لابن الانباري ص ١١

القديمة ، وأنهم قسموا الكلمة الى اسم وفعل وحرف وذكروا النواصب والجوازم ، وبوّبوا النحو وغير ذلك فأمر يستبعد وقوعه في ذلك الزمن المبكر ، ولكن الذين بحثوا في هذه الموضوعات وبوّبوا النحو ، هم رجال الطبقة الثانية التي جاءت بعد أبي الأسود وتلاميذه في القرن الثاني للهجرة أمثال عبد الله بن ابي اسحق الحضرمي ، ويونس بن حبيب ، والخليل بن احمد ، وعيسى بن عمر الثقفي . فقد كانت البصرة بيئة عربية لقربها من المربد الذي كان يقصده عرب البادية العربية يتبارون ويتناشدون الأشعار حتى غدا أجلّ سوق للعرب في الجاهلية والاسلام . وكان هؤلاء العلماء البصريون أصحاب قياس وتقنين يحاولون ضبط أساليب اللغة بالقواعد المنطقية التي أفادوها من الاطلاع على المنطق اليوناني ، الذي ترجم في عصرهم . وكانوا حريصين على القيـاس وطرد القواعد واهمال كل ما يخالف أقيستهم ونظرياتهم اللغوية التي وضعوها مستنيرين بالعقل السليم والمنطق الصحيح ، والفلسفة اليونانية حتى قال صاحب الانصاف : « إنهم بنوا كلامهم من اعتبار حكم المشاكلة والمحافظة على أن تجري الأبواب على سنن واحد ، وقالوا ألا ترى انهم حملوا المضارع على الماضي اذا اتصل به ضمير جماعة النسوة نحو تضربن ، حذفوا الهمزة من اخوات أَكْرَمَ نحو تكرم ويكرم ، والأصل فيها تؤكرم ونؤكرم ، يؤكرم كما قال : فانه أهل لأن يؤكرما

وكذلك حذفوا الواو من اخوات يَعِدُ نحو أعد ، وتعد ، ويعد ، والأصل أوعد ، ويوعد ، وتوعد ، حملاً على يَعِد ، كل ذلك لتحصيل التشاكل والفرار من نفرة الاختلاف [1] » .

مدرستا البصرة والكوفة :

يوجب البصريون سير اللغة في سبيل واحدة متشابهة متشاكلة لا شذوذ فيها ولا اختلاف وهم يشبّهون القياس النحوي بالقياس الفقهي ويقولون لا بد لكل

(١) الانصاف ص : ٣ — ٤

قياس من أركان أربعة : أصل وفرع وعلة وحكم ، ويقولون قد يخرج على القياس شيء من كلام العرب ولكنه يظل مسموعاً ولا يقاس عليه غيره ، ويقولون : يحمل الأقل والأندر على الأعم الأكثر ، وهذا أولى من حمل الأعم الأكثر على الأقل الأندر[1] ، ويقولون : لا بد لكل أمر من دليل وعلة ، ويقولون : لكل قاعدة أصل ولا يصح العدول عن هذا الأصل ، ومن عدل عن الأصل بقي مرتهناً باقامة الدليل[2] .. وما الى ذلك من القواعد والأصول والأقيسة التي تعتمد على على المنطق والأصول ، ونظريات الفلسفة .

وأما مدرسة الكوفة فقد كانت مدرسة تميل الى التوسع وعدم التقييد وكان رجالاتها يعتمدون على سعة روايتهم وكثرة محفوظهم كما كانوا لا يتقيدون بالقواعد النحوية ، ويقولون ان كثيراً مما نظن انه شاذ عن الأسلوب العربي لمخالفته الأقيسة انما هو صحيح ... فمذهبهم أقرب الى السليقة منه الى الصنعة ولعل سبب ذلك هو انهم كانوا يعتمدون على المعين الأدبي الذي تدفق عليهم ، أكثر من اعتمادهم على المنطق اليوناني وتعقيداته ، وعلى الفلسفة وقواعدها كما كان يفعل رجال المدرسة البصرية الذين أغرقوا في الاعتماد على نحو السريان ، وعلوم اليونان ، وثقافات الفرس ، على عكس الكوفيين الذين كانوا أميل الى الانطلاق عن كل هذه القيود .

وأوائل من عرف من الكوفيين بالاهتمام بالعربية جماعة منهم :

أبو معاوية شيبان بن عبد الرحمن التميمي (— ١٦٤) الامام النحوي المقرئ المؤدب الذي كان من كبار رجال علم القرآن والحديث والعربية ، ولد في البصرة ولكنه أقام في الكوفة وتعلم على رجالاتها وروى القرآن عن عاصم بن بهدلة ابن أبي النجود الأسدي الكوفي إمام القراء وأحد القراء السبعة ، وقرأ العربية

(١) الانصاف ص : ٢٧٧
(٢) الانصاف ص : ١٣٤

على أبي عمرو بن العلاء وطبقته . . وروى عنه الحسين بن علي الجعفي الكوفي الامام الزاهد وأحد أعلام القراءات . وله كتاب في الحديث ، وقصد في آخر عمره بغداد وفيها مات [1] .

وأبو مسلم معاذ بن مسلم الهرّاء (— ١٨٧) مؤدب عبد الملك بن مروان ، وشيخ أبي الحسن الكسائي إمام نحاة الكوفة ، وأبي جعفر الرؤاسي أول من صنف من أهل الكوفة وكان الهراء من أئمة النحاة الرواة ، أخذ عن الامام جعفر الصادق ، وكان صديقاً للكميت الشاعر ، وله شعر لا بأس به ، وقد عمّر طويلاً ، قال ابن خلكان : قرأ على الكسائي وروى عنه وصنف في النحو كثيراً وكان يتشيع ، وله شعر كشعر النحاة وكان في عصره مشهوراً بالعمر الطويل ، وكان له أولاد وأولاد أولاد فمات الكل وهو باقٍ [2] ويقول ابن الأنباري في النزهة : وقيل إنه كان يكنى أبا علي وهو من موالي محمد بن كعب القرظي ، وهو عم أبي جعفر الرؤاسي . . . ولا مصنف له يعرف .

وأول من عرف من الكوفيين بالتصنيف والبحث عالمان جليلان هما :

أبو جعفر الرؤاسي محمد بن الحسن بن أبي سارة النيلي النحوي (— ١٩٠) وقد تلقى العلم عن عمه معاذ بن مسلم الهرّاء وعن أبي عمرو بن العلاء ، وعيسى ابن عمر الثقفي ، وكان بارعاً بالنحو والصرف والقراءات ، وكانت له اختيارات في القراءة والوقوف . وقد روى عنه يحيى بن زياد الفراء ، وخلاّد بن خالد الصيرفي ، وعلي بن حمزة الكسائي [3] . وكان سيبويه يجله ويثق بعلمه وكلما قال في كتابه (قال الكوفي) عناه . قال ابن درستويه : زعم أبو العباس

(١) راجع تهذيب التهذيب ٤ / ٣٧٣ ، وغاية النهاية لابن الجزري ١ / ٣٢٩ وتاريخ علوم اللغة للراوي ص ١٢٢

(٢) راجع بغية الوعاة للسيوطي ص ٣٩٣ ، ونزهة الالباء لابن الانباري ص ٦٤ والكنى والألقاب للقمي ٣ / ٢٣٩

(٣) انظر النهاية لابن الجزري ٢ / ١١٦ والبغية ص ٣٣ والنزهة ص ٦٥ .

احمد بن يحيى ثعلب : إن أول من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو الرؤامي والفراء . وقال الفراء : لما خرج الكسائي الى بغداد قال الرؤامي قد خرج الكسائي الى بغداد وأنت أميز منه فجئت الى بغداد فرأيت الكسائي فسألته عن مسائل الرؤامي فأجابني بخلاف ماعندي فغمزت قوماً من علماء الكوفيين فكانوا معي فقال : مالك قد أنكرت لعلك من أهل الكوفة ، فقلت : نعم فقال : الرؤامي يقول كذا وكذا وليس صواباً ، وسمعت العرب تقول كذا وكذا حتى أتى على مسائلي فلزمته . وقال الرؤامي : أرسل إليّ الخليل بن احمد يطلب كتابي فبعثته اليه فقرأه ووضع كتابه[1] ويقال لكتابه (الفيصل) . وقال المبرد : عرف الرؤامي بالبصرة وقد زعم بعض الناس أنه صنف كتاباً في النحو فدخل البصرة ليعرضه على أصحابنا فلم يلتفت اليه ولم يجسر على إظهاره لمّا سمع كلامهم . وقد ألف الرؤامي كتباً عديدة منها (الفيصل) و (معاني القرآن) و (التصغير) . و (الوقف والابتداء الكبير) و (الوقف والابتداء الصغير) وقد ضاعت هذه الآثار كلها فيما أعلم .

والكسائي الامام علي بن حمزة بن عبد الله بن بهرام (— ١٨٩) وكان شيخ الكوفة الأعظم وموطد قواعد مذهبها في النحو والقراءة ، وهو أحد القراء السبعة المشهورين ، قرأ على حمزة ثم اختار لنفسه قراءة ، وسمع العلم من سليمان بن أرقم ، وأبي بكر بن عياش ، وسفيان بن عُيينه ، وتعلم النحو من الرؤامي ومعاذ الهراء ولزمه حتى انفد ماعنده ، ثم خرج الى البصرة فلقي الخليل وجلس في حلقته فقال له رجل من الأعراب تركت أسداً بالكوفة وتميماً وعندهما الفصاحة وجئت الى البصرة ! ! ثم انه قال للخليل : من أين أخذت علمك هذا ؟ فقال : من بوادي الحجاز ونجد وتهامة فخرج ورجع وقد أنفد خمس عشرة

(١) انظر ارشاد الأريب ٢ / ١٣٨ والبغية ص ٣٥ والنزهة ص ٦٦ والمزهر ٢ / ٢٠١ وطبقات الزبيدي ص ٦١ وبروكلمان C. A. L. ١ / ١١٥ والذيل ١ / ١٧٧

قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ماحفظ ، وقدم البصرة فوجد الخليل قد مات ، وفي موضعه يونس بن حبيب فجرت بينهما مسائل أقر له فيها يونس وصدّره في موضعه . قال ابن الاعرابي : كان الكسائي أعلم الناس ضابطاً عالماً بالعربية قارئاً صدوقاً إلا أنه كان يديم شرب النبيذ . وقال ابن درستويه : «كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلاً ويقيس عليه ما أفسد النحو بذلك[1]» . ولا شك في ان ابن درستويه إنما قال ذلك بعقلية نحاة البصرة المنطقيين المتشددين . وقد نبغ من تلاميذه ، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ، وأبو عبيد القاسم بن سلاّم . وله كتب كثيرة ذكرها الخطيب البغدادي في ترجمته والزبيدي في طبقاته وياقوت في معجمه ، وابن خلكان في وفياته ، واحمد امين في ضحى الاسلام . ولم يبق من هذه الكتب إلا رسالة في (لحن العامة) وكتاب (المتشابه في القرآن)[2] .

ويلي الكسائي عند الكوفيين تلميذه يحيى بن زياد بن عبد الله بن الفراء (— ٢٠٨) الذي تصدر في الكوفة بعد أستاذه الكسائي . قال ثعلب : لولا الفراء لما كانت اللغة لأنه حصلها وضبطها ولولا الفراء لسقطت العربية لأنها كانت تتنازع ويدعيها كل من أراد ويتكلم الناس مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب وأمره المأمون أن يجمع أصول النحو وما سمع من العرب فأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار ووكل بها جواري وخدماً للقيام بما يحتاج اليه . . . حتى حققت (الحدود) وأمر المأمون بكتبه في الخزائن . وكان أعلم الكوفيين بعد الكسائي ، وكان يميل الى الاعتزال ، زائد العصبية على سيبويه وقد ألف عدة

(١) راجع البغية ص ٣٣٦ والنزهة ص ٨١

(٢) راجع بروكلمان G. A. L. ١ / ١١٥ والذيل ١ / ١٧٨

كتب ذكرها الخطيب البغدادي ، وياقوت ، والسيوطي ولم يبق منها إلا كتاب (معاني القرآن) و (الفاخر) في الأمثال و (المقصور والممدود) و (المذكر والمؤنث) و (الأيام والليالي)[1] .

هؤلاء هم أئمة المدرسة الكوفية التي كانت في أول أمرها بعيدة عن طريق المناطقة والفلاسفة ولكنها لم تلبث في عهد الفراء أن تأثرت بالمنطق والقياس على طريقة أهل البصرة ولكنها لم تغال غلو أهل البصرة[2] .

(للبحث صلة) الدكتور محمد أسعد طلس

---

(١) راجع بروكلمان G. A. L. ١ / ١١٦ والذيل ١ / ١٧٨
(٢) راجع الانصاف طبعة بريل ص ٤٥ ، وتاريخ علوم اللغة للراوي ص ١٢٢

التعريف والنقد

خريدة القصر وجريدة العصر

قسم شعراء الشام ، الجزء الأول

ألّفه العماد الاصفهاني وحقّقه الدكتور شكري فيصل ونشره المجمع العلمي العربي
في ١٨ + ٦٩٠ صفحة (١) و ٨ رواميز – المطبعة الهاشمية بدمشق ، سنة ١٩٥٥

عُنِي العرب ، في مطلع عصر التأليف ، بالشعراء القدامى ؛ فجمعوا ما أُثِر عنهم وشرحوه ونقدوه . ثم جعلوا أولئك الشعراء طبقات في الزمان وفي الإتقان ، وترجموا لهم وقوّموهم . ولكنّ هؤلاء المؤلفين لم يلتفتوا إلى عصريهم ، ولم يُقرّوا لهم بأيسر الفضل ؛ ولذلك دواعٍ ، من أعظمها ، فيما نظن ، عناية هؤلاء المؤلفين الأوائل بسلامة اللغة وصحة التعبير قبل كل شيء ، وهما إنما يُلْتَمسان في عصري الجاهلية وصدر الإسلام .

ثم دخل الشعر العربي في طور جديد ، ونبغ فيه من المتأخرين مَن لا يقلّ عن المتقدمين ، في إشراق الديباجة وصحة الحوك وجمال المعاني والصور وتنوع الأغراض ؛ ففطن القوم إلى هذا الشعر الجيّد الجديد ، وأخذوا يؤلفون في طبقات الشعراء المحدثين والمولّدين ، ويعكفون على تذوّق منظومهم ، وينزلونهم المنزلة التي هم أحق بها . وفي المكتبة العربية تصانيف كثيرة ، كتبها أصحابها في هذا الشعر الحديث وشرحه ونقده ، وفي شعراء أواخر القرن الثالث وما بعده

(١) أخطأ الطابع في ترقيم بعض الصفحات ، فانتقل من ص ١٦٠ الى ص ١٧٧ ، وتجاوز الأرقام ١٦١ إلى ١٧٦ ، وعلى ذلك يقع نص الكتاب في ٦٧٤ صفحة فقط .

إلى يوم الناس هذا . ومن أجلّ هذه التصانيف كتـاب (خريدة القصر وجريدة العصر) .

مؤلف هذا الكتاب هو عماد الدين القرشي الاصفهاني الكاتب (٥١٩—٥٩٧هـ). نشأ في فارس، وطوّف في بلاد العراق والشام ومصر، ولقي فضلاءها وأدباءها، وأخذ عن كبـار علمائها وشيوخها، وصحب نور الدين وصلاح الدين، وشهد حروبهما مع الفرنجة . وكان عالماً فاضلاً، كاتباً شاعراً، متمكناً من الفارسية، مالكاً ناصية العربية، طويل الباع فيها، مولعاً بالنثر المصنوع المعقّد، يصوغ به رسائله، ويفرغ فيه ما يؤلفه في تاريخ عصره الأدبي والحربي والسياسي، ويكثر من التسجيع والترصيع. والتجنيس والمطابقة، حتى ليعسر على الحافظ استظهار أسماء بعض كتبه، ككتابه (نصرة الفترة وعصرة القطرة) في تاريخ السلاجقة، و (الفتح القسي في الفتح القدسي) في فتوحات صلاح الدين، و (نحلة الرحلة وحلية العطلة) في اضطراب البلاد بعد موت صلاح الدين، و (خريدة القصر وجريدة العصر) الذي نعرّف به هنا .

ويطول بنا الكلام إذا شئنا التحدث عن المصنفات التي ألف العماد كتاب (الخريدة) على نسقها، وعن الكتب التي أُلفت بعده على غراره، وعن المؤلفين الذين اعتمدوا (الخريدة)، ونهلوا من معينها، كياقوت وابن خلكان وابن شاكر والصفدي وابن السبكي وابن الفُوَطي وسبط ابن الجوزي وأبي شامة وابن كثير....[1] فنقتصر هنا على التعريف (بالخريدة) فحسب .

كسّر العماد كتابه هذا على اثني عشر جزءاً، جعلها أقساماً أربعة: فقصر القسم الأول على شعراء العراق، ووقف الثاني على شعراء العجم وفارس وخراسان، وخصّ الثالث بشعراء الشام والموصل وجزيرة بني ربيعة وديار بكر وأضاف إلى هذا القسم شعراء الحجاز وتهامة واليمن، وجمع في الرابع شعراء مصر وصقلّيّة

(١) اقرأ كلمة في ذلك كله في : (الخريدة)، القسم العراقي، الجزء الأول، المقدمة : ص ص ٨٢ — ٩٦ .

والمغرب وبلاد الأندلس . ولئن انفسحت رقعة مواطن هؤلاء الشعراء في المكان (فامتدت من أقصى المشرق العربي آنئذ إلى أقصى المغرب) فقد ضاقت في الزمان ، إذ يقول العماد : «وقد ذكرتُ أهل عصري ، وأهل عصر آبائي وأعمامي ، فالكتاب مشتمل على العصرين : السالف الماضي ، والحاضر النامي . وأكثرُ ما أوردتُه شعرُ مَن أروي عن واحد ، عنه ، إنْ لم أكن أدركتُه وسمعته منه . ولم أقتصر على المنتقى المنتقد ، والمتنخّل المنتخب ، بل ذكرتُ لكل شاعر ما وقع إليّ من شعره ، وأثبتُّه : إما لمعنى غريب ، أو لفظ مستحسن ، أو أسلوب رائق ....» [1] . وقد اعتمد الدكتور شكري فيصل ماقاله ابن خلكان في ترجمته العماد ، إذ جعل الخريدة تحتوي على تراجم (الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة) [2] . وما نرى قول ابن خلكان حقًّا ، ففي الخريدة مثلاً ترجمة للشريف أبي الحسين علي بن حيدرة العقيلي ، وكان يعيش في النصف الأول من القرن الخامس [3] ، وأخرى للباخرزي صاحب «دُمية القصر» وقد توفي سنة ٤٦٧ هـ ، وثالثة للأمير تاج الملوك أخي صلاح الدين ، وقد توفي سنة ٥٧٩ هـ .

وقد يحسب القارئ بادئ بدء أن (الخريدة) موقوفة على الفحول من الشعراء ، ولكنه لا يلبث ، إذا مامضى في مطالعتها ، أن يرى فيها شعراً للمغمورين منهم ، بل ولبعض الفقهاء والمحدثين وأبناء الأجناد ، ثم يرى ، إلى جانب هذا الشعر أيضاً ، قدراً وافراً من نثر عصر العماد ، وقد غلبتْ على أكثره الصنعةُ ، وأثقله البديع ، فغاضت محاسن معانيه ، بالتأنق المتكلف في زخرفة مبانيه ؛ ولا عجب ، فالعصر عصر القاضي الفاضل وليّ نعمة العماد ، وأستاذه في هذا المذهب الفني ، ورافده في تأليف جزء الخريدة المتعلق بالمغرب .

(١) المصدر السابق ١ / ٧ .
(٢) راجع (الخريدة) ، قسم شعراء الشام ، الجزء الأول ، المقدمة : ص ٣ .
(٣) راجع (الخريدة) ، قسم شعراء مصر ، الجزء الثاني ، ص ص ٦٢ – ٦٣ .

من عادة العماد في (الخريدة) أن يوطئ للكلام على الشاعر أو الكاتب بترجمة مسجّعة له ، ويعقّب على ذلك بإيراد نتف من أخباره ، وأنباذ من رسائله أو أشعاره ، وقد ينسق هذه الأشعار على القوافي المتلاحقة على حروف المعجم ... ، ولكنه لا يلتزم ذلك كله دائماً ، ولا يتبع في التوطئة نسقاً واحداً ؛ فقد يغفل ذكر تاريخ ولادة المترجَم له أو وفاته ، أو يقتصر على ذكر اسمه وينتقل إلى ذكر شيء مما اختاره له . ووصفُه لهؤلاء الأدباء غامض مبهم في الحين بعد الحين ، فالعماد يُضفي على أكثرهم ثوباً واحداً في معناه ، من الإشادة بمحاسنهم ، والتنويه ببراعتهم ، فكلهم « قسٌّ في الفصاحة ، وقيسٌ في الحصافة ، وحاتم وعمرو في السماحة والحماسة » . وقد يكون هذا الثوب من الثناء ضافياً فضفاضاً على بعضهم ، وضيّقاً قصيراً على الآخرين . فأكثر أحكامه النقدية لا يعيننا اليوم على إحلال الشاعر المنزلة التي يستحق ، بل ولا على تبيّن المنزلة التي كانت له عند العماد وأهل عصره ، وليست (الخريدة) في جملتها إلا قصائد ومقطّعات من الشعر وشذوراً من النثر ، اختارها أصحابها أو انتقاها المؤلف ، منها الحسن ومنها ما هو دون ذلك ، تسبقها توطئة في التعريف بصاحبها ، ليست من حرّ النقد الأدبي كما نفهمه اليوم إلا في الندرى . على أن (الخريدة) رغم هذا كله قد تعين مَن يتصدى لكتابة تاريخ الأدب والنقد في القرنين الخامس والسادس .

وقد يودع العماد (الخريدة) نتفاً من أشعاره ، ويقول في بعضها : « وما أوردتُها لجودتها ، على أنها ما تقصر عن الغاية ، بل لمناسبتها وكونها لائقة بهذا الموضوع . » [1] .

* * *

نهض بعض أفاضل علماء العراق ، بتكليف من المجمع العلمي العراقي منذ أكثر من خمس سنوات ، لتحقيق القسم العراقي من (الخريدة) ،

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ١ / ٣٠ .

وصدر في أوائل هذا العام (١٩٥٦ م) الجزء الأول منه ، كما كان قد صدر في القاهرة قسم شعراء مصر ، الجزء الأول سنة ١٩٥١ والجزء الثاني سنة ١٩٥٢ م .

أما القسم الشامي فقد عهد المجمع العلمي العربي بتحقيقه إلى الدكتور شكري فيصل ، الأستاذ في كلية الآداب في الجامعة السورية ، وصدر الجزء الأول منه في أواخر العام ١٩٥٥ م ، واعتمد المحقق خمسة مخطوطات تتفاوت قيمها ، ولكن أجلّها مخطوط المكتبة الوطنية في باريز ، ويقدّر الدكتور فيصل أن يقع قسم شعراء الشام في ثلاثة أجزاء ، ويرجو ـ عندما يفرغ من نشرها ـ أن يعقّب عليها بدراسة (للخريدة) ومؤلفها ، وللشعر في هذه الفترة .

وفي هذا الجزء الأول من قسم شعراء الشام ترجمة ومختارات لخمسة وأربعين علَماً : من شعراء بلاد الساحل الشامي (٣) وشعراء دمشق (١٠) وعلماء دمشق والقدس (١٠) وفضلاء دمشق (٨) وحمص (٢) وحماة (٢) وبني منقذ (١٠) . وفي تضاعيف هذا الجزء فصول ورسائل نثرية طويلة ، كرسالة (النسر والبلبل) ، للمهذب الدمشقي ، ورسالة في الصيد والشراب ، للأمير يعمر بن عيسى .

أنفق المحقق الفاضل ، مشكوراً محموداً ، الكثير من الجهد والوقت في إخراج هذا الجزء للناس ، وطبعه طبعة علمية نقدية منقّحة صحيحة ، فجمع ما تيسّر له من أصول الكتاب ، وقارن بين الروايات ، وتخيّر أفضلها ، وضبط الكلمات التي يتوقّف جمهور القرّاء عندها ، وشرح معنى الغريب منها ، وترجم لمن وردت أسماؤهم في المتن ، واستند في ذلك إلى المراجع العربية الموثوقة ، فيسّر بذلك قراءة هذا السفر الثمين ، وهوّن الإفادة منه على أيسر وجه وأهدى سبيل . ووطّأ المحقق بمقدمة تعرّف بالكتاب ومؤلفه ، وتصف الأصول التي اعتمدها ، تقفوها رواميز هذه الأصول . ثم ألحق بهذا الجزء مستدركاً أودعه ما بدأ له فيه رأي مستأنف بعد أن سبق طبعه ، وعقّب على ذلك بستة فهارس لأبواب هذا الجزء ، وأسماء شعرائه ، والمختار من منظومه ومنثوره ، وللأماكن ،

والأعلام ، والمراجع والكتب الواردة في متنه وحواشيه . ووضعُ فهارس متقنة وافية لمثل هذا الكتاب الوسيع أمر محتّم في كل طبعة نقدية ، ولا يقدرها حق قدرها إلا الباحثون المتتبعون ، ولا يعرف عناء وضعها على الوجه الأكمل إلا من اضطلع بمثل هذا الأمر وكابد مشقاته . وفهارس هذا الجزء متقنة وافية تدل على الدقة والدأب والتبصر ؛ ولكننا كنا نودّ لو تبسط المحقق في التعريف بالكتب التي اعتمدها هو أو أشار اليها العماد، في فهرس (المراجع والكتب) ، فذكر فيه حذاء المطبوع منها الطبعة والطابع ومكان الطبع وزمانه ؛ والى جانب المخطوط خزانته ورقمه ووصفه بايجاز . وليس في فهرس (الأعلام) ما يميز صفحات الكتاب وحواشيه التي ورد فيها تعريف وافٍ بالعَلَم من الصفحات التي أشير فيها إليه إشارة عابرة ، وفي العادة أن يوماً إلى ذلك بأرقام متباينة . هذا واننا لنرجو أن يقوم المحقق أو أحد تلامذته - بعد أن يتم نشر الكتاب بأصباره - بوضع فهرس آخر لألفاظ (الخريدة) التي تنكرها المعاجم ، أو تغفل المعنى الذي حمّلته تلك الألفاظ في ذلك العصر ، حتى تتسنى معرفة لغة أدبائه ، ويمهد بذلك إلى وضع معجم تاريخي بأطوار لغتنا العربية .

وقد يؤخذ على المحقق بعض الحواشي ، فهو مثلاً إذا ورد اسم الإمام الشافعي في المتن (ص ٣٣) ذكر في الحاشية : « أنه أشعر الناس وآدبهم » . وليس في مثل هذا التعريف بالإمام الشافعي كبير غناء ، ولا يشفع للمحقق أنه أخذ هذا الوصف عن غيره ، أو أن عدوى أسلوب العماد قد سرت إليه فيه .

وفي الكتاب تطبيعات ، أثبت الفهرس الثامن أكثرها وفاته بعض ما لا يفطن جمهرة القراء إليه ، كذكره كتاب « معجم الآداب في معجم الأسماء والألقاب » (ص ٥) ، والصواب « مجمع الآداب في .... » ، وقوله : « والمثل مجمع في الأمثال » (ص ٣٨٥) وصوابه : « والمثل في مجمع الأمثال . » وقوله : « بكا على ما كان . » ص ٢٨٨ وهي « بكى ... » .

... هذه العنوات وأمثالها لا تقدح في محاسن هذه الطبعة النقدية ، ولا تعفي المنصف من إزجاء أطيب الثناء والحمد للمحقق الدكتور شكري فيصل ، فبجهوده وجهود ثلة من المحققين في هذا العصر أتيح لهذا الجيل أن يطلع على الكثير من ذخائر تاريخنا وأدبنا ، مجلوّةً في أجمل عرض وعلى أصح نهج وأيسر سبيل ، وغدا فضل بعثها من خزائنها ، ونشرها نشراً علمياً لا تجارياً ، مشاعاً بين علماء العرب والمستشرقين .

* * *

وكلمة أخيرة ، هي أن (الخريدة) هذه الموسوعة الثمينة ، مقسمة الى أقسام ، اضطلع بتحقيق جزءين منها باحثون من مصر ، وجزء ثالث باحثان عراقيان ، وجزء رابع باحث دمشقي ، وولّى كلٌّ من هؤلاء وجهة مستقلة ، فكانوا طرائق قِدَداً في نهج التحقيق والشرح ووضع الفهارس ، وفي الاعتماد على الأصول ؛ واطلع بعضهم على مخطوطات لم يطلع عليها الآخرون فيُفيدوا منها ، وطبعت هذه الأجزاء بأحجام مختلفة ... فحبّذا لو تضامّ المجمع العلمي العربي والمجمع العلمي العراقي ، وأقرّا طريقة واحدة في نشر الأجزاء الباقية من قسم شعراء الشام والعراق ، ثم حفزا همة (الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية) كيما تشترك معهما في نشر أقسام الكتاب الأخرى التي لم يتصدّ أحد لتحقيقها ، كقسم شعراء العجم وفارس وخراسان وصقلّيّة والمغرب والأندلس ، وفي إعادة نشر القسم المصري على النسق الذي يقر الرأي عليه ، وفي وضع فهارس موحدة شاملة وافية للخريدة في أجزائها كلها ، ليعم نفعها ويسهل على الباحثين الرجوع إليها ، ولهم ولمن يعينهم على تحقيق هذه الأمنية وافر الشكر واصبا .

عبد الهادي هاشم

طبقات الأطباء والحكماء

تأليف أبي داود سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جلجل
ألفه سنة ٣٧٧ هـ . حققه فؤاد سيد ، امين المخطوطات
بدار الكتب المصرية . مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي
للآثار الشرقية بالقاهرة (١٩٥٥)

هو أول مؤلف في تاريخ الأطباء والحكماء ظهر في الأندلس . وهو من أقدم ما كتب في هذا الموضوع . ويعد مع الفهرست الذي ألفه ابن النديم في نفس السنة التي ألف فيها ابن جلجل كتابه هذا وذلك في حدود سنة ٣٧٧ هـ من أقدم الوثائق الهامة في تاريخ العلوم بعد كتاب تاريخ الأطباء والحكماء لاسحق ابن حنين المتوفى في سنة ٢٩٨ .

نقل عنه نقولاً كثيرة صاعد الأندلسي في كتابه طبقات الأمم وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء وطبقات الأطباء ، وابن القفطي في إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، وابن العبري في مختصر تاريخ الدول وغيرهم . ويتميز هذا الكتاب كما أشار اليه المحقق بأن مؤلفه يعتمد فيما رجع اليه من مصادر على تراجم عربية لأصول لاتينية تاريخية . بينما أكثر الكتب التي نقلها العرب او غيرهم من المترجمين كانت عن أصول يونانية . والقليل منها عن اللغات الفارسية والسريانية والهندية . مما جعل لهذا الكتاب قيمة علمية خاصة . وقد استقى ابن جلجل ما جاء في كتابه هذا من مصادر منها ما هو عن طريق النقل من الكتب التي اطلع عليها ككتاب الألوف لأبي معشر وغيره . ومنها الأخبار المروية بالسماع ممن عاصره من العلماء وقد انفرد بها ونقلها عنه من جاء بعده . ومن هذه النصوص ترجمة ماسرجويه لكتاب إهرن القس أيام مروان بن الحكم . وان الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز وجده في خزائن الكتب وانه استخار الله في إخراجه الى

المسلمين وبثه في أيديهم . ولا يخفى ما لهذا النص من الأهمية في تاريخ حركة النقل والترجمة وحفظ المؤلفات في خزائن خاصة في صدر الدولة الأموية .

ومما تحسن الاشارة اليه ما ذكره المؤلف في مقدمة كتابه من أنه ألف هذا الكتاب إجابة لسؤال شريف أديب من أشراف عصره ، ووصفه بالشريف الأصل الطيب النجد . الأموي القرشي . نجل الخلفاء وسلالة الأئمة الداعين الى الهدى . فقد سأله أن يكتب اليه عن أول من وضع صناعة الطب وتكلم فيها . وذلك لأنه لم ير لأحد من المتقدمين في ذلك كتاباً مرضياً ولا كلاماً مقنعاً مشبعاً . مما يدلنا على ما كان عليه علية القوم من ملوك وأشراف وأمراء في الأندلس في ذلك العهد الذهبي الغابر من ولع شديد بالتنقيب عن الحقيقة والمعرفة ومن أثر خالد في الحض على التأليف ونقل العلوم ونشرها بين الناس وازدهار الحضارة .

اعتمد المحقق في تحقيق هذا الكتاب على نسخة وحيدة لم يعثر على نظيرها في مكتبات العالم على ما بلغ اليه بحثه . وقد اعتبر النصوص المقولة من ابن جلجل في كتب من ألف في هذا الموضوع كابن أبي أصيبعة والقفطي والعمري وصاعد وغيرهم نسخاً غير مباشرة صحح بها النص وحقق منها الخلاف الوارد في العبارة أو اللفظ مع المحافظة على نص المؤلف كما ورد في النسخة المخطوطة . وانما بين ذلك في الحواشي معزواً الى مصادره .

وقد عني المحقق عناية كبرى يشكر عليها بالبحث عن تراجم الشخصيات التي وردت في المتن . على ما في ذلك من صعوبة ومشقة . فأتى بتراجمهم مع ذكر مصادرها ، كما عني بالتعريف بالكتب والمصنفات الواردة في تراجم الأطباء وتعيين أماكن وجودها في العالم . وقد ألحق بكل ترجمة تعريفاً موجزاً بصاحبها لتعيين عصره وتاريخ مولده ووفاته وذكر اسمه كاملاً . متماً بذلك النقص الكبير الوارد في الأصل إذ المؤلف أوجز في ذلك إيجازاً شديداً حتى انه لم يذكر تواريخ الوفاة لمن ترجمهم .

ويربو ما أضافه المحقق على كتاب ابن جلجل في مقدمته وفي حواشيه وذيوله من الشروح والتراجم والوثائق التاريخية والملاحظات القيمة على عدة أضعافه مما يوضح لنا الجهود الجبارة التي بذلها لإخراج هذا الكتاب القيم على الصورة الكاملة التي ظهر بها والتي لا يحتاج الناظر فيها الى الرجوع لأي مصدر آخر لإيضاح غامض . أو معرفة ما ليس بمعلوم لديه .

ويقع الكتاب بـ ١٨٠ صفحة منها ٤٠ صفحة حوت المقدمة و ١١٦ صفحة حوت كتاب ابن جلجل مع حواشي المحقق . وقد صنف المؤلف الأطباء والحكماء الذين أتى على تراجمهم في تسع طبقات ذكر في الأولى الطبقة العالية الأولية ممن تكلم في الحكمة الطبية والفلسفة العلوية . ثم الطبقة الثانية الحكمية الرومية اليونانية ثم الطبقة الثالثة من حكماء اليونانية الذين كانوا في دولتهم بعد الفرس ممن شهر في الطب والفلسفة . ثم الطبقة الرابعة من حكماء اليونانية ممن تكلم في الدولة القيصرية بعد بنيان روما . ثم الطبقة الخامسه من الحكماء الاسكندرانيين . ثم الطبقة السادسة ممن لم يكن في أصله روميا ولا سريانيا ولا فارسيا . ثم الطبقة السابعة من حكماء الإسلام ممن برع في الطب والفلسفة ، ثم الطبقة الثامنة من حكماء الإسلام ممن سكن المغرب ، ثم الطبقة التاسعة الأندلسية الحكمية منهم والطبية .

وقد اختتم الناشر هذا المؤلف بتعريف الكتب التي تكرر ذكرها في المراجع مختصرة . ثم بفهرست الأعلام . ثم بفهرست الأماكن . ثم بفهرست أسماء الكتب الواردة في متن الكتاب . ثم بثبت المراجع وبيان طبعاتها ثم بفهرست الكتاب .

هذا ولا يسعني بعد هذا الوصف الموجز لهذا الكتاب القيم إلا أن أثني على ما بذله المحقق من العناية الكبرى في إخراج هذا الكتاب الذي يُعد بما أضيف اليه من الحواشي من أنفس التحف التاريخية التي يفخر بها أدبنا وتاريخنا العلمي .

الدكتور أسعد الحكيم

أعيان الشيعة

تأليف السيد محسن الأمين عضو المجمع العلمي العربي

الأجزاء : السابع والثلاثون والثامن والثلاثون والتاسع والثلاثون

ان مؤلف « أعيان الشيعة » لمن أبرك المجتهدين الاماميين على مقلديهم في الديار الشامية لما قام به من الاصلاح المذهبي والاجتماعي ، فقد حارب البدع السيئة ، وعمل بروح تسامحه وقوة عقله على تقريب القلوب بين الطائفتين الاسلاميتين الكبيرتين من السنة والشيعة ، وأشار على قومه بأن يصلّى عليه بعد وفاته في الجامع الأموي الكبير ، وقضى رحمه الله حياته كلها في العلم والتعلم وإصلاح العقول والأرواح ، وأكبر مؤلفاته أعيان الشيعة ، وهو دائرة معارف رجالية كبيرة لا يستغني عنها عالم ولا أديب في أبحاثه ، فقد كتب عن دعبل الخزاعي مئة صفحة في الجزء الثلاثين ، ومن أهم ما في هذه الصفحات إيراده القصيدة التائية التي زادت عن مئة وعشرين بيتاً ، وقد نوّه بذلك الأستاذ فرّاج مؤلف « دعبل الخزاعي » ودعا للمؤلف بأن يجزيه الله أعظم الجزاء ، كما نوّه بفضل الفقيد الدكتور عبد العزيز عزت أستاذ الأخلاق وعلم الاجتماع بكلية الآداب بجامعة القاهرة في كتابه « ابن مسكويه فلسفته الأخلاقية ومصادرها » ، وذكر أن ما كتبه الفقيد في الجزء العاشر قد بلغ خمساً وستين صفحة تشتمل على خير ما ذكره العلماء عن مسكويه ، وخير ما لهذا الحكيم من منظوم ومنثور في الحكمة والأدب .

وفي هذه الملحمة من العلماء والأدباء من يراهم السنة من أعيانهم ، وإذا كان من يحب آل البيت ، ويتخذ حبهم ذريعة تقربه زلفى الى الله ، يعد شيعياً ، فما أحرى هذه الملحمة الرجالية : أن تبلغ من الأجزاء ألوفاً ، فهي على ذلك من مظاهر جمع الشمل وتوحيد الكلمة الإسلامية مما كان فقيدنا يسعى اليه ويجمع القلوب المتنافرة عليه رحمه الله .

وتحتاج الأجزاء الباقية الى عناية تامة بتصحيح نصوصها ، فان فيما نشر بعد وفاة المؤلف من الأغلاط أو الهفوات المطبعية ما ليس مهماً فلا نتعرض له ، ومنها ما لا يحمل وقوعه فى مثل هذه الملمة ولا يرضى صاحبها مما يفسد المعنى بعضه ، أو ينكسر به وزن الشعر ، ولم ينبّه له في التصحيحات كما في البيت التالي (٣٧/٤٥) ، وهو من الخفيف :

ما حنيني الى زرود ولا را مة لولاكم مابهـا لي مرامُ

فان صدر البيت سليم وعجزه غير قويم ، وما هو كذلك في ديوان الشاعر ، ويستقيم الوزن لو قيل :

ما حنيني الى زرود ولا را مة مالي بهـا سواكم مرامُ

وجاء في (٣٧/٥٠) :

لي الله كم لي وقفة بعد وقفة مع الدهر ردت علا الدهر أجذما

والصواب : «مع الدهر قد ردّت ...» .

وفي (٣٧/٥٣) قوله :

لو طلبتم لي مزيداً في الهوى ما وجدتم فوق ما بي مزيدا

ويستقيم وزن العجز لو قال : (فوق ما فيّ ...) .

وقوله والضمير يرجع لمهجته (٣٧/٥٦) :

تركتهـا بين ندمان غطارفة غروا غلـة بيض مصاليت

والصواب : « غروا بها غلة ... » .

ومن هفوات العروض أو المطبعية قوله (٣٧/٥٩) :

وانهضن بهمة حازم أنت الذي رصّعت تيجان الرياسة جوهرا

ويجبر كسر الشعر بعدم توكيد الفعل : «وانهض بهمة ...» .

وجاء في البيت الذي يليه : (جادعًا نين) والصواب (عرنين) وهو من المطبعة ، وجاء في البيت الذي يليه من ظلم المطبعة : (والجرة مبرا) والصواب

(منبرا) ، وبذلك لم يخل بيت من هذه الأبيات الثلاثة المتوالية من هفوة ، وقد ذكرتها على سبيل المثال .

وانظر الى هذا البيت (٤٧ / ٦١) وهو من مجزوء الكامل :

وأنا اذا استنجدت لم يكن بك منجدي

فانك تجد ان الشطر الثاني (يكن بك منجدي) مكسور .

ومن محاسن الجزء الثامن والثلاثين بحث عن ديك الجن عبد السلام بن رغبان في ثمان صفحات ، وفي ترجمته من الشعر والأخبار ما قلما يعثر عليه ، وفي الجزء التاسع والثلاثين ترجمة الأمير الأديب عبد الله بن سنان الخفاجي الحلبي صاحب سر الصناعة [1] والذي كان يتشبه بالشريف الرضي في شعره ، فقد جاءت ترجمته في ٣٧ صفحة ، وفيها من خبره ومختارات شعره الشيء الطريف .

وكنا نود لو أشبع المؤلف البحث عن الإمام أبي الفتح عثمان بن جني ، فقد ترجمه في سطر واحد ، وذكر أنه من مشائخ السيد الرضي ، وما أدري لعل بقية الترجمة لم يعثر عليها .

ومن هفوات الجزء الثامن والثلاثين (٣٨ / ١٧) البيت التالي :

وما انا ان شط المزار بذاهل عن الود حتى تحتويني مصاوعي

والصواب البيّن (مصارعي) ، وجاء في (٣٨ / ١٩) :

خليلي عرّجا بالديار وسائلا أهيل الحمى عن عهدنا المتقادم

والصواب (عوجا) ، وجاء في (٣٨ / ٣١) :

وضع الدهر عليهم بركة فأبيدوا لم يغادر غير نَسْلْ

والصواب (بركه) أي صدره ، وهذا البيت من قطعة شعرية مطلعها :

سألتني جارتي عن أمتي واذا ماعي . ذو اللب سألْ

والصواب (وإذا ماعيّ) ، وإلا اختل الوزن .

(١) وقد نشره أخيراً الأستاذ عبد المتعم الخفاجي نشرة علمية صحيحة .

وجاء في الجزء (٣٩ / ٣٥) : « الامام جمال الدين بن مظهر » وأظن الصواب « المطهر » . ومن هفوات النحو في هذا الجزء مما سلم منه الأصل ما جاء (٣٩/٤٣) : « وكان يحب الانصاف بين الرعية ، ولكنه جاهلا بأمور الرعية » والصواب (جاهل) ، ونحسب ان (كان) قد سقطت حين الطبع ، وان الأصل (ولكنه كان جاهلاً ...) .

وجاء في (٣٩/٣٩) :

فالله أعلم حيث جعل علمه في جوف طاهرْ

ويستقيم الوزن بقوله (حيث يجعل) .

وجاء في (٣٩/٩٦) :

قضى الله فيها ما قضى ثم انقضى وما ما مضى إلا كأضغاث حالمِ

ويستقيم الوزن بقوله (ثمت انقضى) وأحسبه كان في الأصل قبل النشر .

ومن جنايات المطبعة (٣٩/١٠٣) :

فكم أمر أغالب فيه نفسي ركبت فكان أدنى للجناحِ

والصواب للنجاح كما لا يخفى .

هذا ما ذكرته من الهفوات على سبيل المثال ، وقد يكون فاتني ولا شك كثير من السهو الواقع في هذه الأجزاء الثلاثة مما لا يتسع له صدر هذه المجلة فتركته وأنا أعتقد أن ذلك كله لا ينقص من قدر هذه المعلمة الممتعة شيئاً ، وأرجو أن يهتم السيد الحسن نجل الفقيد بنشر الأجزاء التالية نشراً حسناً يليق بهذا الكنز الدفين .

الثائرون في التاريخ

الملك سيف

تأليف دار الحكمة باشراف علي ناصر الدين

تقوم دار الحكمة البيروتية للتأليف والترجمة والنشر بأعمال علمية وأدبية جليلة للأمة العربية وقضيتها ، فقد نشرت أبحاثاً ممتعة عن الثائرين من العرب في التاريخ وهي سلسلة أدبية ذهبية والملك سيف بن ذي يزن الحلقة الثانية منها ، وتريد دار الحكمة أن تجلو بها صفحة مجيدة من تاريخنا العربي القديم تدل بهـا على نبل النفس العربية ومبلغ هيام العربي بالحرية وتقديسه لهـا واستعداده الطبيعي للثورة في سبيلها ، وقد دلت قبلاً على ذلك بالحلقة الأولى التي خصتها بدراسة (الملك أذينة والملكة الزباء) . وشبيبتنا العربية الناهضة أو الثائرة اليوم في حاجة حاقة الى مثل هذه الدراسات القومية التي تكشف الحجب عن كثير من الحقائق كانت مطموسة فتضرم في قلوبهم جذوة الحماسة العربية وتحمل كل فتى منهم على اقتباس قبس منها .

وتعنى هذه الحلقة الثانية بدراسة لسيف بن ذي يزن وثورته على الأحباش الذين غزوا اليمن العربية وعاثوا فيها فساداً ، والملك سيف هذا هو البطل العربي الشعبي الذي تتداول قصته ملايين الأيدي العربية في مختلف الأقطار ، وليس فيها من شخصية الملك سيف ولا من حقيقته العقلية والوطنية شيء ذو بال يستحق أن يعتبر به شبابنا العربي المتعلم المستنير لما في تلك القصة من السطحية والمبالغات التي تطمس نور الحقيقة وتحمل على الاستخفاف وقلة المبالاة .

وملكنا العربي هذا قد لعب وهو فتى في تاريخ الوجود العربي دوراً بطولياً رائعاً ، وجعل من قضية بلاده وتحريرها قضيةً دولية ، فنجح بمساعيه السياسية والتفاف قبائل اليمن حوله وهي ثائرة للاستقلال وتحطيم الأغلال ، فحرّر بلاده

العربية بقوة الإيمان ، وحطّم بحوافر جواده وجياد بني قومه سيوف الأحباش فآبوا الى بلادهم مذمومين مدحورين .

وفي هذه الدراسة السيفية كثير من المواقف القومية التي تهز أعطاف الفتوة العربية . وهي خليقة بالتحدث عنها لولا ضيق النطاق . ومن الخطأ النادر الذي وقع فيها ما جاء في شعر تبع يصف صنعاء :

ليس يؤذيهمُ فيها وهج الحر ولا القرّ في زمان اقترار

والصواب بها بدل (فيها) ، ولا يسعنا إلا الشكر لدار الحكمة لما تنشره من هذه الدراسات الأدبية والقومية بإشراف الأديب العربي المبين الأستاذ علي ناصر الدين جزاه الله عن الأدب وقومه العرب خيراً .

التنوخي



رد على ميخائيل نعيمة في « مرداد »

بقلم الأب يوحنا الخوري ب . م .

٢١٣ صفحة بالإضافة إلى الفهرس ومقدمة سعيد عقل

الحجم : ١٤ × ٢٠ سم – المطبعة المخلصية بصيدا ، ١٩٥٦

حين وقعت عيني على الرمز الذي وُشّح به هذا الكتاب « أفعى رهيبة ملتوية على نسر طائر تنهش صدره » خطرت ببالي الصورة الرائعة الشهيرة في إلياذة هوميروس . وتساءلت : أيصحّ أن اتخذ من هذا الرمز مثل المعنى الذي اتخذه منه العرّاف بوليداماس ، فأرى فيه – هذه المرة – شؤماً (لا على هكتور بطل طروادة) بل على ميخائيل نعيمة الكاتب ؟ . . ولكنني ما لبثت أن ذكرت أن الإلياذة تضيف أن القائد استشاط يومئذ غضباً من الإرهاص وقال للعرّاف : « ما أنا من يبالي كلام الطير حين أتلقى كلام زفس رب الجبابرة ! » وإذ ذاك عزفتُ عن الطيرة وفتحت الكتاب . .

علامَ مدار الجدل ؟

كان الكاتب المهجري ميخائيل نعيمة وضع كتاباً بالإنكليزية ونقله بنفسه إلى العربية بعنوان «كتاب مرداد منارة وميناء»[1] . ويظهر أن قد تمتع هذا الأثر بحظوة رفيعة لدى المتأدبين في أرجاء واسعة من العالم ، حتى لقال في حقه الشاعر سعيد عقل : «في لبنان تقرأ مراد على أنه رائعة بشرية ، وفي مصر يقولون إنه كتاب العصر في اللسان العربي ، وفي الهند يتلمسونه في ترجمته (كذا) الإنكليزية المطبوعة هناك ، كأنه وحي آخر وفد إليهم من جوار وطن يسوع» . واعتقادي أن سحر هذا الكتاب راجع ، بالدرجة الأولى ، إلى ألغازه المغرية المثيرة المحرّضة بغموضها وبوضوحها على السواء ؛ وبالدرجة الثانية لأن فيه من حيث الصياغة حرارة أسلوب نيتشه وطعمه ورائحته في «هكذا تكلم زرادسترا» . يضاف إلى هذا وذاك أنه عرَض ، في ثوب فنيّ مبتكر ، أفكاراً عسرة الهضم ، من حيث الأصل ، مردّها إلى الميتافيزياء الجرمانية المتصلة بوحدة الوجود (Panthéisme) ولا سيما إلى مثالية فيخته الذاتية (Idéalisme Subjectif) التي تجعل «الأنا» مبدأً أعلى لأنها «المفكِّر والمفكَّر به في آنٍ معاً» ولأنها «الخالق والمخلوق في آن معاً»[2] .

ومع أن ميخائيل نعيمة لم يكتب مطوّلاً في الفلسفة «الجدلية» ، وإنما كتب أثراً أدبياً - شعرياً بمنى من المعاني - ليدلّ على قيمة النظرة الشخصية في التفكير وفي الإبداع (ولذلك اضطر إلى بعض المفارقات التي تُرعب رجال الدين) فقد حسب الأب يوحنا الخوري أن عليه أن يقاضيه أمام محكمة لاهوتية ، فنصب موازين الحساب وجاء يدينه على الكبائر والصغائر . فكذلك إذا كتب

(١) نشرته مكتبة صادر ببيروت سنة ١٩٥٢ .

(٢) راجع في كتاب نعيمة الفصل الثاني بعنوان : في الكلمة المبدعة «أنا» هي الينبوع والمحور .

نعيمة : « هذا كتاب مرداد كما دونه زوندا أصغر رفاقه سناً وأقلهم قدراً منارةً وميناءٌ للتواقين الى التغلب أما غير التواقين فليحذروه » كلّف الأب بوحنا الخوري نفسه عناء الرد فكتب : « هذا كتاب مرداد كما دونه زوندا أصغر رفاقه سناً وأقلهم قدراً تظليلاً وتضليلاً في لجج الشك لمن خانتهم المعرفة فسقطوا وارتطموا أما ذوو اليقين فليتقوه . » حتى إن نعيمة حين يجترئ فيُجري على لسان شمادم (الراهب المسحور) مجرد قوله : « لقد اشتعلت نار الحرب بين مرداد وبيني ، ووَقْعُ الضغائن في القلوب لأشدُّ فتكاً من وقع السيوف القواضب [...] ولو أن رفاقي نصروني عليه لسحقته في النهاية سحقاً ، ولانتزعت قلبه من صدره وأكلته أكلاً » ، لا يلبث الناقد الأب المحترم أن يجيب : « كفى ، يا ميخا [= ميخائيل ؟] ... ومن الراهب الذي شبَّ على روح الحقد هذه ؟ لست أظن راهباً في العالم تثور فيه سورة الغضب ويضطرم فيه حب الانتقام إلى هذا الحد ، إلا إذا كان شيطاناً رجيماً صعد من الهوة السوداء وتسلّل بين الرهبان بزي واحد منهم » . وهكذا لا تجد فصلاً من فصول نعيمة إلا وللأب بوحنا تعقيب عليه ومناقشة دينية حادة تدعمها أقوال الأحبار والنصوص المقدسة : فهناك كلام طويل حول « ثالوث مرداد » و « كلمة الله وكلمة الإنسان » و « طريق الخلاص » و « الدينونة ويوم الدين » و « الإرادة الكلية » الخ ... وكلّه محمول على الظاهر ، مع أن للكلام الرمزي - كما هو معروف - ظاهراً وباطناً .

هذا وقد لاحظنا في الكتاب بعض الخطيئات (المطبعية في أيسر الأمر) فمن ذلك ص ١٦ أنه روى مطلع قصيدة « المساء » لخليل مطران رواية كسر بها البيت فقال :

داء ألم بي خلت فيه شفائي . من صبوتي فتضاعفت بُرحائي

وواضح أن « بي » جاءت هنا على سبيل تطفيف الموازين ! ومن ذلك قوله

ص ١٠٠ : « فاستبدلت خالقك بمخلوقك » مع أن العكس هو المراد على ما ورد في الآية الكريمة : أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ » .

على أنه لا بد من القول أن الناقد الأب الخوري قد أنفق في عمله — والثواب على قدر المشقة — جهداً جدلياً متعباً ، حتى إنه شعر في موضع من المواضع بالحاجة الى سرد الأدلة المدرسية (الكلاسيكية) على وجود الله على نحو ما نلقاه عند فلاسفة كالقديس أوغسطين وابن سينا وخاصةً توماس الأكويني . ولكن ترى أكل هذا الجهد المضني يستلزمه أثر أدبي اتخذ لغة الرمز والإشارة ؟

في رأينا أن الأدب يجب ألا يُطرح على هذا الصعيد .

الدكتور حكمة هاشم

المدخل الى تاريخ الحضارة

(الجزء الثاني) تأليف الدكتور جورج حداد

يقع في (٥٧٠) صفحة من قطع الوسط طبع في دمشق سنة ١٩٥٤

سبق لي في هذه المجلة نشر كلمة عن الجزء الأول من هـذا التأليف القيم أطريت فيها جهد المؤلف وسعة اطلاعه وصدق مصادره وأكبرت فيه هذه المحاولة الجريئة بنقله هـذا العلم الحديث وادخاله قصة الحضارة الى مسرح الحياة العلمية العربية .

يبحث المؤلف في هذا الجزء شروط الحضارة ومصادرها ومظاهرها وعن مآثر الحضارة وتفاعلاتها وانتشارها في الشرق الاقصى والهند وإيران وبيزنطية والبلاد العربية منذ فجرها حتى نهاية العصور الوسطى . وقد جال فيها جولة دلت على علم غزير واختبار صحيح جعلا هذا الكتاب مرجعاً ومنهلاً للباحثين . وقد جاءت أبوابه وفصوله وحدة متماسكة بعد أن بسطها المؤلف بأسلوب شيق مقرب لأفهام القارئ مهما كانت ميوله واختصاصه .

اعترضت هذا الكتاب ـ كغيره من المؤلفات التي عالجت مواضيع دخيلة على الثقافة العربية ـ عقبة المصطلحات الفنية الحديثة ، وهي مهمة شاقة يقدر صعوبتها من عاناها . وقد توفق المؤلف في أكثرها ، غير ان في بعضها غموضاً في تحديد مدلولها كاستعماله لفظة (الهلينية) و (الهلنيسية) في مواضع لا تتفق مع مدلولها .

وقد بدا لي بعض الملاحظات على تعابير وردت في الكتاب يضاف اليها أخطاء مطبعية رأيت من الفائدة الإشارة اليها :

الصفحة	الخطأ	الصواب
٢٠	ابتدائية	بدائية أو فطرية
٣١	بدون طبخ	النيء
٤٠	حدد	هدد
٤١	الجنيون	لعلها (الحثيون)
٦٥	البابيروس	البردي
٧٥	الآجر المخبوز	حذف المخبوز لأن الآجر هو الطين المخبوز
٩٠	أخطأ في تقدير المسافة بين حدود الامبراطورية الرومانية والهند فهي تساوي أضعاف ما قدره لها	
٩٣	الخيرزان	الخيزران
١٠٢	البيروتي	البيروني
١٠٥	قشر الشجر	اللحاء
١٢٥	يانغ شاه	يانغ شاو
١٢٩	دراجون	تنين
١٩٨	شهر طاق	جهار طاق
٢٠٧	هرکول	الجبار

الصفحة	الخطأ	الصواب
٢١٢	جانبًا	ضلعًا
٢٢٧	الصرب	العرب
٢٣٣	ماتوا بدون وصية	ماتوا بدون وريث
٢٣٦	الفودم	الفوروم
٢٧٣	قلب اللوزة	قلب لوزة
٢٧٤	ان زخارف قصر المشتى هي هيلنسية سورية أكثر منها فارسية .	
٢٨٩	المليل الخصيب	الهلال الخصيب
٣٠١	معبد بعل	معبد بل
	لوحات بارزة	ركائز
	الكتابة على الكتف	فوق الكتف
	القول ان أصل سكان تدمر قبائل عربية مبالغ فيه وينطبق هذا الزعم على فئة منهم	
٣١٥	الجابية في الجولان	في الجيدور
٣٢٣	قوله (كانت الاعتقادات ترتكز على القمر الذي يرعى البدوي أغنامه على ضوئه) هذا التعليل لا يتفق مع طبيعة الغنم لأنها لا ترعى ليلاً ولا في ضوء القمر .	
٣٥٣	قوله ان بعض مآذن الجامع الأموي بنيت على أنقاض أبراج الكنيسة التي كانت قبلاً هو زعم باطل والأصح أن يقال على أنقاض أبراج الهيكل الوثني .	
٣٥٦	إن رواية نبش قبور خلفاء بني أمية من قبل العباسيين هي رواية متأخرة وضعيفة لا يؤخذ بها .	
٣٧٦	قوله ان زمسكس البيزنطي دخل دمشق فاتحًا . لم أعثر على ذكر هذا الخبر عند مؤرخي العرب .	

الصفحة

٣٨٥ قوله أكمل المعظم بناء المدرسة العادلية الكبرى التي بدأها العادل والصحيح ان أول من أنشأها هو نور الدين محمود بن زنكي ثم بنى بعضها الملك العادل ثم أتمها ولده الملك المعظم .

٤٤٣ تربيعات قاشاني ، الأصح أن يقال ألواح قاشاني لأنها مختلفة الأشكال منها المربع والمستطيل والمضلع وغير ذلك .

٤٨٥ قلعة السبيبة ، الصواب : الصبيبة

وقد استعمل المؤلف في بحثه عن العصر الاسلامي اسم سورية بدلاً من الشام الذي اشتهرت به عند العرب . كما اعتمد في أكثر وقائع ذلك العصر التاريخ الميلادي دون التاريخ الهجري الذي لا يصح أن يغفل في مثل هذا البحث .

نسجل للمؤلف الشكر لجهده الموفق وإقدامه على هذه البادرة الطيبة فأضاف الى تراثنا العلمي عنصراً جديداً كنا نشعر بنقصه مع شدة الحاجة اليه .

جعفر الحسني

محاضرات في القانون المدني اللبناني

ألقاها الدكتور صبحي المحمصاني

على طلبة الدراسات القانونية سنة ١٩٥٥

يتابع معهد الدراسات العربية العالية ، الذي أنشأته في القاهرة جامعة الدول العربية سنة ١٩٥٣ ، الطريق التي بدأها بدعوة رجال العلم من مختلف البلاد العربية لالقاء محاضرات عامة على طلابه ، وتشمل هذه المحاضرات جميع الفروع التي يقوم المعهد بمنح شهادات فيها تحقيقاً لأغراضه العلمية الثقافية .

ولقد كان من بين العلماء الذين دعاهم المعهد سنة ١٩٥٥ الدكتور صبحي المحمصاني عضو المجمع العلمي العربي ، الذي حاضر طلاب قسم الدراسات القانونية

عن القانون المدني اللبناني ، وتبعاً للخطة التي يسير المعهد عليها ، في حصر المحاضرات في ناحية محدودة من نواحي البحث المقرر والتوسع فيها والتعمق في دراستها ، فقد انتقى الدكتور المحمصاني ، من أبحاث القانون المدني الواسعة ، موضوع (انتقال الالتزام ، حوالة الحق وحوالة الدين) ، وحاضر فيه عدة محاضرات طبعها المعهد سنة ١٩٥٦ في كتاب جاء في ٦٠ صفحة من القطع الكبير .

بدأ الدكتور المحمصاني محاضراته القيمة ببحث فكرة انتقال الحق الشخصي في الشرائع القديمة التي كانت لا تقرّ انتقال الحق الشخصي بسهولة كما كانت تقر انتقال الحق العيني ، ثم بين المحاضر كيف تطورت النظريات الفقهية والقانونية وأخذت تنظر في الحقوق والالتزامات الى قيمتها المادية لا الى قيمتها الشخصية ، وكيف قبلت الشرائع الحديثة ، بعد هذا التطور ، فكرة انتقال الحق أو الدين بالإرث أو بالعقد .

وقد بحث الدكتور المحمصاني في الباب الثاني من محاضراته حوالة الحق أو انتقال دين الدائن ، بعد أن قدم للبحث بلمحة تاريخية مقارنة لخص فيها آراء الفقهاء المسلمين تلخيصاً جامعاً موفقاً ، ثم تكلم على شروط انعقاد حوالة الحق وعن آثار هذه الحوالة بين المتعاقدين وقبل المدين والغير ، وفي الباب الثالث تكلم المحاضر عن حوالة الدين أو انتقال دين المدين وشروط انعقاد الحوالة وآثارها .

وكان الدكتور المحمصاني خلال أبحاثه يبين حكم القانون اللبناني مشيراً الى حكم القانون المصري وأحكام قوانين بقية البلاد العربية مع مقارنتها بأحكام القوانين الأجنبية ، غير مغفل حكم الشريعة الاسلامية في مختلف مذاهبها وذلك بأسلوبه القانوني المركز الذي عودنا إياه في كتبه العديدة ، مما جعل كتابه الجديد تحفة في علم الدراسات القانونية المقارنة يجدر بجميع رجال القانون الاطلاع عليها .

الدكتور عدنان الخطيب

أمراء دمشق في الإسلام

تأليف صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة (٧٦٤ ﻫ)
وتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق سنة (١٩٥٥)
وهو في (٢٢٢) ص بحجم هذه المجلة

للأستاذ الجهانذ المحقق الدكتور صلاح الدين المنجد ولع زائد في مدينة دمشق ، فقد نشر وألف عدداً كبيراً من الموضوعات المتعلقة بها تثير الإعجاب بجهده وإخلاصه لبلده ، كما تدعو الى شكره على عمله المبرور .

نذكر على سبيل المثال نشره الجزء الأول والثاني من تاريخ دمشق لابن عساكر ، وفضائل الشام ودمشق للربعي ، ودور القرآن بدمشق للنعيمي ، ومختصر تنبيه الطالب للعلوي ، وأرجوزة في محاسن دمشق لابن خداويردي ، وعدة الملمات في تعداد الحمامات ـ حمامات دمشق ـ لابن عبد الهادي ، وتاريخ مسجد دمشق للبرزالي (؟) وحريق جامع دمشق ، وخطط مدينة دمشق ومخطط دمشق القديمة كلاهما للدكتور صلاح الدين المنجد ، وغير ذلك مما يطول تعداده .

وها هو يتحف أخيراً المكتبة العربية بكتاب نفيس عن أمراء دمشق في الإسلام للصلاح الصفدي بعد أن كان نشر كتابين في هذا الموضوع ، أحدهما : ولاة دمشق في العهد السلجوقي ، الثاني ولاتها في العهد العثماني .

يتألف كتاب الصفدي الذي نحن بصدده من أربعة أقسام :

الأول .— المقدمة ، وقد مهد بها للكتاب الدكتور المنجد بذكر الكتب والمصادر التي ألفت في هذا الموضوع ، ووصفَ النسخَ التي نشر هذا الكتاب عنها ، وأبان عن نهج التحقيق فيه ، ونشر نماذج مصورة عن الأصول المذكورة ، كما ترجم المؤلفَ ترجمة موجزة وأحال الى المصادر التي توسعت في ترجمته .

الثاني .— المعجم الصغير للصفدي الذي ذكر فيه « من ولي إمرة دمشق المحروسة

في الإسلام ودخلها من الخلفاء وغيرهم مرتبين على حروف المعجم» وقد جعل لهذه التراجم أرقاماً ليسهل الرجوع الى المطلوب .

وهذا المعجم عبارة عن تراجم الولاة المذكورين ترجمة تتراوح بين سطر واحد وبين خمسة أسطر وتبلغ صفحات هذا القسم (١٠٣) ص .

الثالث . — أرجوزة للصلاح الصفدي المذكور سماها « تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب » فان المؤلف المذكور بعد أن وضع معجماً في أسماء ولاة دمشق ومن دخلها من الملوك والخلفاء نظم معجمه هذا في هذه الارجوزة بعد أن أضاف اليها إضافات أخرى اطلع عليها بعد ذلك وبلغت صفحات هذا القسم (٦٤) ص .

الرابع . — الفهارس والملاحق وهي تحتوي على فهارس متعددة تسهل الرجوع الى المطلوب من أقرب الطرق ، وأهم الملاحق ما ورد في ص (١٩٤ — ١٩٨) للأستاذين الفاضلين : سبولر ، وبريتساك فقد نظرا في الأعلام الأعجمية الواردة في هذا الكتاب من تركية ومغولية وفارسية فضبطا الكلمات الواردة من ذلك بالحركات ووضعا الى جانبها كيفية النطق بها بالأحرف اللاتينية ورمزا الى الكلمة التركية بـ «ت» والى المغولية بـ «م» والى الفارسية بـ «ف» وهو ملحق قيم يفيد الباحث منه كثيراً . وتبلغ صفحات الفهارس والملاحق (٥٢) ص .

وبالختام فلا يسعنا إلا شكر المجمع العلمي العربي على نشره هذا الكتاب القيم كشكرنا الدكتور المنجد على جهوده وتحقيقاته وتعليقاته القيمة المفيدة .

محمد أحمد دهمان

آراء وأنباء



نائب رئيس المجمع العلمي العربي
الأستاذ المرحوم الشيخ عبد القادر المغربي
(١٨٦٧ ــ ١٩٥٦ م)

وفاة الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي

في الثامن والعشرين من شهر شوال سنة ١٣٧٥هـ (٧/٦/١٩٥٦م) فجع المجمع العلمي العربي بوفاة الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي، ثاني اثنين رفعا للناس قواعد المجمع، وأقاما دعائمه الراسخة، وجعلاه حرماً آمناً لأفاضل العلماء والأدباء، أولهما الأستاذ الرئيس محمد كرد علي، وقد لقي وجه ربه منذ لواذ ثلاث سنوات، وها هو ذا رفيقه وصديقه يلحق به إلى الملأ الأعلى.

ولد الأستاذ المغربي عام ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م) في طرابلس الشام، وتلقى العلم على أبيه وأفاضل أسرته وبعض كبار العلماء في الشام والقسطنطينية؛ ثم صحب المصلح العالم العامل السيد جمال الدين الأفغاني، فأفاد من هذه الصحبة في تفتح ذهنه إلى وجوب الإصلاح، وكتب مذكراته عن الأفغاني، وقد نشرت في الجزء (٦٨) من سلسلة دار المعارف: اقرأ. ثم أولع بعدئذ بدراسة آثار الشيخ محمد عبده، واستجاب إلى دعوته الخيّرة، وشرع يصدع بالإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي. فاستدعاه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى مصر حيث المجال للدعوة الإصلاحية آنذاك أرحب وأوسع؛ ولكن ما لبث الأستاذ الإمام أن لقي وجه ربه، فانصرف المرحوم المغربي الى الصحافة، وكتب في كبريات جرائد مصر مقالات أثارت العزائم الوانية وشحذت الهمم الفاترة. فلما أعلن الدستور العثماني، رجع إلى طرابلس مسقط رأسه، وأصدر فيها جريدة (البرهان)؛ وغرضه من ذلك الدعوة إلى سبيل النهضة – على وجوهها – بالحكمة والموعظة الحسنة. واشترك من بعدُ في تأسيس كلية دار الفنون في المدينة المنورة والكلية الصلاحية في بيت المقدس، وكانت الغاية منها تخريج طبقة من العلماء يجمعون بين معرفة العلوم الدينية والعصرية. ثم نزل دمشق واتخذها موطناً له. فلما تنادى علماء الشام لإقامة المجمع العلمي العربي حفاظاً

على اللغة العربية وآدابها ، كان المرحوم المغربي من أوائل من لبوا هذا النداء الكريم ؛ وانتُخِب ، منذ تأسيس المجمع عام ١٩١٩ في عهد الملك فيصل بن الحسين ، عضواً عاملاً فيه . ثم أخذ يحاضر طلاب الجامعة السورية في العربية وآدابها . وفي العام ١٩٣٤ سمي عضواً عاملاً في المجمع اللغوي في القاهرة ، ثم سُمِّي في السنة ١٩٤١ نائباً لرئيس المجمع العلمي العربي ، وفي العام ١٩٤٩ اختير عضواً في المجمع العلمي العراقي . وقد ظل يعمل لهذه المجامع الثلاثة ويمدها ، حتى يوم وفاته ، بنضيج رأيه وسديد حكمه ووسيع اطلاعه ودائب جهده ، لا يكلّ ولا يملّ ، ولا تنال السنون من همته العالية وتفكيره الخصب وعلمه الغزير .

ألقى الأستاذ المغربي في ردهة المجمع العلمي العربي المئين من المحاضرات العامة في برهة عشرين عاماً ، وكان أدباء العاصمة وفضلاؤها وعيون زائريها من المستشرقين والعرب يقبلون ، زرافات ووحداناً ، كل أسبوع ، على المجمع للاستماع إليها والانتفاع بها ، وكان لها أعظم الأثر في تحبيب العربية إلى الناس ، وإطلاع الناشئة على ذخائر الأجداد . ومردّ إقبال القوم العظيم عليها هو أسلوب المحاضر الفذ الطريف في تأليفها وإلقائها ، وفيما يضمّنها من النكت البارعة والطرف المستملحة ، إلى جانب الحكم الصائب والتحقيق الواسع .

وقد ألف المرحوم المغربي الكثير من التصانيف النافعة ، منها ما طبع ومنها ما لا يزال مخطوطاً . ومن تآليفه المطبوعة كتاب (الاشتقاق والتعريب) وقد طبع أول مرة عام ١٩٠٨ ثم أعيد طبعه فيما بعد ، وفيه أبحاث مسهبة في جواز التعريب واقتباس الكلم الأعجمي حيث تدعو الحاجة ؛ ومنها كتاب (البيّنات) في جزءين أودعها مقالات ورسائل في الإصلاح الديني والاجتماعي والنقد والأدب ؛ ومنها كتاب (الأخلاق والواجبات) وقد ألفه باقتراح المربّي العربي الكبير ساطع الحصري عندما كان وزيراً للمعارف في عهد فيصل بن الحسين

ملك الشام بعيد الحرب العالمية الأولى ، ولا تزال بعض المؤسسات العلمية تقرّره لطلابها الى اليوم ، وقد جاء إلى دمشق قبيل وفاة الأستاذ المغربي ممثل إحدى دور النشر الكبرى في المغرب الأقصى يستأذنه في إعادة طبع هذا الكتاب في مراكش ، لشدة الإقبال عليه فيها ونفاد نسخه من أسواقها ، فأذن له بذلك رحمه الله .

وقد ظل الفقيد يمد مجلة المجمع العلمي العربي بمقالاته وأبحاثه اللغوية والأدبية منذ صدورها حتى يوم الفجيعة به .

والمجمع العلمي العربي الذي نشط الأستاذ المغربي في رحا[illegible] نشر رسالته أكثر من خمسة وثلاثين عاماً يرجو أن تفرعن [illegible] النبتة التي ساهم في غرسها ، واتّقاد القبس الذي غذاه بفي[illegible]

وإنا لله وإنا إليه راجعون .



الأستاذ المرحوم الشيخ عبد الحميد الكيالي

(١٨٧٩ ــ ١٩٥٦ م)

وفاة الأستاذ الشيخ عبد الحميد الكيالي

قضت مشيئة الله أن يصطفي إلى جواره في خاتمة شهر أيار سنة ١٩٥٦ م الأستاذ الشيخ عبد الحميد الكيالي مفتي حلب وعضو المجمع العلمي العربي .

ولد الفقيد رحمه الله في حلب حوالي العام ١٨٧٩ م ، وتلقى مبادئ العلم في صغره في المدرسة الأشرفية فيها ، ثم انتقل الى المدرسة العسكرية ؛ ولكنه لم يلبث فيها إلا قليلاً ، لعزوف نفسه عن العلوم العسكرية ، وحرصه على تحصيل العلوم الدينية واللغة العربية . ثم سافر إلى مصر ودخل الجامع الأزهر ، ودرس فيه الفقه والأصول والتفسير والأدب العربي وعلوم الآلة على جلة الأساتذة فيه ، كالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والأستاذ الشيخ سيد علي المرصفي . وبعد أن تزود من الدراسة فيه قدراً كافياً ونال إجازات أساتذته له عاد إلى مسقط رأسه حلب ، واشتغل بالتدريس في جوامعها . ثم قام بالإفتاء بُعَيْد الحرب العالمية الأولى في (قضاء جبل سمعان) ، وبإدارة المدارس الدينية الإسلامية في حلب ، ووضع لها نظاماً لا تزال سائرة عليه إلى يومنا هذا . ثم اختير سنة ١٩٢٢ م مفتياً للشهباء ، وظل في هذا المنصب منذئذ حتى لقي وجه ربه ، خلا فترات قصيرة أقصي فيها عن الإفتاء . وقد أصبح عضواً في المجمع العلمي العربي منذ ٢٣ آذار ١٩٢٣ م .

كان رحمه الله متمكناً من الفقه الحنفي ، طويل الباع فيه ، مدققاً محققاً لأصوله ، واسع الدراية بالأدب ، وأساليب العرب . وكان رضيَّ الخُلُق ، لطيف المعشر ، قوي الحجة ، جميل الحديث ، عفَّ اللسان واليد ، يغضي على القذى ، ويدفع بالتي هي أحسن .

تغمده الله برحمته وجعل الجنة مثواه .



المستشرق المغفور له الأستاذ كارل بروكلمن
(١٨٦٨ ــ ١٩٥٦ م)

وفاة المرحوم الأستاذ كارل بروكلمن

في السادس من شهر أيار ١٩٥٦ قضى عضو المجمع العلمي العربي العالم الكبير المستشرق الألماني كارل بروكلمن في مسقط رأسه بألمانيا عن حياة حافلة في خدمة العربية يقتضينا الوفاء التنويه بها والإشارة إلى جلائل آثارها بإيجاز واقتضاب .

وُلد الرجل في روستوك « Rostock » من أعمال مكلنبورغ بألمانيا في ١٧ إيلول سنة ١٨٦٨ ، ودرج على حب المشرقيات وتاريخ الإسلام والبحوث التركية ، فأخذ يتعلم اللغات السامية وفيها اللغة العربية على شيوخ المدرسين في بلاده آنذاك ، وهم الأساتذة فيلي وبريطوربوس ونولدكه ؛ فدرس متنقلاً بين الحواضر الألمانية : روستوك وبروسلاو واستراسبورغ . وظل دائباً في دراساته حتى لمع في فقه اللغات السامية والتاريخ الإسلامي ؛ فعيّن مدرّساً في جامعة برسلاو « Breslau » (١٨٩٣—١٩٠٣) ثم في كونيغسبرغ «Königsberg» (١٩٠٣ — ١٩٠٩) ثم في هالـه « Halle » (١٩٠٩ — ١٩٢٠) ثم في برلين (١٩٢٠ — ١٩٢١) وعاد ثانية أستاذاً إلى برسلاو (١٩٢١ — ١٩٣٥) .

وقد أحيل الى التقاعد بعدها ، ولزم مدينة هالّه ـ على نهر الزال ـ أستاذ شرف منذ سنة ١٩٣٧ . وعُيّن مديراً لخزانة الجمعية الألمانية للمستشرقين ، يعيش من الراتب بعد أن فقد موارد رزقه ، وظلّ فيها حتى أواخر أيامه حيث أقعده مرض عضال توفي على أثره عن ثمانية وثمانين عاماً .

وقد قضى هذا الأستاذ حياته في الجدّ والسعي والبحث والتنقير فنال شهادة الدكتوراه في الفلسفة وأخرى في اللاهوت . وأخرج الى جانب مقالاته كتباً كثيرة نلمع إلى بعضها على سبيل الذكر لا الإحصاء .

١ — نشر ذيلاً لديوان الشاعر الجاهلي لبيد سنة ١٨٩٢ وهو لما يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، فأكمل ما بدأ به المستشرق هوبر .

٢ — ألف «تاريخاً للأدب العربي» قبيل الثلاثين من عمره ، ونشره في ويمار بين سنتي ١٨٩٨ — ١٩٠٢ وعنوانه « Geschichte der arabichen Litteratur » ثم أعاد نشره بعد أربعين عاماً في جزءين كذلك بلغت صفحاتها قرابة ألف وثلاثمائة صفحة . واشتهر بين العلماء لأنه اختط فيه خطة جديدة في البحث والعرض ، فقد اشتهر قبله تاريخ الأدب «لهامر بورغشتال» في أجزاء ضخمة ولكنه إعادة وترجمة للكتب العربية القديمة . ولكن المستشرق بروكلمن ألمّ بالعصور الإسلامية كلها وبالعلماء المسلمين كلهم على اختلاف أقطارهم من أطباء وفلاسفة ومنجمين ونحاة ومؤرخين وأدباء ، جعلهم في تاريخه كلما وجد عندهم تراثاً يضاف الى عبقرية اللغة العربية . وقد اقتصر في تراجمه على كلمات قليلة وإشارات سريعة خلت من الأحكام الأدبية أو النقد المذهبيّ ، وانما ذكر المظان التي يحتاج اليها الباحث في معرفة المترجَمين وآثارهم ومواضع طبعها أو أرقام مخطوطاتها من خزائن الغرب والشرق ، إلى ذكر الصحف والمجلات والكتب التي تعرضت لها أو تحدثت عنها .

وقد ظل هذا الكتاب موضع عنايته يعود إليه ليستكمل أسبابه ويتم مباحثه ، فسعى وراء فهارس الخزائن وأخبار الوراقين ونشاط الناشرين ليضيف إلى جزازاته كلّ ما يجدّ من طباعة كتاب أو اكتشاف مخطوطة حتى تجمعت لديه معلومات كثيرة نادرة ضافية في الأقدمين والمحدثين المعاصرين . فنشرها في ثلاثة أجزاء كبيرة منذ سنة (١٩٣٧ — ١٩٤٢) وسمّاها ذيلاً لتاريخه « Supplementband » وبلغت صفحاتها قرابة ثلاثة آلاف صفحة عدا الأصل .

وفي هذا الكتاب فهارس وافية للأعلام والكتب تغص بالأرقام والاشارات ، وتضلّ فيها العين ، لذلك وقعت في هذا التاريخ الشامل الحافل أرقام مطبعية مضطربة كان لا بد من وقوعها ، فقد نقلها الرجل بيده ورتبها بنفسه ، ولبث يعمل لها حياته عمل عصبة من أولي العزم والعلم . فقد فرش بيته بالجزازات

وعمر رفوفه بالفهارس والمراجع ، وانفرد بهذه الخدمة الجليلة التي نرجو أن تلقى مثيلاً لها عند أبناء الناطقين بالضاد في نقل الكتاب أو تأليف شبهه [1] .

ونحن لا نكتب هنا في دراسة هذا التاريخ أو نقده وانما وقفنا عنده لأنه من أهم كتب الراحل خدمة لأدبنا وتراثنا .

٣ - نشر المستشرق قسماً كبيراً من «عيون الأخبار» لابن قتيبة عن مخطوطي القسطنطينية وبطرسبورغ في أربعة أجزاء ، وطبعه في غوتنكن سنة ١٨٩٩ — ١٩٠٨ ، فلفت الأنظار إلى ابن قتيبة قبل أن يحتضر القرن التاسع عشر .

٤ - أرسل دراسة في الكامل لابن الأثير بيّن فيها ما أخذه من الطبري .

٥ — طبع رسالة «تلقيح فهوم أهل الأثر» لابن الجوزي .

٦ — طبع جزءاً من كتاب الطبقات الكبير لابن سعد .

٧ — نشر فهرسين لخزانتي برسلاو وهامبورغ ، عرّف فيهما بالمخطوطات العربية النفيسة في البلدين .

٨ — ألف كتاباً في نحو اللغة العربية بالألمانية نشره سنة ١٩٤٨ بليبنسيك في ٣٤٣ صفحة .

٩ — ألف كتاباً في «تاريخ الشعوب الإسلامية» ترجم إلى اللغات الغربية ونقل إلى العربية في خمسة أجزاء صغيرة .

والى جانب هذه الدراسات عن العربية ، اهتمّ المستشرق باللغات السامية الأخرى فأصدر الكتب التالية :

١٠ — معجماً للغة السريانية ببرلين سنة ١٨٩٥ .

١١ — كتاباً في صرف السريانية ونحوها ببرلين ١٩٢٥، في ٣٥٣ صفحة .

١٢ — كتاباً في الأدبيات السريانية .

---

(١) كتب المستشرق بروكلمن في سنة ١٩٥٠ أن الأستاذ المرحوم أحمد أمين عرض عليه ترجمة هذا الكتاب باسم الجامعة العربية ، ولكن المشروع تام بعد ذلك .

١٣ — موجزاً في تاريخ اللغات السامية ، تُرجم الى الفرنسية .

١٤ — ترجمة قصة يوسف .

١٥ — ترجمة ديوان لغات الترك لمحمود الكاشغري، نشره في ليبتسيك ١٩٢٨ .

١٦ — صنع كتاباً في نحو اللغة التركية الشرقية بآسيا الوسطى ، نشره سنة ١٩٥٤ بليدن ، في ٤٢٩ صفحة .

١٧— دراسات عن الحبشية ، في برلين ١٩٥٠ (٦٠ صفحة) .

وهكذا انصرف الرجل خلال خمسين عاماً إلى تدريس اللغات السامية عامة واللغة العربية خاصة والتأليف في صرفها ونحوها وأدبها ولغتها . فكان نادرة عصره في النشاط والكتابة والبحث ، وموضع تقدير الهيئات العلمية والعلماء في الشرق والغرب .

وقد انتخبه المجمع العلمي العربي عضواً مراسلاً ، سنة ١٩٢١، كما انتخبته الأكاديميات العلمية في ليبتسيك وبرلين وأوبسالا وبودابست عضواً فيها . وكذلك جمعية المستشرقين الألمان ، والجمعية الأسيوية الملكية بلندن ، والجمعية الأسيوية بباريس ، والجمعية الأمريكية بنيوهافن ، والجمعية اللغوية في بالتيمور .

ولا شك في أن موت الفقيد خسارة كبيرة للعلم والاستشراق واللغة العربية وآدابها .

ملاحظات على وضع المصطلحات العلمية (١)

يسرني أن أحمل من دمشق الى القاهرة تحية عربية خالصة ، وأن أتمنى لمصر العزيزة ، رئيساً وشعباً وحكومةً ، خير ما يتمناه الشقيق الصغير لشقيقه الكبير . أعزّ الله العروبة والعربية بجهد العاملين المخلصين من رجالات هذا القطر العربي الصميم .

وبعد :

كنتُ أجملتُ في كتاب « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » القواعد السديدة التي أقرها مجمع اللغة العربية في وضع المصطلحات أو تحقيقها . ولستُ الآن في سبيل بحث تلك القواعد . فبحثها طويل ، والزملاء الأفاضل أعرف الناس بها . ولا أظن أن أحداً من اللغويين أو من واضعي المصطلحات يخالفهم فيها . ولكني أقف عند قضية ما برح علماء العربية وعلماء العلوم الحديثة يجادلون فيها أيّما جدال . وهي قضية حدود التعريب ومداه في وضع المصطلحات العلمية للعلوم الحديثة .

لقد اتخذ هذا المجمع الموقر القرار الآتي في التعريب :

« يجيز المجمع أن يُستعمل بعض الألفاظ الأعجمية ـ عند الضرورة ـ على طريقة العرب في تعريبهم » .

فكلمتا « عند الضرورة » هما بيت القصيد . وهما مثار الجدل والنقاش . فالضرورة عند بعض علمائنا كلمة صغيرة رخوة جد قابلة للمط والتأويل . ولهذا رأيناهم يرجحون فتح باب التعريب على مصراع أو على مصراعين .

والضرورة عند آخرين كلمة قوية في مبناها وفي معناها . فهي في نظرهم

(١) خطاب القاه الأمير مصطفى الشهابي في حفلة افتتاح الدورة الثانية والعشرين « ١٩٥٥ – ١٩٥٦ » لمؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة .

جديرة بأن تراعى بدقة في تعريب الألفاظ العلمية . وهي تحتم البحث العميق عن ألفاظ عربية النجار حتى لأدنى ملابسة بين معانيها ومعاني الألفاظ العلمية الأعجمية .

وبين هذا الفريق وذاك ، أي فريق المتساهلين وفريق المتشددين في أمر التعريب ، يقف واضعو المصطلحات العلمية حائرين يتساءلون عن أصلح خطة تُتبع في نقل كل لفظة علمية الى لغتنا الضادية .

وكلنا نعرف أن كلا الفريقين إنما يتشبث برأيه اعتقاداً منه أن رأيه هو الذي ينهض باللغة العربية فيجعلها صالحة للتعليم العالي وللتعبير عن حاجات المدنية الحاضرة .

فأنصار التعريب الواسع يقولون : إن الألفاظ الأعجمية ، كثرت أو قلت ، ليست من مقومات اللغة . واللغات تتميز بعضها من بعض بتراكيب جملها ، وبحروف معانيها ، أي بما اختصت به من قواعد في الصرف والنحو وأساليب الاشتقاق والقياس وغير ذلك . ففي الإنكليزية والفرنسية والألمانية مثلاً آلاف مؤلفة من الألفاظ العلمية المشتركة ومع هذا نجد كلاً من اللغات الثلاث مستقلة عن الأخرى . وينتهون الى القول بأن فرط التعريب لا يضر بلغتنا بل يدنيها من لغات العالم الأوربية ، ويجعلها قادرة على استيعاب العلوم الواسعة الحديثة .

أما المتشددون فيرون ان المعربات العلمية لا توحي الى القارئ العربي بشيء من معانيها ، وأن هذا القارئ لا يفهمها ما لم تُشرح له شرحاً وافياً . خذ مثلاً حشرة من الحشرات . وقل للطالب الفرنسي انها تنسب الى رتبة الـ Orthoptères فهو يدرك على الفور ، أي قبل قراءة الشرح ، أن لهذه الحشرة أجنحة مستقيمة . وسبب ذلك اطلاع هذا الطالب على مبادئ اليونانية واللاتينية . أما اذا اقتصرت على ذكر الكلمة الفرنسية وحدها للطالب العربي فهو يلبث فاقد الفهم حتى تشرحها له ، أو تترجمها بلغته العربية فتسميها مستقيمة الأجنحة ، مثلما تسمي

رتب الحشرات الأخرى عصبية الأجنحة ومغمدة الأجنحة وعديمة الأجنحة وذوات الجناحين وهكذا .

ويقولون : لقد آمنا بأن هنالك أسماء لا بد من تعريبها كالتي تكون منسوبة إلى أعلام ؛ وآمنا بأن مجال التعريب واسع في نقل كثير من أسماء الأعيان كأسماء بعض الأدوية والعقاقير والمركبات الكيمياوية ، وأسماء بعض أجناس النباتات والحيوانات مما له معان لا يستطاع ترجمتها بكلمة عربية واحدة سائغة الخ . ولكن لماذا يراد منا تعريب الكثير من ألفاظ المعاني الأعجمية التي لا يشق على علمائنا إيجاد ألفاظ عربية سائغة تعبر عنها ؟ ألأن العربية عاجزة عن ذلك ؟ أم لأن التعريب لا يقتضينا أدنى مشقة في تحري الألفاظ العربية الصالحة ؟ وهل من الصحيح ان الإكثار من التعريب هو وحده العامل الذي ينهض بلساننا الى مستوى ألسُن العلم المعروفة ؟

والذي أراه أن الفريقين إذا راعيا الروح الذي يجب أن يسود في نقل المصطلحات العلمية الى لغتنا العربية انتهيا لا محالة الى وفاق . فكلاهما يريد أن تتسع لغتنا للعلوم والمخترعات الحديثة . وكلاهما يريد أيضاً أن لا تصبح هذه اللغة شبيهة بلغات الزنوج بسبب الإفراط في التعريب بلا ضرورة .

ومما لا مرية فيه أن أعضاء مجامعنا العلمية ، وأساتيذ جامعاتنا العربية ، وجمهرة أدبائنا وكتابنا ، على تفاوت آرائهم ، ينظرون الى هذا الموضوع نظر المخلصين المؤمنين بضرورة رفع العربية الى مستوى اللغات الحية الكبيرة . فجدير بالعاملين منهم في وضع المصطلحات العربية أن يراعوا عند البحث في كل لفظة أعجمية قواعد النقل العامة التي يتبعها اليوم هذا المجمع الموقر ، مثلما اتبعها في الزمن الماضي قدماء النقلة والمؤلفين العرب وخلاصتها على التتابع :

أ — تحري لفظ عربي يؤدي معنى اللفظ الأعجمي . وهذا يستلزم أن يكون

الناقل مطلعاً اطلاعاً واسعاً على الألفاظ العلمية المبثوثة في المعجمات العربية وفي كتبنا العربية القديمة .

ب — اذا كان اللفظ الأعجمي دالاً على معنى علمي جديد لا مقابل له في اللغة العربية ، تُرجم بمعناه كلما كان قابلاً للترجمة . أو اشتُق له لفظ عربي مقارب . ويُرجع في وضع اللفظ العربي الى وسائل الاشتقاق أو الى المجاز أو النحت .

ج — واذا تعذر على الناقل الكفء وضع لفظ عربي بالوسائل المذكورة عمد الى التعريب مراعياً قواعده على قدر المستطاع .

ومن الواضح ان دور التعريب في هذه القواعد لا يأتي إلا بعد العجز عن إيجاد كلمات عربية سائغة . والصعوبة كل الصعوبة إنما تكون في معرفة متى ترجح الكلمة العربية ، ومتى ترجح الكلمة المعرّبة .

ولقد قلت في كتابي الذي ألمعتُ اليه في بدء هذا الكلام :

«من السهل معرفة هذه القواعد الحسنة ، ولكنه ليس من السهل العمل بها . ففي كل علم مصطلحات متنوعة . وكل لفظ علمي يحتاج الى دراسة خاصة لمعرفة أصلح لفظ عربي أو معرب يقابله . وفي هذا المجال الوعر تتعارض آراء علمائنا . وفيه تُعرف كفاية العالم الثبت ، ودقة نظره ، وسلامة ذوقه جميعاً .»

وبعد لا بد للقادر على وضع المصطلحات العلمية من أن يضع نصب عينيه أن النهوض باللغة ، مع الاحتفاظ بسلامتها ، هما الأساس الذي يقوم عليه عمله ، وعندئذ يصبح من غير المتعذر عليه إدراك حدود التعريب ومداه في كل لفظة علمية اعجمية يعالج نقلها الى لساننا في صبر العالم الثبت وأناته ، وفي حسن ذوق الأديب المطبوع ودقة نظراته .

ملاحظات على رسم بعض المعرّبات (١)

للأمير مصطفى الشهابي

١ — كثيراً ما نضطر الى تعريب كلمات أعجمية رسمها واحد في اللغات الأوربية المشهورة ، ولكن النطق بها يختلف مثل Tulipe , Micron , Fibrine الخ . فهي عند الفرنسيين تُنطق بقولهم فيبْرين وميكْرُون وتُولِيب وهي عند الانكليز فَيْبْرين ومَيْكرون وتيُوليب . وقد تكلم الزملاء الأفاضل غير مرة في هذه الألفاظ وأشباهها . ورأوا أن المنطق الصحيح والذوق السليم يحملاننا على ترجيح النطق السهل وهو النطق الفرنسي فيما تمثلتُ به من ألفاظ .

والظاهر أن المجمع لم يتخذ قراراً بذلك . ولهذا ما برحنا نجد في عدد كبير من الألفاظ التي عربتها اللجان رسماً يختلف باختلاف نوع الثقافة عند خبراء هذه اللجان . ويبدو لي أن معظم الخبراء درسوا بالانكليزية ، فاختاروا النطق الصعب بدلاً من النطق السهل .

لذلك أرى من المفيد اتخاذ قرار بترجيح أسهل نطق في رسم مثل هذه الألفاظ المعربة .

٢ — من القواعد التي اتخذها المجمع في الجزء الرابع من مجلته رسم الحرف (G) اللاتيني (ويقابله في اليونانية الحرف غمّا) غيناً عربية . ومع هذا ما برحت لجان المجمع ترسمه جيماً وتقتصر على الجيم وحدها . فاذا كان لا بد من مراعاة النطق القاهري للحرف جيم العربي يكون من المفيد اتخاذ قرار بأن يُرسم الحرف (G) الأعجمي ، في الكلمات التي يعربها المجمع ، جيماً وغيناً جميعاً ، وبأن لا يُكتفى بالجيم وحدها فيقال مثلاً جليسرين وغليسرين وهكذا . والأسباب معروفة لا تحتاج إلى شرح .

(١) قدمها الى مؤتمر مجمع اللغة العربية في مصر فأقرها المؤتمر في جلسة الخامس من كانون الثاني « يناير » سنة ١٩٥٦ .

٣ — كثير من الكلمات الأعجمية التي نضطر الى تعريبهـا تنتهي بالحرف (A) أو بالكاسعة (gie) الدالة على العلم . وقد لاحظتُ عند تعريب هذه الكلمات أن بعض الخبراء ينهون الكلمة المعربة بالتاء ، وأن بعضهم ينهيها بالألف ، مثل جيولوجية وجيولوجيا ، وبيولوجية وبيولوجيا ، ومغنولية ومغنوليا وهكذا .

ومن المعروف أن قدماء النقلة لم يسيروا على خطة واحدة في هذا الموضوع . ولكن المعرَّبات بالتاء كانت تفوق عندهم المعربات بالألف . والسليقة العربيـة تجعلنا نرجح إنهاء الكلمات المذكورة بالتاء . فمن رأيي اتخاذ قرار بهذا الترجيح .

٤ — في اللغات الأوربية الكبيرة عدد من الألفاظ اقتُبست من العربية وحُرفت ، فعند نقل هذه الألفاظ الى العربية أرى إعادتها الى أصلهـا العربي فنقول مثلاً الحمراء لا ألهمبرا ، والقصر لا الكازار ، وعَدَنيَّـة لا أدينيا ، وعَرَبية لا أرابيت ، وحَرْشَف لا أرتيشو وهكذا .

هذه أربع ملاحظات لاحظتها أثناء مشاركتي لبعض لجان المجمع في أعمالها . فأقترح إما مناقشتها في المؤتمر واتخاذ ما ترونه فيها ، وإما إحالتها الى اللجنة المختصة بهذا الموضوع ، أو الى مجلس المجمع الموقر ليرى رأيه الموفق فيها .

رسائل ابن الأثير

بين مخطوطات مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت مخطوطة قديمة ، هي الجزء الثاني من رسائل ضياء الدين بن الأثير صاحب المثل السائر . ويرجع عهدها الى السنة ٦٥٦ للهجرة ، أي الى ما بعد وفاة منشئها بنحو ٢٢ سنة فقط .

ولما كنت — ولا أزال — من المعجبين بما لهذا الكاتب من مقدرة بيانية وإنشائية سُررت بوجود هذا الجزء من رسائله ، ورأيت أن أدرسه ثم أنشره خدمة للأدب والتاريخ ؛ فعمدتُ الى ما لديَّ من فهارس المخطوطات والمطبوعات المعروفة وإذ لم

أجد فيها إلاّ إشارات لا تروي الغليل اتصلت بصديقي البحّاثة الدكتور صلاح الدين المنجد مدير معهد المخطوطات في أمانة الجامعة العربية ، فتكرّم باعلامي أنه يوجد في مكتبة أحمد الثالث باستنبول نسخة من الجزء الثاني من رسائل ابن الأثير المذكور كُتبت سنة ٦٥٥ هـ بخط نسخي حسن وانّ في معهد الجامعة العربية « ميكروفيلم » عنها . وأمّا الجزء الأول من الرسائل فلا علم له بوجوده . وقد وعدني متلطّفاً أن يرسل لي نسخة مكبّرة عن الميكروفيلم الموجود لديه لكي أقابله بنسخة الجامعة الأميركية . ومتى وصلني فسأباشر دراسة هذا الأثر النفيس وتحقيقه . وها أنا مثبتٌ على صفحات مجلة مجمعنا العلمي وصفاً وجيزاً للجزء الذي بين يديّ لعلّ مطّلعاً من علمائنا الأفاضل يعرف عنه أو عن سواه من الأجزاء ما لم أطّلع عليه بعد فيفيدني بعلمه ويخدم العلم والأدب بفضله وكرمه .

تقع المخطوطة المذكورة في مئتين وثلاثين صفحة متوسطة الحجم من الورق السميك الضارب الى الصفرة وهي مكتوبة بالحبر الأسود بخط نسخي جيّد ويفصل فقراتها بعضها عن بعض مثلّثات من نقط حمراء وتنتهي بهذه العبارة « تمّ الجزء الثاني من ترسُّل المولى الصاحب ضياء الدين رحمه الله بتاريخ غرّة صفر من سنة ست وخمسين وستماية » . وتتضمّن المخطوطة خمساً وخمسين رسالة كلّها من إنشاء ابن الأثير ماعدا الأخيرة وهي كتاب كتبه السلطان الملك الأفضل نور الدين ابن صلاح الدين جواباً عن رسالة كان ابن الأثير قد أرسلها اليه من الموصل الى حصن صرخد .

ولكلّ رسالة في المخطوطة مقدّمة وجيزة تكتب عادة بسطور أقصر من سطور الرسالة ، والأرجح أنها بقلم الناسخ قدّمها ليعرّف القارئ بمضمون الرسالة وسبب كتابتها كقوله مثلاً في صدر رسالة ـ « كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الإخوان وقد وصله عَتَبُه لانقطاع كتبه عنه فأصدر هذا الكتاب معتذراً عن الانقطاع والبطء » .

أو قوله ـ « كتاب كتبه عن نفسه إلى الصاحب الوزير صفيّ الدين أبي عبد الله محمد بن شكر وزير الملك العادل أبي بكر بن أيوب شفاعةً في حق الشيخ الأمين زكي الدين أبي عبد الله بن سلام الرقيّ وهو من مشاهير التجار الدمشقيين » . وهكذا سائر الرسائل .

والرسائل عموماً نوعان : نوع كتبه عن سواه ويبلغ ١٤ رسالة ، ونوع كتبه عن نفسه ويبلغ الأربعين . وليس بينها جميعاً الا عشر ذات تاريخ . وأسلوبه الإنشائي العام هو الأسلوب المسجّع المحلّى بالبديع على عادة المترسلين في ذلك العهد ، وقد يأتي متكلفاً كقوله من رسالة الى بعض الإخوان يصف فيها بستاناً أقام فيه مع بعض إخوانه في يوم من أيام الربيع وقد شاقه ما رآه فيه من زهور ورياحين :

« ثم انّا ذهبنا في أطراف ذلك البستان ، وأقبل كلٌّ منا على ما يروقه من الرّيحان . فمن جانٍ نرجساً وهو يقول هذا صاحب القد المايس ، والذي عينه عين متيقّظ ، وجيده جيد ناعس . ومن جاني بنفسجٍ وهو يرى أنه أجمل لباساً ، وأضوع أنفاساً . ويقول هذا هو المشبَّه بعذار الحبيب ، وبأطراف الكبريت اذا أخذت باللهيب . ومن جاني شقيقٍ وهو يقول هذا اسم وقع على مسماه بلا خلاف ، ولما كان شقيقاً للحسن ترك المضاف اليه ودلّ عليه بالمضاف . ولا عيب فيه سوى انه يأتي والربيع في سنّ المشيب وما عُهد قبله انْ ولد الشيخ يخلّف في هذا الرواء العجيب » .

على ان أسلوبه لا يجري دائماً مجرى التصنع ، بل كثيراً ما يسلس تركيبه وتروق معانيه ، كقوله من رسالة : « فالسعيد من اغتنم زمانه ، وبادر إمكانه وابتنى المعروف وأحكم بنيانه . فانّ الأوقات ظروف تشتمل على مساوئ الأشياء ومحاسنها ، ولا تعطيك إلاّ ما ادّخرته من بواطنها . وهي كالرياح العاصفة ، والبروق الخاطفة . فمن يُرد الله به خيراً يفقّهه في عمارتها بالأعمال الصالحة ، ذوات الموازين الراجحة » .

أمّا الذين كتب عنهم أو اليهم فكثيرون ، ومنهم أمراء وعظماء كالملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وأخويه الملك الظاهر والملك العادل ، والأمير مجاهد الدين قايماز زعيم الموصل ، والأمير مظفّر الدين سنقر أمير الحج العراقي ، والأمير علاء الدين بن الأمير مجاهد العمادي ، وابن شداد قاضي قضاة حلب ، وابن رافع قاضي القضاة بالشام ، والصاحب صفي الدين محمد بن شكر وزير الملك العادل ، وديوان الخلافة ببغداد وسواهم .

وتتناول رسائله شتى الأغراض الترسّلية من تهنئات وشفاعات وتعزيات وتقاليد أميرية ومباسطات إخوانية وما إلى ذلك مما كان شائعاً في ترسل ذلك العصر .

والذي يراجع هذه الرسائل يرى فيها ما قد يزكّي أقوال المؤرخين في منشئها . ويظهر أن حياته لم تكن دائمة الهناء ولعلّ ذلك لاضطراب الأحوال السياسية من جهة ثم لعدم كياسته في معاملة الناس من جهة أخرى . واذا أخذنا بقول ابن خلكان معاصره نجد انه لما كان وزيراً للملك الأفضل بدمشق وصارت أمور الناس تردّ اليه لم يحسن عشرة أهلها ، فلما أخذت دمشق من الملك المذكور وانتقل الى صرخد همّ الدمشقيون بقتل ابن الأثير فهرب مستخفياً الى مصر . وكذلك خرج من مصر بعد أن أقام فيها مدّة من الزمن . ولما انتقل مخدومه الملك الأفضل الى حصن سميساط على الفرات قصده الى هناك ثم فارقه لخدمة أخيه الملك الظاهر في حلب فلم يطل مقامه ولا انتظم أمره ، وخرج مغاضباً الى الموصل . وفي الموصل أيضاً لم يستقم حاله فتركها الى إربل ثم الى سنجار ولم يوفّق فيها فعاد الى الموصل واتخذها دار إقامته وكان قد بلغ الستين من عمره .

ومهما يكن من أمره فقد كان مشهوداً له بالترسّل ويكفي أن يكون له «المثل السائر» الذي يدلّ على غزارة مادّته البيانيّة وتمكّنه من النقد والبلاغة . وبرغم ما له من الميل الى الإشادة بنفسه والاعتداد ببلاغته كان له مقام عال بين أدباء عصره .

قال ابن خلكان : « ولقد ترددت الى الموصل أكثر من عشر مرات وهو مقيم فيها وكنت أود الاجتماع به لآخذ عنه شيئاً لما كان بينه وبين الوالد رحمه الله من المودة الأكيدة فلم يتفق ذلك . ثم فارقت بلاد المشرق وانتقلت الى الشام وأقمت به مقدار عشر سنين ثم انتقلتُ الى الديار المصرية وهو في قيد الحياة . ثم بلغني بعد ذلك خبر وفاته وأنا بالقاهرة » .

ومع علمي أن الكثيرين من قراء هذه المجلة قد درسوا ابن الأثير واطلعوا على أدبه فاني أغتنم هذه الفرصة لأثبت فيما يلي أنموذجاً من ترسّله كما ورد في إحدى رسائل المخطوطة التي نودُّ تحقيقها ونشرها . وهي كما يقول كاتب المخطوطة : « كتاب كتبه عن السلطان الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن علي بن يوسف الى السلطان الملك العادل نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل رحمه الله يسلّيه عن هزيمة هزمها .... وذلك انه خرج الى نصيبين وحصر قلعتها وأشرف على أخذها وهي يومئذ لابن عمّه الملك المنصور قطب الدين ابن أتابك صاحب سنجار . ثم انه عاد عنها بغير سبب ولا مزعج إلا لأمر يريده الله . فاستنجد صاحبها الملوك المجاورين له كصاحب جزيرة بني عمر وصاحب دارا وصاحب ماردين وصاحب آمد وديار بكر . فنزلوا نصيبين بالحملة الكبيرة . وطلب صاحب نصيبين من صاحب الموصل المصافّ [1] فأجابه اليه واتفق أن يكون بين نصيبين والموصل على قرية تعرف بيُوشرى » . ويؤخذ من تتمة هذه المقدمة ان صاحب نصيبين وحلفاءه سبقوا الملك العادل الى المصفّ . واحتلوا المكان المناسب فيه . وأسرى اليهم الملك العادل آخذاً ثلاث مراحل في مرحلة واحدة . فلما وصل كان جيشه متعباً فلم يعطه خصومه فرصة للراحة بل بادروه بالقتال — فكان ذلك سبب الهزيمة . قال ابن الأثير — بعد أن افتتح رسالته بكلمة حكمية على لسان الملك الأفضل مخاطباً « المجلس السامي العادلي » أي الملك العادل — :

(١) المصافّ جمع مصفّ . والمصف مكان التقاء الصفوف للقتال .

وقد تفاءل الخادم بأن « المجلس » نور والله كفيل باتمامه ، وصادٌ عن اظلامه ، ولم تكن هذه الحادثة إلاّ شحذاً لغربه ، وصقالاً لعزمه وقلبه . وكما أن وقد النار زائد في رونق النُضار ، فكذلك وقد الأهوال (زائد في رونق) [1] الرجال والتجارب معيار . وفي الرجال درهم ودينار . وواحدهم من ساجلته الأيام وساجلها ، وقاتلته وقاتلها . فليلاق هذا الأمر بالاعتزام والاهتمام . وليتأس برسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل هذا المقام . فقد نال العدوُّ منه منالين اثنين ، كيوم أحدٍ ويوم حُنين . ولم يكن ذلك نقضاً لأمره ، بل امتحاناً لصبره . وينبغي للمجلس ان يصدف عمّا فات ، وينظر بما هو آت . وأن يركب في جيش من عزيمة الصبر ، وسعة الصدر ، فانهما أقوى مدداً ، وأقوى عدداً ، وأعنى في تشتيت شمل الأعداء ولو كانوا لبدا . ولا تظهر فضيلة الرجل إلاّ عند مكافحة الشدائد ، وتورُّد ما يتورّده الرجال من الموارد . والخادم يقول ما يقوله من علمه — وقد يشهد الطِّرف الوغى وهو مجنوب — وهؤلاء الأعداء رؤوس متعدّدة ، وهممٌ متبدّدة متغايرة ، وآراءٌ متنافرة . وعلى ما بلغ الخادم فانهم لم يكونوا كفؤاً لرجاله ، ولا كانت رماحهم كرماحه ولا نصالهم كنصاله . لكنّ المجلس أسرى اليهم على بعد المسرى ، وأطلّ عليهم وخيله حسرى . وما ذلك من طريق الكيد الذي يدبّ صاحبه الخَمَر ، ولا من طريق الأيد يجهر به ولا يضرّه ان جهر » ... الى أن يقول :

« والآن فلا ينبغي للمجلس ان يعرّج على طريق النّدم ، ولا يجعل نبوة السيف سبباً لنبوة الهمم . ويكفيه فضلاً انه لم يُنل منه لأمر يرجع الى تقصيره ، بل لأمر يرجع الى تدبيره . فليقتل الأعداء نفوسهم ، وليهلّوا رؤوسهم . فللمجلس في قلوبهم داء لا يهدأ ألمه ، ولا يبلّ سقمه . وقد أوقدوا ناراً وسيكونون لها حطباً ، وزرعوا شوكاً وسيجنون منه شوكاً وسيجنيه المجلس

(١) ما بين قوسين غير واضح في الأصل .

عنبا . وملاك هذا الأمر أن يجرد له سيفان صبراً ومخذماً ، وينفق فيه مالان رايًا ودرهمًا [1] . وأما الخادم فانه للمجلس من الوقاية بمنزلة الجفن من الناظر ، وفي المساعدة بمنزلة الجناح من الطاير . ولما بلغ المملوك خبر هذه الوقعة ودّ لو اصطلى حرّ شفارها ، ولم يصطل حرّ أخبارها . وقد أقسم انه لا يزال أشعث أغبر إلى أن يدرك ثاره ووتره ، ويستعيد نصره . فلا يقلّم ظفرا ، ولا يقصّر شعرا ، ولا يزيل درنا ، ولا يغسل ثوبًا ولا بدنا . وهذه من سنّة المحرم إذا دخل في إحرامه ، وقد سلكها الخادم عند دخوله في ثوب اعتزامه . وما ينفّس كربه وقد أخذ بكظمه ، وكظّ على همّه . إلا ما يعلمه من عزم المجلس الذي يردّ الخطوب تدمى ، ويبصر خفايا عواقبها والبصاير عنها تعمى . واذا جدّ شكت السيوف فراق مضاجعها وبكت الرماح تحطّم اضالعها . فأهون بالخطوب اذا جاذبته ، فكيف بالأعداء اذا حاربته . فلا يرعْ ما احتمل السيل من زبدهم فانه يذهب جُفاءاً ، ويمضي عفاءاً والمجلس هو الذي يمكث في الأرض ، ويعود على ما أبرموه بعوادي النقض » .

ويستمر على هذا المنوال حتى يختم الكتاب بقوله - « والله تعالى يؤيد المجلس بالجندين جند الدعاء وجند القتال ، وينصره على الجيشين جيش الأعداء وجيش الليال ، وللآراء العالية مزيد العلوّ ان شاء الله تعالى » .

هذا ما رأيت ان أعرضه من هذه المخطوطة القديمة وعسى أن أحظى على صفحات مجلتنا الغراء بما يسهل عليّ مهمة التحقيق ، وسلفاً أقدّم الشكر لكلّ ذي يدٍ وبالله التوفيق .

أنيس المقدسي

---

(١) كذا في الأصل والأشبه ان يكون الصواب « ان يجرّد له سيفين وكذلك ان يُنفق فيه مالين » .

منتخبات من معجم الكواكبي

– ٢ –

٥) Abscisse فَصيل ·

(من اللاتينية abscissus : المفصول ، المقطوع) · لغةً : الفَصْل : الحاجز بين الشيئين = فَطْمُ المولود كالافتصال ، والاسم الفِصال = الحجز = القطع) ·

الفَصيل : حائط قصير دون سور البلد ·

فنّاً : في المصطلحات الهندسية : أحد الخطين البيانيين اللذين بهما يتعين موضع منحن سطحي ، وهو الخط الأفقي · أما الآخر العمود على الفصيل فهو (الرَّتيب ordonnée) ·

٦) Absolu صِرْف = مُطلَق ·

(من اللاتينية ab, solutus : غير مقيَّد = كامل ، تام) · لغة : الصرف : الخالص من الخمر ونحوها · صرَفَ الشرابَ : لم يمزجه وهو مصروف · الصَّريف : اللبن ساعة حلب ... المُطلَق : من (طَلَقَ يده بخير يطلقها كأطلقها : فتحها ... أطلق الأسيرَ : خلاه) ·

(— alcool : غَوْل صِرف : غول لا يشوبه ماء مطلقاً وهو بعيار ١٠٠ درجة) ·

(— température : الحرارة المطلقة : التي يعبر عنها بدرجات مئوية على سلّم صفرها (—٢٧٣) مئوية أي الصفر المطلَق الذي هو أدنى درجة من الحرارة يمكن نظرياً بلوغها وينعدم عندها كل تَنفُّضان ذري [1] · عملياً أمكن الوصول الى (— ٢٧٢،٨٧) درجة تحت الصفر في عام ١٩٣٤) ·

٧) Abstrait مُختَلَصة ·

(من اللاتينية abs, traherer : سَحَبَ ، جَذَبَ [] استخرج ، استخلص) ·

(١) agitation moléculaire

لغةً : خَلَصَ خُلُوصاً وخالِصة : صار خالصاً ... الخالص : كلّ شيء أبيض. خُلاصة السمن (بضم الخاء وكسرها) ما خَلَص منه ... أخلصَ السمنَ : أخذ خلاصته ... خلّص تخليصاً : أخذ الخلاصة || فلاناً نجّاه فتخلص ... خالَصَه : صافاه ...

استخلصه لنفسه : استخصّه .

فناً : في فن الصيدلة : خلاصة مسحوق تعادل ضعفي وزن العقار المهيأة منه ، وليست هي (الخلاصة extrait) ذلك الشكل الصيدلاني المعروف الذي هو محصول تبخير ، لدرجةٍ معلومة ، المحلولات المستحصلة من معالجة مادة نباتيـة بسوائغ بخور * كالماء والغول والأثير .

٨) Acclimatation أقلمة .

(من اليونانية Klima : المَيل ، المَيَلان) .

لغةً : الإقليم كقنديل : واحد الأقاليم السبعة .

فناً : تعويد الكائن الحي من حيوان أو نبات على العيش في بيئة غير التي كان فيها باتباع جملة قواعد موضوعة لهذا الغرض ، فكأنما يجعل بهذا ميّالاً (ذا ميل) للعيش في البيئة الجديدة التي نُقل اليها .

٩) Acclimater أقلَم .

من (الأقلمة) الآنفة الذكر : عوّدَ الكائن الحي على العيش في بيئة غير التي كان فيها .

١٠) Acclimater (s') تأقلَمَ .

من (الأقلمة) الآنفة الذكر : تعوّد على العيش في بيئة غير التي كان فيها .

١١) Accumulateur مُذَّخِرة .

(من اللاتينية accumulare : التكديس = الجمع = الخزن) .

لغةً : ذَخَرَه ذُخراً واذَّخَرَه : اختاره واتّخذه ... الذخيرة : ما اذُّخر كالذُّخر .

فنًا : آلة كهرباوية تخزن (تذخر) فيها القدرة الكهرباوية حيناً لتستعمل بعده تياراً كهرباوياً . وتتألف من صفيحتين من الرصاص مغموستين في ماء محمض متوازيتين ومتقاربتين جداً . احداهما كقطب ايجابي والأخرى كقطب سلبي . تملأ بربط القطبين ببطارية أو بتيار حتى تنشحن بالكهربا ، فيقطع اتصالها بالتيار فتكون مهيأة للاستعمال بوصل قطبيها بما يراد (التيار الجديد يعاكس الأول) .

١٢) acescence خُلال .

لغة : عرَض يعرض في كل حلو فيغير طعمه الى الحموضة .

فنًا : مرض يصيب الأشربة الغولية كالنبيذ وغيره فيجعلها حامضة ، لتحوّل الغول فيها الى حمض الخل بفعل الخميرة المسماة (الفطور الأدَمية الخلّية Mycoderma aceti) . هذه الفطور تسطو ترجيحًا على الخمور الحديثة والقليلة الغول . يحال دون حدوثه بالنظافة التامة وبسلفتة * الدنان sulfitation .

١٣) Acétificateur مُخلّلة .

(من اللاتينية acetum : الخل) .

لغة : تخلّلت الخمرُ وغيرها حمُضت وفسَدت والعصير صار خلاً .

فنًا : دولاب مؤلف من صفيحة مُحلْزَنة *[1] من الصاج وعليها قطع من خشب الزان حتى اذا دار الهواء والخمر فيها تكوّن حمض الخل بسرعة وبكلفة زهيدة .

١٤) Acétification تخليل .

لغة : خلّلَ الخمرَ جعلها خلاً ، لازم متعد .

فنًا : تخصيصاً ، العمل الذي يتم معه تحويل مادة ما الى حمض الخل .

١٥) Acétifier (s') تخلّل .

وكذا اختلّ . من الكلمة الآنفة الذكر .

(١) spiralé, enroulé en spiral

١٦) Acétolat خُلاَلة .

لغةً : وِزان نُعالة ، من الخل .

فنّاً : دواء يهيأ بتقطير نُقاعة النباتات في الخل .

١٧) Acétolature مُسْتَخَلَّة .

لغةً : من (استخلّ) . فنّاً : دواء يهيأ بنقع النبات الطازج في الخل .

١٨) Acétolé خَلّيَّة .

لغة : (من الخل) . فنّاً : دواء يهيأ بحل المواد المختلفة في الخل . والخليّة ، غير المستخلّة ، من الوجهة الصيدلانية .

١٩) Acétolyse خَلْمَهَة .

لغةً : نحتاً من (خل ، إماهة) . فنّاً : عمل يتم فيه تحليل مادة ما في حمض الخل ، مثال : خلمهة السلُّولوز ، بمزيج من حمض الكبريت وبلا ماء حمض الخل .

٢٠) Acétomel خَلْسَل .

لغةً : نحتاً من (خل ، عسل) . فنّاً : دواء مؤلف من شراب العسل ممزوجاً بالخل وهو المعروف بالفارسية (سِرْكَنْكَبِين) ادغاماً من كلمتين (سِرْكَة : خل) و (أنكبين : عسل) .

٢١) Acétonémie تَخَلُّونُ الدم .

(من Acétone : الخلون ، ومن اليونانية haima : الدم) .

لغـةً : اشتقاقاً من معرّب الكلمة الافرنجية : (الخُلون acétone) ، ذلك الجسم العضوي المعروف .

فنّاً : حالة مرضية يوجد فيها الخلون في الدم .

(يتبع) الكواكبي

مخطوطات قيمة تُهدى إلى دار الكتب الظاهرية

لا تزال بعض بيوتات العلم في المشرق العربي تحتفظ في خزائنها الخاصة بمخطوطات كثيرة ثمينة ورثها الخلف عن السلف، فزانوا بها دورهم، وعمروا بها صدورهم. على أن هذه المخطوطات تظل في أغلب الأحيان محجوبة عن أنظار جمهرة الباحثين، ومعرضة للسرقة والتلف والإهمال وعوادي الزمن إذا آلت إلى أيدي الجاهلين، فمن الخير كل الخير أن تودع المخطوطاتُ الخاصة دورَ الكتب العامة، حفظاً لها وتيسيراً للانتفاع بها.

ومن أعظم بيوتات العلم في دمشق أُسرة آل حمزة، انتهت إلى الكثيرين من أبنائها: المتقدمين والمتأخرين، نقابة الأشراف والفتيا في الشام، وضمت خزائنهم نوادر المخطوطات العربية التي عكفوا على جمعها السنين الطوال، وأنفقوا في تخيُّرها النفيس من الزمن والجهد والمال، وقد أعانهم على ذلك انصرافهم إلى التبحر في العلم كابراً عن كابر، وحرصهم على التكثر منه والتعمق فيه. وعميد هذه الأسرة اليوم هو السيد سعيد حمزة نقيب السادة الأشراف في الشام، وأحد أكابر رجال الفضل والعلم فيها.

اختار السيد سعيد حمزة من خزانته العامرة ثلاثمائة مخطوط في علوم مختلفة، فأهداها إلى دار الكتب الظاهرية منذ أيام، وانكب العاملون فيها على دراسة هذه المخطوطات ووضع فهرس لها يشتمل على وصف كل منها والتعريف به، حتى يستفيد رواد الظاهرية من هذه المخطوطات. وإننا لنرجو أن يتاح لنا سرد أسماء هذه المخطوطات وبيان ما فيها في العدد المقبل من مجلتنا هذه.

نوّهت بهذه المأثرة الحميدة كبريات الصحف السورية، وبعث المجمع العلمي العربي للمهدي الكريم، رسالة يشكر له فيها جميل صنعه، ويرجو أن يأتسي المخلصون الغُيُر به، ويسيروا على هديه.

فهرس الجزء الثالث من المجلد الحادي والثلاثين

التعريف والنقد

آراء وأنباء

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

١ — محاضرات المجمع العلمي العربي (الجزء الأول)
٢ — محاضرات المجمع العلمي العربي (الجزء الثاني)
٣ — محاضرات المجمع العلمي العربي (الجزء الثالث)
٤ — نشوار المحاضرة للقاضي ابي علي المحسّن التنوخي (الجزء الثاني) بتحقيق المستشرق الأستاذ مرجليوث
٥ — نشوار المحاضرة للقاضي ابي علي المحسّن التنوخي (الجزء الثامن) بتحقيق المستشرق الأستاذ مرجليوث
٦ — رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري : بتحقيق الأستاذ محمد سليم الجندي
٧ — المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري : قدّم له الأستاذ خليل مردم بك
٨ — تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقي : بتحقيق الأستاذ محمد كرد علي
٩ — المستجاد من فعلات الأجواد للقاضي أبي علي المحسّن التنوخي : بتحقيق الأستاذ محمد كرد علي
١٠ — كتاب الأشربة لابن قتيبة : بتحقيق الأستاذ محمد كرد علي
١١ — البيزرة لبازيار العزيز بالله الفاطمي : بتحقيق الأستاذ محمد كرد علي
١٢ — غوطة دمشق (الطبعة الثانية) : تأليف الأستاذ محمد كرد علي
١٣ — كنوز الأجداد : تأليف الأستاذ محمد كرد علي
١٤ — ديوان الوليد بن يزيد : جمع وترتيب المستشرق الأستاذ ف . جبريالي قدّم له الأستاذ خليل مردم بك
١٥ — ديوان ابن عنين : بتحقيق الأستاذ خليل مردم بك
١٦ — ديوان علي بن الجهم : حققه وجمع تكملته الأستاذ خليل مردم بك
١٧ — ديوان ابن حيّوس (الجزء الأول) : بتحقيق الأستاذ خليل مردم بك
١٨ — ديوان ابن حيّوس (الجزء الثاني) : بتحقيق الأستاذ خليل مردم بك
١٩ — الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر النعيمي (الجزء الأول) : بتحقيق الأمير جعفر الحسني
٢٠ — الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر النعيمي (الجزء الثاني) : بتحقيق الأمير جعفر الحسني

٢١ — الرسالة الجامعة المنسوبة للمجريطي (الجزء الأول): بتحقيق الدكتور جميل صليبا
٢٢ — الرسالة الجامعة المنسوبة للمجريطي (الجزء الثاني) : بتحقيق الدكتور جميل صليبا
٢٣ — فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (قسم التاريخ) : وضعه الدكتور يوسف العش
٢٤ — ديوان الوأواء الدمشقي : بتحقيق الدكتور سامي الدهان
٢٥ — تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر (المجلدة الأولى) : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد
٢٦ — تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر (القسم الأول من المجلدة الثانية) : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .
٢٧ — فضائل الشام ودمشق لأبي الحسن علي بن محمد الربعي : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد
٢٨ — أمراء دمشق في الإسلام لصلاح الدين الصفدي : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد
٢٩ — طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب للسلطان الملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول : بتحقيق المستشرق السويدي الأستاذ ك . و . سترستين .
٣٠ — تاريخ داريا للقاضي عبدالجبار الخولاني : بتحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني
٣١ — عثرات اللسان : تصنيف الأستاذ عبد القادر المغربي
٣٢ — الموفي في النحو الكوفي للسيد صدر الدين الكنغراوي الاستانبولي : شرحه وعلق عليه الأستاذ محمد بهجة البيطار
٣٣ — خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني الكاتب (قسم شعراء الشام ، الجزء الأول) : بتحقيق الدكتور شكري فيصل
٣٤ — فهرس مجلة المجمع العلمي العربي ، الجزء الأول ، وضعه الأستاذ عمر رضا كحالة
٣٥ — ديوان ابن أبي حصينة السلمي المعري ، الجزء الأول : بتحقيق الدكتور محمد أسعد طلس
٣٦ — التبصر بالتجارة للجاحظ : بتحقيق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب
٣٧ — المنتقى من أخبار الأصمعي للإمام الربعي
٣٨ — تكملة إصلاح ما تغلط به العامة للجواليقي
٣٩ — بحر العوام في ما أصاب فيه العوام لابن الحنبلي الحلبي
} بتحقيق الأستاذ عز الدين التنوخي

الجزء الرابع   المجلد الحادي والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العربي

١ تشرين الأول سنة ١٩٥٦   ٢٥ صفر سنة ١٣٧٦

حافظ ابراهيم على سجيته

الاسكندرية في ١٥ نيسان سنة ١٩٢٦ و ٢ شوال سنة ١٣٤٤

ذكرت في آخر مقالي السابق [1] عن حافظ ابراهيم أنه قال لي : سنزاك في الإسكندرية قريباً ولعل ذلك يكون في العيد .

لقد وفى بما قال ، فزار الإسكندرية ومعه حسين الحسيني في عيد الفطر سنة ١٣٤٤ منتصف نيسان سنة ١٩٢٦ ، فقضينا معه نهاراً بطوله ووصلنا به ليلة طويلة . وكان حافظ في هذه النوبة مرسلاً نفسه على سجيتها في كل ما يقول ، وكثيراً ما يؤثر الدعابة على الجد ، ويرتاح لإيراد النكت والفكاهات البلدية مهما يكن نوع الحديث .

كان الموعد أن نجتمع في الصباح بقهوة نلسون ، فلما أقبلت عليه قال لي : خشيت ألاّ تهتدي الى المكان ، وأن يلتبس عليك نلسون بولسون ، فالاقطان

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ص ٣٥٣ مجلد ٣١

متقاربان ، على أن أحدهما قائد الأسطول الانكليزي والآخر الرئيس الأميركي . ثم قال : قل لي هل أفطرت ؟ فأنا لم أفطر بعد ، وسأطلب فطوراً لي ولك ، قلت : شكراً لك لقد أفطرت . قال ماذا أكلت ؟ قلت الخبز والجبن . قال هل كنت في القسم[1] ؟ فهذا أكل رجال البوليس . ما أعجب شأنكم يا أهل الشام ، تبلون ثريدكم بماء الحمص بدلاً من ماء اللحم وترشون على وجهه حبات من الحمص[2] بدلاً من اللحم ، أهكذا يكون الثريد ؟ لست أدري أتأكلون مثل هذا الطعام تقشفاً وزهداً أم على سبيل الحمية ؟

والتفت يمنة فقال : أتريد أن تعرف رجلاً لم يأكل ولم ينم منذ ثلاثين سنة ؟ هذا هو إنه مقبل علينا ، فلما قرب قال له : أين كنت يا أستاذ ؟ أكنت تأكل ؟ فقال : لا والله ما أكلت (ش) . قال إذن كنت نائماً ، فقال : لا والله ما نمت (ش) . قال لي أرأيت ؟ هذا الشيخ عبد العزيز البشري صديقي منذ ثلاثين سنة ، لم أره مرةً ـ وما أكثر ما أراه ـ إلا قال لي ما أكلت (ش) ولا نمت (ش) . ثم التفت إليه وقال : سأطلب لك فطوراً ، قال ما تشتهي نفسي الطعام ، قال ماذا وصف لك الأطباء ؟ قال وصفوا لي من المقبلات فراخ الطير ، وتأبى نفسي أن أفجع أمهات الطير بفراخها فضلاً عن إيلام الفراخ بالذبح لكي أشحذ شهوتي الى الطعام ، فما أقسى الإنسان وما أشد ظلمه . فقال حافظ : إذا عجز الأطباء عن علاجك ، أما في الحي عندكم واحدة من أولئك العجائز اللواتي عندهن لكل داء دواء ؟ فقال البشري عندنا عجوز في صدرها دائرة معارف ، تجيب قبل السؤال ، وتعالج جميع الأمراض ، وتسفه الأطباء وتنكر عليهم علمهم ومعرفتهم ، ولم يبق عليَّ إلاّ أن أذهب اليها . وسأله حافظ عن ولديه فقال : هما بخير والحمد لله وياليتهما لم يأتيا لهذه الحياة التي كلها آلام ،

(١) يعني المخفر .
(٢) يريد بذلك ما يسمى في دمشق (لتسقية) .

وأنا الجاني عليها . فقال له حافظ : هون عليك فالحياة أهون من أن يهتم لها الإنسان ، رحم الله محمد البابلي فقد كان يسخر من الخطوب ولا يأسى على ما فاته أو خسره من عرض الدنيا ، أعسر مرة فاستدان مبلغاً من المال ورهن ملكاً له عند الدائن ثم باع الملك ؛ فسمعته يروي حديثاً موضوعاً في هذا الشأن ـ وكثيراً ما كان يضع الأحاديث على سبيل التظرف ـ فيقول : « خيركم من رهن ثم باع » قلت له ولماذا ؟ قال لأنه يقبض الثمن مرتين . هذا الرجل الذكي الألمعي المتوقد الذهن الوفي الذي كان حديثه بهجة النفوس ونزهة الخواطر ، أنكره المصريون يوم وفاته فلم يشيع جنازته غير بضعة أشخاص ، لم أر بلداً أقل وفاء وأكثر هضماً لحقوق رجاله من مصر .

وسكت حافظ متأثراً فاغتنم هذه الفرصة حسين الحسيني وقال لي : الأستاذ البشري صاحب مقالات (في المرآة) التي تنشر في (السياسة الأسبوعية) ، فأسرع البشري وقال بلهجة المستغني عن التقريظ والثناء : بعضها بعضها .

ثم التفت إليّ حافظ وقال : متى ضرب الافرنسيون دمشق ؟ قلت في تشرين الأول سنة ١٩٢٥ . فقال : لا مؤاخذة إذا قلت لك ترجم فلقد نسينا نحن في مصر أسماء الأشهر المعرّبة وأضعنا استعمال الحساب العربي وأصبحنا لا نعرف الأشهر إلا بالأسماء الافرنجية ، فنقول ابريل ومايو ويونيو وهكذا . . . وهذا مما يؤسف له . ولكن دعنا من مسأله الحساب الآن وخبرني عن غرام السوريين بالثورات ، بالأمس ثرتم على الأتراك فأنكر عليكم المصريون ذلك وعدوا عملكم ضرباً من الخيانة ؛ أما أنا فقد عذرتكم ، لأن التركي في حكمه لا يطاق « عشرة[1] وأنا سيدك » هكذا هو ، وأنا اتغاظ (اغتاظ) من الأتراك لهذا الصلف العجيب . وما كدتم تتخلصون من الأتراك حتى ابتليتم

(١) مثل عامي مصري يصف الشحاذ التركي في مصر ، يطلب منك عشر بارات ويقول لك أنا سيدك ، يقابله في أمثال العرب « أنف في السماء واست في الماء »

بالإفرنسيين وهم أدهى وأمر ، جمعوا الى الصلف الغرور والى الأنانية الحمق والى القسوة الظلم وهم أشد الناس خفةً وطيشاً وأكاد أقول جنوناً ، ولعل الله ابتلاكم بهم لمشابهتهم لكم من بعض الوجوه ؛ على أن الشامي معروف عند المصريين بالبرودة فيقال برد شامي ، ولقد رأيت مرة بعض أصحابي مع شامي فقلت له ما الجامع بينكما ؟ فقال أبترد ببرودته . ولا شك في أن أقوى الشعوب اليوم في العالم ثلاثة وهم الإنكليز والألمان والإفرنسيون ، ولي فيهم قول مأثور صنفهم ووصفهم وصفاً صادقاً يصور على إيجازه كلاً منهم في نفسه وفي حكمه لغيره : فالانكليزي يعلم ويرحم ، والألماني يعلم ولا يرحم ، والإفرنسي لا يعلم ولا يرحم .

أما نحن وأنتم وبقية المسلمين فصائمون دائخون نائمون ، أضعنا ما بأيدينا ولا نكاد نعلم من أمور الدنيا شيئاً ، لقد خسرنا الدنيا ونطمع بالجنة في الآخرة ، وأخشى — إن تحقق أملنا — أن نحتاج للأوربيين حتى في الجنة ، لأنه لو طرأ عطل هناك على شيء من أدوات الترف والنعيم ، لما كان بين المسلمين من يقوم بإصلاحه ، ولاحتاجوا الى استدعاء بعض الأوربيين من النار .

وانتقلنا من قهوة نلسون الى مطعم على البحر ، وروى حافظ آنئذ خبراً غريباً قال : لما كان السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في باريز زارهما أمير عربي ، وذكر لهما أن ابراهيم بك المويلحي حصل على وثائق من عنده بحيلة ، وفي هذه الوثائق ما يغضب فرنسة على الأمير ، وأن المويلحي أنذره بأنه اذا لم يدفع له ألف ليرة ذهباً سيسلم الوثائق الى الحكومة الافرنسية ، وذكر الأمير أنه في ضيق لا يملك هذا المبلغ من المال ، ورجا منهما أن ينجياه من شر المويلحي ؛ فاستشاط السيد جمال الدين غضباً ، وكان حاد المزاج ، وقال : ينبغي زجر المويلحي وتأديبه واسترداد الوثائق منه . فقال الشيخ محمد عبده : لا فائدة من أخذه بالشدة بل ربما كان في الشدة ضرر ، فدع هذا الأمر إليّ لعلي أتمكن بالرفق واللين والحيلة من استرداد الوثائق . وبعد أيام زار الشيخ محمد عبده

ابراهيم بك المويلحي في الغرفة التي هو نازل فيها وتكررت الزيارات بينهما حتى أنست صاحبة الدار بالشيخ ، فجاء يوماً ولم يكن المويلحي في الدار ، ففتحت له الغرفة وتركته وحده ، فأخذ الوثائق وقعد قليلاً ثم خرج وأسرع بها الى صاحبها الأمير ؛ فلما علم المويلحي بالأمر جن جنونه وذهب الى الشيخ وقال له : ان ما فعلته يا أستاذ خلاف الأمانة ؛ فضحك الشيخ وقال له : والذي فعلته أنت ما هو ؟ أمانة ؟

قال حافظ : رحم الله الشيخ فقد ملئ علماً وعقلاً ومروءة ، وقد فقدت مصر بوفاته ركناً عظيماً ، وكأنما الشاعر عناه ساعة دفنه بقوله :

قد خططنا للمعالي مضجعا ودفنا الدين والدنيا معا

وكان المطعم مزدحماً جداً ، فلم نكد نفرغ من الطعام حتى غادرناه وركبنا عربة قاصدين قهوة نجلس بها بعد الطعام ، فلما نزلنا من العربة وقف حافظ ابراهيم وسلم على رجل من عامة الناس قصير القامة مكتنز الجسم زري الملبس وصافحه وهز يده طويلاً وهش له ، فقال له الرجل القصير : أنت نسيت أصحابك يا حافظ بك ، فأجابه : لا والله ولكن أين أراك ؟ فقال له : اسأل عني ثرني .... فودعه ضاحكاً . ثم دخلنا قهوة صغيرة وأقبل بعد قليل بهي الدين بك بركات وقعد بجانب حافظ ابراهيم ، وجاء خادم القهوة ووجه الكلام لحافظ واحتفى به وسأله عما يريد من المشروب ، فقال له حافظ مالك تحتفي بي هل تعرفني ؟ قال : كيف لا أعرفك ، أنت شاعر مصر الكبير . قال حافظ : يعني العجوز ، قال : لا والله ما قصدت هذا ، فسر حافظ بذلك وضحك .

ونشأت في السماء سحابة وسقطت منها قطرات من المطر ، فرفع حافظ بصره الى السماء وقال : يعجبني قول الشاعر في مثل هذه الحال يعني سقوط المطر غير المنتظر :

عليَّ وإلاَّ ما بكاء الغمائم وفيَّ وإلاَّ ما نواح الحمائم
وعني أثار الرعد صرخة طالب بثأر وهز البرق صفحة صارم

وردد الشطر الأول غير مرة وقال : إذا كان المطر في غير وقته فما هو إلاّ بكاء الغمائم عليه وعلى أمثاله من الشعراء ·

ثم قال : والشيء بالشيء يذكر وان كان لأدنى ملابسة ، يعجبني قول شاعر عامي في مطر شديد مستمر وفيه دعابة ونكتة :

أقلعي بالله عنهم وارحميهم يا سما ما هم من قوم نوح إنهم من قوم لوط

وكان يردده مخاطباً السماء ويضحك ·

وهيجت هذه اللمحات من الشعر حديث الشعر في نفسه فقال : جاءني وأنا في شبابي رجل من دعاة الشيخ أبي الهدى الصيادي ، وزين لي أن أذهب الى استانبول بقصيدة أمدح بها الشيخ وأكون ضيفاً عليه وأكون شاعره ، ومناني كل ما تصبو اليه النفس من عرض الدنيا ، وبقيت مدة بين المقدم والمحجم ، وكدت أجيب الدعوة ، ثم انصرفت نفسي عن الإجابة فاعتذرت ، وأحمد الله على أنني لم أسلك ذلك المسلك ، ولو فعلت لكنت مثل غيري من الشعراء المداحين الذين كانوا يتهافتون على أبواب الملوك والأمراء والرؤساء ، واذا سئل عنهم قيل مَن في الباب من الشعراء ، كأنهم من الخدم ، ولما أتيح لي أن أعنى بالشعر الاجتماعي ، وأشارك في نقل الشعر من الهزل الى الجد ومن المواضيع التافهة الى المواضيع ذات البال ·

وعلى ذكر الشعر قال : دعيت مرةً لإنشاد قصيدة من شعري في حفلة جامعة ، فلما اكتمل الجمع وصعدت المنبر وشخص الناس بأبصارهم إليَّ وحبسوا أنفاسهم مصغين منتظرين ما سأقول ، أنشدت البيت الأول من القصيدة كأحسن ما ينشد شاعر · ويظهر أنه كان بجانب مكان الحفلة اصطبل فنهق فيه حمار نهيقاً منكراً تردد صداه في قاعة الحفلة ، فقطعت الإنشاد حتى سكت الحمار فضحك الناس ، ولما عدت الى الإنشاد عاد الحمار الى النهيق ، فقلت للحاضرين : إما أنا أو هو ، فضجّ الناس بالضحك والتصفيق ، فقلت لهم : أنا جاد ولست

بهازل ، لئن لم تسكتوه لأتركن المنبر ؛ ولما أقصي عن المكان أتممت إنشاد القصيدة .

ولم يكد يتم هذه الفكاهة حتى نهض وكان الوقت بعد الغروب بقليل . والذي لاحظته أن بهي الدين بركات منذ جاء الى أن انصرف ظل ساكتاً سكوتاً طويلاً .

وتركنا هذه القهوه وذهبنا لنتعشى في دار الدكتور أحمد قدري إجابة لدعوته ، فلما بلغناها بالغ صاحب الدار بالحفاوة بحافظ ابراهيم ، فكان يقول له عقب كل كلمة يقولها حافظ : أمرك سيدي ، تأمر ، مرني بما تشاء ، فلما طال ذلك على حافظ قال له على سبيل الدعابة : آمرك أن تسكت ، ما هذه المبالغة في الحفاوة ؟ قال : لأن الله اختصك بموهبة لا يختص بها إلا القليل النادر من عباده هي موهبة الشعر ؛ فقال حافظ : اسكت يا شيخ أنت عالم ، ثم قال سأختبر علمه في الطب ، فان جعل ناقتي تسير بي نحو المنزل الخالي شهدت له بالحذق .

وبعد قليل قدم للحاضرين ما يقدم عادة قبل الطعام من المقبلات ، فتناول حافظ كأساً جرع منها جرعة أغمض منها عينيه والتهم شيئاً من النقل يمسح به حرافة الجرعة ، وكانت التي تقدم المقبلات فتاة تركية وسيمة ، فأشار إليها بعض الحاضرين أن تجور على حافظ ابراهيم بمعاطاة الكؤوس ، فكانت تقدم له الكأس تلو الأخرى ، تعطيه الملأى وتأخذ الفارغة . فقال لها : بس ؛ فقيل له إنها لا تفهم العربية ، وتظاهرت هي بأنها لم تفهم ما قال ، فقال لها : (نودر) والتفت الى الحاضرين وقال : لقد كلمتها بالتركية ، وهل التركية غير (در ودن وده) وما إلى ذلك من الأدوات . و (no) أصبحت تركية بعد أن ذنبت بـ (در) .

ثم قال لي أنشدني شيئاً من شعرك ، قلت : لا أعتني بحفظ شعري . قال أذكرتني بقولك هذا قصة سأقصها عليك ، لما كنتُ في المدرسة اتفق أن جاء

مفتش ونحن في درس اللغة الافرنسية وبدأ يختبر معرفة التلاميذ بها ، فاستدعاني إليه وقال لي « Parlez-vous français» فأشرت إليه برأسي (لا) فقال لي : ولا (non) يا شاطر . أتريد أن تعمل مثلي لست بتاركك ، ولك عليَّ أن أجهر لك برأيي من غير مواربة . فقرأت له قصيدة عنوانها (شهيد ايرلنده) أولها :

أبى رق الحيـاة فمات حرا وأبلغ نفسه في ذاك عذرا

فقال بعد أن سمع البيت الأول « طيب يا واد » وكرر هذه الجملة عقب كثير من أبيات القصيدة ؛ فلما انتهيت قال اسمع : « لن تكون كالمتنبي ولكنك كالبحتري » فشكرته وحملت ما قاله على المبالغة في المجاملة .

وكأنما تنبه في نفسه حديث الشعر والأدب ، فذكر كتاب الأغاني وقرظ طبعته الجديدة وقد صدر منها الجزء الأول ، وقال لا أدري متى ينتهي طبع بقية الأجزاء لأننا في دار الكتب ندقق في تحقيق الأصل وتصحيحه وقد تبقى حروف الملزمة مصفوفة في المطبعة شهراً أو أكثر لأنه إذا توقف المصححون في دار الكتب بشيء عرضوه على أهل العلم الثقات كأحمد تيمور باشا وأضرابه .

وذكر أحمد بن يوسف الكاتب وأثنى على كتابه (المكافأة) وقال : لقد استظهرت كثيراً من كتاب المكافأة .

وذكر الجاحظ وأثنى عليه كثيراً وقال : إنه بليغ هذه الأمة وأحسن البلغاء بياناً ، فضلاً عن سعة العلم ورجاحة العقل وخفة الروح ، وروى عن الجاحظ هذه الحادثة قال : « وضعت حلقة من حديد في النار حتى صارت حمراء ، ثم ألقيتها على الأرض ووضعت في وسطها نملة ، ووقفت أنظر ما تصنع النملة ، فمشت النملة إلى جهة الشرق فلما أحست بوهج النار انكفأت الى جهة الغرب فلما أحست أيضاً بحر النار عادت وقصدت الى كل جهة من جهات الحلقة فلما لم تجد مخرجاً وقفت في أبعد مسافة عن النار » قال حافظ فانظر الى الجاحظ كيف عبّر عن مركز الدائرة الذي لم يكن معروفاً وقتئذ بأبعد مسافة .

وأورد من دعاباته وفكاهاته ما يلي قال : سأل بعض الناس الجاحظ أن يعطيه كتاب توصية الى بعض العمال ، فدفع الجاحظ اليه كتاباً مختوماً ، وبدا لهذا السائل أن يفض الكتاب فاذا فيه : « هذا الكتاب مع من لا أعرفه ، وقد كلمني فيه من لا أوجب حقه ، فإن قضيت حاجته لم أحمدك ، وان رددته لم أذمك » فلما سئل عن ذلك قال : هذه علامة بيني وبين الرجل فيمن أعتني به ، فقال المكتوب لأجله : أم الجاحظ عشرة آلاف في عشرة آلاف ... وآم من يسأله حاجة . فلما استنكر منه ذلك قال : هذه علامتي فيمن أشكره . فضحك الجاحظ . كان حافظ يروي هذه القصة بفمه وبيديه معاً ويغرب في الضحك .

وانتقل الى الكلام عن سعد باشا زغلول واستقلاله بعظائم الأمور ، وقيامه بالشؤون الهامة في الحزب والحكومة ومجلس النواب ، حتى إذا ذلل الصعاب ولم يبق غير الأمور اليسيرة ترك كرسي الرياسة واستدعى نائبه فقال « تعال يا نحاس » قال حافظ ذلك وقام من كرسيه نصف قيام محاكاةً وتمثيلاً لسعد .

وسألني عن الأستاذ محمد كرد علي فقلت له : إنه بخير ويذكرك بالخير ، فقال : هذا رجل عظيم .

ثم سألني عن الشيخ فؤاد الخطيب وقال : إنه شاعر ؛ فمد الألف ووقف على الراء بقوة .

وكأنما استبطأ الدعوة إلى المائدة فقال :

قد جن أصحابك من جوعهم فاقرأ عليهم سورة المائده

ثم قمنا الى المائدة فبدأ يهدر بكلامه هدراً وألهاه الكلام عن الطعام وتندر على المصريين والشاميين ، قال : للمصري فهم عجيب ومنطق أعجب ، وقف مرة فلاح مصري أمام قاضٍ في المحكمة ، فسأله القاضي الأسئلة المعتادة عن الاسم والسن والحال والصنعة والبلد ، فكان جوابه عن سنه « سنة زرع أفندينا

القطن» فزاده القاضي سؤالاً وقال «متزوج أنت أم عزب» فقال : «نعم يا أفندم متزوج مَرَة» فنهره القاضي وقال : ما هذا الكلام الفارغ ، وهل يتزوج أحد غير امرأة ؟ فقال «نعم ... أختي ... أختي متزوجة راجل» وحملق في وجه القاضي كمن أقام الحجة الدامغة . وكان حافظ يغرب في الضحك من جواب المصري ويقول أجاب جواباً لا يرد .

وقال : أراد أن يسافر فلاح مصري من قريته إلى القاهرة ، فجاء الى المحطة وسأل قاطع التذاكر عن الأجرة ، فذكر له تفاوت الأجرة باختلاف الدرجات ، وزيادة في الإيضاح قال له : يعني فوق أغلى من تحت ، وتحت أرخص من فوق ؛ فقال له الفلاح : احفر لي أسفل من تحت وخذ مني أرخص ، ثم قال : لا تظن أن الشامي يقصر عن المصري في هذا الباب ولعله يفوقه ، اسمع هذه القصة : جاء مرة رجل شامي الى الاسكندرية في طريقه الى القاهرة ، فركب القطار من الاسكندرية ومعه عباءته وخرجه ، فسار القطار ولما وقف في المحطة الأولى بسيدي بشر ، ثار الشامي من مكانه وعلى كتفيه العباءة والخرج وهمّ بالنزول وسأل حارس القطار : وصلنا مصر سيدي ؟ فأجابه : كلا أين أنت من مصر عد إلى مكانك . وكان كلما وقف القطار على محطة فعل الشامي ما فعله في محطة سيدي بشر . فلما ضاق به الحارس قال له : مالك يا أخي ، اقعد في مكانك ، هل مللت من الركوب ؟ فقال له الشامي : إي والله سيدي مللت أريد أن أصل إلى مصر . فقال له الحارس : إذا كنت مللت ولم تمض عليك ساعات في القطار ، فماذا أقول أنا ، أنا في هذا القطار من ثلاثين سنة . ففتح الشامي فمه وجحظت عيناه وقال للحارس : «من أي محطة أنت راكب سيدي ؟»

والتفت يمنة ويسرة ونظر تجاهه فوجد القاعدين مشغولين بالطعام ، فرفع بصره الى الفتاة التركية الواقفة على المائدة وقال لها : (بو — وأشار إلى القاعد عن يمينه — غيبوبت ، وبو — وأشار الى القاعد عن شماله — غباوت ، والضيف

— وأشار إلى نفسه — ضايع در) فضج الحاضرون بالضحك وقالوا له : ختمتَ اللغة التركية ؛ وغلب على الفتاة الضحك حتى كاد ينزلق صحن الطعام من بين يديها على كتفيه ، فقال : قلت لها أطعميني ولم أقل لها أطعمي ثيابي . وصبت له في كأسه ماء فظنه من الأشربة الحارة فقال لها : أنا مسلم[1] صيني لا أشرب غير الماء والأشربة الحلوة .

وكان الليل قد مضى أكثره فانصرف الحاضرون ولسان حالهم ينشد :

نود أن سواد الليل دام لنا وزيد فيه سواد القلب والبصر

***

ذيل

(في ما رُوي لي من أخبار حافظ ابراهيم ولطائفه)

حدثني حسين الحسيني قال : حافظ ابراهيم عصبي المزاج يكره الحلاقة ولا يصبر على الحلاق وعمل أدواته في الشعر ولا سيما المقص منها ، ولا يكاد يذهب إلى الحلاق إلا اضطراراً ، وقع يوماً بحكم الاضطرار بين يدي حلاق ، فأعمل برأسه المكنة والمقص والموسى ثم انحاز إلى قفاه وبدأ مقصه يجول ويستبق علواً وسفلاً ، وطال الأمر على حافظ ابراهيم ، فقال له : متى تنتهي ؟ قال لم يبق إلا جهة الشمال . فنهض حافظ ونزع الفوطة من عنقه واتجه نحو الباب وهو يقول : نكتفي الآن بجهة اليمين وفي المرة الآتية تكمل الباقي في جهة الشمال .

---

(١) يريد بالمسلم الصيني : المسلم الجلد التقي . وقد كنت أظن هذا القول مما يتمثل به في مصر ، سألت عنه مرة الدكتور عبد الوهاب عزام فقال لي : لا أعرفه قلت سمعته من حافظ ابراهيم ، قال : كان حافظ يضع الأمثال لنفسه .

وقال : المشهور عن حافظ أنه جواد كريم ، والواقع كذلك وليس للمال قيمة في عينه ، سهر مرة في القاهرة يلعب الطاولة مع أصدقائه ، فلما طال أمد اللعب نبهه بعض الحاضرين الى أن آخر قطار يسير من القاهرة إلى حلوان (حيث يسكن حافظ) قد دنا وقته ، فلم يلتفت إليه حافظ حتى إذا انتهى من اللعب بعد فوات وقت القطار طلب الى الشركة أن تجهز له قطاراً خاصاً من القاهرة الى حلوان ، وكان الأمر كذلك ودفع الأجرة الضخمة المعينة لمثل هذه الحال .

وقال : سألته مرة كيف ينظم الشعر وكم بيتاً يقدر أن ينظم في اليوم ؟ فقال : ليس هناك قاعدة ثابتة ، فقد تمضي الأيام والشهور ولا أجد نفسي تنشط لقول الشعر ، وقد يستعصي عليّ إذا طلبته في مثل هذه الحال فلا أقدر على نظم بيت واحد أرتضيه ولو حاولته طول يومي ، أما اذا ارتاحت نفسي الى الشعر وكان الباعث عليه يلائم هواي فأقول الأبيات في اليوم الواحد من غير كد ولا جهد .

وقال : يظن بعض الناس أن حافظ ابراهيم من المولعين بالشراب ، وليس كذلك ، وإنما هو مولع بالسيكار وبأجود أنواعه ، ولو نفدت ذخيرته منه وقيل له ثمن كل واحد جنيه لاشتراه .

وقال : قال لي حافظ ابراهيم : كان لأولى زلات الصبا التي كانت مني ، تأثير عجيب في نفسي ، فقد خشيت أن يعجّل الله لي العذاب كأن يخسف بي الأرض أو يسقط عليّ كسفاً من السماء ، وُخيِّل إليّ أني إذا ظهرت بين الناس لم يخف عليهم ما اقترفت من الإثم ، فبقيت واجماً ولزمت الدار مدة لا أخرج منها إلا لأمر لا بد منه ، فلما توالت الأيام أطمعني حلم الله ورجاء عفوه .

وحدثني الشيخ فؤاد الخطيب قال : كانت قهوة سبلندبار في القاهرة أشبه بندوة لكثير من الأدباء يجلسون بها في العشايا ويتناشدون الأشعار ، وكان رئيس القوم في تلك الندوة اسمعيل صبري باشا شيخ الشعراء المشهور بنفوذ

بصره ورهافة سمعه وصحة ذوقه في نقد الشعر يعرض الشعراء عليه قصائدهم ومقطعاتهم ويسألونه رأيه فيها ؛ وكان حافظ يحضر تلك العشايا ويشيع فيها المرح بفكاهته ودعابته ، وحافظ مشهور بتثقيف شعره وإعادة النظر فيه وعرضه على إخوانه والإصغاء إلى مآخذهم عليه ، جاء ذات عشية وأنشد قصيدة سياسية رنانة في وداع اللورد كرومر واستقبال خلفه السير غورست مطلعها :

بنات الشعر بالنفحات جودي فهذا يوم شاعرك المجيد

فاستحسنها اسمعيل صبري باشا وكان مما أخذه عليه بها لفظة (ارتفع) في قوله :

إذا ارتفع الصياح فلا تلمنا فإن الناس في جهد جهيد

قال وما أقول مكانها ؟ قال هذا ليس من شأني ، عليّ أن انتقد وعليك أن تتلافى . فقال حافظ : موعدنا عشية غد ، وجاء في الوقت المعين ووجهه يطفح بشراً وأنشد :

اذا اعلولى الصياح فلا تلمنا فإن الناس في جهد جهيد

فقال صبري باشا : أحسنت ما شئت ، فكان حافظ يكرره ويكاد يرقص طرباً .

وقال الشيخ فؤاد : كنت ليلةً وحافظ ابراهيم سائرين في أحد شوارع القاهرة ، فسمعنا وراءنا وقع حوافر خيل وإذا بعربة فخمة تقف بجانبنا ، وإذا بالراكب فيها السيد توفيق البكري ينادينا لنركب معه ، فقال له حافظ : إلى أين ؟ قال إلى الدار حيث نسمر معاً هذه الليلة . قال حافظ : رحم الله من قال (جوعٌ وأحاديث) نحن لم نتعش بعد ، فهل تعشيت أنت ؟ قال نعم وهذه خمسة جنيهات لعشائكما وسأسبقكما إلى الدار ، فتعشيا في أحد المطاعم ثم اقصداني في الدار فأنا بانتظاركما ، قال ذلك وذهب ، وبقيت مع حافظ ، واختلفنا في أي المطاعم نأكل فالمبلغ يخولنا أن نأكل في أفخم المطاعم ثم نركب الى دار السيد البكري أفخم العربات ، وشرع حافظ يبذر في القهوة والمطعم بين ثمن المشروب والمأكول وحلوان الخدم وثمن السيكار ، وفكاهاته لا تنقضي

الواحدة إلا بأخف منها حتى لم يبق من المبلغ شيء حتى ولا أجرة عربة وكاد الليل ينتصف وبقي السيد البكري بانتظارنا وما أشك في أنه هجانا .

وقال الشيخ فؤاد : لحافظ ابراهيم قصيدة طويلة في (عمر بن الخطاب) هي أطول قصيدة قالها ، وهي من عيون شعره تشتمل على سيرة عمر أولها :

حسب القوافي وحسبي حين ألقيها   أني إلى ساحة الفاروق أهديها

وكان حافظ في سنة ١٩١٧ آخذاً في نظم هذه القصيدة لم يفرغ منها بعد ، وكنا كلما اجتمعنا إذ ذاك نركب عربة ويقول حافظ للسائق : أذهب بنا حيث شئت ولكن خلصنا من الضجيج ، ويبدأ حافظ ينشد هذه القصيدة من أولها إلى المكان الذي انتهى إليه ، وكان من أحسن خلق الله إنشاداً للشعر ، فاذا أسرع السائق قال له حافظ «يا أسطه واحده واحده» يعني خفف السير . وركبنا مرة وأخذ حافظ على عادته ينشد القصيدة ، وأسرع السائق بعد برهة فقال له (يا أسطه واحده واحده) وتكرر ذلك عدة مرات فغمزت السائق في ظهره وقلت له أما تسمع ما يقوله لك ، فالتفت إليّ وأشار الى حافظ بعينه وفمه وكأنه يقول : هذا محشش وانت مالك ؟ فضحك حافظ طويلاً .

وحدثني المرحوم عمر الفاخوري قال : لما زار حافظ ابراهيم بيروت ذهبت مع جماعة من الأدباء في ضحوة من نهار للسلام عليه ، وكان كل واحد منا يذكر له اسمه حين يصافحه ، ولما انقضى وقت الزيارة نهضنا للانصراف فودع الجميع وطلب إليّ أن أبقى ، فسررت لإيثاره لي على جميع من كان معي ، وتلاحق المسلمون عليه فكان كلما انصرف جماعة منهم أستأذنه بالانصراف فيستبقيني ، ثم قال لي في آخر مرة هممت بالانصراف : تتغدى معاً يا أستاذ ، فازداد سروري لهذه العناية الخاصة ، وبقيت معه وتركت عملي في الحكومة ذلك النهار ، وتغدينا معاً وهو يرسل النكتة تلو النكتة ثم شربنا القهوة واستأذنته بالانصراف بعد أن شكرته بأساليب متعددة ، فوقف وقال لي : «شرفت

يا أستاذ ، آنست يا أستاذ ، هل يمكنني أن أعرف الاسم الكريم ؟» فبهتُ وكدت أصعق ، وقلت في نفسي : يدعوني ، ويعزم عليّ ، ويؤثرني على جميع من زاره ولا يعرف من أنا ، وغالبت نفسي وقلت له (عمر الفاخوري) فقال : أهلاً وسهلاً يا أستاذ عمر ، أنا والله سعيد بلقائك ، يا ليتني عرفتك قبل الآن ، إذن لقلّ عتبي على الزمان ، أتدري لماذا احتفيت بك عن غير معرفة ؟ قلت لا ، قال اسمع إذن ، كنت أظن أن الله لم يخلق أقبح مني ، فلما رأيتك خاب والحمد لله ظني ، ووجدتك مثلي إن لم تكن أشد قبحاً ، فكيف لا أكون سعيداً بلقائك ، فضحكت وضحك .

خليل مردم بك

الاصطلاحات الفلسفية

– ٤ –

الأصل

في اللاتينية	Origo
في الفرنسية	Origine
في الانكليزية	Origin

الأصل أسفل الشيء ، وهو في اللغة عبارة عما يفتقر اليه ولا يفتقر الى غيره ، وفي الشرع عبارة عما يبنى عليه غيره ، ولا يبنى هو على غيره ، أو هو ما ثبت حكمه بنفسه وبني عليه غيره . والابتناء إما أن يكون حسياً ، وإما أن يكون عقلياً . فالابتناء الحسي مثل ابتناء السقف على الجدار ، والابتناء العقلي مثل ابتناء الأفعال على المصادر ، والمجاز على الحقيقة ، والأحكام الجزئية على القواعد الكلية ، والمعلولات على عللها ، وما يشبه ذلك .

وللأصل في اصطلاحنا عدة معان :

١ – الأصل بدء الشيء أي أول ظهوره ونشأته كما في قول ابن خلدون : «زعم أنه (الكلام على التوبذري) الفاطمي المنتظر تلبيساً على العامة هنالك بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره هنالك وان من ذلك المسجد يكون أصل دعوته» (المقدمة ، ص : ٨٨) . وهذا البدء قد يكون زمانياً ، كما في قول ابن خلدون أيضاً : «ان البدو أقدم من الحضر ، وسابق عليه ، وان البادية أصل العمران ... ان الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه ، لأن الضروري أصل والكمالي فرع ... وذلك يدل على أن أحوال الحضارة

ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها» . (المقدمة ، ص : ٦٨) . وقد يكون مكانياً ، كما في قولنا ان نقطة الصفر تعتبر أصلاً بالنسبة الى تبدل قيم التحول ، وقد يكون مطلقاً كما في كلامنا على أصل الوجود ، أو مبدأ الوجود ، فهو لا يتضمن معنى زمانياً ، بل يشير الى ابتناء العالم كله على علة أولى قديمة .

٢ — وقد يطلق الأصل على أقدم صورة لشيء متبدل ، فيكون مبنى وأساساً لذلك الشيء ، كما في قول (رينان) : «يجب أن يشتمل تاريخ أصول المسيحية على تاريخ العهد المظلم الذى امتد من أوائلها الى الوقت الذي أصبحت فيه حادثاً عاماً شائعاً ومعلوماً لدى الجميع» (E. Renan, Histoire des Origines du Christianism, t. I introd. p XXX III) . وكما في قول (دور كهايم) : «ان الدراسة التي شرعنا بها ضرب من اعادة النظر في مسألة أصول الأديان بشروط جديدة . لا شك اننا اذا عنينا بكلمة أصل بدءاً مطلقاً أول وجب استبعاد هذه المسألة لخلوها من أية صفة علمية . فالمسألة المقصودة هنا شي غير هذه تماماً . اننا نريد أن نجد وسيلة لتمييز الأسباب الحاضرة دائماً ، وهي أسباب الصور الأساسية للتفكير والعمل الديني . فكلما كانت المجتمعات التي نشاهدها أقل تعقيداً كانت ملاحظتها أسهل ، ذلك هو السبب الذي من أجله حاولنا التقرب من الأصول» : (Durkheim, Les formes élémentaires de la vie religieuse, p. 11) . وكما في قوله أيضاً : «أنت ترى أن لكلمة أصول عندنا معنى اضافياً ككلمة أوائل . ان هذا اللفظ لا يدل على البدء المطلق ، بل يدل على أبسط حالة اجتماعية معلومة ، لا يمكننا في الوقت الحاضر أن نرتقي الى حالة أبسط منها ، فاذا تكلمنا على الأصول أو على بدايات التاريخ أو على التفكير الديني ، فليفهم من هذه الألفاظ ما عنينا» . (دور كهايم ، المصدر نفسه ، ص ١١) .

٣ — الأصل هو الحالة القديمة التي تبدلت فخرج منها الشيء ، كما في قولنا : أصل المسيحية اليهودية والمدنية . وقد يطلق الأصل على مجرد الحالة القديمة كما في قولنا : الأصل في الأشياء الإباحة ، والأصل في الماء الطهارة ، والأصل في الأشياء العدم ، أي العدم فيها متقدم على الوجود .

٤ — وقد يطلق الأصل على المبدأ والقاعدة ، فاذا أطلق على المبدأ سمي أصلا منطقياً بخلاف الأصل الزماني والتاريخي ، واذا أطلق على القاعدة دل على قضية كلية من حيث اشتمالها بالقوة على جزئيات موضوعها ، وتسمى تلك الأحكام الجزئية فروعاً ، واستخراجها منها تفريعاً . وحمل المفهوم الكلي على الموضوع على وجه كلي بحيث تندرج فيه أحكام جزئياته يسمى أصلاً وقاعدة ، وحمل ذلك المفهوم على جزئي معين من جزئيات موضوعه يسمى فرعاً ومثالاً . والأصول من حيث انها مبنى وأساس لفروعها سميت قواعد ، كما في قول الغزالي : « ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين أصلاً يجب تكفيرهم في ثلاثة منها » . (المنقذ ، ص ٩٥) ، ومن حيث انها مسالك واضحة لها سميت مناهج ، ومن حيث انها علامات لها سميت أعلاماً . والعلوم الأصلية هي العلوم المشتملة على المبادئ والقواعد الكلية . قال ابن سينا : « وهذه (الكلام على العلوم المتساوية النسب الى جميع أجزاء الدهر) منها أصول ومنها توابع وفروع ، وغرضنا هنا هو في الأصول ، وهذه التي سميناها توابع وفروعاً فهي كالطب والفلاحة » (منطق المشرقيين ، ص ٥) .

٥ — وقد يطلق الأصل على السبب كما في قولنا : « إن حب الذات أصل الخجل » . فالسبب أصل من جهة احتياج المسبب اليه ، وابتنائه عليه ، والسبب المقصود أصل من جهة كونه بمنزلة العلة الغائية ، كما في قول صاحب الرسالة الجامعة : « وأنا آخذ عليك فيها عهد الله المأخوذ على أول مبدع أبدعه وجعله أصلاً لخلقه بما أفاض عليه من جوده » (الرسالة الجامعة ، الجزء الأول ص ١٢ — ١٣) .

ولكن الأصل لا يطلق لغة إلا على العلة فتقول أصل هذا السرير خشب ولا تقول أصله الغاية التي صنع من أجلها .

٦ — وقد يطلق الأصل على الدليل بالنسبة الى المدلول عليه كما في قولنا الأصل في هذه المسألة الكتاب والسنة . وقد يطلق على الراجح بالنسبة الى المرجوح ، أو على ما هو الأولى ، كما يقال : الأصل في الإنسان العلم أي العلم أولى به من الجهل . وقد يطلق على المحتاج اليه كما في قولنا الأصل في الحيوان الغذاء . وقد يطلق على حادث كان سبباً في استعمال لفظ أو حدوث خطأ ، أو نشوء عادة ، أو اكتساب نمط من أنماط الفعل . وقد يكون الأصل مرادفاً للتكوين (راجع هذه الكلمة) . وقد يدل على الوالد بالنسبة إلى الولد ، كما في قولهم ليس له أصل ولا فصل ، فالأصل الوالد والفصل الولد ، وقيل الأصل الحسب ، والفصل اللسان ، والأصيل المتمكن في أصله .

٧ — ويستعمل الأصل في منطوق كثير من المسائل الفلسفية . من هذه المسائل :

(آ) مسألة أصل تصوراتنا أو أصل معارفنا ، (Problème de l'origine des idées ou de l'origine de nos comaissances) : يطلق الأصل هنا إما على نشوء التصورات والمعارف بالنسبة الى الفرد ، وإما على نشوئها بالنسبة الى الانسانية عامة ، أو يطلق في نظام أحوال النفس (على الأحكام البديهية ، والمفاهيم التي لا يمكن إرجاعها الى الاحساس) ، أو يطلق في نقد مبادئ العلوم وفرضياتها ونتائجها وأصلها المنطقي (على الأسباب الفاعلة أو الظرفية المؤثرة في تكوين معارفنا) ، أو يطلق في نظرية المعرفة (على المبادئ القبلية الموجودة في الادراك الحسي والتفكير) .

(ب) مسألة أصل الأنواع (Problème de l'origine des espèces) : هل الأنواع الحية ثابتة على حالها لا تتغير منذ القدم ، أم هي متبدلة تنتقل من

صورة الى صورة على التعاقب ، واذا صح أنها متبدلة فما هي أسباب تبدلها وما هي مراحله ·

(ج) مسألة أصل الحياة (Problème de l'origine de la vie) : هل الحياة مجرد تفاعل فيزيائي - كيميائي ، أم هي ظاهرة أصيلة دائمة ، واذا كانت ظاهرة أصيلة فكيف حدثت في الماضي على كوكب كالأرض لم يكن مشتملاً على جميع الشروط اللازمة لحدوثها ·

(د) مسألة أصل اللغة (Problème de l'origine du langage) ، وهي مسألة عويصة : هل تولدت اللغة من وحي إلهي ، أم من غريزة أو وحي طبيعي ، أم هي نتيجة تواطؤ واختراع أم نتيجة تطور تاريخي ! (انظر كتاب رينان : Renan, origine du langage) ·

(ه) مسألة أصل الشر (Problème de l'origine du mal) ، وهي أعوص من المسألة السابقة : لماذا وجد الشر في عالم خلقه إله خير كامل · أفلا يتعارض وجود الشر ووجود الله ، ألا يبطل أيضاً وجود الخير إذا كان الله غير موجود ·

ينتج من هذه المسائل أن لكلمة (أصل) معنيين أساسيين ، فهي تطلق أولاً على الأصل المطلق (Origine absolue) الذي تريد الفلسفة الوضعية أن تجتنب البحث فيه ، وهي تطلق ثانياً على معنى اضافي نسبي ، أي على مجموع العوامل التي توضح نشوء الشيء : كالمواد السابقة ، أو الأسباب والظروف التي أدت الى حدوثه · وهذا المعنى الثاني لا يتعارض وشروط البحث العلمي · على أن في هذا المعنى الأخير التباساً ، لأنك اذا بحثت عن الأصل ولم تعين البدء الزماني انقلب بحثك عن التاريخ الواقعي الى البحث في تاريخ خيالي مجرد ، كبحث فلاسفة القرن الثامن عشر عن « الحالة الطبيعية » التي اعتبروها أصلاً للاجتماع الانساني ، ولأنك اذا بحثت أيضاً عن الأصل تضمن بحثك بالضرورة إشارة الى أصل واحد تفرعت عنه الأشياء ، أو إشارة الى حالة قديمة لم يكن الشيء المبحوث عن أصله

موجوداً فيها، كبحث (جان جاك روسو) مثلاً عن أصل التفاوت بين الناس. ان العقل العلمي الفلسفي يبحث دائماً عن الوحدة، ويريد أن يرجع الأشياء الى أصل واحد، أو الى مبدأ واحد معين. وهذا أمر بعيد المنال، لأن هناك في الواقع أحوالاً ثابتة دائمة لا يمكن تعيين أصل لها، كما أن هناك لكل حالة حاضرة أصولاً كثيرة أثرت في تركيبها.

الإضافة

في اللاتينية	Relatio
في الفرنسية	Relation
في الانكليزية	Relation

الإضافة في اللغة نسبة الشيء الى الشيء مطلقاً، وفي الاصطلاح نسبة اسم الى اسم جر ذلك الثاني بالأول نيابة عن حرف الجر أو مشاكله. وقيل الاضافة ضم شيء الى شيء، ومنه الاضافة في اصطلاح النحاة، لأن الأول منضم الى الثاني ليكتسب منه التعريف والتخصيص.

وللاضافة عند الفلاسفة عدة معان:

١ — الاضافة هي المقولة الرابعة من مقولات آرسطو، وهي جمع تصورين أو أكثر في فعل ذهني واحد كالهوية، والمعية، والتعاقب، والمطابقة، والسببية، والأبوة والبنوة وغيرها. والإضافة تلحق جميع المقولات، وذلك انها تعرض للجوهر كالأبوة والبنوة، أو تعرض للكم كالضعف والنصف والقليل والكثير، أو تعرض للكيف كالشبيه والعلم والمعلوم، أو تعرض للأين كالمتمكن والمكان، أو تعرض لمتى كالمتقدم والمتأخر، أو تعرض للوضع كاليمين واليسار، أو توجد في الفعل والانفعال. قال ابن رشد: «والفرق بين هذه الخمس (الكلام على المقولات) التي تتقوم بالنسبة وبين الإضافة التي أيضاً

وجودها في النسبة ان النسبة المأخوذة في الاضافة هي نسبة بين شيئين تقال ماهية كل واحد منها بالقياس الى الثاني مثل الأبوة والبنوة . وأما النسبة المأخوذة في الأين ومتى وسائر تلك المقولات فانما يقال ماهية أحدهما الى الثاني فقط . ومثال ذلك ان الأين كما قيل هو نسبة الجسم الى المكان ، فالمكان مأخوذ في حده الجسم ضرورة ، وليس من ضرورة حد الجسم أن يوجد في حده المكان ، ولا هو من المضاف ، فان أخذ من حيث هو متمكن لحقته الاضافة ، وصارت هذه المقولة بجهة ما داخلة تحت مقوله الاضافة . وكذلك سائر مقولات النسب ... وقد تلحق الاضافة سائر لواحق المقولات مثل التقابل ، والتضاد ، والعدم ، والملكة . وهي بالجملة قد تكون من المعقولات الأول ومن المعقولات الثواني كالإضافة التي بين الجنس والنوع » . (ابن رشد ، كتاب ما بعد الطبيعة ، ص : ٨ — ٩) .

٢ — والإضافة هي إحدى مقولات (كنت) الأربع التي تتضمن نسبة العرض الى الجوهر ، ونسبة العلة الى المعلول ، ونسبة الاشتراك (أي التأثير المتبادل بين الفاعل والمنفعل) . وتنقسم الأحكام عند (كنت) من حيث الإضافة الى ثلاثة أقسام : (١) المطلقة (Catégoriques) وهي التي لا يتقيد الاسناد فيها بشرط أو فرض ، (٢) الشرطية المتصلة (Hypothétiques) كقولك : اذا كان الجو معتدلاً ، خرجت من البيت ، (٣) الشرطية المنفصلة (Disjonctifs) كقولك : اما أن يأتي ، واما ان لا يأتي .

٣ — والاضافة هي نسبة بين شيئين تصور احدهما يمنع التصديق بالآخر ، ولكنه لا يمنع التفكير فيه ، وذلك لأنهما يتضمنان تصور شيء ثالث يربط بينهما . قال (هاملن Hamelin) « كلّ إثبات لشيء يمنع إثبات عكسه ، وكل تصديق برأي يمنع التصديق بضده ، ولا معنى للرأيين المتضادين إلا اذا

حال أحدهما دون الأخذ بالآخر . وهذا المبدأ الأول يتمم بآخر ليس أقل ضرورة منه ، وهو أنه لما كان لا معنى لأحد المتضادين إلا بالنسبة الى الآخر وجب أن يكون المتضادان متصورين معاً لأنهما جزآن لكل واحد . ولذلك يجب أن نضيف الى المرحلتين اللتين وجدناهما في التصور الذهني مرحلة ثالثة ، وهي مرحلة التأليف ، فالرأي وضده والتأليف بينهما قانون عام ، وهو في مراحله الثلاث أبسط قانون للأشياء ونحن نطلق عليه اسم الاضافة » . (Hamelin, Essai sur les éléments principaux de la représentation, I, § 1.) .

(انظر الفرق بين هذا الرأي ورأي هيجل في كلمة تضاد) .

٤) الإضافة هي علاقة بين شيئين من شأن أحدهما أن يتبدل بتبدل الثاني ، كتبدل التابع بتبدل المحول ، أو كتبدل كمية حصول الأرض بتبدل كلف الشمس (رأي جيفونس Jevons) . وتسمى الاضافة في هذه الحالة علاقة ، وتطلق على كل قانون يعبر عن رابطة بين شيئين أو عدة أشياء متحولة ، كما في قول كورنو : « يجب معارضة مسلمات الملاحظة بالاضافات (أي بالعلاقات) التي عرضتها النظرية » (Cournot, théorie des Chances Ch. XII, p. 261) .

وتقسم الاضافة الى ما يختلف فيه اسم المتضايفين كالأب والابن ، والى ما يتوافق فيها الاسم كالأخ مع الأخ ، والى ما يختلف فيه بناء الاسم مع اتحاد ما منه الاشتقاق كالعالم والمعلوم والحاس والمحسوس . وامارة اللفظ الدالة على الإضافة التكافؤ من الجانبين ، فان الأب أب للابن ، والابن ابن للأب . ومن شرائط هذا التكافؤ أن يراعى فيه اتحاد جهة الاضافة حتى يؤخذ كله بالفعل أو كله بالقوة . ومن خواص الإضافة انه اذا عرف أحد المضافين محصلاً به عرف الآخر أيضاً كذلك ، فيكون وجود أحدهما مع وجود الآخر لا قبله ولا بعده .

(راجع الغزالي ، معيار العلم ، ص ٢٠٥) .

الاعتقاد

في الفرنسية Croyance

في الانكليزية Belief

ولفظ (Croyance) الفرنسي محرف عن (Créance) واصله في اللاتينية (Crédentia) وهو مشتق من فعل (Credere) اللاتيني ومعناه (اعتقد) .

* * *

الاعتقاد في المشهور هو الحكم الذهني الجازم القابل للتشكيك بخلاف اليقين . وقيل هو إثبات الشيء بنفسه ، وقيل هو التصور مع الحكم . والفرق بين الاعتقاد والاقتناع واليقين ان الاقتناع حكم ذهني جازم لا يقبل التشكيك ، وان اليقين اقتناع مستند الى أسباب وحجج ثابتة . والفرق بين الاعتقاد والعلم أن العلم حكم جازم لا يقبل التشكيك كالاقتناع واليقين ، في حين ان الاعتقاد يقبله . ولكن بعضهم يطلق الاعتقاد تارة على العلم وتارة على اليقين ، وتارة على التصديق مطلقاً ، ويجعله أعم من أن يكون جازماً أو غير جازم ، مطابقاً أو غير مطابق ، ثابتاً أو غير ثابت . الا ان الاعتقاد بمعنى اليقين غير مشهور وبمعنى التصديق مشهور . واذا كان الاعتقاد مطابقاً للواقع كان صحيحاً ، واذا كان غير مطابق له كان فاسداً .

وللاعتقاد معنيان آخران أحدهما عام والآخر خاص . فالاعتقاد بالمعنى العام يطلق على الرأي والظن ، ويشمل كالرأي والظن على درجات متفاوتة من الرجحان . والاعتقاد بالمعنى الخاص يطلق على الثقة برأي الشاهد أو على الركون الى قول عالم حصل التصديق بقوله لأسباب خارجية دون أي تفحص مباشر .

ويطلق الاعتقاد كما في اصطلاح (كنت) ومدرسته على كل تصديق تام لا يقبل التشكيك دون أن يكون له بالضرورة صفة عقلية أو منطقية . فاما

أن يكون هذا التصديق مستنداً الى عوامل فردية أو عواطف أو مصالح عملية نفعية ، واما أن يكون مستنداً الى مبادئ كلية مشروعة كما في الأخلاق ، وعند ذلك يكون الاعتقاد فعلاً إرادياً مبنياً على عوامل مقبولة تصلح للتفاهم إلا انها مباينة لمفهوم الشيء المصدق به ٠

وقصارى القول ان الحكم يتضمن الاعتقاد ، وهو تصديق مطلق لا يشترط فيه أن يكون مستنداً أو غير مستند الى حجج منطقية ، فاذا استند الى هذه الحجج أصبح علماً لا اعتقاداً ٠

واذا قلنا ان الحكم فعل ارادي حر كان الاعتقاد المستقل عن العوامل المرجحة دالاً على حرية الاختيار ، ويسمى الاعتقاد في هذه الحالة ايماناً ٠

ولقد زعم الفلاسفة الاسكوتلانديون أن مبادئ المعرفة اعتقادات أو تصديقات فرضت بالضرورة على العقل دون أن يستطيع العقل تسويغها وتعليلها ٠ وزعم (مين دوبيران) ان الاعتقاد اقتناع مستقل عن التأمل والانتباه ، وانه مضاد للحكم ، لأنه فعل غريزي ، ولكن الاعتقاد تابع لأسباب حيوية ونفسية واجتماعية ، فاذا نظرت اليه من ناحية المنطق بحثت عن كونه صحيحاً أو فاسداً ، مطابقاً أو غير مطابق ، واذا نظرت اليه من الناحية النفسية بحثت عن الأسباب المؤثرة في تكوينه ٠ وهذه الناحية النفسية أغلب على الاعتقاد من الناحية المنطقية ٠ فاذا قلت ان لبعض هذه الأسباب المؤثرة قيمة كلية أصبح الاعتقاد ذا قيمة أخلاقية عامة ، وان كان ذاتياً شخصياً ٠ واذا كان اليقين كما يقول (هاميلتون) مستنداً الى تصديقات لا يمكن البرهان عليها كان الاعتقاد أساساً لكل يقين ، واذا صح ان التصديق كما يقول (رينوفيه) لا يحدث بدون عوامل انفعالية وإرادية كان الاعتقاد ممازجا لليقين دائماً ، وكان اليقين المحض غاية مثالية أو حداً نهائياً ، لا حالة واقعية ٠

الاقتصاد

في الفرنسية Economie

في الانكليزية Economy

في اليونانية Oikonomia

الاقتصاد مأخوذ من القصد ، والقصد استقامة الطريق . والاقتصاد ، فيما له طرفان افراط وتفريط ، محمود على الاطلاق ، وقد يكنى به عما تردد بين المحمود والمذموم كالواقع بين الجور والعدل .

ومبدأ الاقتصاد (Principe d'économie) هو المبدأ القائل ان الطبيعة لا تسلك لبلوغ غاياتها أعوص الطرق بل تسلك أبسطها . والمقصود من أبسط الطرق ، الطرق التي تستلزم الأقل من المواد والجهد والاختراع والمبادهة وهو مبدأ مختلف فيه لأنه خال من الضبط . (راجع مبدأ الفعل الأقل في كلمة فعل) .

وطريقة الاقتصاد (Méthode d'économie) في الاستظهار هي الطريقة التي اخترعها (ايبنغوس) لحساب مدة بقاء الأثر في النفس بعد التعلم (راجع لفظ استظهار) .

وعلم الاقتصاد السياسي (Economie politique) علم يبحث في ظواهر توزيع الثروة وانتاجها واستهلاكها ، ويحاول الكشف عن قوانين هذه الظواهر . والثروة في الاصطلاح تطلق على كل ما ينتفع به ، أو تطلق على كل ماله قيمة تبادل . فالعمل بهذا المعنى ثروة ، وعامل من عوامل الثروة معاً . لذلك صحح بعضهم حدّ هذا العلم بقوله انه النظر في قوانين التبادل . قال (ج . ب . سي - J. B. Say) : ان علم الاقتصاد السياسي هو علم قوانين انتاج الثروة وتوزيعها واستهلاكها . وتصحح كتب علم الاقتصاد هذا التعريف باضافة بحث رابع الى موضوع هذا العلم ، وهو تداول الثروة . ولكن بعض العلماء يعتقد ان هذه

الاضافة زائدة ، لأن التداول حالة من حالات التوزيع . نعم ان فكرة التبادل لعبت دوراً هاماً في تطور هذا العلم ، ولكن قيمتها عند المعاصرين أقل مما هي عليه عند المتقدمين . ثم ان مفهومي الانتاج والاستهلاك يتضمنان معاني كثيرة لا علاقة لها بالاقتصاد ، كبعض المعاني الصناعية الداخلة في مفهوم الانتاج أو كبعض المعاني الفيزيولوجية أو الاتنوغرافية والاخلاقية الداخلة في مفهوم الاستهلاك . فالانتاج والاستهلاك متصلان بمفهوم التوزيع وعلاقتها به كعلاقة المعلول بالعلة .

ومهما يكن من أمر فان لعلم الاقتصاد السياسي تعريفات كثيرة تختلف باختلاف المذاهب الاقتصادية . فهناك مدرسة تعتقد ان هذا العلم استنتاجي ، لأنه يمكن تأليف الظواهر الاقتصادية من عدد محدود من المعاني البسيطة (من هذه المدرسة الاستنتاجية الفيزيوقراطيون الفرنسيون في القرن الثامن عشر ، وريكاردو ، والمدرسة النمسوية : ك منجر - K. Menger ، وبوهم بافرك - Böhm-Bawerk ، ومن هذه المدرسة أيضاً علماء أخذوا بالطريقة الرياضية في دراسة الظواهر الاقتصادية ، ككورنو - Cournot ، وستانلي جيفونس Stanley Jevons ، وفالراس - Walras ، وباريتو - Pareto ، وبانتاليوني - Pantaleoni) . وهناك مدرسة تاريخية تعتقد ان هذا العلم لا يوصل فيه الى علاقات ضرورية كلية ، وانه من الخير له أن يكتفي بوصف العلاقات الاقتصادية وبيان اختلافها باختلاف الزمان والمكان (روشر - Roscher ، وشمولر - Schmoller) .

وأخيراً ، ان اصطلاح (علم الاقتصاد السياسي) اصطلاح غامض ، فقد استعمله (انطوان دو مونكرتيان - Antoine de Mont - chrétien) لأول مرة في كتابه : (Traité de l'œconomie politique) سنة ١٦١٥ للدلالة على فن ادارة أموال الدولة ، واستعمله كذلك (آدم سميث) بمعنى قريب من هذا في كتابه (Richesse des Nations) ، وهو من حيث الاشتقاق يدل على فن تدبير الدولة ، لأن معنى السياسي الاداري ، ومعنى الاقتصاد تدبير المنزل أو ترتيب أجزاء الكل

ترتيباً يحقق غاية مقصودة . وأول من استعمل هذا الاصطلاح للدلالة على علم نظري الفيزيوقراطيون ، ساقهم الى ذلك مذهبهم الغائي ، فقالوا ان العناية أو الطبيعة ترتب ظواهر العالم الاقتصادي ترتيباً يحقق انسجام المصالح والمنافع ، وان علم الاقتصاد السياسي يدرس العلاقات السببية والضرورية التي هي في الوقت نفسه علاقات غائية . ولا يكفي لتصحيح هذا الاصطلاح أن نستبدل به اصطلاحاً آخر كعلم الاقتصاد الاجتماعي (Economie Sociale) لأن هذا الاصطلاح بدل عند بعض الكتاب الفرنسيين على البحث في حياة العمال المادية والخلقية ، وعلى الوسائل اللازمة لتحسين شروط حياتهم . وهذا الموضوع مختلف عن موضوع علم الاقتصـاد السياسي . وقد فرق (فالراس) بين موضوع علم الاقتصاد السياسي وموضوع علم الاقتصاد الاجتماعي فقال : ان علم الاقتصاد السياسي يبحث في قوانين الحياة الاقتصادية كما هي ، أما علم الاقتصاد الاجتماعي فيعين للنظام الاقتصادي مثلاً أعلى ويبين ما هي الوسائل المؤدية الى تحقيقه .

ومن الأصلح لنا في اللغة العربية أن نحذف كلمة (سياسي) من اسم هذا العلم ، وأن نسميه بعلم الاقتصاد أو العلم الاقتصادي . وليس هذا العلم في نظرنا سوى قسم من علم أعم منه ، وهو علم العلاقات الاجتماعية .

الاكتساب

في اللاتينية	Acquisitio
في الفرنسية	Acquisition
في الانكليزية	Acquisition

الاكتساب في اللغة العربية مرادف للكسب ، تقول اكتسب مالاً أو علماً طلبه وربحه ، وكسب الشيء جمعه وكسب الاثم تحمله . ومن فرق بين الاكتساب والكسب قال الكسب ينقسم الى كسب الانسان لنفسه ، والى كسبه لغيره ، ولهذا قد يتعدى الى مفعولين فيقال : كسب فلاناً

علماً أي أناله اياه . أما اكتساب الانسان فلا يكون إلا لنفسه ، فكل اكتساب كسب ولا عكس . وفرقوا أيضاً بين الاكتساب والكسب من ناحية أخرى فقالوا : ان الاكتساب يستدعي التعمل والمحاولة والمعاناة ، أما الكسب فيحصل بأدنى ملابسة ولذلك خص الشر بالاكتساب ، والخير بالكسب .

ويطلق الكسب أيضاً على طريقة تحصيل المجهول من المعلوم كما في قول ابن سينا « ان من شأن النفس ادراك ماهية الكمال بكسب المجهول من المعلوم والاستكمال بالفعل » (النجاة ، ص : ٤٨٢) .

واختلفوا في جواز الكسب بغير النظر ، فمن جوزه جعل الكسبي أعم من النظري ، ومن لم يجوزه قال النظري والكسبي متلازمان .

والاكتساب علم يحصل بالكسب . وهو مباشرة الأسباب بالاختيار ، كصرف العقل والنظر في الاستدلاليات ، والاصغاء ونحو ذلك في الحسيات . فالاكتسابي أعم من الاستدلالي ، لأن الاستدلالي هو الذي يحصل بالنظر في الدليل ، فكل استدلالي كسبي ولا عكس .

وأما الضروري فانه اذا دلّ على ما ليس تحصيله مقدوراً لمخلوق كان مقابلاً للاكتسابي ، واذا دلّ على ما يحصل بدون نظر وفكر في دليل كان مقابلاً للاستدلالي . ولذلك جعل بعضهم العلم الحاصل بالحواس اكتسابياً أي حاصلاً بمباشرة الأسباب بالاختيار ، وبعضهم جعله ضرورياً أي حاصلاً بدون الاستدلال .

وفرقوا بين الكسب والخلق فقالوا ان الكسب مختص بالانسان ، والخلق مختص بالله ، هذا اذا كان الخلق بمعنى الايجاد . فالأفعال منسوبة الى الله تعالى خلقاً ، والى الانسان كسباً . لذلك قال الأشاعرة ان الكسب عبارة عن تعلق قدرة الانسان وإرادته بالفعل المقدور . قالوا ان أفعال الانسان واقعة بقدرة الله وحدها ، وليس للانسان تأثير في خلقها ، بل الله أوجد في الانسان قدرة واختياراً ، فاذا لم يكن هناك مانع أوجد الفعل المقدور للانسان مقارناً

لقدرته واختياره ، فيكون الفعل مخلوقاً لله احداثاً وابداعاً ، ومكسوباً للانسان .

أما الجبرية فقد زعموا أن المؤثر في فعل الانسان قدرة الله ، ولا قدرة للانسان أصلاً ، لا مؤثرة ولا كاسبة .

وأما الماتريدية فقد أسندوا الى الانسان كسباً باثبات قدرة مرجحة ، وكذلك الصوفية . لكن قدرة الانسان عند الصوفية مستعارة ، وعند الماتريدية مستفادة .

وذهب امام الحرمين الى أن القدرة الحادثة مع الدواعي توجب الفعل ، فالله تعالى هو الخالق للكل بمعنى انه هو الذي وضع الأسباب المؤدية الى دخول هذه الأفعال في الوجود ، والانسان هو المكتسب بمعنى ان المؤثر في وقوع فعله القدرة والداعية القائمتان به . ان نسبة الأثر الى المؤثر القريب لا تنافي كون ذلك الأثر منسوباً الى مؤثر آخر بعيد ثم الى أبعد الى أن ينتهي الى سبب الأسباب وفاعل الكل .

ولكن جمهور المعتزلة يقولون ان أفعال الانسان واقعة بقدرته وحدها بالاستقلال والاختيار . وان القدرة مع الداعي لا توجب الفعل بل القدرة على الفعل والترك الناشئة عن الاختيار هي التي توجبه .

ويطلق الاكتساب عند بعض الفلاسفة المحدثين على طريقة تحصيل المعرفة وعلى طريقة تثبيت العادات . فالمعرفة عندهم تكتسب بالحواس ، والعادة تثبت بتصحيح الأخطاء ، وبتكرار التمارين وتفريقها . ويسمى قانون تكون العادات بقانون الاكتساب ، وهو مطابق لقانون الفعل الذي يمثل بمنحن على شكل S (راجع الألفاظ الآتية : العادة ، الكسب ، التعلم ، المعرفة ، الكسبي ، والمكتسب) .

جميل صليبا

الدراسات العربية
في الاتحاد السوفياتي

سيدي معالي الرئيس ، سادتي حضرات أعضاء المجمع !

يسعدني جداً أن أحرز الشرف الرفيع بأن أحيي هذا المجمع الجليل أجمل تحية . نحن مسرورون جداً إذ أتيحت لنا فرصة الاتصال بهذه المؤسسة العلمية التي لها أثر ظاهر في الشعب العربي وثقافته الجليلة ، ونحن نعرف أنها قد لعبت دوراً هاماً في انبعاث حيويتكم الروحية والعقلية التي صنعت أمجادكم الأدبية وعبقريتكم الثقافية .

وقد أسدى هذا المجمع الكريم خدمة هامة في دراسة تاريخ لغتكم وآدابكم وماضيكم المجيد . وقد صدق حضرة الأمير جعفر الحسني ، الذي كان في السنة الماضية ضيفاً في بلادنا مع وفد المجمع العلمي العربي ، لما قال في إحدى مقالاته الرقيقة : إنه لا يمكن عزل المستقبل عن الماضي . « فالحاضر هو امتداد الماضي ، كما أن المستقبل هو وليد الحاضر . وليس الماضي وهماً وخيالاً بل هو على اتصال وثيق بالحاضر . »

نحن نرى أيضاً أنه صعب علينا أن نفهم الحاضر بلا معرفة الماضي ، ولذلك ندأب على دراسة تاريخ بلادنا ولغاتنا وآدابنا . وقد اتضح لنا في مجرى هذه الدراسات أن معرفتنا للماضي لن تتم وتكتمل إنْ لم نطلع على ما انطوت عليه من أخبار بلادنا خزائنُ الكتب بلغات مختلفة وخصوصاً باللغة العربية .

ونظراً لذلك نحن ندرس تاريخ العرب وآدابهم ولا سيما اللغة العربية ، هذه اللغة الواسعة القوية التي كانت يوماً تعلّم أوربا ، والتي هي جديرة بأن تكون في الوقت الحاضر احدى اللغات العالمية الكبرى في الحضارة الراهنة .

إن لدراسة اللغة العربية والحضارة العربية تقاليد قديمة في بلادنا . فثمة عدد كبير من شعوب بلادنا مثل شعوب آسيا الوسطى والقفقاس قد ربطتها بالشعوب العربية منذ العصور القديمة روابط ثقافية وتاريخية وثيقة . وقد بقي من هـذه الروابط كثير من الكتابات والمخطوطات وغير ذلك من الآثار الثقافية، لا بلغات بلادنا فحسب ، بل كذلك باللغة العربية .

وأقدم هذه الآثار يعود إلى القرن الأول الهجري ، فمنها مثلاً رسالة على الرق أرسلها صاحب صغد في طاجيكستان ديواشتي الى القائد العربي الكبير الأمير الجراح بن عبد الله سنة ٩٩ — ١٠٠ للهجرة ، أو مثلاً نقش عربي عثر عليه منذ أمد قريب على مقربة من تبليسي على حجر من أحجار الأميال يعود الى القرن الأول الهجري ، وقد كتب على الحجر (بسم الله الرحمن الرحيم ، ثلاثة أميال من تفليس) . هذا فضلاً عن الآثار الكثيرة العائدة الى مرحلة زمنية أقرب الينا .

إن كثيرين من ممثلي شعوب آسيا الوسطى والقفقاس قد ساهموا في القرون الوسطى مساهمة كبيرة في إنشاء الحضارة العربية والحضارة الاسلامية ، القائمة على اللغة العربية . ومن هؤلاء مفكرون كبار كالخوارزمي والبيروني وابن سينا لا تفخر بهم الشعوب التي أنجبتهم وحسب ، بل تفخر بهم البشرية التقدمية كلها .

وقد بقيت التقاليد العربية في بلادنا حتى الآونة الأخيرة ، فقد كانت العربية اللغة الأدبية الوحيدة في شمال القفقاس طيلة فترة طويلة . لقد نشأت في شمال القفقاس تقاليد أدبية وآثار أدبية خاصة هي فرع من الآداب العربيـة فريدة في بابها .

ولا غرو أن يُظهِر العلماء في بلادنا منذ الزمن القديم اهتماماً خاصاً بدراسة هذه الآثار .

ففي أول القرن الثامن عشر (إذا ضربنا صفحاً عن المحاولات التي جرت قبل

هذا التاريخ في هذا الاتجاه) ابتدأ تدريس اللغة العربية في موسكو من قبل المستشرق ع · يا · كيمر المعروف في زمنه · وفي أواسط القرن الثامن عشر طبع القرآن في بطرسبرغ بحروف جرى صبها على أساس كتابة خطاط من كبار الخطاطين المسلمين في ذلك العهد ، وغدت فيما بعد أساساً لنماذج طبعات القرآن في قازان ، النماذج التي انتشرت سواء في روسيا أو في الغرب ، والتي شرع المسلمون في البلدان الأخرى بتقليدها في البدء في القرم وتركية ، ومن ثم في مصر والهند · وبعد هنيهة من الزمن شغلت اللغة العربية المكان اللائق بها في برامج الدراسات الشرقية في مختلف معاهد روسية ومدارسها ·

وبعد صدور « النظام الجامعي » سنة ١٨٠٤ نشأت في خاركوف وقازان وموسكو وبطرسبرغ وغيرها من المدن مراكز للدراسات الشرقية ، وجهت للغة العربية انتباهاً كبيراً · ونشأ بعد ذلك القسم الشرقي في جامعة بطرسبرغ ومعهد لازاريف للغات الشرقية بموسكو وغيرهما من المدارس ، التي لعبت دوراً كبيراً في تطور الدراسات العربية الروسية والعالمية ·

ويعرف عالم العلم أسماء العلماء الكبار : دورن وبولديريف وفريهن وغيرغاس وروزين وفوتوفتسوف وميدنيكوف وكريمسكي وكراتشكوفسكي وغيرهم ·

وبعد ثورة أكتوبر الاشتراكية الكبرى استمر العمل بدأب في المركزين القديمين : لينينغراد وموسكو ، ونشأت عدا ذلك مراكز جديدة · لقد نشأت في لينينغراد مدرسة جديدة للمستعربين ، على رأسها علامة بلادنا الكبير ، وأحد كبار المستعربين في العصر الراهن ، عضو المجمع العلمي العربي ، الأكاديمي إغناطيوس كراتشكوفسكي ، الذي كان ، يوماً ، مشهوراً في الشرق العربي باسم غنطوس الرومي ·

وواصل العمل النشيط في موسكو العضو المراسل في المجمع العلمي العربي البروفيسور بايرتليس والبروفيسور خ · ق · بارانف والبروفيسور اي · ن · بيلايف والبروفيسور ب · م · غراندة والمدرسة المساعدة كلثوم نصر عوده واسيليفا (وهي عربية من الناصرة) وغيرهم ·

وقد ترأس الدراسات العربية في كييف الاكاديمي اغاثانفيل كريمسكي الذى اشتهر بمعرفة الشرق والأدب العربي ، ومعاونه توفيق بن جبرائيل كزما (وهو عربي أيضاً من دمشق) .

ويعمل في خاركوف تلميذ البروفيسور كريمسكي آ . ب كوفاليفسكي . وفي طشكند البروفيسور ا . اي شميدت الذي اشتهر بمؤلفاته في ميدان تاريخ الاسلام والفقه ، و ا . ا . سيميونوف مشهور بعميق معرفته لآسيا الوسطى و م . ا . ساليه مترجم « الف ليلة وليلة » الى اللغة الروسية وغيرهم .

وأسس تلاميذ الاكاديمي كراتشكوفسكي مدرستهم للدراسات العربية في تبليسي (في جورجيا) .

وقد قام المستعربون السوفياتيون بعمل كبير في دراسة اللغة العربية . يدل على ذلك العدد الكبير من الكتب المدرسية التي أصدروها في الآونة الأخيرة . ومن أروع ما وضع في هذا الحقل كتاب قواعد اللغة العربية الفصحى للبروفيسور ن . ف . يوشمانوف . ويشغل هذا الكتاب من حيث تفرده ودقته مكاناً مرموقاً بين الكتب المدرسية العربية ، وكتاب في نحو اللغة العربية الأدبية الحديثة للبروفيسور ن . ف . سيميونوف ، ومختارات في اللغة العامية السورية للبروفسور سيميونوف أيضاً .

وخليق بنا أن نَوَّه بأول مختارات الادب العربي الحديث التي أصدرتها ك . ف . عوده فاسيليفا بمقدمة الاكاديمي كراتشكوفسكي ، والتي ترجمت إلى عدد من لغات الغرب . واستخدمت المختارات نفسها بصفة كتاب مدرسي في المراكز العلمية كلندن ونيويورك وبرلين وأوبسالا وهامبورغ والجزائر .

ووضع البروفيسور خ . ق . بارانوف قاموساً عربياً روسياً جمع لأول مرة مفردات اللغة العربية الأدبية الحديثة بصورة وافية . ولم يصدر في الغرب قاموس من هذا النوع إلا منذ أمد قريب جداً وهو قاموس لمانس فهر العربي الألماني .

أما البروفيسور و . م . غراندة في موسكو فقد أصدر كتاباً عرض فيه مجموعة نماذج لصيغ الأفعال .

وفي المختارات العربية لليف ز . بيساريفسكي (لنينغراد) عرضت نصوص من « ألف ليلة وليلة » ، وكذلك من الكتب التاريخية .

وقد أصدر توفيق جبرائيل كزما في كييف قواعد اللغة العربية الفصحى بصورة بسيطة .

وقد صدرت في تبليسي مجموعة منتخبات أدبية عربية ، تتضمن جزئياً بعض نصوص عربية لم تكن قد نشرت قبل ذلك ، أو نصوصاً مستقاة من المخطوطات العربية مثل « أخبار بلاد الكرج » لمكاريوس البطريرك الانطاكي والمؤرخ مدينة ميافارقين ابن الأزرق الفارقي وغيرهما من الكتاب .

وصدر عدا ذلك أول قاموس عربي - جورجي ، يتضمن فيما يتضمن بعض مفردات نادرة وغير واردة في قواميس عربية أخرى .

وقد نشر مدرّس اللغة العربية في الجامعة التبليسية ا . س . ليقياشويلي كتاب نماذج لأشكال صيغ الأفعال في اللغة الأدبية العربية ، عرض فيها جميع صيغ تصريف الأفعال على اختلافها في اللغة العربية الفصحى . وهذه المجموعة تفوق من حيث الحجم جميع ما سبق أن نشر في هذا الموضوع من قبل .

وقد وضع المستعربون السوفياتيون في باكو وتشكند وقازان وغيرها من المدن كتباً مدرسية وأدوات تعليمية كي يوفروا للطلاب المستشرقين المواد اللازمة .

ولكن المستعربين السوفياتيين لم يقتصروا على إعداد الكتب التعليمية ، بل وجهوا الانتباه اللازم لدراسة المسائل الهامة في تاريخ بلاد العرب واللغة العربية وآثار الحضارة المادية ، وقد ترأس الأكاديمي كراتشكوفسكي في الاتحاد السوفياتي المباحث العلمية في ميدان الدراسة العربية . وخلّف نحو خمسمائة من المباحث الكبيرة والصغيرة تتناول في معظمها دراسة اللغة العربية والحضارة العربية ،

ومن هذه المباحث عدد من الدراسات ذات الأهمية اشتهرت في العالم ، منها مثلاً دراسة ديوان شعر أبي الفرج محمد بن احمد الغساني الملقب بالوأواء الدمشقي الذي حققه وأعاد طبعه عضو المجمع العلمي العربي الدكتور سامي الدهان ، ويعرف الجميع دراسات الأستاذ كراتشكوفسكي للشاعرين العربيين النابغين : أبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري . ولا بد لنا من أن نَوْبَه بنشره مقدمة رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري وترجمتها وبحثها ، وبإصدار نص كتاب « البديع » لعبد الله بن المعتز ، وبحثه عن العالم المصري الذي كان يدرس اللغة العربية في جامعة بطرسبرغ الشيخ محمد عياد الطنطاوي وغيرهم .

ويعرف الحضور مباحث كراتشكوفسكي هذه ، كمباحثه الكثيرة الأخرى . ولكن ترك كراتشكوفسكي بعد موته عدداً من المباحث الهامة لم تُطبع بعد ، وما تزال محفوظة بين مخطوطاته . ويشغل بينها مكاناً مرموقاً مبحث هام يتناول المؤلفات الجغرافية العربية .

وقد أبدى الأستاذ كراتشكوفسكي الاهتمام الكبير بمؤلفات العرب الجغرافية منذ بدأ نشاطه العلمي ، ففي سنة ١٩٠٩ أثناء جولته العلمية في الشرق العربي سمع في جامعة القاهرة محاضراتٍ ألقاها ، باللغة العربية ، في تاريخ علم الفلك العربي ، الاختصاصي الكبير في حقل علم الفلك وجغرافية العرب الرياضية ، العالم الايطالي المشهور ك . نللينو (C. Nallino) الذي استفاد المؤلف ، على نطاق واسع ، من دراسته في بحثه هذا .

وبعد ذلك شرع كراتشكوفسكي إثر عودته إلى بطرسبرغ يلقي المحاضرات في القسم الشرقي في جامعة بطرسبرغ في مختلف مسائل اللغة العربية والحضارة العربية .

وقد قرأ كراتشكوفسكي خلال سنوات ١٩١٠ — ١٩١٧ في جامعة بطرسبرغ محاضرات ، شغل بينها مكاناً مرموقاً « استعراضُ المؤلفات الجغرافية مع قراءة

مختارات» . وقد جدد فيما بعد في سنة ١٩٣٥ — ١٩٣٦ الأكاديمية تحت اسم «المؤلفات التاريخية الجغرافية العربية»

وعند قراءة هذه المحاضرات استُخدمت لمطالعة أشهر المؤلفات العربية الجغرافية التي كانت معروفة في ذلك الحين ، وكان المؤلف يقوم مع الطلاب بترجمة مختارات من النصوص العربية الى اللغة الروسية بقصد دراستها . وقد ضم العالم هذه النماذج من المؤلفات الجغرافية العربية إلى بحثه لوصف أسلوب وطريقة عرض هذا المؤلف أو ذاك .

وقد نما هذا البحث من المحاضرات التي ألقاها الأكاديمي كراتشكوفسكي عن مؤلفات العرب الجغرافية . وفي غضون أربعين سنة ونيّف كان هذا البحث يكتمل ويتم تبعاً لظهور معلومات ومكتشفات جديدة ، للمؤلف نفسه في ظهورها أياد بيضاء .

وكان كراتشكوفسكي ينوي أن يتم استعراض المؤلفات الجغرافية حتى أيامنا ، ولكن الموت لم يتح له تحقيق نيته ، وقد وفق الى عرض المؤلفات الجغرافية العربية حتى القرن التاسع عشر فقط .

ومن المعروف أنه قد كرس لمؤلفات العرب الجغرافية عدد كبير من الاستعراضات العامة والدراسات الخاصة ، ابتداء من مبحث رينو (Renaud) الكلاسيكي . وخلال عقود السنين الأخيرة اكتسب هذا العمل نطاقاً واسعاً ، واغتنى جداً بفضل المباحث الرائعة التي وضعها بارتولد (Barthold) ومينورسكي (Minorsky) وكراميرس (Kramers) وروسكا (Ruska) وفيران (Ferrand) وغيرهم من كبار الاختصاصيين في جغرافية العرب التاريخية .

ولكن مبحث الأستاذ كراتشكوفسكي الذي يعد للطبع يشغل مكاناً خاصاً بين جميع هذه المباحث .

عُرف كراتشكوفسكي في عالم العلم بوصفه عالماً من المستعربين واسع الأفق

جداً . كان يهتم كلّ الاهتمام بوقائع إبداع العرب الثقافي ، الكبيرة منها والصغيرة ، ابتداء من روائع المتنبي وأبي العلاء المعري ، وانتهاء بالحكايات البسيطة من الناصرة ، وكان يعتقد أن ثقافة الشعب تتألف من جميع هذه العناصر ، وأن دراسة هذه الثقافة كما ينبغي ، تقتضي تحديد مكان كل ظاهرة في التطور العام وإقامة التسلسل بينها .

وكان كراتشكوفسكي يعتبر المؤلفات الجغرافية جزءاً لا يتجزأ من الآداب العربية بوجه عام ، كما كان يعتقد أن فهمها على الوجه اللازم يتطلب النظر إليها من وجهة نظر تاريخ الآداب ، والحضارة العربية بمجموعها . وقد أشار في مبحثه الى أن طريقته الأساسية هي طريقة دراسة الأدب ، وأنه لا يضع نصب عينيه مهمة إعطاء تاريخ علم الجغرافيا عند العرب أو المكتشفات الجغرافية ، وهو يوجه ذات الاهتمام للمؤلفات العلمية والشعبية التي تمت للجغرافيا بأية صلة بما في ذلك الأقاصيص والرحلات التي تحمل الطابع الأدبي أو الأسطوري الصرف .

وبالرغم من ذلك يتفق له طبعاً أن يتناول تاريخ علم الجغرافيا ومكتشفات العرب الجغرافية ، وقد أعطى في مبحثه صورة واضحة عن هذا النوع من فروع العلم عند العرب وعن دورهم البارز في تطور علم الجغرافيا .

وقد بيّن المؤلف ذلك بجلاء مستشهداً بالخوارزمي وألُغ بك والبيروني وربّان فاسكو داجاما احمد بن الماجد ، الذي اكتشف كراتشكوفسكي نفسه نسخ مؤلفاته الثلاثة في معهد الاستشراق ، وبكثيرين غيرهم من ممثلي علم الجغرافيا .

لقد عرض كراتشكوفسكي المؤلفات الجغرافية العربية عرضاً منتظماً ، ابتداء من ظهور التطورات الجغرافية الأولى عند العرب ، هذه التطورات التي نجد ما يشير اليها في الآثار القديمة وفي القرآن . واستناداً على المصادر الأولى ، وعلى كل ما توصل اليه العلم الحديث ، يتتبع المؤلف ظهور الجغرافية عند العرب ، ويتتبع صلاتها بالعلم اليوناني والهندي ، ومجرى نشوء مختلف فروع العلم الجغرافي ،

(الجغرافيا الوصفية والرحلات والخطط والجغرافية البحرية والجغرافية العامة والجغرافية الاقليمية الخ) ومراكزها ومدارسها العلمية واتجاهاتها ومختلف ألوانها .

هذا ويعطي المؤلف وصفاً لمعظم المؤلفين الأساسيين والنموذجيين من ممثلي جميع ألوان التآليف الجغرافية العربية واتجاهاتها ، مع تبيان صلاتهم بعضهم ببعض وتأثيرهم بعضهم على بعض . وبنتيجة التحليل المفصّل لعدد كبير من المؤلفين يزيد على مائتين وستين يقرر كراتشكوفسكي مبلغ صحـة المعلومات التي يذكرها المؤلفون وأهميتها باعتبارها مصادر لدراسة الجغرافية التاريخية للبلدان التي تحدثوا عنها .

ويتضمن البحث إلى جانب ذلك قائمة وافية تقريباً بالكتب المتعلقة بالموضوع ، ابتداء من القرون الوسطى حتى أيامنا ، مع انتقاد النصوص المنشورة والدراسات الخاصة المكرسة لهذا الأمر . ويحمل هذا الطابع الفصلان (١٦ و ٣١) المكرسان للمؤلفات الجغرافية الفارسية والتركية التي جرى عرضها بمقدار صلاتها بالتقاليد العربية .

إن هذا البحث الذي أتمه كراتشكوفسكي قبيل انتهـاء نشاطه العلمي ، والذي يضم هذه الوفرة من المواد ، سواء فيما يتعلق بالمصادر الأولى أو الدراسات العلمية الموضوعة عنها ، لا يوجد في جميع الدراسات العربية نظير له ، ونحن نأمل أن يصبح نموذجاً لمباحث كثيرة في نواحي تاريخ الأدب العربي الأخرى .

إن الاستنتاجات الأساسية التي تستخلص من دراسة المبحث بانتباه هي التالية :
الأول : لقد دقق المؤلف كما لم يوفق أحد من قبل وأثبت بوضوح استناداً إلى كمية كبيرة من المستندات ، الأمر الذي هو معروف للجميع ، مبلغ أهمية الحضارة العربية في التاريخ العالمي وبرهن أن العلم الجغرافي العربي يشغل في هذا الميدان مكاناً من أمكنة الصدارة .

الثاني — لقد دقق وبرهن المؤلف بوضوح أنه قد ساهم مساهمة نشيطة في إنشاء هذه الحضارة ، عدا العرب ، ممثلو العالم الثقافي في آسيا الوسطى والقفقاس وايران

وتركية وعدد من البلدان الأخرى التي أنجبت عدداً من موصلي تقاليد العلم الجغرافي العربي المجيدة .

والاستنتاج الثالث — هو استنتاج منهاجي ، فدراسة جميع آثار التآليف الجغرافية العربية الأساسية دراسة مفصلة تظهر أن الباحث المدقق يستطيع أن يجد حتى في الوصف الخيالي لمختلف البلدان والمدن وحتى فيما يسمى بالعجائب ، ما قد يطابق الحقيقة لهذا الحد أو ذاك ويمكن أن يكون ذا نفع في دراسة مسائل الجغرافية التاريخية ومسائل علم الآثار وعلم عادات الشعوب وغيرها من العلوم .

ولكن أهمية مبحث كراتشكوفسكي تتعدى ذلك ، فقد طُرقت فيه قضايا كثيرة تتطلب من علمنا الحل العاجل ، وأعتقد أن صدوره سيكون حافزاً لظهور مباحث عديدة تجعل من مبحث كراتشكوفسكي نقطة الانطلاق . وعما قريب ستصدر أكاديمية علوم الاتحاد السوفياتي مبحث كراتشكوفسكي هذا ، فيجد الباحثون الامكانية التامة لتقويم أهميته للعلم .

ومن الآثار الأخرى التي تركها الأكاديمي كراتشكوفسكي والتي تجذب الاهتمام الكبير ترجمة روسية موجودة بين مخطوطاته لمؤلف عبد الله بن المعتز : «كتاب البديع» أحد أكابر المصادر لدراسة تاريخ علم البلاغة العربي .

وحري بنا أن نذكر أيضاً ترجمة كراتشكوفسكي للقرآن وأهميتها من وجهة نظر العلم لفهم كتاب المسلمين المقدس .

لقد وضع معاونو كراتشكوفسكي وتلاميذه وكذلك المستعربون السوفياتيون الآخرون ، عدداً كبيراً من المباحث والمقالات في دراسة تاريخ العرب وآدابهم ولغتهم وتاريخ اللهجات الدارجة ومختلف الألفاظ العربية .

ولقد وجد تاريخ الاسلام والخلافة في بلادنا باحثين جدداً تابعوا ذلك العمل الذي قام به بنجاح كبير في حينه مؤرخ الشرق الكبير الأستاذ ف . ف . بارتولد . إنّ مؤرخنا م . ن . تيخوميروف قد أعار انتباهاً كبيراً الى المصادر

الشرقية ، ومنها العربية ، في مؤلفه « مصادر تاريخ الاتحاد السوفياتي » ، وقد صدر منذ أمد قريب مبحث للبروفيسور ن . ا . سميرنوف عنوانه : « حول الأبحاث المتعلقة بالإسلام في الاتحاد السوفياتي » ، ويعطينا هذا المبحث صورة واضحة عن العمل الذي تم عندنا في هذا الحقل ، من العصور السالفة إلى أيامنا .

وقد كرّست البروفيسور ن . ف . بيغوليافسكايا جملة من المباحث الهامة لتاريخ العرب مباشرة قبل ظهور الاسلام، مستندة على المصادر السريانية . وتتناول مباحث البروفيسور ي . ا . بيليايف تاريخ صدر الاسلام ومسائل علاقات الحنيفية ومسيلمة من اليمامة بالاسلام .

وقد تناول البروفيسور ياكوبوفسكي والبروفيسور شميدت وعدد آخر من العلماء العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في عهد الخلافة ، وأعاروا انتباهاً خاصاً لكتاب « الخراج » لأبي يوسف يعقوب ، وهو أحد المصادر الكبرى لدراسة التاريخ الاجتماعي للبلاد العربية في القرون الوسطى .

ويجدر بنا أن نشير إلى مباحث علمائنا المتعلقة بالمصادر العربية المتصلة بتاريخ أوروبا الشرقية وجنوب روسيا والقفقاس وآسيا الوسطى .

وقد تناول الاكاديمي آ . غوردليفسكي في مؤلفه الكبير « تاريخ الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى » (موسكو ١٩٤١) المصادر العربية بالتفصيل ، ولا سيما معلومات السائح العربي المشهور ابن بطوطة .

إنّ لنشر المواد المتعلقة بتاريخ التركمانيين وتركمانستان بما فيها المواد العربية ، مرفقة بمقالة ف . اي . بيليايف عن تطور تاريخ علم الجغرافية العربية ، أهمية كبرى ، لا من وجهة نظر دراسة تاريخ تركمانستان وحسب ، بل كذلك من وجهة النظر المنهاجية .

وقد أصدر كوفاليفسكي ترجمة جديدة لرسالة أحمد بن فضلان عن سياحته إلى بلغار الفولغا . وقد وضع الترجمة على أساس مخطوطة مشهد المشهورة ؛

ويجري الآن إعداد طبعة جديدة تضاف اليها الشروح المطولة والدراسة العامقة ، وسيكون صدورها مفيداً جداً لبحث هـذا الأثر النفيس من التأليفات الجغرافية العربية ·

لقد نشر تلميذ ف · ف · بارتولد اي · اي · اوميا كوف جملة من المقالات القيمة عن خارطة العالم لمحمود الكاشغاري وعن الخزر والأتراك ، على أساس معلومات الجغرافي إسحاق بن الحسين وغيره من المؤلفين ·

وللمباحث التي وضعها البروفيسور آ · يو · ياكوبوفسكي و ب · ن · زاخودير عن الروس على أساس معلومات المصادر العربية أثر ظاهر في هذا الحقل ·

وقد وجه علماؤنا انتباهاً كبيراً أيضاً لتاريخ البلدان العربيـة الحديث ، فقد خصص لبلدان الشرق العربية مكان هام في المؤلف الكبير المطبوع في موسكو سنة ١٩٥٣ بعنوان « التاريخ الحديث لبلدان الشرق الأجنبي » ·

وعدا ذلك فقد تناول البروفيسور ب · ف · لوتسكي و م · ف · تشوراقوف وغيرهما من العلماء جملة من المباحث في التاريخ الحديث لمصر وسورية ولبنان وأقطار الشرق العربي الأخرى ·

وقد نشرت خ · اي · كيلبيرغ مبحثاً عن ثورة عرابي باشا في مصر · ولها أيضاً ترجمة بمقدمة خ · ف بارانوف لمؤلف أمين سعيد المعروف : « الثورة العربية الكبرى » ·

ونشرت ل · ن · فاطوطينا مبحثاً بعنوان « مصر المعاصرة » ، وجملة من المقالات الأخرى تناولت فيها تاريخ البلدان العربية المعاصر ·

ويوجه المستعربون الشباب في موسكو ولينينغراد وتبليسي وغيرها من مراكز بلادنا انتباهاً خاصاً لتاريخ بلدان الشرق العربي المعاصر ·

وتدرس دراسة خاصة عندنا المصادر العربية الموضوعة في شمال القفقاس ، وفي الآونة الأخيرة قام اي · يو · كراتشقوفسكي و آ · ن · غينكو

وباراباانوف و ت · مارغويلاشويلي وغيرهم من علماء بلادنا بنشر عدد كبير من هذه الآثار وترجمته وبحثه · وقد وجه العلماء في بلادنا مثل هذا الانتباه للنواحي التاريخية المساعدة · ويجدر بنا أن نشير بهذا الصدد إلى جملة من المباحث الكبيرة وإلى العدد الكبير من المقالات التي كتبتهازوجة الأكاديمي اي · كراتشقوفسكي البروفيسور فيرا آليكساندروفنا كراتشقوفسكي في حقل علم الخطوط والكتابات العربية وكذلك في حقل الفن الاسلامي ، فابتدأ من سنة ١٩٤٧ بإدارتها نشر مجلة خاصة « خطوط الشرق وكتابته » · تنشر فيها كثير من الكتابات والنقوش العربية التي عثر عليها في شتى أنحاء الاتحاد السوفياتي ·

وفي الآونة الأخيرة نشر ر · ر · فاسمير وآ · آ · بيكوف وغيرهما من العلماء كثيراً من النقود عليها كتابات عربية ·

وقد اكتشفت في دمانيس (قرب تبيليسي) نقود عليها نقش عربي ، مكن من اكتشاف دار جديدة لضرب السكة في دمانيس ، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بعد الميلاد كانت مجهولة سابقاً ·

وقد نشر ف · اي · بيليايف مقالاً كبير الأهمية بصدد مجموعة أوراق البردى العربية في الاتحاد السوفياتي ، التي تجد بينها وثائق تعود الى القرن الأول الهجري ·

ومن الأحداث الهامة في تاريخ الدراسات العربية مبحث أصدره في طشقند البروفيسور آ · آ · سيميونوف ، ووصف فيه مجموعة المخطوطات الشرقية المحفوظة في أكاديمية علوم جمهورية ازبيكيستان الاشتراكية السوفياتية (وقد صدر المجلد الأول سنة ١٩٥٣ وصدر المجلد الثاني سنة ١٩٥٤) ·

وقد وضع العلماء السوفياتيون جملة من المباحث القيمة في تاريخ العلوم ، وحسبنا أن نشير إلى المجموعة المكرسة لمفكر من كبار المفكرين في القرون الوسطى : أبي الريحان البيروني ، والى ترجمة مبحثه المشهور « كتاب الجماهر في معرفة الجواهر » ، فقد ترجمه إلى اللغة الروسية آ · م · بيلينيتسكي وليملين ·

وخليق بنا أن نشير إلى أول ترجمة روسية لسفر وضعه مفكر آخر من كبار مفكري الشرق هو أبو علي بن سينا : « القانون في الطب » ، وتصدرها الآن أكاديمية العلوم في ازبيكيستان باشتراك المترجم م . آ . ساليه الذي اشتهر بترجمته « ألف ليلة وليلة » إلى اللغة الروسية .

تشغل بلادنا في حقل دراسة الأدب العربي مركزاً مرموقاً ، وذلك بفضل المباحث التي وضعها البروفيسور اي . كراتشقوفسكي . وفي سنة ١٩٤٩ أصدر البروفيسور اي . فيليكوف كتاباً بعنوان « ايغناطي يوليانوفتش كراتشقوفسكي » ذكر فيه جميع مباحث هذا العالم ؛ ولذلك لن أطيل الكلام عن هذه المباحث ، وحسبي أن أقول إن الأستاذ كراتشقوفسكي هو الأول بين العلماء الغربيين الذي بدأ دراسة الآداب العربية الحديثة بصورة منتظمة .

ولقد كتب أي . كراتشقوفسكي سنة ١٩٢٣ في مقال من مقالاته : « ان الماضي المجيد قد حجب العرب عن أنظار الأوربيين ، فهم يقرنون باسمهم دون تردد القرآن وألف ليلة وليلة ، ولكن في ما يخص الحاضر تنتصب جملة من الصور الشاحبة الخيالية الغامضة ... »

« ووراء هذه الصور تحجب تماماً حقيقةُ الواقع . فلا يزال مجهولاً وجود صحافة دورية غزيرة تصدر في أربع أو حتى في خمس من قارات العالم ، ووجود عدد من الأحزاب الاجتماعية والسياسية تختلف اتجاهاتها الفكرية كل الاختلاف . وتبقى البلدان العربية حتى في الوقت الحاضر عاملاً اقتصادياً كبيراً ، حلقة من الحلقات الضرورية في التداول العالمي مع شواطئ البحر الأبيض المتوسط . والعرب أنفسهم بالمعنى البشري العام أرقى شعوب الشرق الأدنى ثقافة وزعيم العالم الاسلامي كما كانوا زعيمه في القرون الوسطى . وهم في الوقت نفسه طليعة التأثير الأوربي . ولقد تنشأ عن هذا اللقاء بين الغرب والشرق تشابكات خارقة . ومن جميع وجوه الحضارة الراهنة يمكننا أن نجد أوضح موضوع للدراسة ، الأدب الذي يحدد تاريخ انبعاثه ، بيسر كبير ، بأوائل القرن الثامن عشر » .

وقد بذل اي · كراتشقوفسكي نفسه جهوداً كبيرة لبحث هذا الأدب الذي كان يتطور خلال عقود السنوات الأخيرة، في الاتجاه الذي تحدث عنه الأستاذ المرحوم منذ أوائل قرننا ·

وقد وجه مثل هذا الانتباه الكبير لدراسة مسائل الأدب العربي : حديثه وقديمه ، عالم آخر من علماء بلادنا ، هو الأكاديمي كريمسكي الذي وضع كتاباً في تاريخ الأدب العربي الحديث ، وقد أخرت الحرب صدوره ·

وقد وجه عدد آخر من علماء بلادنا انتباهاً كبيراً ، وأظهروا اهتماماً بالأدب القديم ، والأدب العربي في الأندلس ، وكذلك بالأدب العربي في شمال القفقاس ، والأدب العربي المعاصر ·

ويستحق الذكر بهذا الصدد المبحث الذي وضعه البروفيسور برتيلس عن الشعر العربي الفضولي ، وكذلك مبحث د · ف · سيميونوف المكرس لتحليل الرواية الحديثة للكاتب المصري إبراهيم المازني والمباحث الأخرى ·

ويوجه اللغويون السوفياتيون انتباهاً خاصاً للغة العربية وبنائها وتاريخها وتطورها ·

ولا بد من إشارة خاصة إلى مباحث المرحوم ن · ف · يوشمانوف الذي كان كبعض العلماء العرب ، يعتبر أن الجذور العربية كانت في الأصل تتركب في معظمها من حرفين ، أما الحرف الثالث أو الرابع في الأصول الثلاثية والرباعية فهو عنصر زائد في اشتقاقه ، وكان يستعمل للإشارة الى نوع الأشياء كحرف الراء للإشارة إلى أقسام الجسد (مثلاً في الكلمات ظهر وصدر وشعر وغيرها) أو كحرف الباء للإشارة إلى نوع الحيوانات كما في الكلمات : (ذئب وعقرب وثعلب وأرنب الخ) ·

وقد كرس آ · س · ليقياشويلي ، وهو لغوي من تبليسي ، جملة من المباحث تناول فيها قضايا بناء الجذور العربية ، وهو يعتبر كذلك أن أغلب الكلمات ترجع في اشتقاقها إلى جذور ذات حرفين ، وأن الكلمات العربية مركبة من

جذر ذي حرفين ومن ثالث إضافي ينشأ على الصعيد اللفظي ، أو لتحديد الأصول أو هو باقية من كلمة أخرى مستقلة .

وقد اتفق المستعربون في بلادنا في بحثهم هذا الموضوع مع ما توصل إليه بعض علماء العرب الذين يثبتون أيضاً فضل الثنائية على المعجمية وتفوقها على نظرية « الثلاثية » (راجع مجلة المجمع العلمي العربي ص ٧٧٠ ـ ٨٨ ، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤) .

وقد وجه اللغويان س . س . ميزل و ف . ب ستاربنين (موسكو) بحثهما إلى قضايا قلب الحروف أي تأخيرها وتقديمها في العربية ودورها في تكوين الأصول .

وقد أعد العالم الليننغرادي المرحوم يا . س . فيلينتشيق قاموساً عربياً روسياً كبيراً للهجة سورية ، يشتمل على مواد وافية من المخطوطات والمطبوعات .

وقد توصل العلماء السوفياتيون بنتيجة دراستهم للهجات العربية إلى اكتشاف لهجات عربية جديدة وبحثها في آسيا الوسطى لم تكن معروفة سابقاً .

ويعيش في الوقت الحاضر في مقاطعتي بخارى وقاشقاداريا في آسيا الوسطى أكثر من خمسة آلاف عربي يتكلمون العربية . ولا نستطيع أن نجزم بما إذا كان هؤلاء العرب أحفاداً لأولئك العرب الذين تغلغلوا في آسيا الوسطى تحت ألوية الإسلام في عصر الفتوحات الكبرى ، أو أنهم قد استوطنوا هذه المناطق في القرن الرابع عشر بعد أن نقلهم تيمورلنك من سورية والعراق إلى هذه الأقطار . ولكن مهما يكن من أمر فان كون بعض عرب آسيا الوسطى ظلوا محتفظين بلغتهم العربية طيلة هذه القرون منذ نزوحهم إلى هذه البلاد ، هو واقع ذو أهمية كبيرة جداً .

وقد دلت البحوث على أن اللغة العربية المستعملة في آسيا الوسطى هي لهجة مستقلة كالمالطية ، وتشغل مكاناً خاصاً بين اللهجات الأخرى ، على الرغم من أنها تظهر لنا في بعض نواحيها صلة باللهجة العراقية ، وفي نواحيها الأخرى بلهجات البدو في أواسط شبه الجزيرة العربية .

وقد ثبت عدا ذلك بنتائج الدراسات أنه توجد في آسيا الوسطى في الوقت الحاضر على الأقل لهجتان مستقلتان تختلف إحداهما عن الأخرى اختلافاً بيناً بحيث لا يفهم عرب بخارى وقاشقاداريا بعضهم بعضاً .

وقد وقعنا في مجرى دراستنا للعربية في آسيا الوسطى على شيء أعجبنا غاية الإعجاب ، وهو أنّا وجدنا اسم بطلة القصيدة الجورجية المعروفة التي وضعها الشاعر الجورجي الكبير شوتا روستاويلي محفوظاً بين القبائل العربية في آسيا الوسطى ، فقد وضع شوتا روستاويلي في القرن الثاني عشر قصيدة كبيرة في نحو من ستة آلاف وستمائة وثمانين بيتاً أطلق عليها اسم « ذو بردة النمر » أي « فارس في بردة النمر » ، وقد أطلق الشاعر على إحدى بطلات قصيدته اسم « نيستان داريجان » ، وكنا حتى الآونة الأخيرة لا نعرف من أين أخذ الشاعر هذا الاسم ، وكان العلماء يفترضون ان الاسم فارسي المنشأ ولكن لم يكن معروفاً استعماله في النصوص الفارسية ، وإذا بنا قد عثرنا على هذا الاسم في الحكايات العربية بشكل « نسطارجهان » ، وما من شك في الوقت الحاضر في أن الاسم فارسي ومعناه « لا نظير لها في الدنيا » أي « الغادة التي لا نظير لها في الدنيا بجمالها » ، وقد وجدوا بعد ذلك هذا الاسم في التأليف لفخر الدين البنداري الاصبهاني المسمى « زبدة النصرة ونخبة العصرة » ، ووجدوه بعد ذلك أيضاً في شعر نظامي كنجوى وفي بعض النصوص الأخرى ، ولكن قد تلاقت بطلة القصيدة الجورجية باسمها لأول مرة بين عرب آسيا الوسطى .

يرى كراتشكوفسكي في اكتشاف لغة العرب في آسيا الوسطى وبحثها أساساً لتعديل النظر المقرر حول اللهجات العربية تعديلاً محسوساً ، وذلك نظراً لحصول مصدر جديد لدراسة اللغات السامية لم يكن معروفاً في السابق .

وتنشر عما قريب نصوص كثيرة ومواد أخرى سجلت بين عرب آسيا الوسطى ، وكذلك نتائج بحوث هذه اللغة .

ولذلك نأمل أن نساهم، ولو بنصيب متواضع، في دراسة لغة العرب وحضارتهم الجليلة .

ولم يقتصر المستعربون في بلادنا على البحوث العلمية النظرية بل أبدوا اهتماماً كبيراً لترجمة نخبة من الآثار الأدبية الفنية .

فقد ترجمت إلى الروسية والأكرانية والجورجية والازبيكية وغيرها من اللغات الأخرى – عدا القرآن وألف ليلة وليلة – كليلة ودمنة وكتاب بلوهر ويوداسف وكتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وطوق الحمامة لابن حزم ولامية العرب للشنفرى ومعلقات امرئ القيس وزهير ولبيد والنابغة الذبياني وغيرهم ، وترجم شعر الأخطل والفرزدق وجرير الذي كرس له حضرة الرئيس خليل مردم بك منذ أمد قريب مقالة شيقة ، كما ترجم شعر المتنبي ، وأبي العلاء المعري ، وترجمت كذلك نخبة نماذج الآداب العربية من مؤلفات جرجي زيدان وعبد الرحمن الكواكبي وجبران خليل جبران وأمين الريحاني وعمر الفاخوري ومحمود تيمور وغيرهم من كتاب الحاضر والماضي .

ولقد قدمنا صورة مختصرة جداً عن عمل العلماء السوفياتيين في حقل دراسة لغة العرب وحضارتهم ، وان كان المستعربون في بلادنا أقل عدداً من الممثلين عن الفروع الأخرى لدراسة الشرق ، غير أن الأعمال التي قاموا بها ، عظيمة القدر ، ولم تغب عن أذهانهم ، لدى دراستهم الآثار العربية القديمة ، أهمية العرب في الحضارة الحديثة .

ونحن نتابع تقدمكم بعطف كبير ، ونتمنى لكم بحرارة قلوبنا النجاح الأكبر دائماً في عملكم الشريف لصالح علمكم وآدابكم وحضارتكم الجليلة .

اقبلوا منا فائق الاحترام ودمتم مناراً للأدب والعلوم بين أبناء العرب .

والسلام عليكم .

جيورجي تسيرتيلي

ايوانية البحتري

للمرحوم الشيخ عبد القادر المغربي

— ٤ —

(ذاك عندي وليستِ الدارُ داري   باقترابٍ منها ولا الجنس جنسي)

(ذاك) إشارة الى المذكور في البيت الذي قبله ، من إعانته ربوع كسرى بدموعه التي حبَسَها على الصَّبابة والأسى . أي أن هذا كل ما عندي لتلك الربوع ، وكل ما يُمكنني أن أعينها به ، حالةَ كونها ليست هي داراً لي فأقترب منها وأتبوءاً لي من مقاصيرها مسكناً . ولا جنس الفرس الذين كانوا يعمُرونها بالسكنى فيها من جنسي وعُنصري العربي : هم فرس آريُّون . وأنا عربيّ سامي . إذن لماذا تبكي ؟ فأجاب بقوله :

(غير نُعْمى لأهلها عند أهلي   غرَسُوا من زَكائها خيرَ غرسِ)

المراد بالنُعمى هنا اليدُ البيضاء أي المنّة والفضل والمعروف تصطنعه الى آخر ، يقول انه بكى على الربوع التي ليست بداره ولا أهلها عرَباً من جنسه وبجاره ، غير أن هناك يداً وصَنيعَة قديمةً اصطنعها أهلُ تلك الدار وهم الفرس عند أهلي وقومي وهم عرب اليمن . والزَّكاء بالزاي بمعنى السخاء والخِصب ، يقال زكت الأرض إذا كانت طيبة التربة خِصبة . وضمير زكائها يرجع الى النُعمى فهو قد جعلها نباتاً ونَسَبَ اليها الزَّكاء والخِصب . أي أن الفُرس غرسوا من زَكاء النُعمى التي صنعوها عندَ قومي خيرَ غرسٍ . كأنه يقول إن معروفهم عندنا غير ضائع ، بل هو يبقى زاكياً نامياً مغروساً في نفوسنا خيرَ

غرس لكونه مصطنعاً عندنا نحن العرب الذين يحفظون الجميل ، ويعرفون للمحسن إحسانه . وقد عَنَى البحتري بأهله الذين أُسدى اليهم الفرس معروفاً قبيلةَ طيّئ التي ينتسب هو اليها كما ينتسب اليها أيضاً أستاذه (أبو تمام) ولذلك يطلق عليهما أحياناً اسم (الطائيين) .

وطيئ من كهلان . وكهلان أخو حمير . ينتميان كلاهما الى قحطان وقحطان جدُّ عرب اليمن . كما أن عدنان جدُّ عرب الحجاز . وقد هاجرت طيئ من اليمن عقبَ حادثة سيل العَرِم فنزلوا نجداً في جبلي أَجَإٍ وسَلْمى المشهورين . واشتهرت طيئ قديماً عند السريان والفُرس حتى غَلَب اسمُها على (العرب) فسموا كل العرب طيئاً . أما اليوم فجَبَلا (طيئ) وهما أجأ وسلمى سميا جَبَل شَمَّر . وبقايا طيئ سموا أيضاً شَمَّر باسم الجَبَل . بقي أن نعرف ما هي المِنّة التي أسداها الفرس الى عرب اليمن قومِ البحتري ؟ لقد أشار اليها البحتري نفسه بقوله :

(أيدوا مُلكنا وشدُّوا قُواه بكُماةٍ تحت السَنَوَّر حُمْسِ)
(وأعانوا على كتائبِ (أَرْيا ط) بطعنٍ على النحور ودَعْسِ)

ضمير (أيدوا) يرجع الى أهل الايوان يعني بهم الفرس . وقوله (مُلكنا) أي معشر أهل اليمن . و(الكُماة) جمع كَمِيّ البَطَل المدجّج بالسلاح . والسَّنَوَّر بفتح السين السلاح عامةً أو هي الدُروع من قِدٍّ أي جلد . وحُمْس بضم الحاء جمع أَحمس وهم الشديدون في دينهم الأقوياء في الدفاع والمقاومة اذا اعتدي عليهم معتد ، وأرياط أول قائد نزل بلاد اليمن واستولى عليها من قِبَل (أصحمة) نجاشي الحبش . ودَعْس بمعنى طعن ، معطوف على طعن عطف تفسير . يقول إن النُعمى واليد البيضاء التي للفرس علينا معشر العرب اليمانين هي تأييدُهم مُلكنا بأبطالهم وإعمالهم الرماح في أقفية جيوش (أرياط) الحبشية . هذه هي النُعمى ملخصةً . أما ما قاله المؤرخون في تفصيل هذه الحادثة أو النُعمى ففيه ما يدلُّ على خطأ البحتري في قوله (أرياط) وكان الصواب

لو قال (مسروق) . ذلك أن ملوك حمير ظلموا نصارى بلادهم فأرسل (أصحمة) ملك الحبش (والحبش نصارى) جيشاً مع أحد كبار قواده المسمى (أرياط) ومعه قائد آخر اسمه (أبرهة) ففتحا بلاد اليمن وأذلا ملوكها من حمير . وكان ذلك في أوائل القرن السادس للميلاد . ثم وقع خلاف بين (أرياط) و (أبرهة) فقتل (أرياط) واستبد (أبرهة) ببلاد اليمن ، فجار وظلم وأنزل بأهلها المحن . وبنى كنيسة سميت (القليس) بمعنى الكليس والكليس هي (الكليسة) أي الكنيسة . وأراد صرف وجوه العرب عن الكعبة اليها أي إلى القليس ، فجاء شيطان من شياطين عرب الحجاز فتغوط فيها فغضب أبرهة وزحف الى الحجاز ليهدم الكعبة المشرفة ، فرده الله بأن أرسل عليه الطير الأبابيل في قصة مشهورة لخصتها سورة الفيل (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) الى آخر السورة . ثم هلك (أبرهة) وخلفه ابنه (مسروق) . وفي زمنه نشأ سيف بن ذي يزن الحميري فهاله ما نزل بقومه . فذهب الى قيصر مستنجداً به على الحبش فلم يفعل قيصر شيئاً لأن الحبش نصارى . فحول سيف وجهه الى فارس ، واستنجد بكسرى . فتعلل ببعد بلاد اليمن وقلة فائدته من فتحها . ووهب له مالاً فخرج سيف من لدنه مغضباً ونثر المال يميناً وشمالاً على رؤوس الخدم . فاستاء كسرى واسترجعه وسأله عن السبب في استهانته بعطيته . فقال إنما جئتك لتدفع عني الظلم . وإلا فان بلادي تنبت الذهب والفضة . فتأثر كسرى واستمهله أياماً . واستشار وزراءه . فأشار عليه كبيرهم بأن يرسل الى نصرته المساجين في مملكته فشحنهم في ثماني سفن . غرقت منها اثنتان ونجا الباقون . حتى بلغوا اليمن . فنزلوا ساحلها وأحرق قائدهم (وهرز) السفن . كما فعل طارق بن زياد بعد ان وطئ أرض الأندلس . وقال وهرز لقومه : إما الفتح وإما الهلاك . أما الرجوع فلا . ثم التفت الى (سيف بن ذي يزن) وقال له : وما لنا عندك ؟ قال (لك مني رجل عربي ودم عربي) ثم قتلوا مسروقاً وطردوا الحبش من

اليمن . وولوا سيفاً ملك آبائه ، فجاءت وفود العرب تهنئه وفي جملتهم سيدنا عبد المطلب (جد النبي ﷺ) ومعه أُميّة ابن أبي الصلت شاعر قريش يومئذ فقال في مدح (سيف) القصيدة التي منها :

اشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً في قصر غُمدان داراً منك محلالا
تلك المكارمُ لا قعبانِ من لَبَن شيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا

وهكذا انتصر الفرس[1] لعرب اليمن وأعادوا اليهم ملكهم فحفظت العرب هذه اليد لهم وسجّلوها بلسان شاعرهم الطائي اليماني فقال :

أيّدوا مُلكنا وشدّوا (عراه) بكُماةٍ تحت السَّنَوّر حُمْس
وأعانوا على كتائبِ (مسرو قٍ) بطعن على النحور ودَعْس

ثم ان البحتري ختم (ابوانيته) بهذا البيت العامر بمعاني الإنسانية فقال :

(وأراني من بعدُ أَكْلَفُ بالأشـــراف من كل سِنْخٍ وأُسِّ)

(كَلِفَ) به : أحبه وأُولع به . و (السِنخ) بكسر أوله و (الأُسّ) مثلث الأول كلاهما بمعنى الأصل . يقول أري نفسي بعد أن كان ما كان من مساعدة أشراف فارس وأحرارها لقومي العرب كَلِفاً مُولعاً بحب الأشراف من أي جنسٍ كانوا عرباً أو عجماً ومن أي أرض نبتوا في جزيرة العرب أو في بلاد فارس أو غيرها بشرط أن يكونوا أشرافاً أحراراً ذوي مُروءة ونجدة .

هذه هي قصيدة البحتري أو معلّقته في وصف إيوان كسرى ، وأرى أن نسميها (الإيوانية) كما تسمى كل قصيدة قيلت في وصف الأبنية التاريخية أو الأثرية القديمة (إيوانية) ومجموع تلك القصائد (الإيوانيات) . من ذلك (إيوانية) احمد شوقي الذي عارض بها (إيوانية) البحتري مذ كان في

---

(١) وبقايا هذا الجيش الفارسي توطنوا بلاد اليمن وتسلوا فيها وسموا أولادهم (الأبناء) حتى اذا قيل في ترجمة أحد اليمانين انه من الأبناء أرادوهم .

منفاه أيام الحرب . وزار قُرطبة وقصر الحمراء وسائر الآثار العربية الخالدة هناك فقال في مطلع ابوانيته :

(اختلافُ النهار والليلِ يُنسي أُذكرا لي الصِبا وأيامَ أنسي)

ثم تشوق وطنه مصر ومما قاله في ذلك :

(وطني لو شُغلتُ بالخُلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي)

الى أن قال :

(وعظ البحتريَّ إيوانُ كسرى وشفتني القصورُ من عبد شمس)

يريد بقصور عبد شمس الأبنية التي شيَّدها ملوك أمية من سلالة جدهم الأكبر في الجاهلية وهو عبد شمس إلى أن قال :

(مشت الحادثات في غُرَف الحمراء مشيَ النعيِّ في دار عُرسِ)

ومنها قوله في الثلج الذي على قمة جبل شِيرى :

(جلّل الثلجُ دونها رأسَ شيرى فبدا منه في عصائبِ بِرْس)

ومنها في وصف بلاد اسبانية اليوم :

(لا تحسُّ العيون فوقَ رُباها غيرَ حُورٍ حوِّ المراشف لُعْسِ)

ثم ختم إبوانيته بقوله :

(إمرة الناسِ همّةٌ لا تأتّى لجبانٍ ولا تسنّى لجِبْس)

(واذا ما أصابَ بنيانَ قومٍ وهْيُ خُلْقٍ فإنه وهْيُ أُسِّ)

وبلغنى أن أحد كبار شعراء فارس الموسوم بالخاقاني زار إيوان كسرى منذ مائتي سنة كما زاره البحتري قبله ، ونظم ـ أي الخاقاني ـ في وصف الإيوان قصيدةً (إيوانية) بديعةً باللغة الفارسية . زعموا أنه أبرَّ فيها على (إيوانية) البحتري . هذا والأمم الواعية اليوم انما يتحقق وعيها بالمحافظة على تراث أجدادها ولا سيما ما خلّدوه تحت الأرض أو فوقها من الآثار . وقد انتبهنا معشر العرب

أخيراً الى العناية بآثار الأجداد . لتكون درساً وذكرى للأبناء والأحفاد . وابلغ ما نقل عن أسلافنا في الحض على حفظ الآثار والنهي عن إضاعتها وتدميرها قول القاضي (أبي يعلى المعرّي) وهو :

(مررت برسم في (سياثَ) فراعني ... به زَجَلُ الأحجار تحت المعاول)
(تناولها عبلُ الذراع كأنما ... رمى الدهر فيما بينهم[1] حربَ وائل)
(أتتلفها ؟ شلّت يمينك خلّها ... لمعتبرٍ أو زائرٍ أو مسائلِ)
(منازلُ قومٍ حدّثتنا حديثهم ... ولم أرَ أحلى من حديث المنازل)

⁂

قصيدة البحتري

صُنْتُ نَفْسي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسي ... وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدا كُلِّ جِبْسِ
وَتَماسَكْتُ حَيْثُ زَعْزَعَني الدَّهْـ ... ـرُ ٱلْتِماساً مِنْهُ لِتَعْسي وَنَكْسي
بُلَغٌ مِنْ صُبابَةِ ٱلعَيْشِ عِنْدِي ... طَفَّفَتْها ٱلأَيَّامُ تَطْفيفَ بَخْسِ
وَبَعيدٌ ما بَيْنَ وارِدِ رَفْـهٍ ... عَلَلٌ شُرْبُهُ وَوارِدِ خِمْسِ
وَكَأَنَّ ٱلزَّمانَ أَصْبَحَ مَحْمُو ... لاً: هَواهُ مَعَ ٱلأَخَسِّ ٱلأَخَسِّ
وَٱشْتِرائي ٱلعِراقَ خِطَّةُ غُبْنٍ ... بَعْدَ بَيْعي ٱلشَّآمَ بَيْعَةَ وَكْسِ

(١) أي في ما بين عبل الذراع وبين أحجار تلك المدينة وآثارها . يقول ان هذا الضرب والهدم بينه أي بين عبل الذراع وبين الآثار كأنها حرب وائل أو أن المراد ان بغضه لها كالبغض الذي شبت بسببه حرب وائل وهي المشهورة بحرب البسوس . وعبل الذراع أي مفتول الساعد كناية عن قوة العامل في الهدم .

لا ترزني مزاولاً لاختباري ... عند هذي البلوى فتنكر مسي

وقديماً عهدتني ذا هنات ... آبيات على الدنيئات شمس

ولقد رابني نبو ابن عمي ... بعد لين من جانبيه وأنس

وإذا ما جفيت كنت حريا ... أن أرى غير مصبح حيث أمسي

حضرت رحلي الهموم فوجهـ ... ـت إلى أبيض المدائن عنسي

أتسلى عن الحظوظ وآسى ... لمحل من آل ساسان درس

ذكرتنيهم الخطوب التوالي ... ولقد تذكر الخطوب وتنسي

وهم خافضون في ظل عال ... مشرف يحسر العيون ويخسي

مغلق بابه على جبل القبـ ... ـق إلى دارتي خلاط ومكس

حلل لم تكن كأطلال سعدى ... في قفار من البسابس ملس

ومساع لولا المحاباة مني ... لم تطقها مسعاة عنس وعبس

نقل الدهر عهدهن عن الجد ... ة حتى غدون أنضاء لبس

فكأن الجرماز من عدم الأنـ ... ـس وإخلاقه بنية رمس

لو تراه علمت أن الليالي ... جعلت فيه مأتماً بعد عرس

وهو ينبيك عن عجائب قوم ... لا يشاب البيان فيهم بلبس

فإذا ما رأيت صورة أنطا ... كية ارتعت بين روم وفرس

والمنايا مواثل وأنوشر ... وان يزجي الصفوف تحت الدرفس

في اخْضِرارٍ مِنَ اللِّباسِ عَلى أَصْـ ... ـفَرَ يَخْتالُ في صَبيغَةِ وَرْسِ

وَعِراكُ الرِّجالِ بَيْنَ يَدَيْهِ ... في خُفوتٍ مِنْهُم وَإِغْماضِ جَرْسِ

مِنْ مُشيحٍ يَهْوي بِعامِلِ رُمْحٍ ... وَمُليحٍ مِنَ السِّنانِ بِتُرْسِ

تَصِفُ العَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيا ... ءٍ لَهُمْ بَيْنَهُمْ إِشارَةُ خُرْسِ

يَغْتَلي فيهِمُ ارْتِيابي حَتّى ... تَتَقَرّاهُمُ يَدايَ بِلَمْسِ

قَدْ سَقاني وَلَمْ يُصَرِّدْ أَبو الغَوْ ... ثِ عَلى العَسْكَرَيْنِ شَرْبَةَ خَلْسِ

مِنْ مُدامٍ تَقولُها هِيَ نَجْمٌ ... ضَوَّأَ اللَّيْلَ أَوْ مُجاجَةُ شَمْسِ

وَتَراها ـ إِذا أَجَدَّتْ سُروراً ... وَارْتِياحاً لِلشّارِبِ المُتَحَسّي

أُفْرِغَتْ في الزُّجاجِ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ ... فَهِيَ مَحْبوبَةٌ إِلى كُلِّ نَفْسِ

وَتَوَهَّمْتُ أَنَّ كِسْرى أَبَرْويـ ... ـزَ مُعاطِيَّ وَالبَلَهْبَذَ إِنْسي

حُلُمٌ مُطْبِقٌ عَلى الشَّكِّ عَيْني ... أَمْ أَمانٍ غَيَّرْنَ ظَنّي وَحَدْسي

وَكَأَنَّ الإِيوانَ مِنْ عَجَبِ الصَّنْـ ... ـعَةِ جَوْبٌ في جَنْبِ أَرْعَنَ جِلْسِ

يُتَظَنّى مِنَ الكَآبَةِ إِنْ يَبْـ ... ـدُ لِعَيْنَيْ مُصَبِّحٍ أَوْ مُمَسّي

مُزْعَجاً بِالفِراقِ عَنْ أُنْسِ إِلْفٍ ... عَزَّ أَوْ مُرْهَقاً بِتَطْليقِ عِرْسِ

عَكَسَتْ حَظَّهُ اللَّيالي وَباتَ الْـ ... ـمُشْتَري فيهِ وَهُوَ كَوْكَبُ نَحْسِ

فَهُوَ يُبْدي تَجَلُّداً وَعَلَيْـهِ ... كَلْكَلٌ مِنْ كَلاكِلِ الدَّهْرِ مُرْسي

لَمْ يَعِبْهُ أَنْ بُزَّ مِنْ بُسُطِ الدّيـ ... ـباجِ وَاسْتُلَّ مِنْ سُتورِ الدِّمَقْسِ

مُشْمَخِرٌ تَعْلو لَهُ شُرُفاتٌ رُفِعَتْ في رُؤُوسِ رَضْوى وَقُدْسِ
لابساتٌ مِنَ البَياضِ فَما تُبْـ ـصِرُ مِنْها إلا غَلائِلَ بُرْسِ
لَيْسَ يُدْرَى أَصُنْعُ إنسٍ لِجِنٍّ سَكَنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لإِنْسِ
غَيْرَ أَنِّي أَراهُ يَشْهَدُ أَنْ لَمْ يَكُ بانيهِ في المُلوكِ بِنِكْسِ
فَكَأَنِّي أَرَى المَراتِبَ والقَوْ مَ إذا ما بَلَغْتُ آخِرَ حِسِّي
وَكَأَنَّ الوُفودَ ضاحِينَ حَسْرى مِنْ وُقوفٍ خَلْفَ الزِّحامِ وَخُنْسِ
وَكَأَنَّ القِيانَ وَسْطَ المَقاصِيـ ـرِ يُرَجِّعْنَ بَيْنَ حُوٍّ وَلُعْسِ
وَكَأَنَّ اللِّقاءَ أَوَّلَ مِنْ أَمْـ ـسِ وَوَشْكَ الفِراقِ أَوَّلَ أَمْسِ
وَكَأَنَّ الذي يُريدُ اتِّباعاً طامِعٌ في لُحُوقِهِمْ صُبْحَ خَمْسِ
عُمِرَتْ لِلسُّرورِ دَهْراً فَصارَتْ لِلتَّعَزِّي رِباعُهُمْ وَالتَّأَسِّي
فَلَها أَنْ أُعِينَها بِدُموعٍ مُوقَفاتٍ عَلَى الصَّبابَةِ حُبْسِ
ذاكَ عِنْدي وَلَيْسَتِ الدّارُ داري بِاقْتِرابٍ مِنْها وَلا الجِنْسُ جِنْسي
غَيْرَ نُعْمى لأَهْلِها عِنْدَ أَهْلي غَرَسُوا مِنْ زَكائِها خَيْرَ غَرْسِ
أَيَّدوا مُلْكَنا وَشَدُّوا قُواهُ بِكُماةٍ تَحْتَ السَّنَوَّرِ حُمْسِ
وَأَعانوا عَلَى كَتائِبِ (أَرْيا طَ) بِطَعْنٍ عَلَى النُّحورِ وَدَعْسِ
وَأَرانِي مِنْ بَعْدُ أُكْلَفُ بالأَشْـ ـرافِ مِنْ كُلِّ سِنْخٍ وَأُسِّ

ماسمعت وما رأيت
في بلاد السوفيت
-٢-

موسكو :

وهي عاصمة الاتحاد السوفيتي والجمهورية الروسية الاشتراكية (احدى الجمهوريات الست عشرة التي يتألف منها الاتحاد) وكانت من قبل عاصمة إمارة عرفت بمسكوفية (Moskovy) ومنه اشتقاق كلمة موسكوف التي كانت تطلق على سكان هذه البلاد (الشعب الرومي) .

أقمنا في هذه العاصمة معظم المدة التي قضيناها في بلاد السوفيت ، ولم تكن هذه المدة القصيرة كافية لزيارة معاهدها العلمية وأماكنها الأثرية ، إذ اقتصرت زيارتنا على ما جاء في البرنامج الذي ذكر آنفاً مع ما أضيف اليه من مؤسسات ومتاحف خلال مقامنا القصير بين الرحلتين من هذه العاصمة الى لينغراد وستالينغراد والعودة منهما .

وموسكو ليست من المدن العريقة في القدم إذ لم يأت لها ذكر قبل سنة ١١٤٧ ميلادية وليس لها من العمر إذن سوى ٨٠٠ سنة . وأول ما بنيت المدينة على رابية في ضفتي نهر موسكوا (Moskova) وعظم شأنها منذ أن اشتد أزرها ببناء الحصن الشهير فيها وهو الكرملين (Kremlin) صداً لغارات الغزاة ، واتسع البنيان حول هذا الحصن على ممر الزمن اتساعاً على شكل دائرة تحيط به من الجهات الأربع ولذلك بقي في مركز المدينة كأنه قلبها الخفاق مع بقاء معظم الأبنية الهامة على الضفة اليسرى من النهر المذكور .

ولقد أتاح لموسكو موقعها الجغرافي أن جعلها بمعزل عن السبيل التي يسلكها الغزاة القادمون من الشرق ، كما ان مركزها في حوض نهري الدون والولغا ساعدها على الازدهار ، لا سيما وهي العاصمة السياسية القديمة والعاصمة الدينية (مقر الكرسي البطريركي منذ سنة ١٣٢٨) . على أنها لم تنج من صولة المغول والتتار عليها عدة مرات حتى اتخذها الأمراء الروس في القرن الخامس عشر مركز الحشد لصد المغيرين وطردهم . وعرف ايفان (يوحنا) الثالث وايفان الرابع بقيصري موسكو إذ ازدهرت في عهدهما المدينة واطرد فيها النمو والاتساع في القرن السادس عشر مع ما أصابها من حرائق واسعة (١٤٩٨ و ١٥٤٧ وغيرهما) ومع احتلال البولونيين إياها . وبدأت حركة المقاومة من موسكو سنة ١٦١٨ لتحرير البلاد حتى أطلق عليها اسم المدينة المقدسة . ورأى بطرس الأكبر بعد أن أنشأ مدينة جديدة على الساحل وقام بالاصلاحات الكثيرة أن ينقل العاصمة من موسكو الى تلك المدينة (وقد عرفت بمدينة بطرس بتروسبورغ ثم بتروغراد ولينغراد حالياً) مع احتفاظها بلقب المدينة المقدسة حيث يتوج فيها القياصرة وبقاؤها مقراً للمجمع المقدس (السينود) والمقام البطريركي .

وغزاها نابوليون سنة ١٨١٢ فتم له فتحها بعد معركة دامية عرفت بمعركة موسكوا ثم اضطر الى مغادرتها إثر الحريق الكبير الذي قيل إنه أوقده سكان البلد بتحريض قادتهم والذي أتى على ما قيل على ٤/٥ المدينة وأصاب الروس فيه زهاء ١٥٠٠٠ جريح ، وكانت مغادرته إياها في ١٩ من تشرين الأول . ونسف الجنرال مورتيه (Mortier) الذي خلفه فيها قلعة الكرملين . ويفتخر القوم بالهزيمة الشنعاء التي أوقعوها بالجيش الافرنسي الذي لقب في ذلك الحين بالجيش الذي لا يغلب وتراهم مزهوين بنقش أسماء الجنود الذين أبلوا بلاءً حسناً في الدفاع عن البلاد بنقش أسمائهم على لوحة تذكارية يراها الزائر في أحد جدران الكرملين بعد أن كوفئوا بمنحهم لقب فرسان صليب القديس جورج ، كما أن متحف الكرملين يضم البنادق الكثيرة التي غنمها الروس مع الأعلام العديدة .

وفي آخر سني الحرب العالمية الأولى دارت معارك قوية في معظم المدن الروسية وكانت موسكو مسرحاً للحرب الأهلية وبعد الثورة البولشفيكية غادر بتروسبورغ الى موسكو في الثامن عشر من آذار سنة ١٩١٨ قطار يقل أركان حكومة السوفيت الجديدة وأصبحت منذ ذلك التاريخ عاصمة الجمهورية الروسية وعاصمة الاتحاد معاً، وأقرّت المادة ١٤٥ من الدستور السوفيتي اعتبارها العاصمة الوحيدة لبلاد الاتحاد وأصبحت القوانين والمراسيم والبلاغات لا تصدر عن الحكومة إلا وهي متوجة بالكلمتين الآتيتين : الكرملين ، موسكو .

مساحة المدينة السطحية ونفوسها :

لقد اتسع نطاق موسكو مع مرور الأيام حتى قدرت مساحتها السطحية مؤخراً بما ينيف على ٣٠ ألف هكتار مربع وتبلغ المسافة بين أقصى الشمال والجنوب من المدينة زهاء ٢٥ كيلومتراً . أما السكان فان آخر إحصاء رسمي جرى سنة ١٩٣٩ (قبيل الحرب الأخيرة) بلغ عددهم فيه ٨٦٦٣٠٠٠ نسمة ولا أظن أنها زادت على هذا الرقم كثيراً في الآونة الأخيرة .

ومناخ موسكو لا يفترق عن مناخ بلاد الاتحاد السوفيتي الأخرى تهبط درجة الحرارة فيه الى ما دون الصفر في الشتاء وتجمد مياه الأنهر ١٣٥ — ١٦٠ يوماً في السنة ودرجة الحرارة الوسطى في كانون الثاني — ١٠ بينما ترتفع في تموز الى ١٩و٢ وسطياً وقد شاهدناها تهبط في آخر تشرين الثاني الى — ٨ . لذلك يسترها الثلج في معظم الشتاء وارتفاع موسكو عن سطح البحر يختلف بين ١٦٥ و ٢٨٥ متراً والرياح الغالبة فيها جنوبية وجنوبية غربية .

نظرة عامة :

إن من الصعب على من أقام في موسكو تلك المدة القصيرة التي أقمناها أن يفي وصف العاصمة حقه مع كثرة ما فيها من معالم ومعاهد ومؤسسات فلا

غرو إن اجتزأت بذكر بعض ما سمعت وما رأيت وما قرأت عنها ، قبل ذكر المؤسسات والمعاهد العلمية .

تعد موسكو ولا شك من أعظم مدن العالم دع عنك شأنها السياسي في هذه الآونة باعتبارها عاصمة بلاد تبلغ مساحتها سدس اليابسة ، وحاملة لواء المعسكر الشرقي ضابط التوازن الدولي ، وهي من المراكز الصناعية الهامة تحوي المعامل الكثيرة لمختلف الصناعات ، ناهيك بمركزها الثقافي والعلمي وكثرة ما فيها من معاهد وان جامعتها التي سيأتي وصفها تعد من أكبر جامعات العالم (ان لم تكن أكبرها فعلاً) .

فمظاهر المدينة تدل على عظمتها في شتى النواحي والقادم اليها من المطار يخترق الى قلب المدينة شوارع فسيحة حسنة الإضاءة ليلاً على غاية من النظافة بما لا ترى له مثيلاً في العواصم الأخرى (ولا أنفرد بهذه الشهادة بل سبقني إليها غير واحد من الغربيين الذين زاروها) . ولا غرابة اذا علمت ان هذه النظافة وهذا النظام البديع الذي تسير عليه المرافق العامة مردهما الى تضافر العمل بين زهاء نصف مليون من العمال والمهندسين والفنيين يشرفون على تسيير شؤون العاصمة والسهر على تحقيق ما تحتاج اليه من صيانة الطرق وتنظيفها الذي لا ينقطع حسبما تستلزمه فصول السنة ، وضمان حسن السير فيها وتعهد الأشجار والنباتات المختلفة المغروسة في جوانبها وفي حدائقها العامة ، وما لا ندحة عنه لرفاه الفرد والمجموع من كهرباء وماء وغاز وتدفئة وغيرها .

ويضفي على تلك الشوارع الفسيحة الأبهة والعظمة ما يحيط بجانبها من أبنية شامخة بيضاء لا أثر فيها للسواد الصادر عن دخان المعامل الذي يملأ جو مثيلاتها من العواصم الأوربية . وانه لمن الخطأ أن يظن ظان ان ليس في موسكو سوى هذه المناظر البهيجة التي تأخذ بمجامع القلوب إذا لم يخرج السائح الغريب نزيل أحد الفنادق المخصصة للأجانب والتي تقع في قلب المدينة ، عن هذا

النطاق المضروب . ولكن متى سنحت لك سانحة وجزت تلك الدائرة المحيطة بك مشياً فان عينك سترى ولا شك مناظر نقيض ما تقدم: أزقة ضيقة ودوراً صغيرة من الآجر الأحمر وطرقاً سيئة التعبيد لما تمتد اليها يد الإصلاح والتنظيم بعد. هذه هي موسكو القديمة من بقايا القرون الماضية وتلك موسكو الحديثة التي تم تنظيمها وفاقاً لمشروعي السنوات الخمس والسنوات العشر ، وهي إحدى المفارقات بين الماضي والحاضر . وهل خلت روما وباريز ولندن من مثل هذه الأحياء في يومنا هذا ؟

فقد سمعنا ان موسكو لم يكن فيها في مطلع هذا القرن سوى ٨٠٠ بناء عديد الطوابق (يحوي أكثر من طابق واحد) ولم يكن سوى دور مركز المدينة مجهزة بوسائل الراحة العصرية مما حمل إحدى الجرائد الانكليزية سنة ١٩١١ على القول بأن موسكو تحتاج الى ٥٠٠ سنة لتصبح مظاهرها تحاكي مظاهر عواصم العالم . إلا ان المنهاج الذي وضع لتجميل موسكو بعد أن أصبحت العاصمة وما بذله المهندسون من جهد عظيم قد أثمر أينع الثمر والتطور فيها غدا مستمراً ، ومظاهره تطغى على القديم بسرعة فائقة . وها هو قد تم لها في بضع عشرات من السنين ما ظن أنه يستغرق خمسمائة سنة . فقد شقت في هذه الفترة شوارع جديدة ووسع ما كان منها ضيقاً (مع بقاء بعضها ماثلاً للعيان الآن ، حتى قيل لنا ان ما كان منها بعرض ١٦ و ١٨ متراً أصبح عرضه ٤٠ أو ٤٥ متراً وإن منها ما بلغ من العرض ٧٠ متراً واضطر المشرفون على شؤون المدينة في سبيل هذا التوسيع والتعريض الى هدم ما ينبغي هدمه وإبقاء ما لا يجوز الاستغناء عنه فعمدوا حفاظاً عليه الى أن يعولوا على طريقة سبقهم إليها الغربيون ولكنهم أتقنوا التنفيذ وأحسنوه على نطاق واسع ، وهو أن يخلوا ما تحت أرض البناء وأن يجعلوا هذا يستند الى أعمدة حديدية متينة رصفت أفقياً ثم أن يدفعوا الى الوراء بالبناء الذي أصبح كأنه على عجلات ــ المسافة المطلوبة

دفعاً تدريجياً يستلزم مدة غير قليلة من الزمن . ونجا من الهدم على هذه الطريقة عدة أبنية ورأيت في شارع غوركي كيف أن المستشفى القائم هناك قد زحزح بضعة عشر متراً مع تغيير طفيف في الاتجاه فيه ، وقد روى الدليل أن أعمال المستشفى في أثناء ذلك لم تتوقف ولم يتوان الجراحون عن المثابرة على التوسط الجراحي خلال هذا النقل العجيب .

قلت إن موسكو القديمة آخذة بالزوال لتخلفها موسكو الجديدة التي حق لها أن تباهي ببنيانها الأبيض لكثرة استعمال الحجر الأبيض في البناء مع ما يستلزمه طراز البناء العصري من ميكانيكيات ضخمة رأيت بعضها في البنيان القائم إبان زيارتنا ورأيت نماذج مصغرة عن بعضها الآخر في أحد المتاحف التي زرناها . وإن من الأبنية الحديثة ما هو مخصص للسكن ومنها ما يبنى لاتخاذه مقراً لدوائر الحكومة والمؤسسات العامة . فما يبنى لأجل السكن بناؤه مماثل ، الشكل فيه على هيئة حرف U بحيث تترك الساحة بين الأضلاع الثلاث للفضاء تتعرض لنور الشمس ولا تحجب هذا عن أجزاء البناء الرئيسية ، وتتخذ حديقة يملؤها النبات في جانب باحات الألعاب الرياضية فتصبح متعة لسكان تلك الدور ومرتع لعب ولهو لأطفالهم وبمثل وحدات السكن هذه قد حلت أزمة السكن (١) .

---

(١) لم يتح لي الاطلاع على حقيقة ماترويه المصادر الغربية من اشتداد أزمة السكن في المدن السوفيتية الكبيرة وفي موسكو خاصة . وإن من غريب ماقرأته في دائرة المعارف البريطانية في مادة موسكو قولها : ان ازدياد عدد السكان الناجم عن تمركز الحكومة في موسكو منذ ثورة ١٩١٧ واشتداد النزوح والهجرة من أنحاء الامبراطورية الشاسعة كل ذلك قد أوجد ازمة في أماكن للسكن لم تكن لتكفي حتى سنة ١٩١٣ . وفي سنة ١٩٢٣ لم يكن سوى ٨ ٪ من السكان يملك غير غرفة واحدة أو أكثر و ٥٤٫٧ ٪ كان يعيش كل اثنين منهم في غرفة واحدة و ٣١٫٨ ٪ خمسة في كل غرفة و ٤٫٩ ٪ أكثر من ثمانية أشخاص في الغرفة الواحدة . وتمضي دائرة المعارف قائلة وبالرغم عن هذه الشروط القاسية فان تقدماً عظيما قد طرأ على الحالة الصحية وعلى رعاية الأطفال مما أفضى الى نقص بيّن في نسبة الموت . أقول ولا أظن أن احصاء دائرة المعارف المذكور ينطبق على حالة السكن وأزمته في الوقت الحاضر بعد ما رأيت الكثير من وحدات السكن تبنى على نحو ماتقدم وهي مؤلفة من مئات من البيوت التي لاينقصها شيء من وسائل الرفاه العصري .

وقد أدخل في برنامج التعمير سنة ١٩٤٧ تشييد الأبنية العديدة الطوابق (Multi-storied) نظير ناطحات السحاب في الولايات المتحدة ، وأشهر هذه الأبنية جامعة موسكو ويتألف جناحها المركزي من ٣٢ طابقاً (وسيأتي وصفها في مقال آخر) وأبنية الوزارات في (Lermontov) و (Kotelnicheskaya) وغيرهما من الأبنية التي يزيد عدد الطوابق فيها على ٢٠ ويميل المهندسون السوفيت الى التفنن في المظهر الخارجي والتزيين ، وهي ولا شك من أجمل الأبنية وأحسنها مظهراً وإن شابهت في الظاهر مثيلاتها في البلاد الغربية . ونرى هذا التفنن والتنويع في المظهر الخارجي في الأبنية العامة الأخرى كمحطات سكك الحديد ومحطات المترو خاصة . فبمثل هذه الأبنية وبوحدات السكن السالفة الذكر قد تغير وجه موسكو وبدأ يتطور سنة بعد سنة .

وتكثر التماثيل في شوارع موسكو وحدائقها العامة وهي في الغالب تماثيل شخصيات الثورة والعسكريين وكبار الأدباء والشعراء الذين هيأوا السبل لها أما تماثيل الزعيمين لينين وستالين فلا تقع تحت حصر ناهيك باللوحات العديدة التي تمثلها في حالات مختلفة والتي لا يخلو منها أي مكان .

والشوارع كلها مفروشة بالاسفلت والرئيسية منها لها في جانبيها رصيفان لا يقل عرض بعضها عن ١٠ أمتار مخصصة للمشاة أما السيارات فلها ثلاث طرق فما كان منها في الجانبين فهو للسيارات العامة كل واحدة منها لأحد الاتجاهين في السير والثالثة بينهما مخصصة لسير سيارات الاسعاف والحريق بحيث لا يخل مرور هذه بأقصى السرعة مرور السيارات الأخرى في الجانبين . وربما كان هذا الطراز من التنظيم هو الوحيد من نوعه ولم أر مثيله في العواصم الكبرى التي زرتها .

وطبيعي أن لا يعرقل سير السيارات على نحو ما ذكر ، سير المشاة الذين لا يتخلون أبداً عن الرصيف مع المحافظة التامة على نظام السير ، وما إن

يصل هؤلاء الى قرب مفترق الطرق إلا وتراهم شاخصة أبصارهم الى اشارات السير الكهربائية حتى إذا ما آذنت هذه بالمرور رأيت عشرات من الخلق بين رجال ونساء وأطفال تمر بنظام بديع .

ويتم تنظيف الشوارع بين كنس وغسل في الصباح الباكر من كل يوم وذلك بمعونة الآلات الضخمة العديدة حتى ان شارعاً كبيراً كشارع غوركي لا يستلزم تنظيفه أكثر من ساعة ونصف الساعة . هذا في الصيف أما في الشتاء فان الآلات ذاتها تضاف اليها أجزاء جارفة تجرف الثلج عن الطرق في الصباح الباكر أيضاً . وقد سمعت أن في موسكو زهاء ألفين من هذه الآلات . وكثيراً ما رأيت قبيل منتصف الليل وأنا عائد الى الفندق مشياً من يقوم على ذر الرمل على الرصيف المستور بالثلج وفيهم بعض النساء تسهيلاً لمرور المشاة .

والأشجار الباسقة في جانبي الطرق يبدو بعضها حديث العهد ، ويعنى القوم بغرس الأزهار وتنسيقها تنسيقاً بديعاً ولا سيما في الحدائق العامة التي لا يكاد يخلو منها أحد الشوارع الكبيرة يتم ترتيبها على ذوق سليم . ولعلّ حديقة بوشكين (Pushkin) التي أنشئت مؤخراً من أجمل تلك الحدائق الغناء فيها البحيرات والنوافير الجميلة التي يسقط منها الماء على هيئة شلالات بهيجة ناهيك بالممرات الجميلة بين الخمائل والرياحين . وانه ليزيد في جمال المنظر ما كان من الشوارع الفسيحة على ضفتي نهر موسكوا أو القناة التي وصلت ما بين نهري الولغا وموسكوا حيث ترى جموعاً من المتنزهين والمتنزهات على تلك الأرصفة الواسعة في جانب الجالسين والجالسات على المقاعد العديدة . وكان من أثر شق القناة المذكورة اتساع حركة العمران ووصل موسكو بالبحار الخمسة كما سيأتي بيانه وضمان ما تحتاج إليه العاصمة من ماء وقد قدر بمليون ليتر في الدقيقة .

ومن طابع هذه البلاد الخاص أن لا ترى أسماء تشير الى أصحاب المخازن

الكبيرة والمتاجر المختلفة في جانب الشوارع ولا أسماء القائمين على إدارتها ، وتعرف متاجر المخازن والمتاجر لكل حرفة من الحرف بأرقامها المتسلسلة ، فالصيدليات مثلاً تجد في الشارع الفلاني الصيدلية ذات الرقم ١١٠ وفي غيره الصيدلية ذات الرقم ١٥٠ وكذلك المكتبات والبقاليات ومخازن المأكولات لكل من هذه رقمه الخاص الذي يعرف به ، وواجهات متاجر المأكولات تحوي نماذج مصنوعة من الشمع تمثل الأصناف التي تباع في داخلها كاللحم والبيض والخضراوات وما إليها . والمدارس وقد زرنا إحداها في ضواحي موسكو كان رقمها ٧٠٢ وقيل لنا إن في موسكو ٧٢٠ مدرسة ثانوية مثلها .

وساعات العمل وأوقات الدوام في هذه المحلات التجارية وفي دوائر الحكومة والمؤسسات العامة موحدة تختلف في بلاد الاتحاد السوفيتي عنها في البلاد الأخرى . يبدأ العمل فيها كلها في الساعة العاشرة ويتوقف في تمام الساعة الثانية ليستأنف من من الساعة الرابعة حتى الثامنة . ويستثنى من ذلك باعة المواد الغذائية من ألبان ومشتقاتها ومخابز وما إليها فان العمل فيها يبدأ من الصباح الباكر . وإن من المشاهد المألوفة في بلاد الاتحاد السوفيتي الكبيرة وأخصها موسكو أن ترى جمعاً من الناس بين رجال ونساء ينتظمون أمام تلك المخازن والمتاجر وغيرها بما فيها دور اللهو والمسارح على شكل حبل (ويسميه الغربيون ذيلاً Queue) قد يبلغ من الامتداد والطول حداً كبيراً . فترى الحبل أمام بائع اللبن في الصباح الباكر وفي الشتاء القارس ، وترى مثله بعد الظهر أمام المخازن الكبيرة قبيل وقت افتتاحها حتى إذا آن وقت هذا الافتتاح في تمام الساعة الرابعة على الضبط فتح الباب ودخل أفراد ذاك الجمع بكل هدوء وسكون ، ولو أتيح لك أن تتابع طريقة العمل في داخل أحد تلك المخازن لرأيت أن أولئك المشترين يذهب كل منهم الى قسم الصنف الذي يود شراءه وما هي إلا دقائق حتى تتألف حبال أخرى أمام البائع فيتقدم كل واحد ويشتري ما يريده

(بالسعر المحدود) فيعطيه المشرف على البيع ورقة تبين الصنف المشترى وثمنه فيحملها الشاري ليأتي أمام مكتب الصندوق فينتظم في حبل آخر منتظراً دوره حتى اذا بلغه دفع الثمن واسترد الورقة التي أشير فيها الى دفع الثمن وعاد الى بائع الصنف الأول واقفاً في عداد أفراد حبل آخر ليقدم في حينه الورقة الموقعة من الخازن ويستلم الصنف المشترى ويخرج بعدئذ من هذه الجولة غير القصيرة بسلام متأبطاً ما اشتراه ، وينتظم القوم في هذه الحبال أو الأذيال داخل المخازن أو خارجها مثنى مثنى ولا ترى أحداً يسابق الآخر . وإن وقوفهم الطويل وانتظارهم المديد وصبرهم على ذلك قد أصبح مضرب الأمثال بين الأمم الأخرى ومدعاة للتنكيت حتى قال أحد الظرفاء الاجانب عن الشعب السوفيتي أنه يقسم ساعات يومه أثلاثاً : ثلث للعمل وثلث للنوم والثالث للانتظام والوقوف في تكوين الحبال . وإن من أطول الحبال التي شاهدناها (وكنا في عداد أفراده) ما كان مؤلفاً استعداداً لزيارة ضريح لينين وستالين في الساحة الحمراء وسيأتي وصفه حين ذكر الكرملين والساحة الحمراء .

وإن مما ينتبه اليه الغريب عن هذه الديار أمارات الجد والهدوء البادية في حركات أهلها وسكناتهم ، فانك لا ترى أبداً من يقهقه في قارعة الطريق حتى ولا من يبتسم اللهم إلا إذا كان حدثاً ، فضلاً عن أن ترى سكران أو معربداً ولو كان طوافك في الهزيع الأخير من الليل . وطابع الجد الغالب عليهم يتجلى بأجلى مظاهره عندما تحضر إحدى المسرحيات الهزلية ، وأذكر اننا حضرنا مرة المسرح الذي يعرف بكوكلي (Kokli) ويعرف بالفرنسية بـ (Mariónette) وأبطال التمثيل فيه دمى كبيرة بحجم الإنسان الكهل يحركها ويسيرها من تحت المسرح فنانون مهرة حتى ان المشاهد لتلك الدمى وهي تمثل الأدوار الدقيقة (بما فيها الشعوذة) باتقان خارق ليشك في حقيقة أمرها ، وإن المفاجئات التي لا بد وأن تتخلل ذاك التمثيل الهزلي لما يضحك

الشكلي ، ومع ذلك فانك إن سمعت أو رأيت في القاعة الفسيحة المكتظة بالحضور أحداً يضحك بملء فيه فتأكد أنه ليس من أهل البلاد بل هو أحد السياح الأجانب .

ولباس أهل هذه العاصمة تغلب عليه البساطة فليس للأناقة فيه أثر إن في الشوارع أو في المسارح (ولا سيما دور الأوبرا) أو في الأعياد (وقد شهدنا أحدها) . فاذا ظننت (ولك الحق) أن من يقع عليه نظرك من المارة في الطرق هم عمال كادحون أو من ذوي الأشغال الذين ليس لهم أن يتأنقوا في الملبس ، فما بالك بشهود السهرات ولا سيما في الأوبرا حيث اعتاد الغربيون أن يأخذوا أحسن زينتهم فيها ، واني لأذكر في باريز مثلاً كيف يشترط على شهود بعض المسارح ولا سيما الأوبرا لباس السهرة الخاص بالرجال والنساء على السواء وسمعت رد المشرفين عليها من لم يلبس اللباس المطلوب وإعادة ما دفعوه اليهم . هذا في المجتمعات الغربية أما في المجتمع السوفيتي فلا أثر لما ذكر مطلقاً ، اللهم إلا أفراد بعض الجاليات الأجنبية إذ يحافظون على ما اعتادوا عليه من لباس خاص في مثل هذه المناسبات . ولا عجب فان الطبقة الارستوقراطية التي اشتهرت بها روسيا القيصرية قد انقرضت عن بكرة أبيها وورثها كبار موظفي الحكومة والمبرزون من العمال لينعموا بنعماء أولئك .

وإن مما يسترعي الانتباه في هذه البلاد مظاهر الحشمة البادية في النساء وفقد الخلاعة ، وأن لا يرى ما أصبح مألوف المنظر في العواصم الكبيرة الأخرى من بنات الهوى اللواتي يتفنن في نصب الأشراك لتصيد طلاب اللذة الآثمة ، شأن ما هو شائع في حي مونمارتر بل وفي جميع شوارع باريز عندما يرخي الليل سدوله ، ودائرة بيكادلي في لندن ، وجوار المحطة الكبيرة في روما ، نعم لا أثر للمومسات المحترفات في موسكو ولينغراد وغيرهما من المدن السوفيتية الكبيرة . وقد أعجبني ما كتبه القسيس الانكليزي (Mervy Stockwood) (١)

(١) في كتاب له عنوانه ذهبت الى موسكو (I went to Moscow) طبع في لندن سنة ١٩٥٥

وقد أذهله ما لاحظه من فقد المومسات في بلاد الاتحاد السوفيتي مقايساً ذلك بما اعتاد أن يراه في لندن من كثرة بنات الهوى الآخذة بالزيادة سنة بعد سنة ، فسأل السفارة البريطانية في موسكو وقد أكدت له صواب ملاحظته بأن لا أثر ظاهراً للدعارة في هذه البلاد ويمضي قائلاً : لا أدعي أن من يود من الرجال استجابة رغبته الشهوانية أن يعدم الواسطة أو لا يجد السبيل اليها ، ولكن ليس بوسع أحد من الناس أن يظهر هذه الرغبة على ملأ الخلق - ولما سألت دليلي (كلام القسيس) إلى أي شيء يعزو انطفاء جذوة البغاء في هذه البلاد أجابني بقوله إن على النساء أن يشتغلن أحد الأشغال ويقمن ببعض الأعمال ولا حاجة لهن للكسب من قارعة الطريق ، وان الشرطة لتقف بالمرصاد لكل من تسول له نفسه أي عمل مخل ليرسل الى أحد مراكز التهذيب والتثقيف ، وأحر بنا (كلام القسيس) أن نتعلم من السوفيت ، إن حالة لندن لمعيبة ولا لوم على الغرباء بكل ما يظنون بنا ، لقد حان الوقت للحكومة أن تسلك الخطة القوية ، وينبغي جعل البغايا في بيوت يتاح لهن فيها التدريب ليخرجن منها وهن نافعات في المجتمع ، عوضاً من فرض العقوبة الطفيفة عليهن ، وعلى القصاص أن يكون وفاقاً للذنب كالسجن مدى الحياة لمن يتخذ الدعارة مهنة تجارية . ويختم كلمته أخيراً بقوله اني لآسف ان حكومة لادينية قد نجحت فيما أخفقت فيه حكومة مسيحية .

وانه لتدعيم صيانة الأخلاق العامة بما رواه القسيس نفسه بعد نزوله من الطائرة التي أقلته الى موسكو عندما فتشت حقائبه في المرفأ الجوي من أن التفتيش المذكور لم يقتصر على ما قد يحمله من بضائع تخضع لرسوم المكس بل تعداه الى ما قد يكون في تلك الحقائب من كتب ومجلات وصحف ، ويقول القسيس لم تكن الغاية من هذا التنقيب الخشية من الشؤون السياسية وحدها بل قد خصص بما اشتهرت به الصحافة الغربية من دناءة (كذا) ولا يسمح للصحف السوفيتية أن تذكر أخبار الجرائم الأخلاقية ولا أثر فيها للصور الشائع نشرها

في المجلات الانكليزية وقد أخبروني (قول القسيس) عن الوصمات غير اللائقة التي يصمون بها صحفنا ولا سيما بعض الصحف الصادرة أيام الأحد · وطبيعي أن يعزو (السوفيت) استثمار الغريزة الجنسية الى الخطة الميكانيكية التي يسلكها رأسماليو الصحافة (Press barons) ·

والمرافق العامة من ماء جار بارد وحار وكهرباء وغاز وتدفئة غاية في الترتيب والنظام ولا سيما في وحدات السكن الحديثة ، فللتدفئة المركزية التي يعتمد عليها في التغلب على البرد القارس ، مصلحة عامة تشرف على توزيع الماء الحار الى الأبنية المختلفة بأنابيب تجري فيها تحت الأرض ولا حاجة إذن لاستعمال المراجل الموضعية المولدة للماء الحار ولا يقتصر توزيعها على الدور والمخازن فقد لاحظت التدفئة على أتمها في المراحيض والمباول العامة التي يغشاها الناس في شوارع المدينة · والكهربائية كثيرة الذيوع للاستعمالات البيتية على اختلاف أشكالها ، وكذلك الغاز الذي لا يزال يعتمد عليه بالتدفئة في الدور القديمة التي لما يسعدها الحظ بامتداد أنابيب الماء الحار اليها ·

ووسائل النقل العام والمواصلات تتلاءم وعظمة العاصمة تماماً ففي جانب السيارات الصغيرة المعدة للأجرة (تاكسي) ولها مواقعها الخاصة في الشوارع الكبيرة ، والسيارات الخاصة الآخذة في الزيادة بعد أن تحول انتاج معامل السيارات من الانتاج الحربي الى الانتاج المدني ، في جانب هذه وتلك الباصات الاعتيادية والباصات المسيرة بالطاقة الكهربائية (Trolley - Buses) دون خطوط حديدية وعلى عجلات من المطاط والترام (الحافلة الكهربائية) ثم المترو (Metro) والبواخر الجواري في الأنهار والقنوات · فالحافلات الكهربائية آخذة في الزوال (شأن الحال في معظم المدن الغربية) وتخلفها الباصات الكهربائية والباصات العادية ولكليها الخطوط العديدة وكلها نظيفة وتسير بنظام دقيق · ويعد المترو من مفاخر هذه العاصمة إذ بذت به أمثاله في العواصم الأخرى قاطبة لا بنظافته ودقة العمل فيه

فحسب بل بفخامة التصميم ومظاهر الترف الماثلة في محطاته البادية فوق الأرض وفي مماشيه الفسيحة المحفورة تحت الأرض . فقد بدئ بانشاء الخطوط الحديدية تحت الأرض في سنة ١٩٣٢ تخفيفاً للازدحام الذي بدا في وسائل النقل المختلفة في جانب السرعة الفائقة في التنقل بين أجزاء المدينة المختلفة ورخص الأجرة . واقتصر امتداد الخطوط الأولى على ما وصل ما بين المرافق العامة كمحطات سكك الحديد والحدائق العامة والمسارح وبين مركز العاصمة بأقصر طرق الوصول وتم الانشاء سنة ١٩٣٥ واتسع بعدها نطاق شبكة المواصلات هذه حتى خلال الحرب الوطنية (هكذا يسمون الحرب العالمية الثانية) مما جعلهم يشيرون الى ذلك في بعض الأماكن من الخط المذكور . ومحطات المترو حري بها أن تدعى بالقصور لفخامة مظهرها وسعة الماشي تحت الأرض وما زينت به جدرانها من رخام وتماثيل ولوحات التصوير ناهيك بمحلات بيع المرطبات وبيع الجرائد وبعض المآكل ، وانتظام السير في القطارات والنظافة البالغة في أماكن الجلوس ، والسرعة التي تبلغ فيها ٦٠ كيلومتراً في الساعة . وقد أحصي عدد الركاب اليومي فبلغ مليونين . وقد شاهدت هذا الترتيب البديع عندما ركبت فيه مع رفاقي من المحطة المركزية الى المحطة القريبة من المفوضية السورية ولم نلحظ أثراً للضوضاء التي ترى عادة في مثل هذه الحال ، ولاحظنا بين الركاب احترام الشباب والشابات للمسنين والمسنات وللأطفال وتركهم لهم المقاعد في حال الازدحام .

هذا وإن الصرامة التي تطبق بها القوانين والأنظمة المسنونة قد جعلت الناس يتحاشون المخالفة ، فلم أر ولم أسمع خلال إقامتي في هذه البلاد عن أي حادث اصطدام أو دهس أو سواه مما يكثر حدوثه في البلاد الأخرى . وقد علمت أن إجازة السير التي تعطى الى السائق يتغاضى فيها عن إتيانه بثلاث مخالفات مدى قيامه في العمل يكتفي حيال هذه الثلاث بالجزاء النقدي أو تنزيل المرتب

الشهري ، وفي الإجازة الممنوحة إليه ثلاث دوائر صغيرة يحق للشرطي أن يثقب كل واحدة منها إثر اقتراف السائق إحدى المخالفات ومتى تم ثقب الدوائر الثلاث وأتى السائق بمخالفة رابعة سحبت منه إجازة السوق فوراً وما عليه بعدها إلا أن يرقب مصيره الجديد بأن يكسب قوته من عمل شاق آخر إن في بلده أو في أقصى مجاهل سبيريا ٠

وترتبط موسكو بالبلاد الأخرى بشبكة من سكك الحديد عددها ١١ خطاً توصل بينها وبين أقصى البلاد في الشرق ٠ وإن من الخط الحديدي الذي دشن في مطلع عام ١٩٥٤ ما يوصل بين هذه العاصمة وبكين ٠ وتنتهي هذه الخطوط أو تبدأ من محطات أقيمت في إحدى الساحات العامة وعددها ٩ بناؤها أشبه بالقصور ويختلف المظهر الخارجي في كل منها عن الآخر اختلافاً بيناً ، وإن من أقدم هذه المحطات محطة (Leningradsky) وقد سافرنا منها الى لينغراد ومضى على تشييدها أكثر من مائة عام وأحدثها محطة (Kazansky) وهي أوسعها وأفخمها تمتاز بما تحويه من غرف عديدة للانتظار مع وسائل الراحة الكاملة لآلاف من الركاب ولهذه المحطة فندقها الخاص في جانب المطعم الأنيق والمخازن المعدة لتنظيف الثياب ورفوها والوحدة الطبية التي تتألف من عدة أطباء وممرضات ومكاتب للبرق والهاتف والبريد وباعة المرطبات وغيرها ٠

ومحطات سكك الحديد لكل منها وسائل النقل المختلفة من حافلات كهربائية وباصات وخطوط مترو في جانب المواقف المخصصة لسيارة الأجرة العديدة ٠

والخطوط الحديدية التي تربط العاصمة وضواحيها مسيرة بالطاقة الكهربائية ، بينما الخطوط الطويلة لا تزال تسير بالوقود واستبدال هذه بالكهربائية آخذ بالامتداد سنة بعد أخرى وسيأتي وصف داخل هذه القطارات عند ذكر سفرنا من موسكو الى لينغراد والعودة منها ٠

وينضم الى وسائل النقل البرية المذكورة وسائل النقل النهرية التي تنشط في فصل الصيف ففي سنة ١٩٥٢ افتتحت القناة التي توصل بين نهري الولغا(Volga) ودون (Don) وبها تم ربط موسكو ببحار أوروبا الخمسة جاعلة إياها مرفأ لها . ومع شق هذه القناة فقد عُمق نهر موسكوا حتى أصبح صالحاً للملاحة النهرية ، وتوفرت به المياه الغزيرة التي تحتاج اليها العاصمة لأجل شؤون المدينة أو لمعاملها المختلفة ، وبالسدود السديدة التي أنشئت أمكن توليد الطاقة الكهربائية المستعملة في الشؤون المختلفة ، وتوفر نقل المحاصيل الزراعية والبضائع المختلفة بأقصر الطرق وأقلها كلفة .

(للبحث صلة) الدكتور حسني سبح

أهل الكهف

في غرناطة ودمشق وبزنطية

وجدتُ ، أثناء اشتغالي بوضع فهرس عام للمخطوطات العربية في اسبانية ، مخطوطاً في المكتبة الوطنية بمدريد ، اسمه « كتاب الجغرافية في مساحة الأرض وعجائب الأصقاع والبلدان »[1] لم يثبت اسم مؤلفه عليه ، ولكن تبيّن لي من قراءة المخطوط أنه أُلِف في القرن السادس الهجري . وقد ساق المؤلف فيه نصاً ذا شأن ، يدلّ على أن الرواية الشعبية في غرناطة وما جاورها ، في القرن السادس ، كانت تذكر أن بقرب غرناطة كهفَ الرقيم ، وأن فيه أهلَ الكهف .
وقد لفت هذا النص انتباهي ، لأن الرواية الشعبية تذكر أيضاً في دمشق ، حتى أيامنا هذه ، أن أهل الكهف هم في سفح قاسيون ، كما أن المصادر المختلفة تذكر أن أهل الكهف هم في بزنطية أو غيرها من البلدان .

إن تعدّد مكان مقدّس واحد في بلدان مختلفة ظاهرة تثير الانتباه . وأكثر الأماكن تعدّداً ما كان له صبغة دينية مقدّسة كقبور الأنبياء ، وقبور بعض الصحابة ، وقبور بعض آل البيت .

ففي دمشق يوجد رأس يحيى بن زكريا ، وفي حلب أيضاً .

ويقولون إن في مسجد دمشق قبر هود ، ويذكر ياقوت أنه بحضرموت .

ويزعمون أن في الكثيب الأحمر ، قرب مسجد القدم ، قبر موسى ، ويقولون إنه في فلسطين .

(١) انظر : F. G. Robles, *Catalogo de los Manuscritos Arabes existentes en la Biblioteca Nacional de Mabrid. p. 60,* No CXXI

ويجعلون قبر عائشة في قبة المال الغربية بمسجد دمشق ، وفي البقيع .
وقبر سُكينة بنت الحسين بدمشق وفي المدينة [١] .
الى غير ذلك من الأمثلة .

وتفسير ذلك أن كل بلدة من البلدان الإسلامية كانت تريد أن تختصّ بفضل يجعلها مباركة أو مقدّسة أو متقدّمة على غيرها . وهذا لون من ألوان التنافس بين البلدان الإسلامية الذي ظهر على أشكال مختلفة [٢] . فليس من الغريب أن تتعدّد أماكن الكهف فتدّعيه دمشق ، وغرناطة ، والبلقاء ، وبزنطية وغيرها .

ونودّ أن نقدّم هنا النصّ المتعلّق بكهف جبل شنيل قرب غرناطة ، ثم نقايسه بما ورد من نصوص تتعلق بكهف دمشق وكهف بزنطية .

قال مؤلف الكتاب :

« وفي أسفل هذا الجبل (هو جبل شنيل) ، من ناحية المغرب ، مدينةُ غرناطة عمرها الله . وهي مدينة عظيمة من أحسن بلاد الأندلس ، ويقرب منها باثني عشر فرسخاً الكهف الرقيم . وصورة هذا الكهف جُرُف عالٍ ..... وفيه خمس (كذا) أناس من بني آدم ، قد يبست جلودهم على أعظامهم ، إذا نقر من أحدهم طنّ طنيناً كالنحاس ، قد تقشّر من بعض جلودهم شيء بتقليب الناس لهم ، إلاّ الأوسط منهم فإنه لم يقشر . والكل منهم قائم الذات لم ينفصل من أحدهم عظم واحد . وعند الأوسط منهم عظام كلب .

قال مؤلف هذا الكتاب : رأيتُ هذا الكهف عام اثنين وثلاثين وخمس مئة ، وعلى هؤلاء الأشخاص ملحفة من الكتان ، وعلى رأس كل واحد منهم شاشية . وهم في خلقتهم أعظم ما يكون من الناس في هذا الزمان . وقد يبسوا . وأما (آخر ص ١٧ من المخطوط) حين كانوا أحياء كانوا والله أعلم في أعظم خلقة .

(١) انظر عن هذه الأمثلة ياقوت ، معجم البلدان (مادة دمشق) ؛ والهروي في الزيارات ؛ والربعي في فضائل الشام ودمشق ؛ والعدوي في كتاب الزيارات
(٢) انظر الواناً أخرى من التنافس في مقدمتنا لكتاب فضائل الشام ودمشق للربعي

قال المؤلف : قد عددتُ عظام هذا الكلب فلم ينقص شيء . ولقد رأيتُ في فقار ظهره ثلاثة أو أربعة (كذا) منفصلة ، ومن مفاصله كذلك . ولولا تقليب الناس لهم ما تناثر من عظامهم <شيء> غير أنها لم تأكل الأرض منها شيء ...

وذكر أهل التاريخ : لما دخلوا المسلمين (كذا) الأندلس عام احدى وتسعين سألوا الروم عن الكهف والذين فيه . فقال علماء الروم والأساقفة : ما لنا بهم علم . غير أن آباءنا وأجدادنا أخبرونا أنهم لما دخلوا هذه البلاد سألوا أهلها عنهم ، فما كان فيهم من يعرف لهم خبرا ، وقالوا : هكذا وجدناهم حين دخلنا هذه الأرض ... ...

قال المؤلف : من أعجب ما رأيتُه ، ومن أغرب ما أبصرتُه في هذا الكهف ، أمرٌ إذا نُظر اليه بعين البصيرة ودُبّر بالعقل ظهر فيه برهان أهل الكهف . وذلك أنه اجتمع في مدينة لوشة ـ وهي على مقربة من هذا الكهف ـ أقوام من أهل الفساد ، فجعلوا جُعلاً لمن يمشي لهذا الكهف ويأتيهم بامارة واضحة . وكان هذا كله بالليل . فخرج منهم رجل من أهل غرناطة فقطع أذن الأوسط وأتى بها الى أصحابه . فعندما دخل عليهم بالأذن صاح صائح حتى ارتعدت له لوشة ولم يبق فيها صغير ولا كبير إلا استيقظ ، وصاحبُ الصوت يُنادي : قد قُطعتْ أذن يمليخا من أهل الكهف ، وارتجّت المدينة لذلك ، وأتى الناس كأنما قادهم قائد الى ذلك . فأخذوا الأذن منهم . وأخذ القومَ محمدُ بنُ سعادة ، وكان يومئذ صاحب الشرطة ، فضربهم بالسياط حتى هلكوا . فلما أصبح الله بخير الصباح سار محمدُ بن سعادة وجماعةٌ من الناس معه الى الكهف فوجدوا أذن الواحد منهم قد قُطعت ، وهو المعروف بيمليخا ، فخاطوها في موضعها ، وأمر محمد بن سعادة ببنيان الرقيم الذي كان على رأس الكهف . وذلك أنه كان عليه أثر مسجد قد دثر . فأقامه محمد بن سعادة وردّ محرابه الى القبلة .

وذلك في آخر عام اثنين وثلاثين وخمس مئة .. (آخر ص ١٨ من المخطوط) اهـ .

فيظهر من هذا النص أن الناس بلوشة وما جاورها كانوا يعتقدون أن هؤلاء أصحاب الكهف ، وأن محمد بن سعادة [١] صاحب الشرطة أعاد بناء الكهف والمسجد . وأن علماء الروم وأساقفتهم كانوا لا يعلمون من خبرهم شيئاً عندما دخل المسلمون الأندلس عام ٩١ هـ ، وإنما سمعوا من آبائهم وأجدادهم أنهم وجدوهم على حالتهم تلك . ومعنى ذلك أن نسبة المكان الى أصحاب الكهف ، واعتبار الموتى فيه أصحابَ الكهف المذكورين في القرآن من صُنع المسلمين أنفسهم بتأثير ما ورد في القرآن الكريم [٢] .



أما كهف دمشق في جبل قاسيون ، فما تزال الرواية الشعبية ، المتداولة على ألسنة العامة ، تذكر أنه الرقيم ، وأن فيه أصحاب الكهف . وقد جاءت النشرة الجديدة لتاريخ دمشق تبطل هذه الرواية .

ليس بين أيدينا نصوص تصف هذا الكهف وأصحابه ، إلا ما ذكره ابن عساكر [٣] . ومنه يظهر أن الكهف بُني في سنة ٣٧٠ هـ ، بناه أبو الفرج محمد بن عبد الله المعروف بابن المعلّم ، المتوفى سنة ٤١٠ هـ . وعندما عدّ أبو الحسين الرازي الآثارات بمدينة دمشق [٤] لم يجعله فيها لأنه لم يكن بُني بعد . وكان اسمه كهف جبريل وكهف محمد . وعندما بدأ المقادسة يسكنون جبل قاسيون

(١) ترجم له ابن الأبار في التكملة . رقم الترجمة ٧٤٦ توفي محمد بن سعادة سنة ٥٦٦ هـ

(٢) ذكر ياقوت (مادة الرقيم) أن في برّ الأندلس أيضاً موضعاً يُقال له جنان الورد به الكهف والرقيم أيضاً ، وبه قوم موتى عدتهم ثلاثة عشر رجلاً .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، (المجلدة الثانية ، القسم الاول) ص ١١١ — ١١٢ . (تحقيقنا)

(٤) المصدر السابق

كان الكهف فيما وجدوه في السفح [١] . ولم يسمّ قطّ في النصوص القديمة إلا كهف جبريل ، حتى في المصادر المتأخرة ، فقد ذكره النعيمي ثلاث مرات في التنبيه بهذا الاسم [٢] . وكذلك ذكره ابن طولون . أما سبب بنائه فرؤيا رآها ابن الملم [٣] . وقد تحدّث هو بنفسه عن ذلك فقال :

« بالله أعتصم من الكذب ، وأسأله أن يُنطق لساني بالصدق . رأيتُ جبريل عليه السلام في المنام ، فقال لي : إن الله تعالى يأمرك أن تبني مسجداً يُصلّى فيه له ، ويُذكر اسمه ، وهو هذا . فقلتُ : وأين هذا ؟ فسار الى هذا الموضع الذي أنا سميتُه كهف جبريل فقال : ها هنا . قلتُ : أنّى لي بذلك ؟ قال : إنّ الله تبارك وتعالى سيوفق لك من يُعينك عليه .

« قال أبو الفرج : وأنا سمّيتُه كهف جبريل عليه السلام ومسجد محمد ﷺ ، رأيتُهما في المنام فيه . وموضعٌ يُرى فيه جبريلُ ومحمد ... من أجلّ بقاع الأرض . وجبل دمشق هذا ما نبت شجرة قط ولا ظهر فيه ثمرة . فلما رأيتُ جبريل ومحمداً عليهما الصلاة والسلام أنبت الله تعالى ببركتهما الشجر ، وظهر فيه الثمر وأكل الناس ما لم يؤكل فيه قط . وصار مسجداً من مساجد الله تعالى يذكر فيه اسمه .. » اه .

فهذا النص يبطل الرواية الشعبية ، وأعتقد أن وجود كهف في جبل قاسيون ،

(١) ابن طولون ، القلائد الجوهرية ١ : ٤١ (تحقيق دهمان ، دمشق ١٩٤٩)
(٢) النعيمي ، تنبيه الطالب (طبع باسم الدارس في تاريخ المدارس ، بتحقيق الأمير جعفر الحسني) ، انظر الزاوية الداودية ، والزاوية العمادية ، والتربة الكاملية
(٣) انظر ترجمة ابن الملم في الوافي بالوفيات للصفدي ٣ : ٣٢٢ (تحقيق ديدرنغ دمشق ١٩٥٣)

وتأثير القرآن في نفوس الناس دعاهما الى الاعتقاد بأن الكهف هو الرقيم (*) .

★

في بزنطية

أما كهف بزنطية فقد وردت عنه روايتان ، الأولى عن عُبادة بن الصامت في القرن الأول ، والثانية عن محمد بن موسى المنجم في القرن الرابع . وتختلف الروايتان في تحديد مكان الكهف . فيجعله عُبادة في جبل أحمر بالقرب من قسطنطينيّة ، وتجعله الرواية الثانية بين عمّورية ونيقية على عشرة أيام من طرسوس .

الرواية الأولى : يقول عبادة :

« بعثني أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، سنة استُخلف ، الى ملك الروم أدعوه إلى الإسلام أو آذنه بحرب . قال : فسرتُ حتى دخلتُ بلد الروم . فلما دنوتُ الى قسطنطينيّة لاح لنا جبل أحمر قيل إن فيه أصحاب الكهف والرقيم . فوصلنا الى دير ، وسألنا أهل الدير عنهم فأوقفونا على سرب في الجبل . فقلنا لهم : إنا نريد أن ننظر اليهم . فقالوا : أعطونا شيئاً . فوهبنا لهم ديناراً . فدخلوا ودخلنا معهم في ذلك السرب . وكان عليه باب حديد . ففتحوه ، فانتهينا إلى بيتٍ عظيمٍ محفور في الجبل ، فيه ثلاثة عشر رجلاً مضطجعين على ظهورهم كأنهم رقود ، وعلى كل واحد منهم جبة غبراء وكساء أغبر قد غطوا بها رؤوسهم الى أرجلهم ، فلم ندر ما ثيابهم أمن صوف أو وبر أم غير ذلك ، إلا أنها

(*) ليس الكهف هو الرقيم ، لا في القرآن الكريم ، ولا على ألسنة الناس ، بل قال المفسرون : الكهف : النقب المتسع في الجبل ، وما لم يتسع فهو غار ، قال القرطبي بعد أن سرد روايات في معنى الرقيم : ويظهر من هذه الروايات انهم كانوا قوماً مؤرخين للحوادث وذلك من نبل المملكة وهو قول مفيد . وهذه الأقوال مأخوذة من الرقم ومنه كتاب مرقوم .
وكيف يكون الكهف نفس الرقيم في القرآن وقد عطف فيه الثاني على الأول ، والعطف يقتضي التغاير ؟ فالكهف غير الرقيم (لجنة المجلة)

كانت أصلب من الديباج . واذا هي تقعقع من الصفاقة والجودة ، ورأينا على أكثرهم خفافاً الى أنصاف سوقهم وبعضهم منتعلين بنعال مخصوفة ، ولخفافهم ونعالهم من جودة الخرز ولين الجلود ما لم يُر مثله . فكشفنا عن وجوههم رجلاً بعد رجل ، فاذا بهم من ظهور الدم وصفاء الألوان كأفضل ما يكون للأحياء ، واذا الشيب قد وَخَطَ بعضهم ، وبعضهم شبان سودُ الشعور ، وبعضهم موفورة شعورهم ، وبعضهم مطمومة ، وهم على زيّ المسلمين . فانتهينا الى آخرهم ، فاذا هو مضروب الوجه بالسيف ، وكأنه في ذلك اليوم ضُرب . فسألنا أولئك الذين أدخلونا عن حالهم ، فأخبرونا أنهم يدخلون اليهم في كل يوم عيدٍ لهم ، يجتمع أهل البلاد من سائر المدن والقرى الى باب الكهف فنقيمهم أياماً من غير أن يمسهم احد ، فننفض جبابهم وأكسيتهم من التُراب ، ونقلّم أظافيرهم ، ونقصّ شواربهم ثم نُضجعهم بعد ذلك على هيئتهم التي ترونها . فسألناهم : مَنْ هم وما أمرهم ومنذ كم هم بذلك المكان ؟ فذكروا أنهم يجدون في كتبهم أنهم بمكانهم ذلك من قبل مبعث المسيح عليه السلام بأربعمائة سنة ، وأنهم كانوا أنبياء بُعثوا بعصر واحد ، وأنهم لا يعرفون من أمرهم شيئاً . »[1]

إن هذه الرواية منقولة عن عبادة بن الصامت . وعُبادة هو ـ كما هو معروف ـ أحد النقباء الاثني عشر . ويذكر ابن سعد[2] انه « خرج الى الشأم حين غزاها المسلمون فلم يزل بالشأم الى أن توفي » في الرملة من أرض الشام سنة أربع وثلاثين . وورد أنه ذهب الى فلسطين ، أرسله اليها عمر ليعلّم أهلها القرآن فأقام بها الى أن مات[3] . وذكر أن عمر وجهه الى الشام قاضياً ومعلماً

(١) انظر ياقوت ، معجم البلدان (مادة الرقيم)
(٢) ابن سعد ، الطبقات ٣ / ٢ : ١١٣
(٣) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ٥ : ١١٢

فأقام بحمص ثم انتقل الى فلسطين ومات بها[1] ولكنا لم نجد من ذكر أمر إرساله الى ملك الروم .

وأما الرواية الثانية فنقلها محمد بن موسى ـ وكان الواثق وجهه الى بلاد الروم للنظر في أصحاب الكهف — قال : فوصلنا الى بلد الروم ، فاذا هو جبل صغير قدر أسفله أقل من ألف ذراع ، وله سرب من وجه الأرض ، فتدخل السرب فتمرّ في خسف من الأرض مقدار ثلاث مئة خطوة فيُخرجك الى رواق في الجبل على أساطين منقورة . وفيه عدة أبيات منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة عليها باب حجارة فيه الموتى ورجل موكّل بهم يحفظهم معه خصيّان ، واذا هو يحيدنا عن أن نراهم ونفتشهم ويزعم أنه لا يأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة في بدنه . يريد التمويه ليدوم كسبه . فقلت : دعني أنظر اليهم وأنت بريء . فصعدتُ بشقة عظيمة غليظة مع غلام من غلماني فنظرت اليهم ، وإذا هم في مُسوح شعر تتفتت باليد واذا أجسامهم مطلية بالصبر والمرّ والكافور ليحفظها ، وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم . غير أني أمررتُ يدي على صدر أحدهم فوجدتُ خشونة شعره وقوة ثيابه . ثم أحضرنا المتوكل بهم طعاماً وسألنا أن نأكل منه ، فلما أخذناه منه ذقناه وقد أنكرت أنفسنا وتهوّعنا ، وكأنّ الخبيث أراد قتلنا ، أو قتل بعضنا ليصحّ له ما كان يموّه به عند الملك أنه فعل بنا هذا الفعل أصحابُ الرقيم . فقلنا له : إنا ظننا أنهم أحياء يشبهون الموتى وليس هؤلاء كذلك . فتركناه وانصرفنا[2] .

وهذا النص لا يذكر عدد أصحاب الرقيم ولا يذكر كلبهم . فضلاً عن أن قول محمد بن موسى « ظننا أنهم أحياء يشبهون الموتى » يشعر بأنهم لم يؤمنوا بأنهم أهل الكهف .

---

(١) ابن العماد ، شذرات ١ : ٤٠

(٢) ياقوت ، معجم البلدان (مادة الرقيم)

وإذا استبعدنا دمشق ، لأن النص الذي نقلناه واضح أن الكهف الذي في جبلها كهف جبريل ، نجد أن النصوص التي نقلناها عن كهف غرناطة ، وكهف جبل الورد ، وكهفي بزنطية متضاربة : تتضارب في عدد الموتى ، ووجود الكلب وفقدانه ، وملابس الموتى ، وهيئاتهم ، وأماكن وجودهم . ولقد أنكر ياقوت ـ مثلاً ـ أن يكون عددهم ثلاثة عشر فقال : والصحيح أن أصحاب الكهف سبعة ، وإنما الروم زادوا الباقي من عظماء أهل دينهم وعالجوا أجسادهم بالصبر وغيره على ما عرفوه . . »

وكل ذلك يدلّ على أن مكان وجود الكهف غير ثابت . وأغلب الظن أن المسلمين ، كانوا ، بتأثير القرآن الكريم ، يحسبون كل كهف وجدوه في بلد من البلدان رقيماً ، ويظنون الموتى الذين يصادفونهم في الكهوف والمقابر الرومانية القديمة أصحاب الكهف المذكورين في القرآن . ومن هنا تعدّدت الأماكن ، وتعدد أصحاب الكهف .

الدكتور صلاح الدين المنجد

ياقوت الكلام في ما ناب الشام

لابن حجة الحموي

المقدمة

وقعت الفتنة عام ٧١٩ هـ بين الملك الظاهر برقوق [١] وبين نائب حلب يلبغا الناصري الذي انضم اليه تمربغا الأفضلي المدعو منطاش نائب ملاطية . وتفاقم أمر العصاة حتى انهم تقدموا الى القاهرة وخلعوا السلطان وسجنوه في قلعة الكرك . ثم أعيد الصالح حاجي بن الأشرف للسلطنة ولقب بالمنصور . واختلف منطاش مع يلبغا ؛ فبينما كان الأول يود أن يأمر بقتل برقوق في سجنه ، كان الثاني يعارض في ذلك ولم يلبث يلبغا أن سجن بأمر منطاش .

واستطاع السلطان برقوق أن يتخلص من سجنه ليجمع الأعوان ، وسار يريد دمشق . فهزم متولي نيابتها جنتمر أخو طاز بشقحب [٢] قرب دمشق ، واستمال كثيراً من أمراء الشام فانحازوا اليه ، وصار في عسكر كبير فنزل على قبة يلبغا وقد امتنع أهلها بها وبالغوا في تحصينها لحصرها وأحرق القبيبات وخربها ، وأهلك خلقاً كثيراً ، وجد أهل المدينة في قتاله ، واستمر جنتمر يقاوم من القلعة .

وعندما ورد الخبر الى منطاش خرج من القاهرة ومعه الخليفة والسلطان المنصور والقضاة والعلماء والجند ، فاضطر برقوق أن يترك حصار دمشق ليصدم العسكر

---

(١) برقوق أول سلاطين دولة المماليك الشراكسة تولى الحكم سنة ٧٨٤ هـ ونحى عن العرش حاجي بن الأشرف آخر ملوك المماليك البحرية . وتوفي برقوق سنة ٨٠١ هـ انظر السلوك .

(٢) انظر السلوك للمقريزي منسوخ سنة ١٣٤٧ هـ على نفقة دار الكتب المصرية عن النسخة الفوطوغرافية المحفوظة لديها برقم ٤٥٥ .

المصري . ودارت الدائرة عليه أولاً ثم أتيحت له فرصة فريدة فاستولى على خيمة الخليفة والسلطان ، وعاملهما بالحسنى ، وانضم اليه الجند من كافة النواحي فأسرع بالعودة الى مصر حيث أفرج عن يلبغا ، وأرسله لقتال منطاش وعينه أميراً على دمشق .

وسار الظاهر برقوق الى دمشق وكان يحاصرها منطاش فأسرع هذا بالفرار ودخل السلطان المدينة بحفاوة بالغة لأنه أعلن العفو عن كل الناس ، ثم تقدم الى حلب حيث خان رئيس البدو حليفه منطاش ، فسلمه الى السلطان فعذبه بالكي حتى مات سنة ٧٩٥ هـ .[1]

وتتضمن هذه الرسالة المقروءة على المؤلف ابن حجة الحموي وصفاً رائعاً للحريق الكبير الذي أصاب دمشق أثناء الحصار الذي ضربه عليها السلطان برقوق كما تقدم ذكره . وقد أرسل الرسالة الأصلية الى فخر الدين بن مكانس[2] ناظر دولة المماليك الشراكسة في القاهرة .

والرسالة تعطينا صورةً حية نادرة المثال ، واضحة مؤثرة عن فاجعة الحريق الذي أصاب دمشق الجميلة ومحلاتها ، وأنهارها ، ومتنزهاتها ، وينتقل إلى رثائها ومقابلة حالتها الحاضرة المحزنة بما كانت عليه من عيش رغيد ، وظل مديد ، وماء كثير . والمؤلف برع خلال وصفه في إيراد صور بديعية تحفز الحنين والوجد ، وتلملم الذكريات الممتعة الكامنة في نفسه .. فيطوف في دروبها ضائع الخطى ، يحبس اللهفة ، ويبث القارئ شكواه وتشاويقه . وقد ذكر ابن العماد الحنبلي هذه الرسالة في الشذرات فقال فيها إنها (مقامة في نحو عشر أوراق من رائق النثر وفائق النظم وهي أعجوبة في فنها .)[3] . غير أنه يجعل تاريخ الحريق في شعبان سنة ٧٩٤ هـ بينما الرسالة تذكر أنه كان في سنة ٧٩١ هـ والصحيح

---

(١) نفس المصدر ٣ : ٥٦٩ وما يليها

(٢) اغتيل بالسم سنة ٧٩٤ هـ انظر السلوك ٣ : ٥١٤ والشذرات ٦ ، ٣٣٤

(٣) شذرات الذهب ٣ : ٣٣٢ القاهرة ١٣٥١ هـ

ما ذكره ابن حجة لأنه شاهد عيان معاصر ، كما أن المقريزي في السلوك وابن أياس في تاريخ مصر يجملانه في سنة ٧٩١ هـ .[1]

يصل كاتب الرسالة ابن حجة الى دمشق فيرى الحريق ، ويطوف بظاهر البلد مبتدئاً من قبة يلبغا وميماً الى الشمال من البلد ، وينحرف الى الشرق فالجنوب منها ويصف أثناء ذلك حالة القلعة والفراديس والسبعة والباب الشرقي فباب كيسان فالباب الصغير ويعود من حيث بدأ .

ثم يذكر الأنهار وانقطاعها والربوة والشرف والوادي . وأخيراً يدخل البلد ليرى المسجد الجامع الأموي ومأذنته العروس وباب البريد ويدور حول المسجد ويسرد أحوال أهل المدينة في كل محلة يمر بها بأسلوب جميل مسجع يحتوي ضروباً من الاستعارة والتورية والجناس والمقابلة والاقتباس والمجاز .... والسجع جعله لا يراعي النحو في نهاية العبارة مما يلحظه القارئ بسهولة .

أما مؤلف الرسالة فهو تقي الدين أبو بكر بن حجة الحموي ، أديب وشاعر كبير ولد بحماة سنة ٧٧٧ هـ وقدم دمشق ومدح أعيانها واتصل بخدمة نائبها الأمير شيخ المحمودي وقدم صحبته القاهرة . فلما تسلطن قربه وجعله من ندمائه ، وعظم في الدولة ومات في حماة سنة ٨٣٧ هـ على ما يذكر ابن العماد [2] .

وقد اعتمدت في نشر هذه الرسالة على النسخة الفوطوغرافية منها الموجودة في خزانة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة والمنقولة عن الأصل الموجود في مكتبة (خدابخش تبنة) بالآستانة .

وتقع الرسالة في ثماني ورقات من القطع الصغير ، في كل صفحة (١٩ سطراً) وطول السطر (٧ سنتمترات) وهي بقلم محمد بن أحمد الملا الحلبي في القرن العاشر أو الحادي عشر . وقد جهدت ، ما وسعني ، إلى إيضاح النص وإثبات ما يحتاج شرحه من الكلمات في ذيل كل صفحة .

أحمد طربين

---

(١) انظر السلوك وابن اياس ١ : ٢٨٢

(٢) انظر الشذرات ٧ : ٢١٩

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

قال أخبرنا الشيخ أبو بكر بن علي المعروف بابن حجة الحموي ، قراءةً عليه ، وكتب بها الى القاضي فخر الدين بن مكانس بالقاهرة ، وسماها (ياقوت الكلام فيما ناب الشام) وذلك حين كان الملك الظاهر برقوق يحاصر دمشق سنة احدى وتسعين وسبعمائة وحرقت في حصاره المذكور ، وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴾ [١] يقبل الأرض التي من يمَّمها أو تيمّم بثراها حصل له الفخر والمجد . فلا برح هيام الوفود إلى أبوابها أكثر من هيمان العرب إلى ربا نجد . ولا زالت فحول الشعراء تطلق أعنة لفظها وتركض في ذلك المضمار . وتهيم بواديها الذي يجب أن تُرفع فيه على أعمدة المدائح بيوتُ الأشعار . ويُنهي بعد أشواق أمست الدموع بها في محاجر العين مُعْثَرَة ، ولو لم يقرأ إنسانها بمرسلات الدمع لقلت في حقه ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ [٢] ، وصول المملوك الى دمشق المحروسة فياليته قُبض قبل ما كتب عليه ذلك الوصول . ودخوله اليها ولقد والله تمنى خروج الروح عند ذلك الدخول . فنظر المملوك إلى قبة يلبغا [٣] وقد طار بها طير الحمام (١ آ) وجثت حولها تلك الأسود الضارية ، فتطيرت في ذلك الوقت من القبة والطير وتعوذت بالغاشية . ودخلت بعد ذلك الى القبيبات [٤] التي صغر اسمها لأجل التحبيب ، فوجدتها وقد خلا منها كل منزل كان آنساً بحبيبه فأنشده لسان الحال : « قفا نبك من ذكرى حبيب » [٥] . ونظرت بعد القباب الى

---

(١) سورة الإسراء ١٧ : ٥٨
(٢) سورة عبس ٨٠ : ١٧
(٣) قبة ظاهر دمشق ، السلوك ٣ : ٢٦٩
(٤) القبيبات محلة الميدان الفوقاني اليوم
(٥) مطلع معلقة امرىء القيس

المصلى [١] وما فعلت به سكان تلك الخيام [٢] . والتفت الى بديع بيوته التي حسن بناء تأسيسها وقد فسد النظام .

فسالَ ، وقد وقفتُ ، عقيقُ دمعي على أرض المصلى والقبابِ

ونظرتُ الى ذلك الوادي الفسيح وقد ضاق من الحريق بسكانه الفضا . فتوهمت أن وادي المصلى [١] قد تبدل بوادي الغضا .

فسقى الغضا والساكنيه وإن همُ شبوه بين جوانح وقلوب [٣]

ونظرت إلى النار وقد أرادت سبي ذلك النادي فشنت عليه من فوارس الغارة . ولقد كان والله ربيعاً لسرح العيون فلم يبق به ربيع ولا عمارة . وركضت في ميدان الحصا [٤] فوجدت اركانه كما قال تعالى ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ [٥] . ودخلت قصر الحجاج [٦] وقد مدت به النار من ضرورة في موضع القصر . وأصبح أهله في خسر ، وكيف لا وقد صار عبرة لأهل العصر . وتأملت تلك الألسن الجرية وقد انطلقت في ثغور تلك الربوع وكمت السكان . وتطاولت بألسن الأسنة وانغنام [٧] الأتراك فاندهش أهل دمشق وقد كلموا بكل لسان . ووصل المملوك بعد الفجر الى البلد وقد تلا بعد زخرفه في سورة (١ ب) الدخان . فوجب بأن أجري الدمع على وجيب كل ربع وأنشد ، وقد دخل صبري بعد إنّ في خبر كان :

(١) محلة باب المصلى في الميدان اليوم ، انظر دمشق القديمة للمنجد

(٢) سكان الخيام يعني المحاصرين من عسكر برقوق

(٣) للبحتري في مدح يعقوب بن أسحق النوبختي ، ديوان البحتري ص ٥٧ مطبعة هندية بمصر سنة ١٩١١

(٤) ميدان كان جنوبي الباب الصغير وسميت محلة الميدان باسمه

(٥) سورة البقرة ٢ : ٢٤

(٦) محلة كبيرة في ظاهر باب الجابية منسوب للحجاج بن عبد الملك بن مروان معجم البلدان لياقوت طبعة وستنفلد ج ٤ ص ١١

(٧) انغنام من الغنمة وهي العجمة في المنطق (القاموس المحيط)

«دمعٌ جرى فقضى في الربع ما وَجَبا» [1]

ووقفت أندبُ على عرصاتها التي قمحت بالبين فخابت من أهلها الظنون . وكم داروا بقمحها خيفة من طاحون النار فلم يسلم فصدق المثل بأن القمح يدور ويجيء الى الطاحون . وتطرقت بعد ذلك الى الحدادين [2] وقد نادتهم النار بلسانها من مكان بعيد . ﴿آتوني زبر الحديد﴾ [3] . ولقد كان يوم حريقها ﴿يوماً عبوساً قمطريراً﴾ [4] . وضج المسلمون فيه من الخيفة وقد رأوا ﴿سلاسل وأغلالاً وسعيراً﴾ [5] . هذا وكلما أصليت نار الحريق وشبت نار الحرب ، ذكرت ما أشار به مولانا على المملوك من الاقامة بمصر فأنشدت من شدة الكرب :

آهاً لمصر أين مصر وكيف لي بديار مصر مراتعاً وملاعبا
والدهر سلم كيف ما حاولته لا مثلُ دهري في دمشق محاربا

يا مولانا لقد لبست دمشق في هذا المأتم السواد . وطُبخت قلوب أهلها كما تقدم على نارين وسُلقوا من الأسنة بألسنة حداد .

ولقد نسفت عيونهم من الحريق واستسقوا فلم ينشقوا رائحة لنادية . وكم رؤي في ذلك اليوم ﴿وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية﴾ [6] . وكم أرجل تلا عند لهيب بيته ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ [7] وخرج هارباً ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾ [8] وشكى الناس من شدة الوهج (٢ آ) وهم في الشتاء وصاروا من هذا الأمر يتعجبون . فقال لهم لسان النار أتعجب من الوهج والحريق

(١) صدر بيت للمتنبي في مدح المغيث العجلي – العرف الطيب لليازجي ص ٩٢ طبع بيروت سنة ١٨٨٢
(٢) محلة تحت القلعة
(٣) سورة الكهف ١٨ : ٩٧
(٤) سورة الدهر ٧٦ ، ١٠
(٥) سورة الدهر ٧٦ : ٤
(٦) سورة الغاشية ٨٨ : ٣
(٧) سورة تبت (اللهب) ١١١ : ١
(٨) سورة تبت (اللهب) ١١١ : ٤

هو في كانون ؟ ولعمري لو عاش ابن نباتة [١] ورأى هذا الحال وما تم على أهل دمشق في كانون لترك رثاء ولده عبد الرحيم وقال :

يا لهف قلبي على وادي دمشق ويا حزني عليه ويا شجوي ويادائي
في شهر كانون وافاه الحريق لقد أحرقت بالنار يا كانون أحشائي

ونظرت بعد ذلك الى القلعة [٢] المحروسة وقد قامت قيامة حربهـا حتى قلنا ﴿أزفت الآزفة﴾ [٣] . وقد ستروا بروجها من الطارق [٤] بتلك الستائر وهم يتلون ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ [٥] . واستجليت عروس الطارمة [٦] عند زفتها وقد تجهزت للحرب ولم ترض بغير الأرواح مهر . وقد أقعدت على رأسها تلك العصائب [٧] وتوشحت بتلك الطوارق وأدارت على معصمها الأبيض سوار النهر . وغازلت بحواجب [٨] قسيّها فرمت القلوب من عيون مراميها بالنبال . وأهدت إلى العيون من مكاحل نارها أكالاً كانت السهام لها أميال . وطلبها كل من المحاصرين وقد علا دست الحرب وسمح وهو على فرسه بنفسه الغالية . وراموا كشفها وهم في رقعة الأرض كأنهم لم يعلموا بأن الطارمة عالية . وتالله لقد حرست بقوم لم يتدرعوا بغير آية الحرس في الاسحار ، وقد استيقظوا لحل قسيّهم ولم تنم أعينهم عن الأوتار . فأعيذُ رواسيها التي هي كالجبال الشامخة بمن أسّس المحجوج [٩] . وأحصنّها قلعة بـ ﴿السماء ذات البروج﴾ (٢ ب)

(١) ابن نباته هو خطيب سيف الدولة الحمداني . انظر الشذرات
(٢) قلعة دمشق
(٣) سورة النجم ٥٣ : ٥٨
(٤) الطارق إشارة إلى العدو المحاصر « وفيه تورية بسورتي البروج والطارق »
(٥) سورة النجم ٥٣ : ٥٧
(٦) الطارمة بيت كالقبة من الخشب وهي من الفارسي المعرب ـ محيط المحيط وتاج العروس ويريد هنا مئذنة القلعة
(٧) العصائب ج عصابة : جماعة المحاربين في القلعة
(٨) حواجب قسيّها : المجموعة خلف الفجوات في القلعة
(٩) المحجوج أي المقصود وهنا البيت العتيق (الكعبة) .

وتطاولتُ إلى السور المشرّف وقد فضل في علم الحرب وحفظ أبوابه المقفلات . فما وقفنا له على باب إلا وجدناه لم يترك خلفه لصاحب المفتاح [١] تلخيصاً لما أبداه من المشكلات . فقلت ما أحقه بقول من قال :

فضائله سور على المجد حائط ... وبالعلم هذا السور أضحى مشرفا

كم حملوا عليه وظنوا في طريق حملتهم نصره . ونصبوا دست الحرب ولم يعلموا بأنه قد طبّخ لهم على كل باب قدرَه . فلا وأبيك لو نظرته يوم الحرب وقد تصاعدت فيه أنفاس الرجال لقلت ﴿ ونُفخ في الصور ذلك يوم الوعيد ﴾ [٢] وإلى المحاصرين وقد جاؤوا راجلاً وفارساً ليشهدوا القتال لقلت ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ [٣] ، وإلى كواكب الأسنة وقد انتثرت ، وإلى قبور الشهداء وهي من تحت أرجل الخيل قد بعثرت ، وإلى كرّ الفوارس وفرّها لقلت ﴿ علمت نفس ما قدّمت وأخرت ﴾ [٤] . وإلى نار النفط وقد نفطت [٥] . من غيظها . وإلى ذكور السيوف وقد وضعت المنايا السود وتعذرت من شدة الدماء لكثرة حيضها .

ومن العجائب أن بيض سيوفهم ... تلد المنايا السود وهي ذكور

وإلى فارس الغبار وقد ركب صهوات الجو ولحق بعنان السماء ، وإلى أهداب السهام وقد بكت لما تخضبت بالدماء ، وإلى كل هارب سلب عقله وكيف لا وخصمه له تابع ، وإلى كل مدفع وقد وجد له عند حكم القضاء دافع ، وإلى قامات أقلام الخط وقد صار لها في طروس الأجسام مشق . فاستصوبت عند ذلك رأي من قال : عرج ركابك (٣ آ) عن دمشق [٦] . ونظرت بعد ذلك

(١) المفتاح: مفتاح العلوم للسكاكي والتلخيص هو تلخيص المفتاح للخطيب القزويني وفي الكلام تورية

(٢) سورة ق ٥٠ : ٢٠

(٣) سورة ق ٥٠ : ٢١

(٤) سورة الانفطار ٨٢ : ٥

(٥) نفَط ينفُط أي غضب أو احترق غضباً (تاج العروس)

(٦) اشارة إلى البيتين المشهورين :

عرّج ركابك عن دمشق فانها ... بلد تذل له الأسود وتخضع

ما بين (جابيها) و (باب بريدها) ... قمر يغيب وألف شمس تطلع

إلى العشير وقد استحل في ذي الحجة الحرم ، وحمل كل قيسي يمانياً [1] وتقدم ، بجزع النساء وقد أنكرت منهم هذا الأمر العسير . فقلت غير بدع للنساء إذا أنكرن العشير . وتصفحت بعد ذلك فاتحة باب النصر [2] فعوذته بالإخلاص [3] وزدت شكراً وحمداً . وتأملت أهل الباب وهم يتلون لأهل البلد في سورة الفتح والمحاصرين ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ﴾ [4] . كم طلبوا فتحه فلم يجدوا لهم طاقة ﴿ وضُرب بينهم بسورٍ له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب ﴾ [5] . ونظرت الى ما تحت القلعة من أسواق التجار فوجدت كلاً قد محت النارُ آثاره . وأهلها يتلون ﴿ قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ﴾ [6] . فما منهم إلا من همى شأنه [7] على ﴿ صاحبته وبنيه ﴾ [8] . وآخر قد استغنى بشأن نفسه فيهم كما قال الله تعالى ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ [9] . فوقفت أنشد في تلك الأسواق : « ألا موت يباع فأشتريه » . ونظرت إلى المؤمنين الركع السجود . وهم يتلون على من ترك في بيوتهم أخدوداً من وقود ، وقد سُعِّرت النار وقعد لحربهم في ذلك اليوم المشهود : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ [10] . هذا وكم مؤمن قوم خرج من دياره حذر الموت وهو يقول النجاة وطلب الفرار .

---

(١) السيف اليماني

(٢) غربي دمشق وكان اسمه باب الجنان لما يليه من البساتين . انظر خطط دمشق القديمة للمنجد

(٣) سورة الإخلاص : ١١٢

(٤) سورة يس ٣٦ : ٩

(٥) سورة الحديد ٥٧ : ١٣

(٦) سورة الجمعة ٦٢ : ١١

(٧) الشأن مجرى الدمع من العين وهمى سال .

(٨) سورة عبس ٨٠ : ٣٦

(٩) سورة عبس ٨٠ : ٣٧

(١٠) سورة البروج ٨٥ : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧

وكلما دعاه قومه لمساعدتهم على الحريق ناداهم وقد عدم الاصطبار : ﴿ ويا قوم ما لي أدعوكم الى النجاة وتدعونني إلى النار ﴾[١] . ونظرت إلى ضواحي البلد وقد امتدت في وجوههم المذاهب (٣ ب) فلم يجدوا لهم من الضيق مخرج . ﴿ وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾[٢] لما غلق في وجوههم باب الفرج[٣] . فقلت : اللهم اجعل لهم من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ولعدم أموالهم من كل عسر يسراً ، ولانتهاك مخدراتهم من كل فاحشة ستراً ، ولقطع الماء عنهم إلى كل خير سبيل . فالله حسبنا ونعم الوكيل . هذا وكم نظرت إلى سماء ربع غربت شمسه بعد الإشراق فأنشدت وقد ازددت كرباً من شدة الإحراق :

فديناك من ربع وإن زدتنا كرباً فإنك كنتَ الشرقَ للشمس والغربا

وانتهيت إلى الطواقيين[٤] وقد أسيل عليهم الحريق قندسه[٥] فكشفوا الرؤوس لعالم السرائر . وكم ذات ستر خرجت بفرق مكشوف ورمت العصائب وبعلها بغينه دائر . هذا وكم ناهدات

أسبلن من فوق النهود ذوائبا فتركن حبات القلوب ذوائبا

ووصلت إلى ظاهر الفراديس[٦] وقد قام كل منهم إلى فردوس بيته فاطلع في سواء الجحيم . واندهشت لتلك الأنفس التي ماتت من الخوف وهي تستغيث لـ ﴿ لذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[٧] . ونظرت إلى

(١) سورة المؤمن ٤٠ : ٤١
(٢) سورة التوبة ٩ : ٢٦
(٣) باب الناخلية اليوم ، انظر دمشق القديمة للمنجد
(٤) الطواقيين : باعة الطواقي وكان لهم محلة في جنوب الجامع الاموي
(٥) القندس من الفارسي المعرب وهو حيوان يتخذ من جلده فرو تلبسه الأروام على رؤوسها — شفاء الغليل للخفاجي ١٦٥
(٦) محلة الفراديس شمال دمشق وباب الفراديس هو باب العمارة والمحلة هي محلة العمارة (ابن عساكر ٢ : ١٨٦)
(٧) سورة يس ٣٦ : ٧٩

باب السلامه[1] وقد أخفت النار أعلامه. ولقد كان أهله من صحة أجسامهم ومن اسمه كما يقال في الصحة والسلامه . وإلى الشلاّحة[2] وقد لبست ثياب الحزن وذابت من أهلها الكبود . وقعدوا بعد تلك الربوع على أديم الأرض ونضجت منهم الجلود . ولقد والله عدمت لذة الحواس الخمس وضاقت عليّ الجهات الست فلم ترقَ لي دمعة . وأكلت الأنامل من الأسف لما سمعت (٤ آ) بحريق أطراف السبعة[3] . فأعيذ ما بقي من السبعة بالسبع ﴿المثاني والقرآن العظيم﴾[4] فكم رأينا بها يعقوب حزن رأى سواد بيته فاصفر لونه ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾.[5] وتغربت إلى ظاهر الباب الشرقي[6] فتشرقت بالدمع من شدة الالتهاب . ولقد كان أهله من دار عنبه وكرومه الكريمة في ﴿جنتين من أعناب﴾[7] . وتوصلت إلى ظاهر كيسان.[8] فأنفقت كيس الصبر لما افتقرت من دنانير تلك الأزهار والدراهم رباها . وسمحت بعد ذلك بالعين واستخدمت فقلت ﴿بسم الله مجراها﴾[9] وكايرت الى أطراف الباب الصغير[10] فوجدت فاضل النار لم ﴿يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾[11] . فيالهفي على عروس دمشق التي

(١) من شمال دمشق ، سمي بذلك تفاؤلاً لأنه لايتهيأ القتال على البلد من ناحيته لما دونه من الأنهار والأشجار ، ابن عساكر ج ٢ ص ١٨٦ . ثم عرف بباب السلام ويسمى بباب الفراديس الصغير ، محاسن الشام البدري ص ٢٦

(٢) شمال القيمرية اليوم ، انظر مخطط دمشق القديمة للمنجد

(٣) محلة في شرق مسجد القصب تسمى محلة السبعة أنابيب القديمة

(٤) سورة الحجر ١٥ : ٨٧

(٥) سورة يوسف ١٢ : ٨٤

(٦) سمي بذلك لأنه شرق البلد ، ابن عساكر ج ٢ ص ١٨٥

(٧) سورة الكهف ١٨ : ٣٢

(٨) محلة في الشرق الجنوبي من البلد ، انظر مخطط دمشق القديمة للمنجد ، وكيسان هو مولى معاوية ، محاسن الشام ٢٤

(٩) سورة هود ١١ : ٤١

(١٠) سمي بذلك لأنه أصغر أبواب دمشق حين بنيت ، يقع في جنوب البلد ، محاسن الشام البدري ٢٤

(١١) سورة الكهف ١٨ : ٥٠

لم يذكر مع محاسنها أسماء ولا الجيداء [١] . لقد كانت ست البلاد فاستعبدها ملك النار حتى تركها جارية سوداء . ولقد وقفت بين ربوعها وقد التهبت أحشاؤها بالاضطرام . وفطم جنين نبتها عن رضاع ثدي الغمام ، فاستسقيت لها بقول ابن أسعد الموصلي :

سقى دمشق وأياماً مضت فيها مواطرُ السحب ساريها وغاديها
ولا يزال جنين النبت ترضعه حواملُ المزن في أحشا أراضيها
فما نضا حبّه قلبي لنيرَبِها ولا قفى نحبّه ودّي بواديها
ولا تسليتُ عن سلسالِ ربوتها ولا نسيت مبيتي جارَ جاديها [٢]

هذا وكم خائف قبل اليوم آويناه بها إلى ﴿ربوة ذات قرار﴾ [٣] وكم كان بها يطرب طير جرح بعد ما كان يطرب على عود وطار . وبطل الجنك [٤] (٤ ب) لما انقطعت أوتار أنهاره فلم يبق له معنى . وكسر الدف [٥] لما خرج نهر المغنية عن المغنى . واستسمج الناس من قال [٦] :

انهضْ الى الربوة مستمتعاً تجدْ من اللذات ما يكفي
فالطير قد غنى على عوده في الروض بين الجنْكِ والدف

وأضحت أوقات الربوة بعد ذلك العيش الخضل واليسر عسيرة . ولقد كان أهلها في ﴿ظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة﴾ [٧] فعبس بعد ذلك ثغر روضها الباسم . وضاع من غير تورية عطره النامم . ولم ينتظم الزهر المنثور على ذلك الوشي المرقوم رسالة من النسيم سحرية . وكيف لا وقد محي سَجْعُ المطوّقِ [٨]

---

(١) جيداء : طويلة العنق حسنته تاج العروس ٢ : ٣٣٣
(٢) الجادي : الزعفران ـ تاج العروس
(٣) سورة المؤمنون ٢٣ : ٥١
(٤) من متنزهات دمشق في غربي المدينة ـ غوطة دمشق لكرد علي ص ٧٢
(٥) من متنزهات دمشق في غربي المدينة ـ غوطة دمشق لكرد علي ص ٧٢
(٦) الشيخ صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي ـ محاسن الشام ص ٨٧
(٧) سورة الواقعة ٥٦ : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .
(٨) سجع : ترجيع الحمام . المطوّق من الحمام : نوع له مايشبه الطوق على عنقه

من طروس تلك الأوراق النباتية . وكم عروس زهر قعد لمصمها النقش فلما انقطع عنها النهر صحّ أنها قشرت السوار . وكم دولاب نهر (١) كان قد حسن غناه على تشبيب النسيم بالقصب وهو في تلك الأدوار . فوقفت أندب ذلك العيش الذي كان بذلك التشبيب موصول . وأنشد ومُذَيِّلٌ دمعي قد ترك القلب مثله معلول :

لم لا أشبّب بالعيش الذي انقرضت أوقاته وهو باللذات موصول

ونقص يزيد (٢) فاحترق ولا ينكر ليزيد الحريق على صنعه . وانقطع ظهر ثورا (٣) فأهلك الحرث والنسل بقطعه . وذاب يَرَدا (٤) وحمي مزاجه لما شعر بالحريق . ولم يبق في ثغره الأشنب بدر حَصبائه ما يبل الريق . وانقطع وقد اعتل من غيظه باناس (٥) ولم يظهر عند قطعه خلاف ولا بانَ آس . وجرى الدم من شدة الطعن بالقنوات (٦) . وكسرت قناة (٥ آ) المزة (٧) فذاقت من العيش المرّ بعد حلاوة تلك القطوف الدانيات . وكُسر الخلخال (٨) لما قام الحرب على ساقه . وسقط رأس كل غصن على الجبهة فهاجت البلابل على أوراقه . وخرّ نهر حميص خاضعاً وتكدر بعده ما كان يُصفي لنا قلبه . وافتقر أغنياء غصونه من حبات تلك الثمار فصاروا لا يملكون حبّه . طالما كان أهله به فاكهين . ولكنهم ﴿ اعترفوا بذنبهم ﴾ (٩) فقالوا ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ (١٠) .

(١) دولاب نهر — ناعورة

(٢) نهر يزيد معروف ينفصل عن بردى قرب قرية الهامة ١٢ كم من دمشق ، ويزيد الثانية — يزيد بن معاوية

(٣) نهر ثورا أو ثورة ينفصل عن بردى قرب الشاذروان ، خطط دمشق ٣٠

(٤) نهر بردى

(٥) نهر باناس أو بانياس ينفصل عن بردى قرب الربوة — الخطط ٣٤

(٦) نهر القنوات ينفصل عن بردى قرب الشاذروان

(٧) نهر قناة المزة ينفصل عن بردى في قرية دمر ويسقي قسماً من المزة الخطط ٣٤

(٨) الخلخال نهر عند باب السريجة اليوم

(٩) سورة الملك ٦٧ : ١١

(١٠) سورة المدثر ٧٤ : ٤٥

وذبلت غصون تلك الجزيرة [(١)] ، التي كانت على وجنات شطوطه مستديرة . فقلنا بعد عروس دمشق وحماتها : لا حاجة لنا بحميص والجزيرة . فيالهفي على منازل الشرف [(٢)] وذلك الوادي [(٣)] الذي نعق به غراب البين . ويا شوقي إلى رأس تلك المرجة [(٤)] التي كانت تجلسنا قبل اليوم على الرأس والعين .

هذا وقد اسودت الشقراء [(٥)] وأمست كابيةً لما حصل على ظهرها من الجولان . وجانسها العكس فأضحت باكيةً على فراق الأبلق [(٦)] واخضر ذلك الميدان [(٧)] .

ويامولانا لقد بكى المملوك من الأسف بدمعة حمراء على ما جرى من أهل الشهباء [(٨)] في الميدان على الشقراء حتى كذّب الناس من قال :

قل للذي قايس بين حلبٍ وجلّق بمقتضى عيانها
ما تلحَقُ الشهباءُ في حَلْبَتِها تَعَثُّرَ الشقراء في ميدانها

فقال لسان الحال : والله ما كذب ولكنه قد يخبو الزناد ، ويكبو الجواد ، وقد يصاب الفارس بالعين التي تغمز قناته غمزا

ومن ظن أن سيلاقي الحروب [و] أن لا يصاب فقد ظنّ عجزا

ودخلت بعد ذلك الى (٥ ب) البلد فوجدت على أهله من دروع الصبر سكينة . فقلت : يارب مكة والحرم انظر الى أحوال أهل المدينة . ولكن ما دخلت لها الى حمام إلا وجدته قد ذاق لقطع الماء عنه حماماً . وعلم القوّام والقاعدون

(١) الجزيرة هي المكان القائم اليوم في محلة المرجة (ساحة الشهداء)
(٢) الشرف لعله يقصد هنا الشرف الأعلى حيث يقوم اليوم المشتل الزراعي والتجهيز الأولى للذكور .. أما الشرف الأدنى فيقوم عليه المستشفى الوطني وكليات الجامعة ودار الآثار والتكية (انظر غوطة دمشق لكرد علي)
(٣) وادي الربوة
(٤) المرجة الخضراء : الملعب البلدي اليوم
(٥) الشقراء محلة مطلة على المرجة الخضراء : انظر غوطة دمشق ص ٥٠ والبدري ٧٤
(٦) الأبلق هو القصر الأبلق بناه الظاهر بيبرس سنة ٦٦٨ هـ على مايروي ابن طولون المتوفي سنة ٩٣٥ وكان قد رآه . انظر غوطة دمشق ص ٢٥ .
(٧) يقصد ميدان المرج المشوشب .
(٨) الشهباء : حلب

بأرضه انها ﴿ساءت مستقراً ومقاماً﴾[١] ، وتبلي على بيت ناره ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً﴾[٢] ، فحسن أن أنشد قول ابن الجوزي[٣] رحمه الله تعالى :

الحار عنــدك بارد   والنهر عنــدك منقطع
والعين ما ماء فيهـا   إيش يعمــل القوّام

وأميت بعد ذلك الى الجامع الأموي فإذا هو لأشتات المحاسن جامع . وأتيته طالباً لبديع حسنه فظفرت بالاستضاءة والاقتباس من ذلك النور الساطع . وتمسكت بأذيال حسنه لما نشقت تلك النفحات السحرية . وتشوقت الى النظم والنثر لما نظرت الى تلك الشذور الذهبية . وآنست من جانب طوره ناراً فرجع اليّ ضياء حسي . واندهشت لذلك الملك السليماني وقد زها بالبساط والكرسي . وقلت هذا مُلك سَعِد من وقف في خدمته خاشعاً . وشقي من لم يدس بساطه ويأتيه طائعاً . ولقد صدق من قال :

أرى الحسن مجموعاً بجامع جلق   وفي صدره معنى الملاحة مشروح
فان يتغالى بالجوامع معشر   فقل لهم باب الزيادة[٤] مفتوح

معبد له قصبات السبق ولكن كسرت عند قطع الماء قناته . ورأيته من شدة الظمأ وقد قويت من ضجيج المسلمين أناته ، وخفض النسر[٥] جناح الذل وود

(١) سورة الفرقان ٢٥ : ٦٦
(٢) سورة الأنبياء ٢١ : ٦٩ . وردت في الأصل قلنا نار .
(٣) ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الواعظ المتفنن صاحب التصانيف الشهيرة في أنواع العلم ونظم الشعر المليح توفي سنة ٥٩٧ هـ . شذرات الذهب ج ٤ ص ٣٢٩
(٤) باب الزيارة : قبلي المسجد الأموي وكان يسمى باب الساعات الساعات كانت عليه . مسجد دمشق ، المنجد ص ٢٥ . وهذان البيتان من شعر الشيخ جمال الدين محمد ابن نباتة ، محاسن الشام ص ٤٦
(٥) النسر يريد قبة الأموي الكبرى شبهوها بالنسر في شكله لأن الرواقات عن يمينها وشمالها كالأجنحة لها ، محاسن الشام للبدري ص ٣٦

بأن يكون النسر الطائر . وطمست مُقَل تلك المصابيح فاندهش (٦ آ) لذلك الناظر . هذا وكم نظرت الى حجر مكرم ولم تجد له بعد اكسير الماء جابر . واختفت نجوم تلك الأطباق التي كانت كاللآلئ في جيد النسق . ومرت حلاوة نارها بعدما ركبت ﴿طبقاً عن طبق﴾ [١] . وأصبح بعد تلك النضارة والنعيم ذابل . وكادت قناديله لفقد الماء أن تقطع السلاسل . ولم تشر الناسُ بأصابعها الى فصوص تلك الخواتم المذهبة . ولم يبق على ذلك الصخر طلاوة بعد الماء وحلاوة سكبه الطيبة . ونظرت الى ملون رخامه الذي فاق في نظمه بالتدبيج والترصيع . فاستجهل حتى كأننا ما رأينا له نوعاً من أنواع البديع . كم طالعت به من لوح كتبت هوامشه بالذهب فاكتسى نضارة [٢] الدوح . ولكنه محي وهو يقول بهذا جرى القلم في اللوح . وتذكر المنبر عند قطع الماء أوقاته بالروضة . وتكدرت أفراحه لما ذكر أيامه بتلك الغيضة [٣] وأنشد من شوقه :

لو أن مشتاقاً تكلف فوق ما سيفي وسعه لسعى إليك المنبر [٤]

وودت العروس [٥] أن تكون مجاورة لجماتها لتبل ريقها برحيق الأمن إذا نظرت إلى عاصي الحمدية وقد دخل الى جناتها . ونظرت إلى فوار أبي نواس [٦] وقد انقطع بعد ما كان يثب ويتجرى . وكاد أن ينشد من شعره لعدم الماء : «ألا فاسقني خمراً» [٧] .

(١) سورة الانشقاق ٨٤ : ١٩
(٢) في الأصل نظارة
(٣) الغيضة بالفتح الأجمة وهي مجتمع الشجر في مغيض ماء — تاج العروس .
(٤) من قصيدة البحتري في وصف موكب الخليفة المتوكل وقد خرج لصلاة العيد . وفي الديوان : فلو ان مشتاقاً تكلف غير ما... ديوان البحتري ١ : ٢١٢ مصر سنة ١٩١١
(٥) مئذنة الأموي الشمالية
(٦) القبة التي في وسط صحن المسجد الأموي فيها الماء الجاري من فوار يسميها العامة قبة أبي نواس — البداية والنهاية ٩ : ١٥٩
(٧) ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً اذا أمكن الجهر
(ديوان أبي نواس ٢٧٣ مصر ١٨٩٨ .)

ودخلت إلى الكلاسة [١] وقد علا بها غبار الحزن فتنهدت من الأسف على كل ناهدة . ورثيت للنساء وقد فقدن بعد تلك الأنعام المائدة . واستطردت إلى باب البريد [٢] فوجدت خيول الماء الجارية قد قطعت عن تلك المراكز . ونظرت الى السراج الأكبر وقد انعقد (٦ ب) لسانه لما شعر من ممدوح الماء بعدم تلك الجوائز . ونظرت إلى أهل الصلاة وقد لبسوا في هذه الواقعة من الصبر دروع . وقد استعدوا بسهام من الأدعية أطلقوها من قسي الركوع .

مريشةٌ بالهدب من جفن ساهر منصلةٌ أطرافها بدموع

ونظرت إلى الريان من العلم قد اشتد لفقد الماء ظماه . وتبلد ذهنه حتى صار ما يعرف من أين الطريق إلى باب المياه . ومشيت بحكم القضاء إلى الشهود [٣] فوجدت كلاً منهم قد راجع سهاده وطلق وسنه . وتأملت أهل الساعات [٤] وقد صار عليهم كل يوم بسنة . ونزلت في ذلك الوقت من الساعات إلى الدرج [٥] في دقيقة . فانتهيت إلى مجاز طريق الفوار [٦] فوجدته كأن لم يكن له حقيقة . كم وردته وهو كأنه سنان يطعن في صدر الظما . أو كشجرة كدنا نقول إنها طوبى لما طهرت و ﴿أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ [٧] . أو معترف بندا الماء وقد أفاض عليه عطاياه فيضا . فرفع له لأجل ذلك فوق قناته راية بيضا . أو عمود وفاء أشارت الناس إليه بالأصابع . أو ملك طالب الناس بودائع . حتى كأن إكليل الجوزاء له من جملة الودائع . أو أبيض طائر علا حتى قلنا

(١) في شمال المسجد الأموي سميت بذلك لأنها كانت موضع عمل الكلس أيام بناء الجامع
(٢) الباب الغربي للمسجد الأموي سمي بذلك لأن بريد الوليد بن عبد الملك كان ينزل به — انظر دمشق القديمة للمنجد ٢٨
(٣) الشهود كان مجلسهم عند درج الأموي الشرقي ، انظر رحلة ابن جبير
(٤) الساعات يقصد ساعات الجامع الأموي كانت في الباب الشرقي ، انظر ابن جبير
(٥) درج الأموي الشرقي
(٦) ينزل عليه من باب جيرون ويسمى النوفرة اليوم
(٧) سورة ابراهيم ١٤ : ٢٤

إنه يلتقط حبات النجوم الثواقب . أو شجاع ذو همة عالية « يحاول ثأراً عند بعض الكواكب »[١] . تخفض لفقد الماء مناره واختفى بعد ما كان أشهر من علم . وجدع أنفه بعد وطالما ظهر وفي عرنينه شمم . فقلت :

لستُ أنسى الفوّار وهو ينادي غيضَ مائي وعطل الدهر حالي(٢آ)
فتمنيت من لهيبيَ أني[٢] أشتري غيضه بروحي ومالي

فلا والله ما كانت إلا أيسر مدة حتى رجع الماء إلى مجاريه . وابتسم ثغر دمشق عن شنب الري بعد ما نشف ريقه في فيه . هذا وقد خمدت نار الحرب وقعدت بعد ما كانت على ساق وقدم . وبطلت آلتها التي كان لها على تحريك الأوتار وجس العيدان نغَم . واعتقل الرمح بسجن السلَم . بعد ما كان على رأسه لواء الحرب معقود . وهجعت مقل السيوف في أجفانها لما علمت أن الزيادة في الحد نقص في المحدود . وفاضت غدران الرحمة على رياض الأمن فأنبتت من المسرة ﴿نباتاً حسناً﴾[٣] و ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزَن﴾[٤] .

وبعد فالمعذرة في فهاهة[٥] هذه الرسالة التي هي في رياض الأدب باقليّة[٦] ، والصفح عن طولها وقصر بلاغتها بين يدي تلك المواقف السُحبانية[٧] . وليكن محمولاً على متن الحلم كلامها الموضوع . فقد علم الله أنها صدرت من قلب مكسور وفؤاد مصدوع . وذهن ضعُف ولم يجد لكثير ضعفه عاصماً ولا نافع . وراحلة فكر أمست عند سيرها إلى غايات المعاني ظالع[٨] .

---

(١) عجز بيت لأبي تمام في مدح أبي دلف العجلي ، والصدر : فتى تمادت في العلو كأنما – ديوان أبي تمام مصر سنة ؟
(٢) في الأصل (أن)
(٣) سورة آل عمران ٣ : ٣٧
(٤) سورة فاطر ٣٥ : ٣٤
(٥) فه الرجل يفه فهاهة : عيّ ، محيط المحيط
(٦) باقلية نسبة لرجل أحمق اسمه باقل يضرب به المثل في العي والفهاهة
(٧) سحبانية نسبة لسحبان وائل المشهور بالبلاغة
(٨) يقال بعير ظالع اذا كان يتقي ويعرج (وجاءت في الأصل ضالع)

فسيروا على سيري لأني ضعيفكم ورا حلتي بين الرواحل ظالع

هذا وكم تولد للمملوك في طريق الرمل من عقلة . وكم ذاق من قطاع الطريق أنكاداً حتى ظن أنه لعدم النصرة لم يجد له إلى الاجتماع وصلة . وكلما زعق عليه غراب تألم لسهام البين وفقد مصر التي هي نعم الكنانة . وأنشد وقد تحير في الرمل لفراق ذلك التخت الذي أعز الله سلطانه . (٧ ب)

من زَعقَة الغراب بعد الملتقى فارقت مصراً وبها أحبابي

وفي طريق الرمل صرت حائراً مروّعاً من زعقة الغراب

واستقبل المملوك بعد ذلك بلاد الشام وهو على تلك الحالة فبئس الحال وبئس الاستقبال . فوالرحمن ما وصل لها إلى مكان إلا وجده قد وقعت فيه الواقعة واشتد القتال . وحصدوا سُبُلَ الرشاد فدَرَستْ . فلا أعاد الله لصد حربهم دروس . وأداروا رحى الحرب بقلوب كالأحجار فطحنت عند ذلك الرؤوس .

من كل عادٍ كعادٍ في تجبّره من فوق ذات عماد شادها إرَمْ[1]

لا يُجمعون على غيرِ الحرام إذا تجمعوا كحباب الراح وانتظموا

وانتهت الغاية بالمملوك إلى أنه شُلّح بقرب الكسوة[2] في الشتاء . وانتظرت ملك الموت وقد أمسيتُ مهجةً في النازعات[3] وعبرةً في المرسلات[4] وفكرةً في هل أتى[5] . هذا والليل قد انطفت مصابيح أنواره وعسعس حتى أيقنت بموت الصبح وقلت لو كان في قيد الحياة تنفّس . وذهب المملوك وقد زودوه

(١) عاد الأولى العادي ، والثانية عاد المذكور في القرآن الكريم .

(٢) الكسوة ضاحية جنوبي دمشق سميت باسم كسوة المحمل الذي كان يسافر منها الى مكة المكرمة كل عام — المقابلة بين التشليح والكسوة هنا

(٣) سورة النازعات ٧٩

(٤) سورة المرسلات ٧٧

(٥) سورة الدهر ٧٦

عند قسم الغنيمة بسهم . فجرح ولم يجد له تعديلاً ولكنه صبر على الألم بعد ما كان يدمى من الوهم . ولم يلق له مجبراً لما قوي ألمه وضعف منه الحيل . إلا أنه دخل تحت ذيل الليل . فوصل الى البلد وقد ودّ يومه لو تبدل بالأمس . ولم يسلم له في رقعة الحرب غير الفرس والنفس . ولكنه أنشد :

ما تفعل الأعداء في جاهل ما يفعل الجاهلُ في نفسه

فأعاذ الله مولانا وبلاده من هذه القيامة القائمة ، وبدأ به في الدنيا ببراعة (٨ آ) الأمن وفي الآخرة بحسن الخاتمة ، تم . (٨ ب)

أبو الفتح بن جني

وأثره في اللغة العربية

عصره ، مكانته العلمية ، آثاره

— ٨ —

مدرستا بغداد والأندلس وموقف ابن جني منهما

أما مدرسة بغداد : فقد قامت بعد المدرستين البصرية والكوفية ، لما تأسست بغداد وأخذ علماء المدرستين ينزحون اليها ، فكانت بيآتها العلمية ميداناً للصراع الثقافي بين المذهبين ، وكانت المناقشات العلمية جد حادة بين الفريقين . وعلى الرغم من أن تلك المناقشات قد قربت بين وجهات نظر الفريقين إلا أنها أضعفت المدرسة الكوفية التي كانت - لو ازدهرت - ترفع من شأن البيان العربي ، أو تبعد النحو عن قسوة المنطق وقساوة الأقيسة والتعليلات . وقد كان من نتاج هذه المدرسة أن ألفت بعض الكتب التي عمد أربابها الى البحث في مسائل الاختلاف بين المدرستين ككتاب الإنصاف في مسائل الاختلاف بين المدرستين لابن الأنباري وغيره .

يقول العلامة طه الراوي : لما أنشئت بغداد كان الكوفيون أسبق الناس اليها لمكانة الكوفة من بغداد من الوجهتين السياسية والجغرافية ، ولهذا وجدنا أن علماء الكوفة اتصلوا بقصور الخلفاء والأمراء واحتلوا الصدور من حلق تدريسها ومحافل آدابها ، فكان الكسائي عند الرشيد ، والفراء عند المأمون بالمكانة السامقة ،

وكان مذهب الكوفة ما علمت من التساهل في التأصيل والتفريع ، ومن ثمّ وجدنا تلاميذهم من البغداديين مولعين بالروايات الشاذة يتفاخرون في النوادر بالترخيصات ، واعتمدوا على الفروع ولم يأبهوا للأصول ، ومن هنا تولد مذهب مضطرب النواحي كثير التعاريج عرف بمذهب البغداديين ، ولما كان هذا المذهب أحط من أبيه الكوفي طرحه الجمهور وما أقاموا له وزناً[1] » .

والأستاذ العلامة الراوي قاس في حكمه على المدرسة البغدادية ، ولا عجب فانه كان من الأعلام المتشددين الحريصين على العناية بحفظ تراث اللغة ، كما ورد عن فصحاء أربابها ، لا أهل اللغات النادرة ، والروايات الشاذة ، وإلا فان المدرسة البغدادية على الرغم من تساهلها لم تأت بمذهب منحط ، ولا كان الكوفيون في مذهبهم على تلك الصورة البشعة التي صورها المرحوم الراوي ، ولكنه كما قلنا كان شديد الاعتزاز بعروبته رأى في المذهب البصري المذهب الصحيح القوي السالم فأحبه ودعا اليه وإلا فان نحاة مدرسة بغداد على الرغم من تساهلهم ومن اعتمادهم على طريقة مدرسة الكوفة فانهم قد اتصلوا بنفر من علماء مدرسة البصرة في منتصف القرن الثالث حين أخذ هؤلاء يهاجرون الى بغداد وينشرون مذهبهم فاتبعهم البغداديون في كثير من مسائل العربية[2] .

وقد ظلت المدرسة البغدادية ناشطة فترة طويلة من الزمن الى أن تغلب المتغلبون على الخلافة الاسلامية العباسية في بغداد كالحمدانيين والسامانيين والطولونيين والبويهيين والمرداسيين والسلاجقة وغيرهم ممن أرادوا أن يجعلوا في عواصمهم البعيدة عن بغداد حركات علمية فضعفت مدرسة بغداد بعض الضعف وظلت تصاول وتجادل معاكسات الدهر الى أن احتلها المغول ففرقوا شمل علمائها وقضوا على كثير منهم أو ألجأوهم الى الشام ومصر والمشرق .

(١) راجع تاريخ علوم اللغة للمرحوم الراوي . ص ١٢٨

(٢) راجع التصريح على التوضيح ٢ : ١٧٣ ، ٢٧١ ، ٣٧٣. وهمع الهوامع للسيوطي ١ : ٢٣٥ و ٢ : ١٤٩ ومغني اللبيب لابن هشام ١ : ٩٧ و ٢ : ٨٧ .

ومن أشهر نحاة المدرسة البغدادية :

ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري المروزي الكوفي (— ٢٧٦) الأديب الكاتب العلامة المحدث الأشهر ، ولد في بغداد سنة ٢١٣ وقصد الكوفة فتعلم على أئمتها ونبغ فيها ثم عاد الى بلده .

تلقى العلم عن ابي حاتم السجستاني سهل بن محمد البصري النحوي اللغوي (— ٢٥٥) وعن اسحق بن ابرهيم بن راهويه المحدث الفقيه الراوية (— ٢٣٨) وغيرهما وكان فاضلاً بارعاً في علوم اللغة والنحو والشعر متفنناً في العلوم والآداب وله كتب جليلة مشهورة ، قال الخطيب البغدادي والجلال السيوطي : هو صاحب التصانيف المشهورة والكتب المعروفة منها (غريب القرآن) و (غريب الحديث) و (مشكل القرآن) و (مشكل الحديث) و (أدب الكتّاب) و (عيون الأخبار) و (كتاب المعارف) و (اعراب القرآن) و (جامع النحو) الكبير والصغير . و (المسائل والأجوبة) وغيرها[1] .

وأبو حنيفة : احمد بن داود الدينوري (— ٢٨٢) الرياضي الأديب الكاتب اللغوي أخذ العلم عن أئمة البلدين والكثير عن ابن السكيت . وكان من نوادر العلماء الذين جمعوا بين آداب العرب وحكم الفلاسفة .

قال السيوطي في البغية : كان نحوياً لغوياً مع الهندسة والحساب وكان من نوادر الرجال وكان راوية ثقة ورعاً زاهداً أخذ عن الكوفيين والبصريين وأكثر عن ابن السكيت صنف كتاب (لحن العامة) و (الشعر والشعراء) و (الأنواء) و (النبات) الذي لم يؤلف مثله في معناه و (تفسير القرآن) و (إصلاح المنطق) و (الفصاحة) و (الجبر والمقابلة) و (البلدان) و (الرد على لغدة)[2] .

(١) تاريخ بغداد ١٠ : ١٧٠ وبغية الوعاة ص ٢٩١ وبروكلمان G.A.L. ١ : ١٢٠ والذيل ١ : ١٨٤

(٢) بغية الوعاة ص ١٣٢

وكان إماماً جليلاً وبليغاً فاضلاً اختلف العلماء مرة في مجلس أبي سعيد السيرافي في التفضيل بينه وبين الجاحظ فسألوه فقال : أنا أحقر نفسي عن الحكم لهما وعليهما فقيل : لا بد ، فقال : أبو حنيفة أكثر ندارة وأبو عثمان أكثر حلاوة ، ومعاني أبي عثمان لائطة بالنفس سهلة في السمع ولفظ أبي حنيفة أعذب وأغرب وأدخل في أساليب العرب (١) وقال أبو حيان التوحيدي في كتاب تقريظ الجاحظ بعد أن أورد كلمة السيرافي : والذي أقول وأعتقد .. أني لم أجد في جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم مدى الدنيا الى أن يأخذ الله يزولها لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم ، أحدهم هذا الشيخ (الجاحظ) ... والثاني أبو حنيفة ... والثالث أبو زيد احمد بن سهل البلخي ... »

وقد أطنب ياقوت في ترجمته وعدّد فضله وسمى كتبه التي خلفها فارجع اليها إذا شئت (٢) وقد نقبنا عن الباقي منها فلم نجد إلا (كتاب النبات) وكتاباً ينسب اليه وهو (الأخبار الطوال) المطبوع المتداول (٢) .

وعبد الله بن عبد العزيز أبو موسى الضرير البغدادي (— ٢٥٥ ؟) كان مؤدب ولد الخليفة المهتدي ، وكان من الأفاضل رحل الى مصر وسكنها وحدث فيها عن أحمد بن جعفر الدينوري وروى عنه يعقوب بن احمد التجيبري . وله من الآثار (كتاب الفرق) وقد ضاع ، وكتاب في الكتابة والكتّاب عنوانه (كتاب الكتّاب وصفات الدواة والقلم) ومنه نسخة فريدة (٣) .

(١) معجم الأدباء طبعة دار المأمون ٣ : ٢٧

(٢) راجع بروكلمان ١ : ١٢٣ والذيل ١ : ١٨٧ والفهرست لابن النديم ص ٧٨ وضحى الإسلام لأحمد أمين ١ : ٤٠٦

(٣) راجع البغية للسيوطي ٢٨٥ وبروكلمان الذيل ١ : ١٨٧

وأبو علي الحسن بن عبد الله الاصفهاني المشهور بلقب لُغْدَة أو لُكْذَة (— في أواخر القرن الثالث) وهو إمام نحوي بلداني لغوي جليل قال السيوطي: كان إماماً في النحو واللغة جيد المعرفة بفنون الأدب وحسن القيام في القياس أخذ عن الباهلي صاحب الاصمعي، والكرماني صاحب الأخفش وكان يحضر مجلس الزجاج ويكتب عنه ثم خالفه، وكان بينه وبين أبي حنيفة الدينوري مناقضات وكان في طبقته . ولم يكن له في آخر أيامه نظير في العراق [١] .

وقال ياقوت: قدم بغداد وكان جيد المعرفة بفنون الأدب حسن القيام بالقياس موفقاً في كلامه وكان إماماً في النحو واللغة وكان في طبقة أبي حنيفة الدينوري ... قال محمد بن اسحق النديم وله من التصانيف (كتاب الرد على الشعراء) نقضه عليه أبو حنيفة الدينوري و (كتاب النطق) و (كتاب الرد على أبي عبيد في غريب الحديث) و (علل النحو) و (المختصر في النحو) و (كتاب المشاشة والبشاشة) و (كتاب نقض علل النحو) و (كتاب الرد على ابن قتيبة في غريب الحديث) [٢] وقد ضاعت هذه الكتب جميعاً فيما أعلم، ولم يبق من آثاره إلا كتاب (مياه وجبال وبلاد جزيرة العرب) [٣] .

وأبو اسحق ابرهيم بن اسحق بن بشر الحربي (— ٢٨٥) كان قيماً بالأدب، جماعة للغة، بارعاً بالنحو، حافظاً للحديث، عالماً بالفقه . أخذ الأدب عن أبي العباس ثعلب وكان ثعلب يقول: ما فقدت ابرهيم الحربي من مجلس نحو أو لغة خمسين سنة . وقال محمد بن صالح: لا نعلم أن بغداد أخرجت مثل ابرهيم الحربي في الفقه والأدب والحديث والزهد . وقال الدارقطني: كان إماماً

(١) بغية الوعاة ص ٢٢٢
(٢) معجم الأدباء ٨ : ١٤٢
(٣) راجع ذيل بروكلمان ١ : ١٨٨ ويعنى الأستاذ المحقق حمد الجاسر بنشره وتحقيقه فيما حدثني وفقه الله .

يقاس بأحمد بن حنبل في زهده وعلمه وورعه ، وفي الحقيقة أنه كان مصنفاً عالماً محيطاً بعلوم عصره بارعاً فيها ، صدوقاً ثقة ، وكان صديقاً للإمام أبي يوسف القاضي صاحب أبي حنيفة . روى عن أبي نعيم الفضل بن دكين ، وأحمد بن حنبل ، وعثمان بن أبي شيبة وطبقتهم وتخرج به جماعة منهم أبو عمرو الزاهد وأبو بكر ابن الأنباري ، والحسين المحاملي وغيرهم . وقد خلف آثاراً جليلة في العربية والحديث والأدب واللغة ولم يبق منها سوى (غريب الحديث) و (اكرام الضيف) وقد طبع بمصر[1] .

وأبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه (— ٣٧٠) كان بارعاً باللغة والعربية والقراءات والأدب ، دخل بغداد سنة ٣١٤ فقرأ على أبي بكر ابن دريد وأبي عبد الله نفطويه وأبي بكر بن الأنباري وأبي عمر الزاهد وابن مجاهد ومحمد بن مخلد العطار . وروى عنه أبو بكر الخوارزمي الأديب الكاتب ، والمعافا بن زكريا . سافر الى حلب واتصل بسيف الدولة الحمداني واختص به وأدّب أولاده وبقي هناك فانتشر تلاميذه ونشا مذهبه ، وجرت له مع أبي الطيب المتنبي مناظرات ومحاورات وحوادث . قال السيوطي : كان من أفراد الدهر في كل قسم من أقسام العلم والأدب وكانت الرحلة اليه من الآفاق ، وقال الداني : عالم بالعربية ، حافظ للغة بصير بالقراءة ثقة مشهور .

ومن آثاره النحوية (الجمل) و (الاشتقاق) و (إعراب ثلاثين سورة من القرآن) و (كتاب ليس) و (الالفات) و (المذكر والمؤنث) و (كتاب القراءات) وغيرها ولم يبق من آثاره هذه إلا (إعراب ثلاثين سورة) و (كتاب الشجر) و (كتاب يس) و (كتاب الريح) و (شرح ديوان أبي فراس الحمداني)[2] .

(١) راجع بغية الوعاة للسيوطي ص ١٧٨ ونزهة الألباء ص ٢٧٥ وتاريخ الخطيب البغدادي ٦ : ٢٧ وبروكلمان الذيل ١ : ١٨٨

(٢) راجع يتيمة الدهر ١ : ٦٧ ، والنزهة لابن الأنباري ٣٨٣ ، ووفيات ابن خلكان رقم ١٨٦ ومعجم الأدباء ٤ : ٤ وشذرات الذهب لابن العماد ٣ : ٧١ وبروكلمان ١ : ١٢٥ والذيل ١ : ١٩٠

وأبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي (— ٣٨١) وكان منافساً لابن خالويه وهو أحد العلماء المشهورين المتقنين لعلوم العربية واللغة أخذ عن أبي عمر الزاهد ومحمد بن يحيى الصولي ، أصله من عسكر مكرم تعلم في بغداد ثم قدم الى حلب واتصل بسيف الدولة وعظمت مكانته عنده لفضله وأدبه ، ترجمه السيوطي في البغية فأثنى عليه وقال : « الامام الأوحد له التصانيف الجليلة منها (مراتب النحويين) و (لطيف الاتباع) و (كتاب الابدال) و (شجر الدر) وقد ضاع أكثر مؤلفاته وكان بينه وبين ابن خالويه منافسة ، مات بعد الخمسين وثلاثمائة ، وقال الصفدي : أحد العلماء المبرزين المتفننين بعلمي اللغة والعربية ... أقام بحلب الى أن قتل في دخول الدمستق حلب سنة احدى وثمانين ولم يبق لنا اليوم من كتبه إلا (مراتب النحويين — اللغويين —) و (شجر الدر) و (كتاب الابدال) [(1)] .

وأبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني الخراساني البغدادي (٢٩٧ — ٣٨٤) ولد ببغداد وتعلم فيها ونبغ في علوم الأدب والعربية والتاريخ ، وكان رجلاً كريماً يفضل على تلاميذه وأساتيذه . وكانت داره نادياً لأهل العلم وكان من عادته أن يضع بين يديه زجاجة حبر وزجاجة خمر فلا يزال يشرب ويكتب وهو مقسم الفكر بين الواقع والخيال وكان راوية واسع الرواية صادق اللهجة واسع المعرفة كثير السماع وكان من خيار المعتزلة وصنف كتباً كثيرة في العربية وأخبار الشعراء والأمم والرجال والنوادر وكان حسن التصنيف ويقال إنه كان أحسن تصنيفاً من الجاحظ .

ومن آثاره العديدة الجليلة (المفصل في البيان والفصاحة) و (المقتبس) في أخبار النحويين البصريين ، وأول من تكلم في النحو وأخبار القراء والرواة من أهل البصرة والكوفة ، و (الموشح فيما أنكره العلماء على بعض الشعراء) من

(١) بغية الوعاة ص ٣١٧ وبروكلمان G.A.L. الذيل ١ : ١٩٠

الكسر واللحن وعيوب الشعر .. وقد عدَّ له ياقوت آثاره وعدد أوراقها وهي كثيرة جليلة وقد ضاع أكثرها ولم يبق منها إلا (الموشح) و (أشعار النساء) و (معجم الشعراء)[1] .

وأبو أحمد الحسين بن عبد الله بن سعيد العسكري (— ٣٨٢) وكان إماماً لغوياً نحوياً تعلم ببغداد والبصرة واصبهان ودرس على أبي القاسم البغوي وابن دريد ونفطويه وطبقتهم ، وانتهت اليه رياسة التحديث والإملاء والتدريس بخوزستان ، ورحل اليه الأجلاء ومن أشهر تلاميذه أبو نعيم الاصفهاني وأبو هلال العسكري مؤلف الصناعتين . قال السيوطي : العلامة اللغوي من الأئمة المذكورين في التصرف في أنواع العلوم والتبحر في فنون الفهوم . أكثر وبالغ في الكتابة واشتهر في الآفاق بالدراية وحسن التأليف[2] ومن آثاره الجليلة (كتاب التصحيف) و (المختلف والمؤتلف) . وغيرهما[3] .

وأما المدرسة الأندلسية: فهي المدرسة التي ظهرت في مغرب العالم الاسلامي . وقد دخل الإسلام الى هاتيك الديار منذ فجر الإسلام وانتشرت اللغة العربية بين أهالي تلك الربوع ، ونبغ منهم العلماء والأدباء والشعراء والمصنفون ، وكانوا يقتبسون من أهل المشرق خير ماعندهم وينهجون على منهجهم وقد هاجر نفر من علماء المشرق الى الأندلس والمغرب الاسلامي فكانوا ينشئون هناك الرسائل والكتب ويحلقون الحلقات العلمية وينشرون العلم بين أهل تلك الديار .

وقد نشطت الرحلات العلمية بين أهل المشرق الاسلامي وأهل المغرب فازدهرت الحركة العلمية في الأندلس وبلاد المغرب وقد ظهر من المغاربة والأندلسيين عدد كبير من العلماء وبخاصة في النحو . وقد اهتم هؤلاء النحويون بمباحث الخلافات

(١) معجم الادباء ١٨ : ٢٦٨. وبروكلمان G.A.L الذيل ١ : ١٩٠ — ١٩١
(٢) بغية الوعاة ص ٢٢١
(٣) بروكلمان الذيل ١ : ١٩١

النحوية بين المدرستين الكوفية والبصرية ثم المدرسة البغدادية ، وتناقشوا في أقوال هذه المدارس ، واختاروا لأنفسهم مذهباً خاصاً عرف بالمدرسة الأندلسية وقد كانت هذه المدرسة تختار أفضل الأقوال من بين المدارس الثلاث ، وان كان جل اعتمادها على المدرسة البصرية .

وقد ظل المغاربة والأندلسيون يقتفون آثار المدارس الشرقية الى أن نبغ في ديارهم العلامة الإمام أبو العباس احمد بن عبد الرحمن بن مضاء الأندلسي القرطبي وألف رسالته النحوية الجريئة التي سنتحدث عنها فيما بعد . ثم تتابع النحاة من بعده يؤلفون الرسائل والكتب على طريقتهم الجديدة .

ومن كبار الأئمة الأندلسيين والمغاربة الذين كان لهم أثر واضح في هذا المذهب الجديد :

أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي (٢٨٨ — ٣٥٦ هـ) وكان من أعلم الناس في عصره بنحو البصرة ، وأحفظ أهل زمانه للغة وأرواهم للشعر ، تعلم في البصرة ثم في بغداد ، وقرأ على ابن درستويه والزجاج والأخفش الصغير ونفطويه وابن دريد وابن السراج وجحظة وطبقتهم ثم خرج من بغداد في سنة ٣٢٨ فدخل قرطبة في سنة ٣٣٠ وتهافت الناس عليه فقرأوا الأدب والعربية ، وأكرمه أميرها إكراماً عظيماً وصنف له كتاب الأمالي ، وظل هناك الى أن مات .

وخلف آثاراً جليلة في العربية أجلها (الأمالي) و (النوادر) و (المقصور والممدود) و (فعلت وأفعلت) و (البارع في اللغة) وغيرها وقد ضاع أكثرها[1] .

وأبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج الزبيدي الاشبيلي القرطبي (— ٣٧٩) وكان إماماً في علوم العربية واللغة ، وكان متقناً للنحو ، أخذ اللغة عن أبي علي القالي وأبي عبد الله الرياحي ، تولى قضاء قرطبة ، وأدب الأمير

(١) راجع معجم الأدباء ٢ : ٣٥١ ، والبغية للسيوطي ١٩٨ ، وجذوة المقتبس للحميدي ١ : ٧٨٣ ، والتكملة لابن الأبار ٣٦٢ ، وابن بشكوال في الصلة رقم ٤ ، ٢٨٩

هشام ولد الخليفة المستنصر بالله الأندلسي ، قال ابن الفرضي : كان أوحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة وصنف (مختصر العين) و (أبنية سيبويه) و (ما يلحن فيه عوام الأندلس) و (طبقات النحويين) و (الواضح في النحو) قال ياقوت : وبلغني أن أهل الغرب يتنافسون في كتبه خصوصاً كتابه الذي اختصره من كتاب العين لأنه أتمه باختصاره وأوضح مشكله وزاد فيه ما عساه كان مفتقراً اليه [1] .

وأبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المشهور بابن القوطية (— ٣٦٧)

وهو الأديب المؤرخ اللغوي النحوي مولى عمر بن عبد العزيز ، كان من أهل إشبيلية وفيها تعلم على ابن الأغبش وقاسم بن اصبغ وأبي الوليد الأعرج وطبقتهم حتى بلغ رتبة الإمامة في اللغة والعربية والتاريخ والأخبار .

قال ياقوت : كان أعلم أهل زمانه باللغة والعربية إماماً مقدماً فيهما ، وأروى أهل عصره للأشعار والأخبار لا يشق في ذلك غباره ولا يلحق شأوه وكان مع ذلك فقيهاً متمكناً حافظاً للحديث والآثار غير أنه لم يكن له في ذلك أصول يرجع اليها فلم يكن ضابطاً للرواية ، ولما دخل أبو علي القالي الأندلس اجتمع به وكان يبالغ في تقديمه وتعظيمه حتى قال له الخليفة المستنصر الحكم ؛ مَن أنبل من رأيته ببلدنا في اللغة فقال : أبو بكر بن القوطية ... وروى عنه الشيوخ والكهول وطال عمره فسمع الناس منه طبقة بعد طبقة ، ومن تصانيفه (كتاب تصاريف الأفعال) وهو أول مصنف في ذلك ثم تبعه ابن القطّاع السعدي فوضع كتابه على منواله و (المقصور والممدود) جمع فيه وأوعى فأعجز من بعده عن أن يأتوا بمثله وفاق من تقدمه و (شرح أدب الكتاب) وغيرها من الكتب ولكن أكثرها قد فقد [2] .

(١) راجع معجم الأدباء ١٨ : ١٧٩ ، وانباه الرواة للقفطي ، وبغية الوعاة ٨٤ وبروكلمان G.A.L. الذيل ١ : ٢٣٢ .

(٢) راجع معجم الأدباء ١٨ : ٢٨٢ والبغية ص ٨٤ : وابن الفرضي رقم ١٣١٦ والديباج المذهب لابن فرحون ص ٢٦٢ ، والشذرات لابن العماد ٣ : ٦٢ ونفح الطيب للمقري ٤٦٢ وبروكلمان G.A.L. الذيل ١ : ٢٣٢ — ٢٣٣

وأبو عثمان سعيد بن محمد المعافري القرطبي السرقسطي ابن الحداد (– ٤٠٠)

كان من فضلاء علماء الأندلس وكبار النحاة بارعاً بالعربية والجدل . قال الزبيدي : كان أستاذاً في غير ما فن ، عالماً بالعربية واللغة وكان الجدل أغلب الفنون عليه وكان دقيق النظر جداً ثابت الحجة شديد المعارضة حاضر الجواب وله كتب كثيرة منها (توضيح المشكل في القرآن) و (الأمالي) و (كتاب الأفعال) وغير ذلك وقد ضاعت[1] .

وأبو العباس أحمد بن عبد الرحمن المشهور بابن مضاء القرطبي (– ٥٩٢)

كان من أفراد العلماء براعة في العربية واللغة والفقه تولى قضاء الجماعة بقرطبة . وكان له تقدم في العربية وآراء فيها خالف فيها غيره من العلماء وكان مقرئاً مجوداً محدثاً مكثراً عارفاً بالأصول ، والكلام ، والطب ، والهندسة والحساب ، وكان متوقد الذكاء ، خلف آثاراً جليلة في النحو والفقه والعقائد[2] وقد ضاع أكثرها ولم يبق من آثاره إلا (كتاب الرد على النحاة) الذي نقد فيه مذاهب نحاة عصره والأقدمين .

قال ابن الزبير : أحد من ختمت به المائة السادسة من أفراد العلماء أخذ عن ابن الرماك كتاب سيبويه تفهماً وسمع عليه وعلى غيره من الكتب النحوية واللغوية والأدبية ما لا يحصى وكان له تقدم في علم العربية واعتناء وآراء فيها ومذاهب مخالفة لأصلها .. وقد رد عليه الإمام ابن خروف بكتاب سماه (تنزيه أئمة النحو عما نسب اليهم من الخطأ والسهو) ولما بلغه ذلك قال : نحن لا نبالي بالأكباش النطاحة وتعارضنا أبناء الخرفان .

هؤلاء هم بعض أئمة المدرسة الأندلسية ، ويلاحظ القارئ أننا ذكرنا في آخرهم الإمام ابن مضاء النحوي مع أنه من علماء القرن السادس وهو متأخر عن العصر

(١) بغية الوعاة ص ٢٥٧

(٢) بغية الوعاة ص ١٣٩ وغاية النهاية لابن الجزري ١ : ٦٧ .

الذي نؤرخه وهو عصر ابن جني فاننا انما فعلنا ذلك لننبه القارئ الى أن آثار هذه المدرسة وإن كانت قد ضاعت فاننا نجد بعض آثارها لدى هذا النحوي المتأخر .

موقف أبي الفتح بن جني من هذه المدارس الأربع :

هذه هي مدارس النحو الأربع الكبرى وقد كان ابن جني لا يتقيد بواحدة منها ، بل يدرسها جميعاً وينتقي منها ما يروقه أو يرى أنه الصحيح ، وكان يناقش أرباب هذه المدارس وبخاصة أرباب مدرستي البصرة والكوفة ، وكان يرى أن هؤلاء هم أولى العلماء بالمناقشة والبحث [1] ؛ قال في باب القول على إجماع أهل اللغة العربية متى يكون حجة : اعلم أن إجماع أهل البلدين انما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده ألاّ تخالف المنصوص والمقيس عليه فأما ان لم يُعط يده بذلك فلا يكون إجماعهم حجة عليك ، وذلك انه لم يرد ممن يُطاع في قرآن ولا سنة انهم لا يجتمعون على الخطأ [2] » فهذا القول يدلك على أنه لا يخالف أئمة المدرستين أو غيرهما إذا كانت لديهم الحجج القوية والأدلة القطعية أما إذا لم يوردوا الحجج ويبرهنوا على ما ذهبوا اليه فلك أن تخالفهم وتناقش أقوالهم لأن إجماعهم ليس إجماعاً ورد به الدين أو أمر به الكتاب والسنة « وانما هو علم منتزع من شعراء هذه اللغة فكل من فُرق له علم صحيح وطريق نهجه كان خليل نفسه وأبا عمرو فكره » [3] فليس الخليل بن أحمد ولا أبو عمرو بن العلاء على جلالة قدرهما وسعة علمهما وإجماع الناس على أنهما الإمامان الجليلان اللذان أوتيا العلم الوافر والعقل المستنير ، معصومين من الخطأ أو ممنوعين من الوقوع في الخطل ، وكل إنسان آتاه الله العلم واستطاع أن يهتدي بعقله وبحثه واستقرائه وتحقيقه الى علم جديد وبحث مفيد .

(١) راجع الخصائص الطبعة الأولى ١ : ٣

(٢) راجع الخصائص الطبعة الأولى ١ : ١٩٦

(٣) راجع الخصائص الطبعة الأولى ١ : ١٩٧

مذهب ابن جني في النحو : رأيت فيما سبق أن أبا الفتح لم يكن متقيداً بمذهب مخصوص فلا كان بصرياً ولا كوفياً ولا بغدادياً ولا اندلسياً بل كان أمة مستقلاً برأيه وان كان الى مذهب البغداديين أقرب والى آرائهم أميل لأنه تأثر بأستاذه أبي علي الفارمي بعض الشيء ، فهو يذكر في مقدمة كتاب الخصائص أنه بعد أن انكشفت له أسرار اللغة العربية وخصائص دقائقها وسر إتقانها أراد أن يؤلف هذا الكتاب ويجعل للغة العربية ونحوها أصولاً كما جعل العلماء للفقه والكلام أصولاً وانه شرع في ذلك وان علماء الكوفيين والبصريين لم يستطيعوا أن يفعلوا فعله على الرغم من اطلاعهم على تلك الأسرار وعلى محاولتهم عمل بعض الكتب المتعلقة بأصول النحو مثل عمل أبي بكر محمد بن السراج شيخ أستاذه أبي علي الفارمي الذي ألف (مصنفات حسنة وأحسنها وأكبرها كتاب الأصول فانه جمع فيه أصول علم العربية وأخذ مسائل سيبويه ورتبها أحسن ترتيب وكان ثقة)[1] .

يقول ابن جني « إن تعريد (أي تهرب) كل من الفريقين البصريين والكوفيين عنه وتحاميهم طريق الإلمام به ، أو الخوض في أدنى أوشاله وخلجه ، فضلاً عن اقتحام غماره ولججه ، إنما كان لامتناع جانبه ، وانتشار شعاعه ، وبادي تهاجر قوانينه وأوضاعه ، وذلك اننا لم نر أحداً من علماء البلدين تعرض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه فأما كتاب أبي بكر فلم يلمم بما يحسن عليه إلا حرفاً أو حرفين في أوله ... على أن أبا الحسن (أي الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة (— ٢١١) قد كان صنف في شيء من المقاييس كتيباً اذا أنت قرنته بكتابنا هذا علمت بذاك أنا نبنا عنه فيه ... » .

فأنت ترى من كلامه هذا أنه شديد الاعتزاز بما أبدعه وان أحداً من العلماء

(١) نزهة الألباء لابن الانباري ص ٣١٤

السابقين على جلالة قدر كثير منهم لم يحوموا حول حوضه ولم يأتوا بشيء من المباحث التي جاء بها لا يستثنى من ذلك أحد من علماء المصرين ، الكوفيين والبصريين ، يقول في باب القول على إجماع أهل العربية متى يكون حجة ؟ :

« إن إجماع أهل البلدين انما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده ألاّ تخالف المنصوص أو المقيس على النصوص فاذا لم يعط يده بذلك فلا يكون إجماعهم حجة عليه وذلك انه لم يرد ممن يطاع أمره في قرآن ولا سنة انهم لا يجتمعون على الخطأ كما جاء النص عن رسول الله ﷺ من قوله « أمتي لا تجتمع على ضلالة » وانما هو منتزع من استقراء هذه اللغة ، فكل من فُرق له على علة صحيحة وطريق نهجه كان خليل نفسه ، وأبا عمرو فكره ، إلا أننا مع هـذا الذي رأيناه وسوغنا مرتكبه لا نسمح له بالإقدام على مخالفة الجماعة التي قد طال بحثها وتقدم نظيرها وتتالت أواخر على أوائل ... »

الى ذلك الكلام الذي أثبت فيه فضل علم الأوائل من أهل البصرة والكوفة معاً ، وكشف عن جهودهم في صيانة لغة القرآن الكريم ، والحديث النبوى ، والشعر العربي ، إلا أن هذا لم يمنعه أن يكوّن لنفسه مذهباً خاصاً به ، ويرى أن قولهم « ما ترك الأول للآخر شيئاً » قول غير صحيح ، كما ذهب اليه الجاحظ وأبو عثمان المازني الذي يقول « إذا قال العالم قولاً متقدماً فللمتعلم الاقتداء به والانتصار له والاحتجاج بخلافه إذا وجد الى ذلك سبيلا » ويورد ابن جني بعد ذلك بعض الأقوال التي خالف فيها قول الأوائل والأواخر ويستدل على صدق نظريته قائلاً « فما جاز خلاف الإجماع الواقع فيه منذ بديء هذا العلم والى آخر هذا الوقت ما رأيته أنا في قولهم (هذا جحر ضب خرب) فهذا يتناوله آخر عن أول وتالٍ عن ماضٍ على أنه غلط من العرب لا يختلفون فيه ولا يتوقفون عنه ، وانه من الشاذ الذي لا يحمل عنه ولا يجوز ردّ غيره اليه ، وأما أنا فعندي ان في القرآن مثل هذا الموضع نيفاً على ألف موضع وذلك انه على حذف

المضاف لا غير فاذا حملته على هذا الذي هو حشو الكلام من القرآن والشعر ساغ وسلس وشاع وقبل [١] » .

وهو أيضاً ينتقد البغداديين كما انتقد البصريين والكوفيين فيقول في باب (إسقاط الدليل) : « ومن ذلك قول البغداديين ان الاسم يرتفع بما يعود عليه من ذكره نحو زيد مررت به ، وأخوك أكرمته فارتفاعه عندهم إنما هو لأن عائداً عاد عليه فارتفع بذلك العائد ، وإسقاط هذا الدليل ان يقال لهم فنحن نقول زيد هل ضربته ؟ وأخوك متى كلمته ؟ ، ومعلوم أن ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله [٢] » فهذا يدلك على أن أبا الفتح إنما هو أمة مستقل في رأيه يفتش عن الحقيقة فحيث وجدها فثم مذهبه . وهو لا يقتنع إلا بالبراهين والأدلة الثابتة فمن كانت أدلته أقوى كان هو الموثوق بقوله وإلا فلا ، ويظهر أنه كان على الرغم مما سبق ميالاً الى مذهب البصريين شديد الانتقاد لمذهب الكوفيين ، فهو ميال الى البصريين مثل شيخه أبي علي الفارسي ، وهو يعتمد مذهبهم ويجري في كتبه ومباحثه وأقواله على طريقتهم ، الا إذا وجد الحجة التي تجعله يميل عن مذهبهم الى مذهب غيرهم أو إلى مذهب جديد .

يقول في سر الصناعة في (حرف النون) في صدد قول الشاعر :

أن تهبطين بلا قو م يرتعون من الطلاح

ان الكوفيين يقولون إن هذا تشبيه (أن) بـ (ما) التي في معنى المصدر « فأما قولنا نحن فانه أراد (أنّ الثقيلة) وخففها ضرورة وتقديره انك تهبطين » .

ويقول في سر الصناعة أيضاً في (حرف الكاف) في قولهم (أنت كزيد) ان الكاف اسم تقديره أنت مثل زيد وان هذا قول أصحابنا وان كان قد أجاز بعض البغداديين أن يكون في هذا النحو الذي هو غير مشتق من الفعل ضمير

(١) الخصائص الطبعة الاولى ١ : ١٩٦ – ١٩٩

(٢) الخصائص الطبعة الاولى ١ : ٣٠٩

كما يكون من المشتق » . ولا شك في أنه يقصد بقوله (أصحابنا) أئمة البصرة فان هذا هو مذهبهم .

وصفوة القول ان أبا الفتح لم يكن بصرياً خالصاً ، ولا كوفياً خالصاً ولا بغدادياً خالصاً ولكنه كان ينتقي القول الذي يراه جديراً بالانتقاء ، وانه قال أقوالاً في الصرف واللغة والنحو انفرد بها والشواهد على ذلك جد كثيرة .

فما انفرد به في النحو : تجويز إظهار متعلق الظرف الواقع خبراً في الكون العام مثل قولك محمد عندك ، قال ابن يعيش في شرح مفصل الزمخشري : « اعلم أنك لما حذفت الخبر الذي هو (استقر) أو (مستقر) وأقمت الظرف مقامه على ما ذكرنا صار الظرف هو الخبر والمعاملة معه وهو مغاير المبتدأ في المعنى ونقلت الضمير الذي كان في الاستقرار الى الظرف وصار مرتفعاً بالظرف كما كان مرتفعاً بالاستقرار ثم حذفت الاستقرار وصار أصلاً مرفوضاً لا يجوز إظهاره للاستغناء عنه بالظرف وصرح ابن جني بجواز إظهاره والقول عندي في ذلك ان بعد حذف الخبر الذي هو الاستقرار ونقل الضمير الى الظرف لا يجوز إظهار ذلك المحذوف [1] » .

ومما انفرد به أيضاً في النحو قوله في علة المنع من الصرف « إن [2] الأسباب المانعة من الصرف تسعة واحد منها لفظي وهي شبه الفعل لفظاً نحو أحمد ويَرْمَعْ وتَنْضُبْ وإثْمِد وأُبْلُم وبَقَّم واستبرق [3] ، والثمانية الباقية كلها معنوية ، كالتعريف والوصف والعدد والتأنيث وغير ذلك ... » مع أن النحويين يقولون إن السبب المعنوي هو العلمية والوصفية والباقي هو أسباب لفظية .

ومما انفرد به إدخاله (قد) على الفعل المنفي وقد استعمل هذا الاستعمال

(١) شرح المفصل ، الطبعة المنيرية ١ : ٩٠

(٢) الخصائص الطبعة الأولى ١ : ١١٤

(٣) اليرمع هو الحجارة الرخوة الطرية ، والتنضب شجر معروف في الحجاز ، والابلم هو أغصان المقل ؛ والبقم شجر يصنع بورقه . والاستبرق : حرير سميك .

كثيراً في كتبه كالخصائص وسر الصناعة فمن ذلك قوله في الخصائص « كان القول قد لا يتم معناه إلا بغيرة »[1] وهذا أمر ما قال به النحويون قبله ولا أجازه من جاء بعده .

ومن ذلك إجازته إدخال أداة التعريف على (بعض) كقوله (فلما كان الأمر كذلك واقتضت الصورة رفض البعض واستعمال البعض[2]) وقد منع النحويون المتأخرون هذا مع أن سيبويه قد استعمله في كتابه .

مذهبه في اللغة والتصريف : تعمق ابن جني في حفظ كلام العرب ورواية لغتهم والغوص عن أسرار أساليبهم حتى أشربت لغتهم بروحه وقد ظهر هذا في بحوثه الصرفية التي تتجلى في كتابه « سر الصناعة » وفي المباحث اللغوية العديدة التي حفظها لنا اللغويون المتأخرون في كتبهم كابن سيده وابن منظور وغيرهما من أئمة اللغة ، وان كانت كتبه قد ضاعت .

وابن جني كما يتجلى لنا من قراءة كتب الصرفيين واللغويين المتأخرين الذين جاءوا بعده ، هو إمام مجدد ذو أثر عميق في هذه اللغة ، أسبغ عليها ثوباً جديداً بمباحثه الصرفية ، واللغوية ، وقد ظهرت صور من ذلك الأثر في كتب كبار المؤلفين الذين جاءوا من بعده وبخاصة ابن سيده علي بن أحمد الإمام اللغوي (– ٤٥٨) فقد تأثر هذا الإمام الكبير اللغوي بمباحث ابن جني وبألفاظه وحفظها حتى انه ربما أورد ألفاظه وعباراته دون أن يشير اليه أو يعزو في كتابيه الجليلين (المخصص) و (المحكم) . حتى ان ابن منظور الذي جاء بعد ابن سيده ينقل كلام ابن سيده وينسبه اليه مع أنه لفظ ابن جني .

واللوم في هذه القضية يقع على ابن منظور لا على ابن سيده فان ابن سيده

(١) الخصائص الطبعة الثانية ١ : ٢٠
(٢) الخصائص الطبعة الثانية ١ : ٦٤

رجل أعمى ألف هذه الكتب الجليلة في اللغة من إملائه فلا ضير عليه أن يهمل ذكر اسم ابن جني ، ولكنّ الضير على ابن منظور الذي جاء بعده ونقل أقواله ورأى خطأ ابن سيده ولم ينبه عليه .

وعلى هذا فلسنا نشاطر الأستاذ محمد علي النجار قوله في مقدمة الطبعة الثانية من الخصائص : (فتح ابن جني في العربية أبواباً لم يتسنّ فتحها لسواه .. وكان بذلك إماماً يحتاج إلى أتباع يمضون في سبيله ... على انه أتيح له لغوي كبير أغار على فوائده وبحوثه اللغوية ذلك هو ابن سيده ... وهو كثيراً ما يغفل العزو اليه في كتابه المحكم ويأتي صاحب اللسان فينقل ما في ابن سيده وينسبه اليه وهو لابن جني)[1] فنحن نعذر ابن سيده للسبب الذي ذكرناه آنفاً ولكنا لا نجد لابن منظور أي عذر .

والحق ان كتب ابن جني قد كانت معيناً لأئمة اللغة الذين كتبوا من بعده وفي طليعتهم ابن سيده ، وابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة (– ٤٦٦) وابن الأثير في المثل السائر (– ٦٣٣) ، وابن منظور في اللسان ، والسيوطي في الأشباه والنظائر (– ٩١١) وغيرهم . واننا لو رحنا نفتش خلال العصور منذ القرن الرابع للهجرة حتى هذا القرن عن إمام كان له مثل أثر ابن جني فيمن جاء بعده لم نجده فان كتبه بأسلوبها المشرق وأفكارها المتسقة قد بلغت الأوج ، فلا كتب سيبويه ولا أبي علي الفارسي ولا أبي بكر بن السراج قد بلغت المنزلة التي بلغتها كتب ابن جني رحمه الله وجزاه عن هذه اللغة ما يستحقه .

(للبحث صلة) الدكتور محمد أسعد طلس

(١) مقدمة طبعة الخصائص الثانية ١ : ٢٩

التعريف والنقد

مذكراتي

عن الثورة العربية الكبرى

كتاب في ٢٨٨ صفحة للدكتور أحمد قدري
طبع في دمشق سنة ١٣٧٥ ه‍ و ١٩٥٦ م

الدكتور أحمد قدري من رجال الرعيل الأول الذين وضعوا أسس القضية العربية ، وعملوا لها طيلة حياتهم ، في بيض الأيام وسودها على السواء . فهو كلما جال اسمه في خاطري عادت بي الذكرى الى السنين الخوالي ، يوم كنا ، قبل الحرب العالمية الأولى ، طلاباً في إسطنبول وفي باريس ، نتذاكر في شؤون أمتنا العربية ، ولغتنا الضادية ، وفي تنكر الترك لحقوق العرب ، وفي مجاهرتهم بأنه لا يجوز أن يكون في الدولة العثمانية إلا أمة واحدة ، وهي الأمة التركية ، وإلا لغة واحدة ، وهي اللغة التركية ، حتى إذا شبت نيران تلك الحرب الضروس ، اهتبلوها فرصةً مكنتهم من قتل صفوة شبابنا صبراً ، ومن تشريد كرام الأسر العربية في مجاهل الأناضول ، فكانت الثورة العربية الكبرى ، وكان لا بد مما ليس منه بد .

وحسبي أن أقول في هذه المذكرات ان الدكتور أحمد قدري كان من مؤسسي « المنتدى الأدبي » في فَرُوق سنة ١٩٠٦ م ، ومن مؤسسي جمعية « العربية الفتاة » في باريس سنة ١٩١١ م ، وانني كنت في تلك الأيام أختلف في باريس الى غرفته بشارع الإسترا باد ، فأسميها قنصلية العرب ، وأسمي الدكتور قنصل العرب ، لما كان له من مروءة وأريحية في خدمة كل ما يمت الى العرب والعروبة بصلة .

لقد التحق الدكتور بالثورة العربية في أواخر أيامها ، ودخل الشام مع الملك فيصل الأول طبيباً له ، ورافقه الى باريس ، ومكث قريباً منه في دمشق الى حين احتلال الجيش الفرنسي لسورية في صيف سنة ١٩٢٠ م . فهو إذن حينما يتكلم على القضية العربية ومغزاها ، وعلى الثورة العربية ودواعيها ومراميها ، وعلى دخول الجيش العربي الشام سنة ١٩١٨ ، وعلى الأحداث التي حدثت منذ ذلك الزمن حتى أيام الاحتلال الفرنسي ، فكلامه يكون كلام خابر للحقائق ، ووازن للوقائع ، وعالم بدخائل الأمور . وفي مذكرات الدكتور تفصيلات لا يجدها المطالع في كتاب آخر ، وفيها معلومات دقيقة لا يعرفها إلا الذين عاشوا مثله في حرم قضيتنا العربية .

مصطفى الشهابي

تاريخ العرب قبل الإسلام

الجزء الثالث (القسم السياسي)

تأليف الدكتور جواد علي . عدد صفحاته (٦٦٤) صفحة من قطع الوسط
من مطبوعات المجمع العلمي العراقي . طبع في بغداد عام ١٩٥٣

هذا هو الجزء الثالث من تاريخ العرب قبل الإسلام الذي أخذ الدكتور المؤلف على عاتقه مواصلته . ينم كل فصل من فصوله على جهده المتواصل وعلمه الفياض وتحريه الحقائق من أوثق المصادر وأغزرها . تناولت أبحاث هذا الجزء تاريخ ممالك النبط وتدمر وسبأ وحمير وكندة وعرب جنوب الجزيرة وشمالها وأثر علائقهم باليونان والرومان والحبشة في حياتهم السياسية والاجتماعية وما خلفته اليهودية والمسيحية في عقائدهم .

وفي الكتاب حقائق عن ماضي العرب المجهول الذي أهمله القدامى من الاخباريين وكشفه لنا الآثاريون المحدثون ، خرج بها علينا بصورة حية للماضي مضطرب

أدخلته الريبة المستحوذة على أفكارنا في عداد الأساطير ، وجعل من أبحاثه هذه نقطة انطلاق ثابتة لكل راغب في التوسع والمزيد ، وسيبقى هذا الكتاب لأجيال طويلة ، دعامة فكرية وعلمية للباحث العربي ينهل منه ويسترشد به .

جزى الله المؤلف عن أمته العربية كل خير وبارك في جهده ونفعنا بمزيد علمه .

Khalil ben Ish'âq - Abrégé de la loi Musulmane selon le rite de l'Imam Mâlek. I. Le rituel. Traduction nouvelle par G. H. Bousquet. Alger 1956.

المختصر في الفقه المالكي (القسم الأول — العبادات) لخليل بن اسحاق المتوفى سنة ٧٦٧ أو ٧٧٦ هـ . أعاد نقله الى الافرنسية الأستاذ بوسكه ونشره معهد الدراسات الشرقية في كلية الآداب في الجزائر . وهو في (٢٢٧) صفحة من القطع الوسط . طبع في مدينة الجزائر عام ١٩٥٦ .

إن شهرة كتاب المختصر وانتشاره في بلاد المغرب العربي تغني عن التعريف به . فقد اعتمده المغاربة منذ ظهوره في عباداتهم ومعاملاتهم ، وحل محل أمهات كتب المذهب كالموطأ لابن مالك والأسدية لابن الفرات والمدونة لسحنون وغيرها . وهو عند المالكية بمنزلة منهاج الطالبين للنووي عند الشافعية .

كان يغلب على أهل افريقية المذهب الحنفي الى أن ولي سحنون التنوخي قضاء افريقية فنشر فيها مذهب مالك ثم عزز في أيام باديس وعلي بن تاشفين فعم سائر بلاد المغرب . وقد أصاب المذهب نكسة عارضة في زمن دولة الموحدين فأمر يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وكان على مذهب أهل الظاهر باحراق كتب مذهب مالك ونكل بأئمته وعظم شأن مذهبه مدة ولايته على المغرب ثم استعاد المذهب المالكي مكانته وساد البلاد ولا يزال كذلك الى هذا اليوم .

ولذلك رأينا بعض أفراد الدول التي لها مصالح في هذا الجزء من العالم الإسلامي

تهتم بهذا المختصر وتوليه عناية خاصة وعمد غير واحد الى نقله أو نقل أبحاث منه الى لغاتهم وأخص بالذكر منهم الطبيب بيرون (Perron) فقد نقله بكامله الى الافرنسية في سني (١٨٤٨ — ١٨٥٤) كما نقله الى الايطاليـة جويدي (I. Guidi) بالاشتراك مع سنتيلانا (D. Santillana) في عام ١٩١٩ . فتكون هذه الترجمة بعد انجازها الثانية باللغة الافرنسية وهي تمتاز عن الأولى بوضوح مصطلحاتها وإدراك أغراضها وتبسيط فهمها . وكان المترجم وهو من أساتذة الحقوق أميناً في نقله وموفقاً بعمله يتجلى فيه سعة علمه ونبل غايته .



جعفر الحسني

مستقبل المرأة العربية
في البيت والمجتمع

تأليف الأستاذ منير الشريف . طبع في دار اليقظة العربيـة للتأليف والترجمة والنشر . دمشق ١٩٥٣ ، وعدد صفحاته ١٨٣ من القطع الوسط

لصديقنا الأستاذ منير الشريف عناية بالموضوعات الاقتصادية والاجتماعيـة والسياسية ، فهو قد ألف في هذه الموضوعات عدة كتب ككتاب الضائقة الاقتصادية السورية ، وكتاب واجب النائب ، وكتاب أيها العرب اتحدوا ، وكتاب الشباب العربي ، وكتاب العلويين ، وكتاب القضايا الاقتصادية الكبرى ، وكتاب الإرادة ، وكتاب طريق الخلاص (الضريبة على رأس المال) ، وكتـاب مستقبل المرأة العربية .

وصف المؤلف في هذا الكتاب الأخير حال المرأة العربية في الماضي والحاضر ووازن بينها وبين المرأة الغربيّـة فهاله أولاً ما أصاب المرأة العربيّـة الحاضرة من انحطاط وتأخر ، ولكنه وجد مع ذلك في هذا الحاضر ما يدل على أن المرأة العربية الحديثة سائرة في طريق التقدم . فما قاله في المرأة العربية الحاضرة : «إذا استثنينا عدداً قليلاً من الأوانس والسيدات في مصر وسورية ولبنان

والعراق والأردن ، فان المرأة العربية لا تزال تعيش في عهد البداوة ، غير عالمة بما وصلت اليه المرأة الغربية في العصر الأخير ، بل لا تعلم حالة المرأة العربية قبل عصور الانحطاط .... هذا ما يشجي كل عربي مخلص لقوميته ، مؤمن بوحدتها وسيادتها ونهضتها . لأن المرأة هي نصف عدد السكان ، وانها اذا لم تنهض نهوضاً علمياً حقيقياً ، وتقوم بما يجب عليها في بيتها ، وفي معاونة زوجها وتربية أولادها التربية الصحيحة ، وفي التوفير والاقتصاد ، فانها لا تنزل في قومها منزلة الكرامة» (ص ٦) . لذلك أراد المؤلف أن يصلح حياة البيت العربي باصلاح حياة المرأة ، فان المرأة عضو عامل في الأمة ، فإذا أهملناها أو تناسيناها لم نخلق مجتمعاً أفضل من المجتمع الحاضر . والمؤلف يتكلم في كتابه عن العلم والوطنية والتربية والاقتصاد والأخلاق والحرية كما يتكلم عن تدبير المنزل ، وحفظ الصحة ، والجمال .

وقد تكلف المؤلف في هذا الكتاب أسلوباً أدبياً أراد منه إثارة الاهتمام وإيقاظ الوعي ، ولكنه أسهب في ذلك الأسلوب حتى خرج به على الغرض المطلوب ، كقوله عند الكلام على براعة المرأة الغربية في الرسم : « أصبحت رسامة بارعة ، فجملت منزلها يزدان بأجمل الرسوم التي تريك جنان الطبيعة الضاحكة ، وماءها المعين ، المنحدر من سفوح الجبال ، كأنه عواميد من العاج واللجين ، والمنساب تحت لوحات زمردية ، تلاعبه بأغصانها المتدلية فوق سطحه ، وتريك الغابات النضيرة التي تأخذ بالألباب ، والجبال الشامخة التي كللتها الثلوج ، وصافحتها الشمس بذهبها الوهاج ، وتريك الطيور المنوعة ذات الألوان البهيجة واقفة على أغصان الأشجار الظليلة تطل على نبع نضاخ ، وزهر فواح ، في يوم طاب هواؤه ، وصفت سماؤه ، فتحس في نفسك آنئذ أنك تسمع زقزقتها وصداحها ، وتريك الربيع بشبابه النضير ، وسنابل الحنطة يلاعبها الهواء ، وتموج كأنها شاطئ البحر اللازوردي عند هبوب النسيم ، وتريك الرياض الفرحة وأغنامها

المرحة » (ص ٤ — ٥) . وهذا كله كلام جميل لما فيه من بيان وطلاقة ورشاقة وبلاغة إلا أنه يدخل في كتاب عن التصوير الفني لا في كتاب عن مستقبل المرأة .

ومهما يكن من أمر فإن « مستقبل المرأة العربية » كتاب جميل تضمن كثيراً من الأقوال الصادقة والأحكام الصحيحة ، وقد كتبه المؤلف بحماسة وطنية وعقيدة قومية تولد في نفس القارئ اعتزازاً بالماضي وإيماناً بالمستقبل . فنرجو لهذا الكتاب انتشاراً واسعاً ، ونشكر للمؤلف علمه الغزير وأدبه الجم .

جميل صليبا

مستقبلك في يدك ، متى عرفت ربك

تأليف السيد عبد الحميد الخطيب (نزيل دمشق)

السيد عبد الحميد الخطيب السفير السعودي ، والمدرس بالمسجد الحرام سابقاً — هو عالم عامل ، وشاعر ناثر ، دلت على فضله مطبوعاته المشهورة ، فقد نظم السيرة النبوية في ألفي بيت ، وتائيته الكبرى في الإسلام والمسلمين في خمسة آلاف بيت ، وله منظومة في التوحيد الخالص وعقائد السلف ، ومجموعة قصائد في حب الله ورسوله ، وقصيدة في الدعوة إلى الجهاد ، وجوهر الدين في العربية والانكليزية والأوردية ، وتفسير الخطيب المكي طبع منه أربعة أجزاء والإمام العادل مع تاريخ الحجاز في نصف قرن (وقد كتبنا عنه في مجلة المجمع) وغيرها من المؤلفات النافعة .

وكتابه هذا في التوحيد ، ولكنه موضوع بأسلوب جديد ، ومكتوب بقلم حديث ، وقد تكلم فيه — بعد المقدمة والتمهيد — على ذاته تعالى وصفاته وتصرفاته ، وأين الله ؟ وقدرته وقربه وكلامه ، ودستوره وضرر تعطيله ، ونظامه الكوني ، وعدله سبحانه ، وملائكته وكتبه ورسله ، وختمه بالبعث .

والأستاذ المؤلف قد جعل مؤلفه هذا لأهل الملل والنحل عامة ، لا للمسلمين خاصة ، وإن اقتصر في علاج الأمراض الاجتماعية البشرية على القرآن وحده ،

ورأى فيه الدواء الشافي واستخرجه منه ، ولم ير حاجة لدراسة الكتب السماوية الأخرى . وقد قسم كتابه هذا إلى أقسام ، وهذه الحلقة الأولى منه في معرفة الله تعالى ؛ وقد بيّن الغرض من وضعه ، وهو إنقاذ العالم من الشقاء الذي يتخبّط فيه ، ومَردّ هذا الشقاء إلى الجهل بما أودع الله فينا من قوة ، وما منحنا من سلطان ، يستطيع معه كل إنسان في الوجود أن يقرر مستقبله في هذه الحياة وبعد الممات متى طبّق قانون الحياة الذي وضعه الله لعباده ، والذي لا يمكن أن يخطئ أبداً ، ونرى هذا في المقدمة . وقد ندّد السيّد في كتابه بالذين يعزُون ما هم فيه من جهل وذلّ وفقر ، إلى عقيدة القضاء والقدر ، ونسبة كل شيء إلى القسمة والنصيب وما قدّر لهم في الأزل ، وذكر أن الله تعالى رتب الجزاء على العمل ترتيب المعلول على العلة والمسبّب على السبب ، واستشهد بمثل قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » . وقد فسّر (القضاء) بفعل الله بعباده كالخلق والتكوين والحياة والموت ، والتذكير والتأنيث ، وقد استأثر الله بالعلم بهذا القسم . (والقدَر) وهو أحكام معلقة بشرط أو شروط لا تنفذ إلاّ بتوافرها ، وهي تتعلق بالأنظمة الكونية ، والسُنن المطّردة والقواعد الكلية ، كالعمل لطلب الرزق ، ونيل السعادة في الدنيا والآخرة ، « فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ، ومَن يعمَل مثقال ذرّة شراً يره » وسرد كثيراً من آيات الجزاء على العمل ، فصار القدَر عبارة عن سعي وعمل ، لا ما قدّر عليه في الأزل ؛ وردّ ضمير « يشاء » ـ في قوله تعالى : « يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » ـ إلى العبد لا إلى الرب ، أي من يشاء المغفرة سلك طريقها وهي التوبة النصوح ، والإيمان الصادق والعمل الصالح ، ومَن شاء العذاب سلك طريقه كالكفر والفجر ، وعياذاً بالله ، واستشهد بالآية الكريمة : « ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب ، مَن يعمل سوءاً يُجزَ به ، ولا يجد له من دون الله وليّاً ولا نصيرا » فهو سبحانه أجلّ من أن يتحيز إلى فريق من

العباد ، إلى آخر ما جاء في هذا الكتاب الذي يدعو إلى العمل ، وينهى عن البطالة والكسل ، والاحتجاج بالقضاء والقدر ، أو بما سطر في الأزل ، وقد علمتَ ما فُسِّر به القضاء . وما أجملتُه هنا لا يغني عن قراءة الكتاب ففيه التفصيل والتعليل ، والاستشهاد بالدليل إثرَ الدليل .

هذا وان لنا بعض ملاحظات على هذا الكتاب أقتصرُ على ذكر أهمّها ، ونعلم أنّ صديقنا المؤلف سلفي المعتقد ، ويسرّه توجيه نظره الكريم إلى ما سها عنه ، فقد جاء (في ص ١٢) تحت عنوان أين الله ؟ ما يأتي :

« لقد كان من جرّاء تأثر الناس بالمادة ... أن اختلفوا في تعيين موضعه : هل هو في السماء أم في الأرض أم فيهما معاً ، أم هو خارج عنهما ، وجرى أكثرهم على أنه تعالى في السماء ، وفق ما يلقّنه لهم آباؤهم ... ونحن إذ نؤمن بأن الله تبارك وتعالى ليس لشخصيته مادّية ، ما يكون لنا أن نتساءل عن موضعه أين هو ؟ لأن هذا من صفات الأجسام ، والله منزّه عن الجسمانية لا يحويه زمان ولا مكان » .

وجواب هذا أنّ النصوص القرآنية والأحاديث النبوية قد دلت جميعاً على أنّ الله تعالى هو عال على سمواته التي هي مقرّ ملائكته ومهبط وحيه ، وأنه مستو على عرشه ، أي عال عليه أيضاً ، وبائن من خلقه ، لا يحلّ فيهم ولا يمتزج بهم .

ومما تقدّم يعلم أيضاً المراد من المعية في مثل قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » ، « إنني معكما أسمع وأرى » ، « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ، « ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم » . فليس حقيقة هذه المعية المخالطة والمجاورة ، بل هي منفية قطعاً ، وإنما معناها معية العلم والقدرة والإحاطة ، ومعية النصر والتأييد والمعونة ، ومثل ذلك معنى القرب . وكلّ من أقرّ بوجود ربّ للعالم مدبّر له ، لزمه الإقرار بمباينته لخلقه وعلوّه عليهم ، وكلّ من أنكر

مباينته وعلوّه لزمه إنكاره وتعطيله ، والقول بأنه تعالى بذاته في السموات والأرض إثبات للنقيضين ، والقول بأنه لا داخل العالم ولا خارجه فيه نفي للنقيضين وكلاهما محال ، فبقي القول الثالث ، وهو قول الرسل وأتباعهم ، وقول العقل والعلم والفطرة ، وهو أنّه تعالى خارج العالم ، فوق سمواته على عرشه ، بائن من خلقه ، وهو غني عن عرشه ، غناه عن سمواته وأرضه .

هذا وقد شغلتني المعاني عن المباني ، ففي (ص ٦) وانما الذي ينقصنا فقط ومحل لفظ « فقط » بعد قوله : أقوم سبله ، وفي (ص ١٠٤) من يكون له عند الله جاها ، والصواب (جاه) . وهذا سهو يسير وإنما المهم السهو في الآيات الكريمة ، وإني أدلّ عليها في صفحاتها وأعيدها مصححة :

ص ١٦ يمحو الله ما شاء « ما يشاء » ص ٤٢ ربي أني « أرني » ص ٤٣ انظر الجبل « انظر إلى » ص ٤٣ يعلم خافية « خائنة الأعين » ص ٦٠ إن تُبدو « وإن تُبدو » ص ٦٩ وكل مَن عليها « كلُّ مَن عليها فان » ص ١٣٠ إنا منا « وأنّا منا » ص ١٣٠ وجفان كالجوارب « كالجواب » ص ١٣٠ تأكل من سأته « مِنسأتَه » ص ١٣١ وإنا لمسنا « وأنّا » ص ١٣١ وإنا كنا نقعد وإنا لا ندري « وأنّا » « وأنا » ص ١٣٩ وقدوها « وَقودها » ص ١٤٦ أطعمتم « أضعتم » ص ١٤٦ كل ما جاء أمةً رسولها « كلّما » .

وكنت أرجو أن أرى الأحاديث مخرّجة ، أو معزوّة الى كتب السنة وهي في ص ١٦ و ٤٢ و ٤٧ و ٥٦ و ٦١ و ٦٤ و ٨٣ و ١٠٦ و ١٠٧ و ١١٤ ، و ١٢٩ و ١٣٦ و ١٣٧ و ١٤٣ وما تحتاج الى أكثر من يوم في « الظاهرية » .

أثاب الله الأستاذ « الخطيب المكيّ » وبارك في حياته ، وأمدّه بدوام معونته وتوفيقه .

كتاب (من شيم العرب)
الجزء الأول
تأليف فهد المارك

مؤلف هذا الكتاب الشيخ فهد المارك من متقدمي إخواننا الطلاب في دار التوحيد من مدينة الطائف وهو الآن الملحق الثقافي الأول في السفارة السعودية ، بدمشق ، ويجاورنا في حي الميدان فيعيد لنا عهد تلك الأيام .

أما كتابه هذا من « شيم العرب » فهو تاريخ وأدب ، وقد بلغ أكثر من ثلاثمائة صفحة ، وما هي بنقل لما في الكتب ، ولكنها وقائع حدثت لمعاصرين وغابرين من مشايخ البادية وحواضرها ، في مدة قرنين ، فهو يرويها عن أهلها أو عمن شاهدها أو عاصرها من الرواة الوعاة ، ويقصها عليك بأسلوبها البدوي ويشرحها لك بقلمه الحضري ، ويذكرك بقول القائل :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

وقد عقد كتابه هذا على فصول أربعة ، فالأول في الوفاء ، والثاني في الأمانة ، والثالث في العفو ، والرابع في عفة نساء العرب . وانك لتجد مصداق هذه العناوين في فصولها ، وهي من أعجب ما سمع ، وأصدق ما رُوي . وقدم لكتابه مقدمة وجّه فيها الأنظار إلى قصصه الروائع ، وما تضمنته من حوادث ووقائع ، دوّنها خشية الضياع ، والحرمان من هذا التراث القومي الأدبي ، ورسم فيها المناهج الخلقية والعملية للناشئين ، لا سيما شداة الأدب ، ورواة مآثر العرب . ونعى على قراء القصص الخيالية التي لا أثر لها في عالم الحس والوجدان ، ومن جمدوا على ضرب الأمثال بمن قضوا ومضوا ، فقال : هلم معي اقرأ هذا الكتاب تجد في حقله ما يفوق وفاء السموءل ، ويعلو على كرم حاتم ، ويسمو على شجاعة عنترة ، ويزيد على حلم الأحنف . وقد بدأ حديثه بما سماه (قصة عالية) لشهرتها ببطليها القحطانيين الهادي والسبيعي اللذين ذهبا مثلاً بوفاء كل منهما لصاحبه ،

وقصة ماجد ومفوز الشمريين ، والأولى والثانية هما أطول قصص الكتاب ، فقد استغرقتا أكثر من ثمانين صفحة ، وواحدة عشر صفحات ، وثنتان فوقهـا (أي العشر) ، وكلٌ من الباقي دون العشر ، وفيها كلها عظات وعبر ، وفيها الشعر الزجلي أو الشعبي مشكولا ، وقد شرحه الأستاذ فهد شرحاً جميلاً ، وفسّر مفرداته ومصطلحاته بما يزيل عنه كلّ لَبس وغموض ، واستشهد لمعانيه بشواهد من شعر الفحول على اختلاف العُصور ، مما دلّ على طول باع ، وسعة اطلاع ، وتذوق للأدبين العربي والزجلي ، والمؤلف له حظ ونصيب منهما كليهما . وله تعليقات مفيدة في كتابه على الحوادث والأشخاص ، فهو يردّهم الى قبائلهم وعشائرهم ، ويوضح ما أشكل من أحوالهم ومسائلهم . وقد كتب مؤرخو العرب والمستشرقون في تاريخ عرب الجزيرة السياسي ، ولكنهم لم يدونوا تاريخها الأدبي والاجتماعي ، وانما يعرفه أهله ، والمؤلف منهم في الصميم ، وقد عرف قيمة كتابه فاحتفظ بحق إعادة طبعه لنفسه ، وعدم ترجمته إلاّ بإذنه ، ونحن نحث أبناء العروبة على دراسته ليعرفوا أصول البادية ومكارمها ، كما يعرفون قوانين الحاضرة وشؤونها ، ومن أحكام البادية ما هو جائر ، كقطع مفرج رأس ابنه وتقديمه الى صديقه المهادي ، وانما يلزمه التعزيز بما دون القتل ، وليس من غرضنا نقد هذه الأحكام ، بعد أن هدى الله أهلها الى الإسلام .

وقد وُضع في آخر الكتاب ، جدول للخطأ والصواب ، وبقيت هَنَات يرجى تصحيحها ، منها :

إثبات همزة الوصل ، ووضع همزة إنّ المكسورة فوق الألف أحياناً ، كما ترى في (ص ١٩) وغيرها . وفي ص ٨٣ س ١٧ : عمرواً وصوابها : «عَمراً» ، ٨٩/٣ : الأقدام : «الإقدام» ، ٩١/٣ : وصيره أسودا «أسود» ، وفي آخر ص ٩٤ و ٩٨ : لوحدهم «وحدهم» ، ١١٩/٢ : أليس : «ليس» ، ١٣٢/١٥ : كما أنّ هناك وجه شرعي : «وجهاً شرعياً» ، ١٤٨/٨ : واليمين

مَن أنكر : «على مَن أنكر» ، ١٦٦/ ٤ : الساعة الحادية عشر : «عشرة» ، ١٩٨/ ١٨ : جماد الأولى : «جمادى» ، ١٩٩/ ٤ و ٧ : والأمارة : «الإمارة» و ١٢ مبلغاً آخرا : «آخر» ، ٢٠٠/ ٥ : سيا : «لا سيا» ، و س ٩ : محطا الأنظار : «محط الأنظار» ، و س ١٥ : لم يراه : «لم يره» ، ٢٧٣/ ١١ : (١٣٥٧) : «١٣٧٥» و ٣٠٣ في الحاشية : مدة عشرة سنوات : «عشر» .



المثل العليا في الإسلام لا في بحمدون

هي رسالة بقلم الأستاذ الشهير الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، كتبها ردًّا على كتاب وجهه اليه نائب رئيس جمعية أصدقاء الشرق الأوسط ، الدكتور كارلندابثانز هوبكنز ، يدعوه فيه إلى حضور المؤتمر الذي انعقد في بحمدون في ٢٢ – ٢٧ نيسان سنة ١٩٥٤ (في أواخر شعبان سنة ١٣٧٣) للبحث عن القيم الروحية والمثل العليا في الإسلام والمسيحية ، للفرد والأسرة والمجتمع ، والذي حضره خمسون عالماً من علماء المسلمين والمسيحيين من أقطار العالم كله ، وبحثوا في تعبئة القوى الروحية التي وردت في تعاليم الدين ، وتبيان عقم الفلسفة المادية الفانية ، وقد اعتذر المؤلف عن الحضور مكتفياً بهذا الجواب الذي يقع في نحو مائة صفحة بالقطع المتوسط ، وكله تذكير وتحذير من الوقوع في شباك استعمار الدول الكبرى ، التي نكبت فلسطين هذه النكبة العظمى ، وفي أوله مقدمة ناشره لطبعاته الثلاث ، وفي آخره نحو عشرين صفحة مما نشر في تقريظه .

هذا ومن حق هذه الطبعة الثالثة أن تكون خالية من الأغلاط العظيمة ، التي وقعت في الآيات الكريمة ، وعجيب والله هذا التساهل في الحفظ ، وفي عدم الرجوع الى الآيات والسور في الفهارس ، ممن يلقبون بأئمة الدين ، فانظر وتأمل :

ص ٣٨ س ٩ : ولا تجعلها مغلولة الى عنقك ، فتقعد ملوماً محسورا . والآية الكريمة : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ، فتقعدَ » الآية

ص ٥٣ س ٩ : ولا تتخذوا اليهود . والآية : « لا تتخذوا » بلا واو

ص ٥٤ س ٩ : قاتلوهم حتى لا تكون فتنة . « وقاتلوهم » بالواو

ص ٥٩ س ٢ : أحسن كما أحسن الله اليك : « وأحسن » بالواو

ص ٦٩ س ١٤ : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء . الآية : « وإيتاء ذي القربى وينهى » .

ص ٦٣ س ١١ : العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . الآية : « ولله العزة » الخ الآية

ص ٨٠ س ١ : قست قلوبهم فهي كالحجارة . الآية : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة »

ص ٨٣ س ١٨ : إنما الخمر والميسر رجس من عمل الشيطان : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس »

ص ٨٤ س ٨ : لعن الذين كفروا ... كانوا لا يتناهون : « ذلك بما عَصَوا وكانوا يعتدون ، كانوا »

ص ٨٥ س ٩ : سنة الله في الذين خلوا ولن تجد : « سنة الله في الذين خلوا من قبلُ »

ص ٨٨ س ٩ : وانّ الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات أولئك يلعنهم الله : « ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى - من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك » الخ الآية

هذا ونرجو اذا أعيد طبع الكتاب أن يصححوا الآيات الكريمة كما أوردناها ، والله يشكر للأستاذ الجليل دفاعه عن الإسلام وحقائقه ، وبيانه لمزاياه وخصائصه ، وفضحه للاستعمار ومفاسده ، ولكنه (رحمه الله تعالى) لو حضر مؤتمر محمدون الذي انعقد في العام الماضي ، لرأى وسمع ما تقر به عينه ، ويثلج به صدره ،

وقد حضره من علماء الشيعة الأستاذان : الخالصي ، والشيخ علي من آل كاشف الغطاء ، وكان اجتماع الاسكندرية الذي جرى في هذا العام (٩ — ١٤ شباط ١٩٥٥م و ١٥ ج ٢ سنة ١٣٧٤) مؤيداً ومؤكداً لمؤتمر بحمدون . وقد نشرت – بعد عودي من القاهرة – في بعض الصحف الدمشقية الكبرى ما يتعلق بفلسطين خاصة من خطابي المطوّل الذي ألقيته في الاسكندرية ، ولولا اجتناب مجلتنا (المجمع العلمي) لمسائل الدين والسياسة لنشرته فيها بطوله ، ولكننا نكتفي بنشر القرار الإجماعي للمؤتمر الإسلامي المسيحي بشأن مشكلة فلسطين ، وقضية اللاجئين حفظاً للحقيقة والتاريخ ، وهذا نصه :

« نحن أعضاء اللجنة التنفيذية للجنة مواصلة العمل في التعاون الإسلامي المسيحي الذين نجتمع الآن في الاسكندرية في ١١ فبراير سنة ١٩٥٥ ، نلاحظ بكل أسف أن آلام العرب الفلسطينيين لم تخف ، وأنه لم يحدث تقدم في حل مسألة اللاجئين منذ اجتماعنا في مؤتمرنا في بحمدون .

لهذا قررنا في اجتماعنا أن نجدد تأكيد القرار الذي اتخذ بالإجماع في مؤتمر بحمدون ، والذي كانت صيغته كما يلي :

نحن المشتركين في الاجتماع الإسلامي المسيحي الدولي في تاريخ العالم نشعر شعوراً عميقاً بخطورة مشكلات تلك المنطقة التي ينعقد فيها المؤتمر ، ونأسف أشد الأسف لما أصاب الأرض المقدسة المحوطة بالتقديس والاحترام عند الجانبين الإسلامي والمسيحي من تمزيق وعدوان ، فما من مكان في العالم أحوج اليوم إلى السلام من مسقط رأس ذلك الذي جاء إلى الأرض يحمل رسالة السلام . إن الحالة الراهنة في الأرض المقدسة ، قد بعثت القلق وعدم الاستقرار في قلوب سكان المناطق المجاورة لها في تلك البقاع التاريخية للإسلام والكنيسة المسيحية الأولى ، إذ رأوا اللاجئين المطرودين من بيوتهم ، والمحرومين من تراثهم ، مشردين في الأصقاع . وإن بؤسهم لعبء ثقيل على قلوبنا وضمائرنا ، وإن رسالة الرجاء التي

ننادي بها ، والتعاون المتبادل الذي ندعو اليه لبناء عالم أفضل ، ربما بعثت في نفوسهم التي تعيش في بأس شديد شعوراً بالمرارة والسخرية ؛ ولكننا مع ذلك معجبون بقوة عقولهم ، وصلابة أخلاقهم ، فهم إلا القليل منهم باقون على الإيمان بالله ، وعلى الإيمان بأن الغلبة في النهاية للعدل والحق ، وهم لن يفقدوا الرجاء في أن العدل والحكمة سيسيطران على الموقف بواسطة جمعية الأمم المتحدة .

إننا نستطيع أن ندرك السبب الذي قد يحمل بعض هؤلاء اللاجئين على الخضوع لتجربة البعد عن الله ، فمنهم المتألمون لخذلان أبناء دينهم لهم ، ومنهم المتهكمون على العدالة التي تجاهر بها الدول الكبرى ، ومن بينها جمعية الأمم ذاتها .

لذلك نعاهدهم ـ نحن الذين شهدنا بؤسهم ـ أننا لن ننساهم أبداً ، وأننا بعد أن نعود إلى أوطاننا سنرفع أصواتنا في سبيل قضيتهم ملحّين على حكوماتنا التي ننتمي إليها ، وعلى جمعية الأمم المتحدة في اتخاذ التدابير السريعة لإعادة من يمكن إعادتهم منهم إلى بيوتهم ، ولمنح التعويضات لمن تتعذر عودتهم ، ولمحاولة حل مشكلات الأرض المقدسة على أساس عادل ، حتى يكون سلام دائم حيث يوجد اليوم نزاع وخصام وسفك دماء . »

رسالة الصلاة

أوقاتها . كيفيتها . أنواعها . بقلم الأستاذ محمد عبد الرزاق حمزة

(ص ١ — ٨٩)

وتليها رسالة الصلاة وما يلزم فيها للإمام أحمد بن حنبل (٩٠ — ١١٧)

ويليها كتاب الصلاة وحكم تاركها للعلامة ابن القيم (١١٨ — ٢٧٢)

أما الرسالة الأولى فقد كتبت بأسلوب سهل ، وقول فصل ، (لا يشتكي قصر منها ولا طول) . ومن أهم مباحثها : الصلاة ومنزلتها في الإسلام ، وأمر الأديان بها ـ نهيها عن الفحشاء والمنكر ـ إجماع الصحابة على كفر تاركها ـ إشارة

القرآن الى أوقاتها ـ ركعات الفرائض والنوافل ـ أحاديث الصلاة في النعال ـ صلاة الجماعة والجمعة وما ورد فيهما من أحاديث ـ صلاة العيدين وما ورد فيهما ـ صلاة السفر والخوف والمرض وكيفياتها ـ الطهارة للصلاة وحكمتها . وهكذا . .

وجملة القول في وصف الرسالة : إنها لبيان الصلاة كيفية ، وخشوعا (والخشوع لبُّها وروحها) ومحافظة عليها . وقد أشرقت بنور ما أودع فيها من آيات كريمة ، وما بيّنها من أحاديث الأحكام ، مشروحة كلها شرحاً وجيزاً وافياً بالمقصود ؛ واليك ما جاء في أوائل الرسالة من يسر الصلاة ، ودفع الحرج والعسر عن المصلين : « وفي حديث ابن عباس في الصحيحين أنه (ﷺ) صلى في المدينة ثمانيا ـ يعني الظهر والعصر جميعا ـ وسبعا ، يعني المغرب والعشاء جميعا ، زاد مسلم : « من غير خوف ولا مطر » وكونه في المدينة دليل عدم السفر ، وقال أحد رواته : أراد أن لا يحرج أمته . (قال) : « ففي هذا الحديث فسحة طيبة ، ورخصة لطيفة لأهل الأعذار ، من مرض وسياقة سيارات وترام ، وخبازين وطباخين ، فلهم أن يجمعوا صلاتي الظهر والعصر معا ، والمغرب والعشاء معاً عند الحاجة الى ذلك ، لدفع الحرج الذي دفعه رسول الله (ﷺ) بهذا العمل ، ونصَّ الله تعالى عليه في كتابه العزيز : « ما جعل عليكم في الدين من حرج » وصرح بذلك أئمة قدماء ، يقدرون الضرورات قدرها ، ليسوا من المتنطعين في الدين ، ولا من المنفرين عنه ، بل ميسرين مبشرين ، يسهلون ما سهَّل الله ورسوله » .

وأما رسالة الإمام أحمد فقد جاء في ترجمة صاحبه مهنا بن يحيى الشامي في وصفها ما نصه نقلاً عن الإمام : هذا كتاب في الصلاة وعظم خطرها ، وما يلزم من تمامها وأحكامها ، يحتاج اليه أهل الإسلام ، لما قد شملهم من الاستخفاف بها ، والتضييع لها ، ومسابقة الإمام فيها » كتبه أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه ، الى قوم صلى معهم ببعض الصلاة .

والرسالة مثال من التعليم العالي لصلاة النبي (ﷺ) وأصحابه ، فهي تمثل

أمامك الصدر الأول ، وما كان عليه من علم وعمل ، ومن تقوى لله عز وجل ، وهذا مثل من هديهم :

وجاء الحديث عن ابن مسعود أنه نظر الى من سبق الإمام فقال : « لا وحدك صليت ، ولا بامامك اقتديت ، والذي لم يصل وحده ، ولم يقتد بامامه ، فذلك لا صلاة له » .

وأما كتاب الصلاة وأحكام تاركها للإمام ابن القيم ، فأصله سؤال ورد في ذلك ، والمسؤول عنه فيه : سياق صلاته (ﷺ) من حين كان يكبر الى أن يفرغ منها سياقاً مختصراً كأن السائل يشهده .

قال السائل : فأرشد الله من دل على سواء السبيل ، وجمع بين الحكم والدليل ، وما أخذ الله الميثاق على أهل الجهل أن يتعلموا ، حتى أخذ الله الميثاق على أهل العلم أن يعلموا ويبينوا . فأجاب ابن القيم عن عشر مسائل ، وردت على لسان السائل ، وموضوعها الصلاة المفروضة ، وحكم تاركها عمداً ، وصلاة المصلي منفرداً وهو قادر على الصلاة جماعة ، وصلاة المسجد والبيت ، ومقدار صلاة الرسول ، وحقيقة التخفيف المأمور به الخ ...

وفي أجوبته تحقيق شافٍ ، وبيان وافٍ ، لا يترك في النفس شبهة ولا حاجة ، وعنده من التأصيل والتفصيل ، ومن عرض أقوال الأئمة أخذاً ورداً ، وقبولاً ورفضاً ، ما ليس عند غيره ، ساق هذا الإمام حجج الفريق الأول القائل بصحة إيمان من لم يصل ، وجاء بأدلة الفريق الثاني ، فعدّ من القرآن عشرة أدلة ، ومن السنة اثني عشر دليلاً بعدم صحة ايمانه ، ونقل اجماع الصحابة عليه ، ثم عقد فصلاً في الحكم بين الفريقين وفصل الخطاب بين الطائفتين ، ثم كان هو الحكم العدل بما عهد فيه من تحريرٍ لمحل النزاع ، وانصافٍ للخصم ، وبعدٍ عن الهوى ، وناهيك بما أوتي من سعة في العلم ، وإصابة في الحكم ، ونصر للدليل ، وطلبٍ للحق ، وابتغاء لمرضاة الله تعالى .

وإن في سيره للأمور الاعتقادية والعملية ، وفي تقسيمها ، وبيان مراتبها وأحكامها ، ما يزيل اللبس ، ويجلي الحقيقة للنفس ، وينفي أنواع الجهالات عنها ؛ وفي أدبه مع الفريق المخالف له ما يدعو إلى حسن الأسوة ، وإن تعجب فعجب سعة صدره لإيراده جميع الشبهات ، وردّها واحدة واحدة ، وفي الكلام إعادة وتكرار لبعض الأدله والأحكام إذ هي أجوبة للسائل والمخالف ، والشاك والمنكر بكفر التارك للصلاة عمداً ، ولو اطّلع شبابنا المثقف على هذه المباحث الشائقة ، وأدلتها الساطعة ، لأشرق نور الإيمان في قلوبهم ، وظهر أثره في أخلاقهم وأعمالهم . وهذه كلة نصح وتذكير من المؤلف رحمه الله ، تصلح أن تكون توجيهاً لهم ، قال (ص ١٣٩) : «ولا تصغ إلى كلام من ليس له خبرة ولا علم بأحكام القلوب وأعمالها ، وتأمل في الطبيعة بأن يقوم بقلب العبد إيمان بالوعد والوعيد ، والجنة والنار ، وأن الله فرض عليه الصلاة ، وأنه يعاقبه معاقبة على تركها ، وهو محافظ على الترك في صحة وعافية ، وعدم الموانع المانعة له من الفعل» اهـ . وقد طبع الكتاب على نفقة سمو الأمير سعود (جلالة الملك سعود) أثابه الله تعالى ، وزاده توفيقا .

(الى الحياة)

« آيات من كتاب الله تدعو إلى الصلاح والإصلاح »

أتبعها كلمات توضحها وتسهل فهمها : حمدي عبيد

الأستاذ حمدي عُبيد محافظ على وقته ، دؤوب على عمله . فهو في كل عام يربنا ما ألفه ، أو اختاره أثراً مفيداً من الكلم الطيّب ، الذي يهدي إلى العمل الصالح ، مقتبساً من هدي القرآن ، أو السنة المحمدية ، وما فيهما من هداية ورحمة ؛ فنه ما هو أحاديث نبوية في العلم والحكمة ، أو في الأخلاق

والاجتماع والمدنية الصحيحة ، أو في الأدعية والأذكار المنتخبة من الصحيحين والسنن ، ومنه ما هو من (عيون الأخبار) وهو كما قال : سياسة وعدل ، وعلم وفضل ، وأدب ونبل ، وجدّ وهزل »، ومنه ما هو في التوجيه الخلقي والاجتماعي ، والسموّ الروحي والمادي ، وقد كتبت مجلة مجمعنا العلمي تعريفاً بما تضمنته هذه الرسائل والكتب النفيسة .

وأمامنا الآن كتاب جديد مسمّى بهذا الاسم « إلى الحياة » ومتوجاً بهذه الآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » . وقد قرأ المؤلف القرآن بتفكر وتدبر ، وأمعن النظر والفكر في الآيات المبدوءة بـ « يا أيها الذين آمنوا » وهي خطاب لكل من آمن بما نزل على محمد (ﷺ) وهو الحق من ربنا ، وأحصاها فبلغت ستاً وستين آية ، ثم فسّرها بالظاهر المتبادر منها ، هي وما يتصل بها من الآيات مستمداً من أدب القرآن وهديه ، وحال العصر وأهله ، بأسلوب عذب شيّق ، مستعيناً بمعاجم اللغة وبعض كتب التفسير ، مستلهماً العلي القدير أن يلهمه الصواب ، ويؤتيه الحكمة وفصل الخطاب ، فإلى القراء هذه الدعوة الكريمة من ربنا لما يحيينا ، ويبعث روح العمل والأمل فينا ، جعلنا الله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، « أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » .

والشكر للأستاذ عبيد لصرفه جهده في النافع الرافع . أثابه الله تعالى وزاده توفيقاً .

محمد بهجة البيطار

مجلة معهد المخطوطات العربية

يصدرها « معهد المخطوطات العربية » التابع لجامعة الدول العربية
المجلد الأول (في جزأين) ، ٣٦٢ صفحة ، القاهرة ١٩٥٥

عناية العرب بالتأليف وجمع الكتب لا تعدلها عناية أمة من الأمم الغابرة ، وتراثهم المكتوب أوفر من كل تراث . ولكن عوادي الزمن سطت على ما خلفوه لنا من مخطوطات ، فاحترق بعض وتلف بعض ، ولم يسلم للأحفاد مما تركه الأجداد إلا قل من كثر ، ولم يبق لدينا منه بالقياس إلى ما كتبوه إلا نقطة من بحر . وقد تقاسمت دور الكتب في الغرب ما وقع لها من آثارنا ، ونحن عنه نيام ، وحرصت عليه وزهدنا به ، وعنيت بتحقيقه ونشره والتعريف به ، ونحن عنه غافلون وبه مفرّطون .

وقد سبق المستشرقون إلى إنشار الكثير من المراجع العربية الموثوقة بعد البلى ، ونشره محققًا منقحًا منقودا ، وأسعفهم على ذلك ما استحدثوا من أساليب علمية في النقد والبحث ، وما أودعته دور الكتب عندهم من مخلّفات أعلامنا .

وقد استفاق العرب ، في مائة السنين الأخيرة ، من هجعتهم ، والتفتوا إلى هذا التراث الضخم ، فأسهموا في الحفاظ عليه ، والإفادة منه ، وإخراجه للناس على أحسن وجه يسّرهم في ذلك تمكنهم من العربية ، وتذوقهم لها ، لاتصال عهدهم بها ، واعتزازهم بهذه الوشائج التي تصل الخلف بالسلف ، وسهولة وقوفهم على النصوص وتبينهم وجه الصواب فيها .

ولكن دور الكتب العامة في مشرق الدنيا العربية ومغربها لم تلق العناية الوافية الواجبة ، ولم تهرع الحكومات عندنا إلى المحافظة على هذه الكنوز من الضياع والتلف ، ولم تيسّر للباحثين سبل التنقيب عنها والانتفاع بها . فليس في أكثر دور كتبنا فهارس متقنة مطبوعة للمخطوطات ، أما الخزائن الخاصة

ففيها ذخائر يضن بها أصحابها ـ إذا عرفوا قيمتها ـ على العلماء ، ويتلفونها على أتفه السبل في أكثر الأوقات . وفي هذا كله ما يعنّي العلماء العرب ويحول بينهم وبين ما يبتغون من إسهام محمود في تحقيق المخطوطات . ومع ذلك فجهود المجامع العلمية والفضلاء من الخواص في هذا الميدان أخذت تؤتي أُكلها طيباً ، ويقطف العلم منها أفضل الجنى .

وكانت تعوز الباحثين مؤسسة تنسق نشر المخطوطات العربية في العالم كله ، وتضم في خزائنها صور المخطوطات القيمة التي يُعْجِز الأفرادَ الوصولُ إليها والحصول عليها . ففطنت لهذا النقص جامعة الدول العربية واستأثرت بفضل إنشاء (معهد المخطوطات العربية) ، سنة ١٩٤٦ ، ليصبح مركزاً علمياً ، يعوذ به المنقبون عن المخطوطات ، المولعون بإحيائها ، ويضم في خزائنه صور القيّم منها أنّى وجده . وقد ازدادت ثروة المعهد من (أفلام) المخطوطات مع الزمن ، فأصبح لديه اليوم أكثر من أربعة عشر ألف فلم مصغر (ميكروفيلم) ، تصوّر عدداً ضخماً من مخطوطاتنا العربية في مشارق الأرض ومغاربها . ولا يزال العاملون في المعهد ، وعلى رأسهم الدكتور صلاح الدين المنجد ، يشدون الرحال إلى كل بلد يتوقعون أن يقعوا فيه على مخطوط ثمين في مكتبة عامة أو خزانة خاصة . وقد أخذ المعهد في نشر (فهرس المخطوطات المصورة) الموجودة لديه ، فطبع الجزء الأول منه سنة ١٩٥٤ . وهو الآن في سبيل إعداد مستدرَك عليه يُصحح خطأه ، ونَشْرِ الجزء الثاني من هذا الفهرس النافع .

وقد شاء المعهد أن يخطو الخطوة التالية في اداء رسالته الكريمة ، فشرع يصدر (مجلة معهد المخطوطات العربية) ، وينشر فيها أبحاثاً بارعة عن المخطوطات العربيــة في دور الكتب في العالم ، وكلماتٍ في التعريف بالثمين من المخطوطات وموضوعاتها . هذا إلى جانب الباب الذي يسجل فيه نشاط المعهد ، من تصويره مخطوطات جديدة أو نشرها ، أو الإشارة لمن يقوم بتحقيقها ، أو نقد لما نشر ،

أو تحقيق لبعض الرسائل النادرة القصيرة . وقد صدر من هذه المجلة المجلد الأول في جزأين ، وفيها أبحاث طريفة لذة ممتعة مفيدة في وصف دور الكتب في العالم العربي ، المعروف منها والمجهول ، وفي نوادر ما فيها . كما يجد المطالع فيها بيان ما نشر من المخطوطات في هذا العهد الأخير .

هذا وفي الصفحات ٣١٩ — ٣٢٧ قواعد يقترح اتباعها الدكتور صلاح الدين المنجد في نشر النصوص القديمة ، والموضوع جليل ، وآراء العلماء فيه مضطربة متعارضة . وقد تصلح بعض هذه القواعد المقترحة لنشر كتب بعينها فنقره عليها ، ولكن كتباً أخرى في موضوعات مغايرة قد تقتضي تعديلاً لهذه القواعد . على أن مؤتمر المجامع العلمية الذي ينعقد الآن في دمشق سينظر فيها ، ونرجو أن يخرج من دراسته لها بقواعد ضافية مفصلة تنتظم كل ما ينشر ، وتنسق طريقة النشر ، وتجلو ما يجب تقديمه على غيره في النشر ، ويقرها جميع العاملين في هذا الموضوع الجليل .

والحق أنه لا يغني المحققين المهتمين بنشر التراث الفكري العربي شيء عن هذه المجلة ، ونرجو أن تغنيهم في المستقبل عن كل مصدر ، وأن يصبح المعهد قبلة الباحثين أجمعين ، إليه يتجهون وعنه يأخذون وفي اداء رسالته يسهمون . والشكر أولاً وآخراً للجامعة وللمعهد وللقائمين عليها .

مصادر الدراسة الأدبية

الجزء الثاني : الفكر العربي في سِيَر أعلامه ، القسم الأول : الراحلون (١٨٠٠–١٩٥٥م)، ألفه: يوسف أسعد داغر، و نشرته جمعية أهل القلم في لبنان، وطبعته في (مطابع لبنان) ، بيروت ١٩٥٦ ، في ٨٦٠ صفحة

كان المتقدمون من علمائنا في الزمن الغابر يعوذون بما أوعيته صدورهم وما اختزنته ذاكرتهم ، في معرفة مراجع ما يقبلون عليه من بحث ودرس وتأليف . فلما طلعت المطبعة على الناس بهذه الألوف المؤلفة من الكتب والمجلات ، وتضاعف عدد المراجع والمؤلفات ، واتسعت آفاق المعرفة وامتدت حدودها ، عجزت الذاكرة عن استظهار عناوين الكتب ، بله ما تشتمل عليه هذه الكتب ، فأصبح قصارى العالم الباحث في عصرنا أن يعرف المراجع التي تيسر له سبل البحث . ولهذا أصبح التأليف في التعريف بالمراجع خدمة جلى للعلم والعلماء .

وممن انصرف ، في الآونة الأخيرة ، الى التأليف في هذا الموضوع ، الأستاذ السيد يوسف أسعد داغر ، أمين دار الكتب اللبنانية السابق ، فقد نشر كثيراً من الكتب في ذلك ، وأجلّها كتاب (مصادر الدراسة الأدبية) .

نشر المؤلف الجزء الأول من كتابه هذا سنة ١٩٥٠ م ، وأودعه تراجم موجزة لزهاء مائة من الأعلام العرب ، المقرر تدريس شيء من آثارهم في مناهج التعليم الرسمية في بعض البلاد العربية (من العصر الجاهلي إلى عصر النهضة)[1] .

ثم أصدر الأستاذ داغر في هذه السنة القسم الأول من الجزء الثاني من (مصادر الدراسة الأدبيــة) . وقد قصر هذا القسم على سِيَر الراحلين (١٨٠٠ — ١٩٥٥) من أعلام الفكر العربي الحديث . أما القسم الثاني من

(١) تجد تعريفاً بهذا الجزء الأول في مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد ٢٦ سنة ١٩٥١ ص ٤٤٤ — ٤٤٧ ، وقد كتبه الأستاذ نعيم الحمصي .

هذا الجزء فيود المؤلف الفاضل أن يدون فيه تراجم الأحياء من أعلام الفكر العربي الحديث . وسيضمن الأجزاء الثلاثة التالية ما يتعلق بالأدب النسائي العربي في القرنين الأخيرين ، وبالمستشرقين والفنون الأدبية العائمة : كالمسرح والنقد والصحافة ....

طريقة المؤلف في هذا القسم الذي نعرّف به تشابه طريقته في الجزء الأول إلى حد كبير ، فهو يبدأ كل ترجمة بإيراد نبذة وافية في التعريف بالعَلَم المترجم له ، ثم يعقّب على ذلك بسرد مؤلفاته : ما طبع منها وما لم يطبع ، ثم يتلو ذلك بيان الكتب التي أُلفت عن هذا العَلَم أو تناولته بالبحث ، وكذلك المجلات العربية التي كتبت عنه ، دالاًّ على المظان بوضوح ودقة وتفصيل . وقد وطّأ المؤلف لهذا القسم بالتعريف بأصول الكتاب ، فذكر المراجع العامة والمجلات ، وعرّف بها تعريفاً مجزياً ، وختم الكتاب ببحث ضاف في الاستشراق وأعلام المستشرقين . وقد أثبت المؤلف في هذا القسم تراجم (٢٠٦) من الأعلام الراحلين ، وأغفل ـ مرغماً ـ إثبات ترجمة مائة منهم آخرين ، كان يود التعريف بهم لولا تضخم حجم الكتاب .

هذا الجهد المحمود ، الذي بذله المؤلف في صبر وأناة ودأب وتبصر ، لا يكافيه شكر المنتفعين بكتابه القيّم هذا ، ولا يوفيه حقه ثناء الباحثين الذين بذل لهم وقته فوفّر عليهم وقتهم ، ويسر لهم سبل البحث ، وأمدّهم بما قد يُعجِز كثرتَهم الوقوفُ عليه لولاه .

على أن حرصنا على الإفادة من كل جهد المؤلف يضاعف أسفنا على اضطراره لإسقاط تراجم مائة من الأعلام كان قد أعدها لهم ، وفيهم العدد الجم من الفحول المتمكنين الذين يعدلون ـ بل يفضُلون ـ بعضَ من أثبت تراجمهم ؛ فمن أغفل محيي الدين الخياط وهدى شعراوي وكرنيليوس فان ديك وجرمانوس فرحات وجمال الدين القاسمي ولبيبة هاشم وعلي مصطفى مشرفة . وكانت للمؤلف مندوحة عن إسقاط

تراجمهم لو لم يسرف في ترداد كلمات فرنسية بعينها ترد في ترجمة كل عَلَم ، ولو لم ينقل إلى الحروف اللاتينية اسم كل مترجَم له . وإذا كانت تجنته هي خدمة المستشرقين فاننا نعتقد ان المستشرق الذي يعجز عن تهجية اسم العَلَم بالعربية عاجز عن الإفادة من السيرة التي سطرها له المؤلف بالعربية وحدها . وكان يجزئ المؤلف أن يقدم للكتاب بفهرس لاتيني للأعلام ، وبكلمات قليلات تترجم للمستشرقين غرض الكتاب ورموزه . هذا وفي الكتاب أقسام كبيرة من صفحات تركت بيضاً ، توخياً للأناقة في الطبع ، على أن المألوف في أمثال هذا الكتاب من المصادر والمعاجم أن يقتصد في التزويق ، لتتضمن الصفحات القليلة الأقوال الكثيرة .

هذا وقد ينكر الحراص على سلامة المبنى العربي على المؤلف الفاضل تجوزه حيناً بعد حين في الأسلوب ، كقوله مثلاً في ص : س : « نحن نعرف قبل غيرنا مركّب النقص في هذا الكتاب وما يعتوره ، بالرغم مما وفّرنا له من مقوّمات ومحسنات ومؤهلات ، من شوائب وأوهام وهنات » . وقوله في ص : ن : « رأينا أن نلحق كتابنا هذا بفهرس عام » . أو روايته بيت شوقي المشهور على الشكل التالي : (ص : ن)

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم ونحن في الجرح والإيلام إخوان

ولعل هذه الهنات الهينات تعويذة للكتاب تقيه لذعة الحدق .

عبد الهادي هاشم



أساسات التنمية الاقتصادية وتطور اقتصاديات الشرق العربي

للأستاذ يونس صالح الحربي

نشر الأستاذ يونس صالح الحربي بوساطه دار العلم للملايين (بيروت) في هذا العام ، كتابين اقتصاديين ، الأول : (أساسات التنمية الاقتصاديه) ، والثاني : (تطور اقتصاديات الشرق العربي) .

وقد بحث في الكتاب الأول: مواضيع ١ — التنمية الاقتصادية ، ٢ — تكوين رأس المال ، ٣ — استخدام القوة العاملة ودور السكان في التصنيع .

وبين فيه أن تنمية رأس المال ، بالدخل الحقيقي ، مما يبعث النشاط في العمل ، ويكثر الانتاج . وان من الضروري الادخار ، واستثمار تلك الأموال المدخرة بالطرق المنتجة ، لأن المال هو واسطة كبيرة للعمل ، وان من الواجب إفساح المجال للكسب أمام رجال الأعمال ، وبين ضرورة التوجيه الحكومي لتأمين توزيع موارد الجماعة ، لأن لها تأثيراً كبيراً في الادخار وزيادة رأس المال .

ثم قال : أن الانتاج الكبير وحسن إدارة الأعمال ، وتنظيم العمل ، واتقانه بالأساليب الحديثة مما يخفض نفقات الصنع ، على أن زيادة الفائدة ، تضر بالاقتصاد الوطني .

وقد أفرد بحثاً عن رأس المال المستثمر في الولايات المتحدة ، وزيادة الانتاج هناك ، ومعدل النمو الصناعي في بريطانيا ، والولايات المتحدة وغيرهما من الدول ، وبين أن نظرية مالتوس كانت غير واقعيه .

ثم قال إن من الضروري معالجة البطالة ، بالأعمال المنتجة ، وان الصناعة

في ضرورية لتأمين استهلاك الشعوب ، ولتأمين الآلات الزراعية الحديثة ، والسماد ، وان في زيادة الانتاج الزراعي والصناعي ازدهاراً اقتصادياً .

ان هذا الكتاب قيم وجامع للنظريات الاقتصادية ، وقد استعان على إخراجه بعدة كتب لكبار رجال الاقتصاد ، على انه كتاب عام ، وغير محصور بالبلاد العربية ، لأن كتابه الثاني يخص البلاد العربية ، كما ان الاحصاء الذي أتى به كان جله قبل عام ١٩٥٠ ، مع ان الكتاب طبع عام ١٩٥٦ ، ولكن هذا لا يقلل من أهميته .

وأما كتابه الثاني فقد استعرض فيه اقتصاديات البلاد العربية ، وحالة الدخل الضئيل فيها وأنواعه ، وحالة السكان في البلاد العربية ، وقلتهم في سورية والعراق والمملكة العربية السعودية ، وكثافتهم في مصر ولبنان والأردن واليمن ، والانتاج الزراعي ، في كل قطر عربي وتزايده وقضية الملكية في مصر ، وتوزيع بعض الأراضي هناك ، وفوائد السدود فيها ، ومشاريع الري والسدود في العراق والآمال الكبيرة المعلقة عليها ، والنفط العربي وكميته وأقطاره ، واستثماره من قبل الشركات الأجنبية ، والصناعة في البلاد العربية ، وتكاثر الآلات الحديثة وانتاج كل قطر ، والقوة الكربائية فيه وقابلية التوسع الزراعي والصناعي .

ثم بحث عن التنمية الاقتصادية ، وبين ضرورة العناية بزيادة الانتاج الزراعي والصناعي وذكر عيوب النظام المالي وعدم مرونته ، ومن قوله : (ومما لا شك فيه ان الفقر السائد في البلاد « العربية » والتمثل في وطأة الدخل الفرد يؤثر على ميزانيات الدول المختلفة ، وبالتالي يحد من مقدرتها على العمل والانفاق والاستقراض لأغراض التمويل ، والسياسة الاقتصادية ، والنظم الضرائبية ليست نظماً تقدمية ، فأغلب الإيرادات مستمدة من ضرائب استيراد واستهلاك ورسوم أخرى غير مباشرة) وهذا هو الواقع في البلاد العربية للأسف .

وبحث أيضاً عن حالة الأسعار وارتفاعها ، والتنظيم النقدي ، وتراخي الحكومات

بمكافحة التضخم والأسعار ، وحالة التجارة الخارجية وعرض جدولاً بالمستوردات والصادرات في البلاد العربية ، وكيف أن الميزان التجاري علينا لا لنا ، وخاصة في العراق ـ إذا استثنينا صادرات النفط ـ والأردن ولبنان .

ان هذا الكتيب قد استعرض اقتصاديات البلاد العربيـة ، وانا لنشكر الأستاذ على جهوده الطيبة .

في الحق ان الأمة العربية في تزايد متواصل ، مع ان الانتاج يزيد ببطء ، وهذا ما جعل المواليد الجدد يلتهمون تلك الزيادة ، بينما الإنتاج بأجمعه ليس بالقدر الكافي ، بحيث يمكنه رفع مستوى الأمة ، وتشلها من هوة الفقر الخطيرة . لذلك كان من الواجب على الحكومات العربية أن تعمل على الإكثار من المساكن الصحية الحديثة ، وزيادة الآلات الزراعية ، والمشاريع المائية للري والكهرباء ، وايجاد معامل للسماد الكيماوي لإراحة الأرض وزيادة غلتهـا ، وتكثير الآلات الصناعية الهامة ، والتنقيب عن النفط والمعادن في الأقطار التي لم يكن منه شيء لديها بعد ، وتعميم التعليم الابتدائي والمهني ، وربط البـلاد العربية بعضها ببعض بالوحدة السياسية والاقتصادية والعسكرية لإيجـاد القوة والاستقرار والحماية والتعاون المشترك ، في زيادة الانتاج واستهلاكه .

منير الشريف

آراء وأنباء



الأستاذ المرحوم جورج سارطون

(١٨٨٤ ــ ١٩٥٦)

وفاة الأستاذ جورج سارطون

تخطف الموت من بيننا عالماً فذاً من أكابر علماء هذا العصر ، ومستشرقاً ضليعاً أخلص الحب للعرب ولغتهم ، وجلا فضل علمائهم على العالم القديم ، في تجرد وإنصاف ؛ فقد جاء النعي بوفاة الأستاذ المرحوم جورج سارطون في الثاني والعشرين من شهر آذار سنة ١٩٥٦ ، ولم يكن قد انقضى عام واحد على انتخابه عضواً مراسلاً للمجمع العلمي العربي .

ولد المرحوم جورج سارطون في بلدة غاند (بلجيكة) في ٣١ آب ١٨٨٤ . واحتضرت أمه ولم يتم السنة الأولى من عمره . وقد نشأ في هـذه البلدة ، ودرس في جامعتها ، وأحرز منها شهادة الدكتوراه في العلوم الفيزيائية والرياضية سنة ١٩١١ . فلما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى رحل بزوجه وابنته (مي) إلى انكلترة موطن زوجه ، ثم تحول عنها إلى الولايات المتحدة حيث اتخذ منها منذئذ موطنه الثاني ، فسمي محاضراً في تاريخ العلم في جامعة جورج واشنطون عام ١٩١٦ ، ثم انتقل إلى جامعة هارفرد ، وواظب على تدريس تاريخ العلم فيها منذ سنة ١٩١٧ حتى سنة ١٩٤٩ . وكان لمؤسسة كارنجي الفضل الأكبر في أن وفرت له كل ما يعوزه حتى يستطيع أن يقف جميع وقته على دراسة تاريخ العلوم والتأليف فيه . وقد ألقى الكثير من المحاضرات في الجامعات الأميركية والأوربية ، وزار في سنة ١٩٣١ — ١٩٣٢ بلاد الشام ومصر وافريقية الشمالية . ولا يزال الكثيرون في بلادنا يذكرون محاضراته الممتعة القيمة التي ألقاها يومئذ في الجامعة الأميركية وكلية المقاصد الإسلامية في بيروت ، وكان موضوع أكثرها بيان فضل العرب على التفكير الإنساني .

منح الفقيد ست شهادات دكتوراه فخرية ، وانتخب عضواً في عشرة مجامع علمية دولية وفي كثير من الجمعيات الدولية للعلم والتاريخ والفلسفة ، وظل أمداً

طويلاً رئيساً للاتحاد الدولي لتاريخ العلوم في باريز ، قبل أن يصبح رئيساً فخرياً له ، ولجمعية تاريخ العلوم . وقد سُمي عضواً مراسلاً للمجمع العلمي العربي في الرابع والعشرين من شهر نيسان عام ١٩٥٥ .

كان المرحوم جورج سارطون قد أزمع منذ صباه أن يتفرغ لدراسة تاريخ العلوم ، وبلغ من ذلك فيما بعد مبلغاً لم يتح لغيره ، وخلّف للباحثين والعلماء أكثر من خمسمائة مؤلف ، هذا عدا ما كان ينشره في المجلات من تعريف بالكتب ونقد لها . وأهم تصانيفه كتاب « المدخل إلى تاريخ العلوم » ، أصدره في ثلاثة أجزاء [1] ، في خمسة مجلدات ، تستغرق أكثر من أربعة آلاف صفحة ، وقد نشرته مؤسسة كارنيجي في واشنطون ١٩٢٧ — ١٩٤٨ . يشتمل هذا الكتاب على موجز تاريخ العلوم الرياضية والطبيعية والعقلية في العالم كله ، وعند جميع الأمم وفي جميع اللغات ـ مما وصل علمه إلينا ـ ، منذ هوميروس حتى آخر القرن الرابع عشر (القرن الثامن الهجري) . وقد وقف المؤلف جزءاً كبيراً وافياً من كتابه هذا على تاريخ العلوم عند العرب ، وعُني أكرم عناية بجلاء أثرهم وتبيان فضلهم على العالم في هذا الميدان ، في تجرد وإنصاف ، يحمد عليهما ، حتى أصبح كتابه هذا مرجع كل من كتب بعده في تاريخ العلوم عند العرب . وقد أقرت الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ترجمته الى العربية سنة ١٩٤٨ ، ولكن لم تظهر هذه الترجمة إلى اليوم ، ولم ينقل من آثار الفقيد إلى العربية فيما نعلم ، إلا محاضرة واحدة ألقاها في مكتبة الكونغرس (نيويورك) في آذار ١٩٥٠ ، حول « الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط » ، وترجمها فيما بعد إلى العربية الدكتور عمر فروخ ، بعد أن وطأ لها بكلمة موجزة ، عرّف فيها بالمحاضر وآثاره [2] . ويبدو أنه يجري الآن إعداد ترجمة عربية لكتاب آخر

(١) اقرأ تعريف الدكتور عمر فروخ بالجزء الثالث من هذا الكتاب في مجلة المجمع العلمي العربي (مج ٢٦ ، سنة ١٩٥١ ، ج ١ ، ص ١٠١ وما يتبعها) .

(٢) نشر مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٥٢ م .

من مؤلفات الفقيد هو : « تاريخ العلوم ، العلوم القديمة في عصر اليونان الذهبي » . على أن كثيراً من كتبه نقل إلى لغات أخرى كالاسبانية واليابانية ، ومنها « تاريخ العلوم والآداب الحديثة » و « حياة العلوم » مقالات في تاريخ الحضارة » . . .

هذا وقد أنشأ الفقيد مجلتين للبحث في فلسفة العلوم وتاريخ العلوم والثقافة ، وهما « ايزيس » و « اوزيريس » ، وأصدر منهما ثلاثة وأربعين مجلداً ، ثم تخلى في الفترة الأخيرة ، عن الإشراف عليهما لغيره من العلماء ، ولعل هذه المجلدات التي صدرت منهما تؤلف أكبر مجموعة من هذا النوع في العالم كله .

هذه حياة خصبة طويلة ، قضاها هذا الرجل في العلم وللعلم ، فصح فيه قول القائل : « رجل مات والرجال قليل » ، تغمده الله برحمته ، وجزاه عن العلم وأهله خيراً .



الأستاذ المرحوم عيسى اسكندر المعلوف

(١٨٦٩ ـ ١٩٥٦)

وفاة الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف

في اليوم الثاني من شهر تموز سنة ١٩٥٦ ، رزئ المجمع العلمي العربي بوفاة العلامة الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف ، أحد أعضائه الأوائل الذين شادوا صرحه وأثلوا مجده وحببوا العربية إلى أبنائها ، يوم كان القوم بين عازف عنها متنكر لها ، وجاهل بها جاحد فضلها .

ولد الفقيد الكريم في قرية كفرعقاب من متن لبنان، في ١١ نيسان عام ١٨٦٩ م ، لأبوين ينتميان إلى أسرة حورانية غسانية . ودرس في صغره مبادئ العلوم في مدرسة القرية على الطريقة القديمة . ثم انتقل إلى مدرسة المرسلين الانكليز ، فأتقن العربية وبعض الانكليزية والرياضيات . ثم التحق بمدرسة الشوير العالية في متن لبنان أمداً قصيراً ، وما لبث أن انصرف بعد ذلك إلى المطالعة الشخصية ، وحضور مجالس علماء عصره ومنهم الشيخ ابراهيم اليازجي . فلما اجتمع له من العلم بالعربية قدر واف أخذ يدرّسها في بعض المدارس الخاصة ، ويؤلف لطلابه فيها كتباً تعينهم على التبحر فيها والتمكن منها . فلما أنشئت جريدة (لبنان) سنة ١٨٩١ أصبح يحرر فيها ، دون أن ينقطع عن التدريس ، وظل يمد كثيراً من الصحف والمجلات ، في هذه الفترة ، في الوطن والمهجر بمقالاته ودراساته وأبحاثه ، ويلقي بين الفينة والفينة محاضرات نافعة على الجمهور . وقد أصدر سنة ١٩١١ مجلة (الآثار) مدة ثلاث سنوات ، توقفت بعدها إثر نشوب الحرب العالمية الأولى ، ثم عادت إلى الصدور بعد انتهاء الحرب .

وقد ساهم الفقيد في (ديوان المعارف) ، في عهد الحكم الفيصلي في الشام ، مساهمة محمودة مشكورة ، واشترك في تقويم لغة الكتب المؤلفة أو المترجمة آنئذ . فلما أصبح هذا الديوان المجمعَ العلمي العربي سنة ١٩١٩ سمي الفقيد عضواً عاملاً فيه ، فشارك في وضع أسسه ، وإقامة دعائمه ، وفي الكتابة في مجلته ، والمحاضرة في ردهته ، ثم حين تحول الفقيد عن دمشق إلى مدينة (زحلة) وعاد إلى الإقامة

فيها ، أصبح عضواً مراسلاً للمجمع . ثم انتخب عضواً في المجمع العلمي اللبناني عند تأسيسه في ٢٠ شباط ١٩٢٨ ، كما عين عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية في القاهرة منذ إنشائه في ٦ تشرين الأول ١٩٣٣ .

كان الفقيد واسع الاطلاع ، طويل الباع ولا سيما في علم التاريخ ، بصيراً بالكتب : مخطوطها ومطبوعها ، حريصاً على اقتناء القيم النفيس منها ، وكانت خزانته من أغنى خزائن المشرق بالمخطوطات ، وقد انتقل منها إلى خزانة الجامعة الأميركية في بيروت نحو خمسمائة مخطوط لما أزمع المرحوم السفر إلى البرازيل حيث يقيم أولاده الناجهون النابغون . وكان الفقيد إلى ذلك صبوراً على البحث ، مكباً على الدرس ، دؤوباً على التأليف ، لم يقعده عن ذلك إلا اشتداد وطأة المرض عليه في السنوات الأخيرة . وقد ألف الكثير من التصانيف المفيدة ، ولكن لم يطبع منها إلا القليل . فمن هذه التصانيف كتاب مطول في تراجم أدباء القرنين التاسع عشر والعشرين ، وهو أشبه بذيل لسلك الدرر للمرادي ، وكتاب في تاريخ الحرب العالمية الأولى ، وكتاب (شحذ القريحة في المقطعات البليغة الفصيحة) في الشعر والشاعر والفنون الشعرية ، وكتاب (نفائس المخطوطات) الكبير في وصف نوادر الكتب المخطوطة ومزاياها ، وكتاب (خزائن الكتب العربية) . ومن تآليفه المطبوعة كتاب (دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف) في أكثر من سبعمائة صفحة ، وقد طبع في بعبدا سنة ١٩٠٨ ، وكتاب (تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني) وقد طبع في جونية سنة ١٩٣٤ في أكثر من أربعمائة صفحة ، وكتاب (تاريخ مدينة زحلة) في ثلاثمائة صفحة وقد طبع في زحلة سنة ١٩١١ ، وتاريخ (الأسر العربية المشتهرة بالطب وأشهر المخطوطات الطبية العربية) ، و (تاريخ الطب عند العرب) ، وتاريخ (قصر آل العظم بدمشق) ... الخ .

كان الفقيد ـ طيب الله ثراه ـ كريم الخلق ، هادئ الطبع ، واسع الصدر ، عميق الفكر ، جم التواضع ، عالي الهمة ، جواداً بعلمه ، طويل الأناة . تغمده الله برحمته ، وأثابه عن العربية خير ما يثاب به العاملون المخلصون .



الأستاذ المرحوم فيليب طرازي

(١٨٦٥ ـ ١٩٥٦)

وفاة الأستاذ الفيكونت فيليب دي طرّازي

قضت مشيئة الله أن يختار إلى جواره ، في صبيحة اليوم السابع من شهر آب سنة ١٩٥٦ ، عالماً محققاً من خيرة علماء هذا العصر ، وعضواً كريماً من قدامى أعضاء المجمع العلمي العربي ، هو الأستاذ المرحوم فيليب طرّازي ، فعظمت فاجعة العلم بفقده ، وأسِيَ كل من عرفه من أهل الفضل والسابقة لوفاته .

وُلد الفقيد في بيروت في ٢٨ أيار عام ١٨٦٥ من أسرة كريمة معروفة ، هاجرت من الموصل إلى حلب في القرن السادس عشر ، ثم ضربت فروع منها في أرض بلاد الشام ومصر ، ونزل بعض أفرادها بيروت في القرن التاسع عشر ؛ ومن نسل هؤلاء المرحوم نصر الله طرّازي ، الذي أنعم عليه قداسة البابا بلقب (كُنت) سنة ١٨٩٤ ، تقديراً لمساعيه المبرورة وعلمه الواسع . وورث فقيدنا فيليب لقب (ڤيكونت) عن والده المرحوم نصر الله ، إذ كان ثالث أنجاله .

درس المرحوم فيليب طرّازي في المدرسة البطريركية ، وفي كلية الآباء اليسوعيين ، فنال النصيب الأوفى من الثقافة العالية والاطلاع اللغوي ، ثم انصرف إلى التجارة مهنة آبائه من قبل ؛ ولكن التجارة لم تشغله عن الاستزادة من العلم والمعرفة ، بل يسّرت له سبلها وأعانته ، إلى جانب ذلك ، على إسداء العون والبر لمن نكبهم الدهر ونزلت بهم شدائد الأيام ، ولا سيما في غضون الحرب العالمية الأولى ، حتى أنفق في سبيل كفكفة دموعهم وتخفيف آلامهم الشطر الأوفى من ثروته العظيمة .

انتخب الفيكونت فيليب دي طرازي ، في ١٢ تشرين الأول ١٩٢٠ ، عضواً مراسلاً للمجمع العلمي العربي في مطلع عهده ، وظل أمداً طويلاً يوافي مجلته بأبحاثه ودراساته . كما اختير عضواً في كثير من المجامع والجمعيات العلمية في المشرق والمغرب .

كانت ثقافة الفقيد واسعة الآفاق ، ممتدة الجوانب ، وقد عُني بكثير من الموضوعات التي تهيبها العلماء من قبله فلم يطرقوها أو ألموا بها إلمامة الطائر ، فقد

أصدى مثلاً لتأليف كتاب في (تاريخ الصحافة العربية)، وأنجزه في اثني عشر جزءاً، نشر منها، بين سنة ١٩١٣ و ١٩٣٣ أربعة أجزاء، في أكثر من ألف ومائة صفحة، وترجمت فصول منها إلى الانكليزية والالمانية، كما ألف كتاب (خزائن الكتب العربية في الخافقين)، في ثلاثة مجلدات تربي صفحاتها على الألف، وقد طبعته وزارة التربية الوطنية في لبنان سنة ١٩٤٨، وكتاب (أصدق ما كان عن تاريخ لبنان) في ثلاثة مجلدات أيضاً ينيف عدد صفحاتها على الألف، وقد طبعت سنة ١٩٤٨ .

وللفقيد الكثير من الكتب والرسائل القيمة المطبوعة، منها كتاب (القلادة النفيسة في فقيد العلم والكنيسة) وقد ضم مراثي كتبت في عشرين لغة شرقية وغربية (بيروت ١٨٩١) ورسالة (عصر العرب الذهبي) و (بحث تاريخي علمي أثري عن القرآن) و (علاقات ملوك فرنسا بملوك العرب)، وكتاب (إرشاد الأعارب الى تنسيق الكتب في المكاتب) و (المخطوطات المصورة والمزوقة عند العرب) ... الخ

أما كتبه التي لم تطبع فتقارب الثلاثين عدًّا في الأدب والتاريخ والفن .

ومن مآثر الفقيد الجلى إنشاؤه دار الكتب الوطنية في بيروت، فقد أنفق في سبيل إقامتها زهرة شبابه وحرّ ماله، وأودعها جلّ ما في خزائن كتبه الخاصة، حتى بلغ ما جهز به دار الكتب من المؤلفات اثنين وثلاثين ألف مجلد . وقد انتقلت إلى دار الكتب أيضاً مجموعة الفقيد الصحافية، وهي تحتوي على أكثر من سبعة آلاف وخمسمائة صحيفة مختلفة العناوين، وتشتمل على نموذج من كل جريدة أو مجلة ظهرت في العالم بالعربية أو باحدى اللغات الشرقية، وهذا النموذج هو أول عدد من هذه الجرائد والمجلات .

كان الفقيد وافر الذكاء متقد الذهن نافذ النظرة حاضر البديهة جميل النكتة كريم النفس واليد واسع الاطلاع مدققاً متبحراً متمكناً . وقد جاء في الأثر : خيركم من طال عمره وحسن عمله، وهذه حال الفقيد، تغمده الله برحمته وجزاه أفضل ما يجزي الأخيار الأبرار .

مؤتمر المجامع اللغوية العلمية

تقوم الآن في العالم العربي ثلاثة مجامع، تعنى بالعرب وحضارتهم، وعلومهم وتراثهم، وتسعى إلى إنشار آثارهم وخدمة لغتهم، بحيث تساير هذا العصر وتتسع للعلوم والفنون والآداب والمخترعات الحديثة. وهذه المجامع القائمة الآن هي: المجمع العلمي العربي في دمشق وهو أقدمها، والمجمع العلمي العراقي، والمجمع اللغوي في القاهرة.

وقد اقترح على مؤتمر وزراء المعارف العرب في القاهرة (سنة ١٩٥٣) إنشاء مجمع علمي عربي موحد يحل محل المجامع القائمة. فأحيل هذا الاقتراح إلى اللجنة الثقافية الدائمة في جامعة الدول العربية عندما اجتمعت في جدة سنة ١٩٥٥، وخرجت من دراسته إلى إقرار مقترح الأستاذ عبد الهادي هاشم رئيس الوفد السوري آنئذ، ومآله أن من الخير بقاء المجامع الثلاثة قائمة، على أن تعمل الجامعة العربية فتيسر عقد مؤتمرات دورية بين هذه المجامع، لتنسيق أعمالها، وتبادل الرأي في نشاط كل واحد منها.

قامت الإدارة الثقافية في الجامعة بانفاذ هذا القرار، فدعت إلى عقد المؤتمر الأول للمجامع اللغوية العلمية في دمشق بين ٢٩/٩/١٩٥٦ و ٥/١٠/١٩٥٦، ووجهت الدعوة إلى المجامع الثلاثة، وإلى كل دولة عربية ليس فيها مجمع، من أجل الإسهام في هذا المؤتمر، وأخذت تعد أبحاثه وتهيئ أعماله، مستعينة في ذلك كله بالمجمع العلمي العربي. وقدمت الحكومة السورية كل ما ييسّر نجاح المؤتمر ورعاه فخامة رئيس الجمهورية السورية بعنايته الكريمة.

وقد رؤي أن تكون لجان المؤتمر خمساً: تعنى الأولى بدراسة تنظيم الاتصال وتنسيق الأعمال بين المجامع العلمية العربية، وتعنى الثانية ببحث الوسائل الرامية

إلى ترقية اللغة العربية من حيث تبسيط قواعدها وكتابتها وإملائها وتقريب العامية من الفصحى وإصلاح لغة الصحف والإذاعة والدواوين وما إلى ذلك ، وتعمل اللجنة الثالثة على دراسة قضايا الترجمة والتأليف وتنسيق أعمال النشر في الأقطار العربية ، كما تقوم اللجنة الرابعة بدراسة وضع المصطلحات العلمية ونشرها وتأليف معجم لها . أما اللجنة الخامسة فتبحث في المخطوطات العربية : ماذا يجب أن ينشر منها وكيف ينشر .

وقد أقيمت حفلة افتتاح هذا المؤتمر على مدرج الجامعة السورية في دمشق في مساء ٢٩/٩/١٩٥٦ فألقى فخامة رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي كلمة رحب فيها بالمؤتمر وأعضائه ، وتلاه وزير المعارف الدكتور عبد الوهاب حومد ، ثم رئيس اللجنة الثقافية الدائمة الدكتور طه حسين ، ثم الدكتور منصور فهمي كاتب سر مجمع اللغة العربية في القاهرة ، ثم الأستاذ بهجة الأثري نائب رئيس المجمع العلمي العراقي .

وفي صبيحة اليوم التالي (٣٠/٩/١٩٥٦) اجتمع أعضاء المؤتمر في ردهة المحاضرات في مقر المجمع العلمي العربي وألفوا لجاناً من بينهم ، أخذت كل منها تدرس ما نيط بها من موضوعات .

وسنذكر في العدد القادم ما يستقر عليه رأي المؤتمر في هذه الأبحاث وما سيقره من توصيات عند اختتام جلساته .

أسماء جبال تهامة وسكانها (١)

تأليف عرام بن الاصبغ السلمي ، تحقيق عبد السلام هارون بمصر

نبدأ تعليقنا على الطبعة الثانية من هذه الرسالة بملاحظاتنا على (صورة الجزيرة العربية) التي رسمها الأستاذ عبد السلام هارون ، ونشرها في مقدمة طبعتيه لرسالة « أسماء جبال تهامه » ، هذه الملاحظات هي :

١ — وضع الأستاذ ذات عرق بين قرْن المنازل ومكة ، ومما لا شك فيه أن ذات عرق هي الموضع الذي يعرف في هذا العهد باسم « الضريبة » . وكان حجاج شمال نجد ، والقادمون من العراق في العهود الماضية ، وحينما كان الحج على الإبل ، يحرمون من هذا الموضع ، وهو يقع شمال قرن المنازل ، يميل نحو الشرق . ودليل شرعي على هذا هو أن ميقات ذات عرق حُدِّد في عهد الخلفاء الراشدين حيث لم يحدد الرسول ﷺ ميقاتاً لأهل المشرق القادمين من تلك الجهة الى مكة ، فرأى الصحابة في عهد عمر رضي الله عنه هذا الموضع محاذياً لقرن المنازل .

٢ — بئر معونة ليست غرب معدن بني سليم بل شرقه ، فهي واقعة في جبال أُبلى ، ولا تزال أُبلى معروفة باسمها في هذا العهد ، وهي تقع شرق المعدن بميل نحو الشمال ، والمعدن يعرف الآن باسم « مهد الذهب » .

٣ — وضع الأستاذ اسم « حنين » مجاوراً لبدْر ، على ساحل بحر القلزم جنوب ينبع ، وشمال ودّان الواقع بقرب رابغ ، ومعلوم أن الأستاذ يقصد حنيناً الموضع التاريخي المشهور ، إذ مصور الجزيرة هذا وضع لهذه الرسالة التي ألفت في القرن الثالث الهجري ، ووضع حنين بهذه الصفة خطأ محض ، فحنين

(١) في المجلد الـ ٢٨ من مجلة المجمع العلمي العربي« ص٣٩٦ الى ٤٠٢ وص ٥٩٢ الى ٥٩٩» نقد للطبعة الأولى من هذه الرسالة .

يقع شرق مكة ، فيما بينها وبين الطائف ويبعد عن مكان وضعه هذا مسيرة أيام وليال ، ويعرف موضع حنين في عهدنا باسم الشرائع .

٤ — أطلق الأستاذ على أعلى وادي الرُّمة اسم (وادي الشربة) . وهذا غير صحيح من وجهين : (١) أن هذا الموضع الذي سماه بهذا الاسم هو من وادي الرُّمة . (٢) أن الشربة تقع جنوبه ، فهي الأرض الواقعة بين خطي وادي الرمة ووادي الجريب حتى يلتقيا . والأستاذ عبد السلام لن يعدم قولاً ضعيفاً ـ للهيثم ابن عدي وأمثاله ممن لم يسر في تلك البقاع ـ يؤيد وهمه هذا ، إلا أن الحقَّ خلافه .

٥ — ص ٣٩٧ : وليس شيء من تلك الأوشال يجاور الشقة . وعلق الأستاذ أما ملاحظاتنا على الرسالة فهي :

بكلام أورده البكري عن « البثنة » وعن موضع فيها يسمى الشفة . ولا أزال عند رأيي في أن المراد « الشفة » أي ان مياه هذه الأوشال قليلة جدًّا . أما الموضع الذي ذكره البكري فأعتقد أنه مصحف ، وعلى فرض صحته ، فأية صلة بينه وبين الكلام في تعريف الوشل .

٦ — ص ٤٠٤ : علق الأستاذ عبد السلام على اسم قرية « المضيق » الواقعة بقرب آرة ، بين مكة والمدينة ، ينقل عن ياقوت فيه أن بني عامر أغاروا على زيد الخيل « الطائي » فالتقوا بالمضيق . ولا رابط بين هذين الموضعين ، فبنو عامر ينزلون في عالية نجد ، وطيء يسكنون شماله ، والموضع الذي وقع فيه الأمر لا بُدَّ أن يكون بقرب منازل إحدى القبيلتين ـ أي في نجد ـ وهذا الموضع الذي ذكره عرام في غور تهامة ، وشتان بين الموضعين ! وانظر جمهرة ابن حزم ـ ص ٢٦٨ ـ لتجد أن سلمى بن مالك بن جعفر بن كلاب أحد رؤساء بني عامر يعرف بـ « نزال المضيق » .

٧ — كنا أوردنا في نقدنا للطبعة الأولى أبياتاً لغزلان التيامي من نوادر الهجري ، ومنهـا :

جواري من حي عداء كليها طوامح بالأزواج غير غوانـ

وقصدنا تصحيح هذا البيت :

جواري من حيّي عداء كأنها مها الرمل ذي الأزواج غير عوان

إلا أن الأستاذ عبد السلام أورد هذا البيت بصورته هذه ، وهي كما يراها القراء غير مستقيمة المعنى . وبعدها بيت آخر (ص ٤٠٧) :

جنن جنوناً من بعول كأنها قرود تبارى في رباط يمان

وحار الأستاذ في كلمة (تبارى) إذ قال انها غير معجمة وانه نقلها بهذه الصفة معجم ياقوت مادة (وبمان) وأنها فيه مادة (خلص) : تنادى . ولقد أوردناها صحيحة فيما نقلناه عن الهجري : تنازى ـ أي تتنازى ، من النزوان ـ والشاعر يهجوهم .

٨ — علق الأستاذ (ص ٤١٦) على معدن البرام ، الموضع الواقع قرب الطائف ، بكلام ورد في وصف معدن البرم في «أضاخ» والموضعان متغايران ، أولهما في الحجاز ، وثانيهما في عالية نجد .

٩ — ص ٤١٩ : قال عرام : وقعيقعان قرية فيها مياه وزروع ونخيل وفواكه ، وهي اليمانية ، وبين مكة والطائف قرية يقال لها راسب ، لخثعم ، و (الجونة) قرية للأنصار . علق الأستاذ عبد السلام على كلمة (اليمانية) قائلاً : يعني الفواكه اليمانية . وأقول : ان عراماً لا يقصد الفواكه ، بل يقصد وادي نخلة اليمانية ، الواقعة بين مكة والطائف ، فهذه القرية التي دعاها (قعيقعان) هي على رأيه تدعى اليمانية ، وانظر شفاء الغرام لتقي الدين الفارسي لتجد كلام عرام هذا .

وعلق الأستاذ على كلمة (الجونة) قائلاً :

كذا أثبتها ياقوت في رسمها وقال : قرية بين مكة والطائف ، ورسمت في الأصل : الجوبه معجمة الحروف . وقرأها الميمني : الجوبة . قال الشيخ حمد : وهي فيما أرى «الحويّة» بالحاء المهملة المفتوحة فواو مكسورة ، فياء مثناة تحتية مشددة ، فتاء التأنيث : قرية من أشهر قرى الطائف ، لا تزال معروفة بهذا الاسم ، وإن لم يرد ذكرها في المعاجم القديمة كغيرها من كثير من مواضع بلاد العرب .

واستدرك الأستاذ معلقاً على كلامي قائلاً : لكن تقييد ياقوت لها ، وكونها بين مكة والطائف ، لا في الطائف نفسها يعارض ما توهمه الشيخ . وأقول : ليس تقييد ياقوت حجة في هذا الباب ، فكثير من أسماء المواضع قيدها على غير وجهها الصحيح ، لأنه ينقل من كتب يقع فيها التصحيف كثيراً وفي معجم البلدان مئات من الأسماء مصحفة .

وأنا حينما قلت بأنها من أشهر قرى الطائف لم أنف وقوعها فيما بينه وبين مكة فقد قصدت الاقليم ، والقرية المذكورة إحدى قراه وهي واقعة فيما بينه وبين مكة .

١٠ — ص ٤١٨ : قال عرام : وقفل : التثنية[1] التي تطلعك على قرن المنازل ، حيال الطائف تلهزك من عن يسارك ، وأنت تؤم مكة ، متقاودة ، وهي جبال حمر شوامخ ، أكثر نباتها القرض اهـ .

حيال الطائف تصحيف (جبال) وقد ظن الأستاذ أن كل هذا الكلام يتعلق بوصف الثنية ، والحقيقة انه وصف لجبال الطائف .

١١ — ص ٤٣٤ : وهم على طريق زبيدة ، يدعوه بنو سليم ، (منفا زبيدة) . وعلق الأستاذ : كذا في الأصل وفي معجم ياقوت : منقا زبيدة ، رسم «مغار» وقرأها الميمني : «مغفا» سهواً . وأقول : الصواب ما في ياقوت : «منقا» بالميم المضمومة فالنون المفتوحة ، بعدها قاف مشددة مفتوحة ممدودة ، فالسيدة زبيدة قد أمرت باصلاح هذا الطريق ، وتنقيته من أحجار الحرة ، ولهذا يسمى «المنقى» ولا يزال سكان هذه الجهات من العرب وأهل نجد يسمونه بهذا الاسم .

ولنقف من هذه النظرة السريعة عند هذا الحد ، ذاكرين لعلامتنا الجليل الأستاذ عبد السلام هارون ، بمزيد الحمد والثناء فضله ، سائلين الله ليديم له الصحة والتوفيق ، ليواصل جهده العظيم في خدمة أمته في علمها وأدبها ، اللذين أسدى اليهما الكثير الجزيل من خدماته وأياديه .

حمد الجاسر

(١) العليا الثنية (لجنة المجلة) .

منتخبات من معجم الكواكبي
-٣-

٢٢) Acétonurie تَخَلُّوُن البول .

من (acétone ، ومن اليونانية ouron : بول) .

لغة : اشتقاقاً من معرب الكلمة الافرنجية : الخلون .

فناً : حالة مرضية يوجد فيها الخلون في البول .

٢٣) Acétonylation خَلْوَنَة .

لغة : اشتقاقاً من الخلون . فناً : عمل كيمياوي يُدخل فيه جذر الخلون ذرة الجسم العضوي ، وهو جذر وحيد المعادل : (— $CH_3 - CO - CH_2$) .

٢٤) Acétonyle خَلُونيل .

تعريباً . الجذر الوحيد المعادل المشتق من الخلون وهو (— $CH_3 - CO - CH_2$)

٢٥) Acétylation أَسْتَلَة .

لغة : تعريبا . فناً : عمل كيمياوي يدخل فيه جذر الخلّيل (أستيل) مادة ما (— $CH_3. CO$) .

٢٦) Acétyle خَلّيل .

لغة : تعريبا . فناً : جذر عضوي وحيد المعادل ذو صيغة (— $CH_3. CO$) .

٢٧) Acide حَمْض .

(من اللاتينية acidus : حامض ، ضد الحلو) :

لغة : ما مَلُح وأمرّ من النبات وهي كفاكهة الإبل جمعه حُمُوض . الحُمُوضة : طعم الحامض . حَمُضَ ككرُم وجعَل وفرِح ، في اللبن خاصةً ، حَمْضاً وحُمُوضة وأحمضه .. المُستحمِض : اللبن البطيء الرؤوب .

فناً : في الكيمياء : اسم عام يسمى به كل ما يطلق شوارد هدرجينية .

في الكيمياء العضوية : كل ما فيه جذر (COOH —) المسمى (حَمائيل * [1]) ، والحاصل من اكسدة غَوْليد [2] * . خواصه على وجه عام : طعمه حامض ، محلوله في الماء يحيل صبغة العَبْشَم * [3] الزرقاء الى حمراء ويتفاعل والمعادن أو القلويات مكوناً جسماً معتدلاً على العبشم * هو الملح . (— indice d') : علامة الحمض ، رقم الحموضة : عدد الملغ من البوتاس اللازم لإشباع الحوض الدسمة الحرة في غ واحد من دسم أو شمع ... (— vert) الأخضر الحامض : صبغ مشتق من الثان الثالث الفنيل .

٢٨) Acide - alcool حَمْضَيل .

لغة : نحتاً من (حَمض ، مائيل *) . فناً : جسم عضوي فيه وظيفة حمض ووظيفة غول . مثال : حمض اللبن ($CH_3.CHOH.COOH$) .

٢٩) Acide - Aldéhyde حَمْضَليد .

لغة : نحتاً من (حمض ، غَوْليد *) . فناً : جسم عضوي فيه وظيفة حمض ووظيفة غوليد . مثال : حمض الغِليوكسيل ($CHO - COOH$) .

٣٠) Acide - ominé حَمْضَمين .

لغة : نحتاً من (حمض ، آمين) . فناً : جسم عضوي فيه وظيفة آمين ووظيفة حمض متجاورتين . مثال : حمضمين الخل [$CH_2(NH_2)COOH$] .

٣١) Acide - cétone حَمْضَلون .

لغة : نحتاً من (حمض ، خَلُّون) .

فناً : جسم عضوي فيه وظيفة حمض ووظيفة خلون . مثال : حمض الحصرم الناري ($CH_3CO.COOH$) .

٣٢) Acide - phénol حَمْضَنول .

لغة : نحتاً من (حمض ، فنول) . فناً : جسم عضوي فيه حمض ووظيفة فنول . مثال : حمض الصفصاف ($C_6H_4(OH)COOH$) .

(1) carboxyle . (2) aldéhyde . (3) teinture de tournesole.

٣٣) Acidifiable حَمُوض .

لغة : وزان فَعُول وفيه معنى القابلية ، من (حمض) .

فناً : كل ما هو قابل للاستحالة الى حمض .

٣٤) Acidifiant مُحَمِّض .

لغة : بزيادة النون في آخر (حَمْض) : مُحَمِّض = ما يجعل الشيء حامضاً .

فناً : ما يجعل الشيء بخواص الحمض .

٣٥) Acidification حَمْضَنَة .

لغة : كما في الكلمة الآنفة الذكر : اضافة حمض ما الى جسم ما .

فناً : حالة يتحول معها جسم ما إلى (حَمْض) .

٣٦) Acidifier حَمْضَنَ .

لغة : كما في الكلمة رقم ٣٤ : حَمَّض = أضاف شيئاً حامضاً .

فناً : جعل البيئة حامضة التفاعل .

٣٧) Acidifier (s') تَحَمْضَنَ .

لغة : كما في الكلمة رقم ٣٤ : احمَضّ ، تَحَمَّضَ : صار حمضا .

فناً : حالة تكتسب فيها البيئة تفاعلاً حامضاً بالتدريج .

٣٨) Acidimètre مِحْماض .

لغة : اسم آلة من (حَمْض) .

فناً : ميزان الحمض ، آلة تعلم بها درجة تركّز حمض ما .

٣٩) Acidité حُمُوضَة .

لغة : طعم الشيء الحامض . . . فناً : خاصة الجسم الذي يطلق شوارد المدرجين ، وتقدّر بأس المدرجين (pH أقل من ٧) . || acitive — حموضة فاعلة : التركز من شوارد المدرجين ، الجزء المتفكك من ذرة الحمض = réelle — || de titration — حموضة عيارية : التركز من الجزء المتفكك والجزء

اللامتفكك = كمية القلوي اللازمة للتعديل • || totale — حموضة عامة = potentiel — حموضة كامنة || ionique — حموضة شاردية ، حموضة حقيقية = حموضة فاعلة • || — indice d' نسبة الحموضة ، رقم الحموضة : عدد الملغ من البوتاس اللازم لتعديل الحموض الحرة في غ واحد من دسم أو زيت عطري •

٤٠) Acidose تَحَمُّضُ الدم •

لغة : كما في (رقم ٣٧) •

فنًا : مرض يصبح الدم فيه حامض التفاعل •

٤١) Aciérage فَوْلَذَة •

(من اللاتينية acies, aciarum حَدّ) •

لغة : اشتقاقًا من (الفولاذ) • والفولاذ : من الفارسية پولاد ، بالباء المثلثة التحتية ، وهو (ذُكْرَةُ الحديد ، كما في القاموس) : اسم عام لخلائط الحديد والفحم المحتوية على ٢و٠ — ٥و١ بالمئة من الفحم •

فنًا : عمل يتم معه تحويل المعدن الى فولاذ بأية طريقة كانت || وضع طبقة من الفولاذ على معدن ما لتزييد صلابته •

٤٢) Aciéré مُفَوْلَذ •

لغة : اشتقاقًا من الفولاذ (انظر رقم ٤١) •

فنًا : معدن محول الى فولاذ || كل ما هو محتوٍ على فولاذ أو مطلي به •

٤٣) Aciérer فَوْلَذَ •

وكذا (Acieriser) •

لغة : اشتقاقًا كما في الرقم ٤١ •

فنًا : قَلَبَ الحديد فولاذًا || لَحَمَ طبقة من الفولاذ بالحديد •

(يتبع) الكواكبي

الفهرس العام

لمواد المجلد الحادي والثلاثين

منسوقاً على حروف الهجاء

فهرس الأعلام

أي أسماء الكتّاب المنشورة في هذا المجلد

منسوقاً على حروف الهجاء

فهرس الجزء الرابع من المجلد الحادي والثلاثين

التعريف والنقد

آراء وأنباء

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

١ — محاضرات المجمع العلمي العربي (الجزء الأول)
٢ — محاضرات المجمع العلمي العربي (الجزء الثاني)
٣ — محاضرات المجمع العلمي العربي (الجزء الثالث)
٤ — نشوار المحاضرة للقاضي ابي علي المحسن التنوخي (الجزء الثاني) بتحقيق المستشرق الأستاذ مرجليوث
٥ — نشوار المحاضرة للقاضي ابي علي المحسن التنوخي (الجزء الثامن) بتحقيق المستشرق الأستاذ مرجليوث
٦ — رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري : بتحقيق الأستاذ محمد سليم الجندي
٧ — المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري : قدّم له الأستاذ خليل مردم بك
٨ — تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقي : بتحقيق الأستاذ محمد كرد علي
٩ — المستجاد من فعلات الأجواد للقاضي أبي علي المحسن التنوخي : بتحقيق الأستاذ محمد كرد علي
١٠ — كتاب الأشربة لابن قتيبة : بتحقيق الأستاذ محمد كرد علي
١١ — البيزرة لبازيار العزيز بالله الفاطمي : بتحقيق الأستاذ محمد كرد علي
١٢ — غوطة دمشق (الطبعة الثانية) : تأليف الأستاذ محمد كرد علي
١٣ — كنوز الأجداد : تأليف الأستاذ محمد كرد علي
١٤ — ديوان الوليد بن يزيد : جمع وترتيب المستشرق الأستاذ ف. جبريالي قدّم له الأستاذ خليل مردم بك
١٥ — ديوان ابن عنين : بتحقيق الأستاذ خليل مردم بك
١٦ — ديوان علي بن الجهم : حققه وجمع تكملته الأستاذ خليل مردم بك
١٧ — ديوان ابن حيّوس (الجزء الأول) : بتحقيق الأستاذ خليل مردم بك
١٨ — ديوان ابن حيّوس (الجزء الثاني) : بتحقيق الأستاذ خليل مردم بك
١٩ — الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر النعيمي (الجزء الأول) : بتحقيق الأمير جعفر الحسني
٢٠ — الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر النعيمي (الجزء الثاني) : بتحقيق الأمير جعفر الحسني
٢١ — الرسالة الجامعة المنسوبة للمجريطي (الجزء الأول): بتحقيق الدكتور جميل صليبا

٢٢ — الرسالة الجامعة المنسوبة للمجريطي (الجزء الثاني) : بتحقيق الدكتور جميل صليبا
٢٣ — فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (قسم التاريخ) : وضعه الدكتور يوسف العش
٢٤ — ديوان الوأواء الدمشقي : بتحقيق الدكتور سامي الدهان
٢٥ — تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر (المجلدة الأولى) : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد
٢٦ — تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر (القسم الأول من المجلدة الثانية) : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد
٢٧ — فضائل الشام ودمشق لأبي الحسن علي بن محمد الربعي : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد
٢٨ — أمراء دمشق في الاسلام لصلاح الدين الصفدي : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد
٢٩ — قضاة دمشق لشمس الدين ابن طولون : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد
٣٠ — الزيارات بدمشق للقاضي محمود العدوي : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد
٣١ — طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب للسلطان الملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول : بتحقيق المستشرق السويدي الأستاذ ك . و . سترستين .
٣٢ — تاريخ داريا للقاضي عبد الجبار الخولاني : بتحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني
٣٣ — عثرات اللسان : تصنيف الأستاذ عبد القادر المغربي
٣٤ — الموفي في النحو الكوفي للسيد صدر الدين الكنغراوي الاستانبولي : شرحه وعلق عليه الأستاذ محمد بهجة البيطار
٣٥ — خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني الكاتب (قسم شعراء الشام ، الجزء الأول) : بتحقيق الدكتور شكري فيصل
٣٦ — فهرس مجلة المجمع العلمي العربي ، الجزء الأول ، وضعه الأستاذ عمر رضا كحالة
٣٧ — ديوان ابن أبي حصينة السلمي المعري ، الجزء الأول : بتحقيق الدكتور محمد أسعد طلس
٣٨ — تاريخ المجمع العلمي العربي : تأليف الأستاذ أحمد الفتيح
٣٩ — التبصر بالتجارة للجاحظ : بتحقيق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب
٤٠ — المنتقى من أخبار الأصمعي للإمام الربعي
٤١ — تكملة إصلاح ما تغلط به العامة للجواليقي
٤٢ — بحر العوام في ما أصاب فيه العوام لابن الحنبلي الحلبي
} بتحقيق الأستاذ عز الدين التنوخي